فهـــرس

الجـزء الثالث عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشـندى

المقالة السادسة

صفحة

المقالة السابعة

المقالة الثامنــــة

صفحة

المقالة التاسعة

(تم فهرس الجزء الثالث عشر من كتاب صبح الأعشى)

al-Qalqashandī, Aḥmad ibn ʿAlī

[Kitāb ṣubḥ al-aʿshá]

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـزء الثالث عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٧ هـ
١٩١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقالة السادسة

فيما يُكتَب فى [الوصايا الدينية،(١) و] المسامحات، والإطلاقات السلطانية والطَّرْخانيات، وتحويل السنين والتذاكر؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

فى الوصايا الدينية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما لقُدَماء الكُتَّاب من ذلك

اعلم أنه كان لقدماء الكتّاب بذلك عنايةٌ عظيمة بحسَب ما كان للملوك: من الإقبال على مَعالم الدِّين، ومن أكثرهم عنايةً بذلك أهل الغرب: لم يزالوا يكتبُون بمثل ذلك إلى نواحى ممالكهم، ويُقرأ على منابرهم؛ ولهم فى ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة.

وهذه نسخة من ذلك كتب بها أبو زيد الدارارى: أحد كُتَّاب الأندلُس عن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين المنصور(٢): أحد خلفاء بنى أُميَّة بالأندلُس، وهى:

---

(١) الزيادة من ج ١ ص ٢٦ من هذا المطبوع.

(٢) ليس فى خلفاء بنى أمية بالأندلس من اسمه المنصور، وإنما المنصور هو ابن أبى عامر كان تغلب على هشام بن الحكم الأموى واستبدّ بالأمر وتغلب من بعده ابنه المظفر ثم أخو المظفر عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله، ثم انقرضت دولتهم وعادت الدولة الى بنى أمية فخلع هشام هذا وبويع ابنه محمد الملقب بالمهدى. انظر "نفح الطيب" ج ١ و "العبر" ج ٤ و "صبح الأعشى" ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ من هذا المطبوع.

الحمدُ لله الذى جعل الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر أصلين تتفرع عنهما مصالحُ الدنيا والدِّين ، وأمر بالمعروف والإحسان إرشادًا إلى الحق المبين ، والصلاةُ علىٰ سيدنا محمد الكريم المبتعَث بالشريعة التى طهَّرت القلوبَ من الأدران وآستخدمتْ بواطنَ القلوب وظواهرَ الأبدان طَوْرا بالشِّدّة وتارة باللين، القائل (ولا عُدولَ عن قوله عليه السلام) «مَنِ آتَّقَى الشُّبُهاتِ آستَبْرأَ لِدِينه» تنبيها علىٰ تَرْك الشكِّ لليقين ؛ وعلىٰ آله الكرام أعلام الإسلام المتلقِّين رايةَ الاهتداء فى إظهار السُّنَن وإيضاح السَّنَن باليمين ، الذين مكَّنهم الله تعالىٰ فى الأرض فأقامُوا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأمَرُوا بالمعروفِ ونَهَوْا عَن المنكَر : وفاءً بالواجب لذٰلك التمكين .

والرِّضا عن الأئمة المُظْهِرين للدِّين المتين ، البالغين بالبِلاد والعِباد نشرا للعَدْل وإتمامًا للفضل إلى أقصىٰ غاية التمهيدِ والتأْمين ، رضى الله عنهم أجمعين ! وعن تابعيهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين ! .

وإنّا كتبْناه لكم ــ كتب الله لكم آتّباعا إلىٰ ماينُهىٰ من المصالح إليكم ، وآستِماعًا إلىٰ ما يُتْلىٰ من المواعظ عليكم ــ من حضرة إشْبِيلِيَةَ ــ كلأَها الله ــ .

والذى نُوصيكم به تقوى الله تعالىٰ والعملُ بطاعته والآستعانةُ به والتوكُّلُ عليه ، وأن تعلَمُوا أنا لم نَقُم هـذا المقامَ الذى حَفظ الله به نظامَ الحق من انتِثاره ، وأمدّنا بعَوْنه الجميلِ علىٰ إحياء الدِّين وإفاضةِ أنواره، إلا لنستَوْفىَ كلَّ نظر يعودُ على الأمة باستقامة أُخْراها وأُولَاها ، ونُهِيبَ بها إلىٰ أسمىٰ رتب السعادة وأعْلاها ، ونُوقظَ بصائرَها بنافع الذكرىٰ من كَرَاها . فعلينا لها بحكم ماتقلَّدناه من إمامتها، وتحمَّلناه من أمانتها ، أن نتخوّلها بالحكمة والموعظَة الحسنه ، ونُرشِدَها إلى المَنَاهج الواضحة والسُّبُل البيِّنه ، ونُضْفى علىٰ خاصَّتها وعامَّتها ظلَّ الدَّعة والأَمَنة ؛ وإذا كنَّا نُوفّيها تمهيدَ دُنْياها ،

ونعتني بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهمُّ وأولىٰ ، والتهمّم باحياء شرائعه وإقامة شعائره أحقُّ أن يُقدم وأحرىٰ . وعلينا أن نأخُذ بحسَب مانأمُر به ونَدَع ، ونتّبع السُّنن المشروعة ونذر البِدَع . ولها أن لا نذّخر عنها نَصيحه ، ولا نُغبّها ارادةً من الأدواء مُريحه . ولنا [عليها] أن تُطيع وتَسْمَع ، وقد علم الله أنا لم نتحمّل أمانةَ الإسلام، لنستكثرَ من الدنيا وزُخْرُفِها ، ولم نتصدّ لهذا المَقام ، لنستأثر بنعيمها وتَرَفِها ، وإنما كان قصدُنا قبلُ وبعدُ إقامةَ الكافّة فى أوْثرِ قُراها وأوْطإ كَنَفِها ، وبحَسَب هذه النية التى طابقها العمَل ، ولم يتعَدّها الأمَل ، نيلتْ من الخيرات نِهايات ، كانت الخواطِرُ تستبْعِد منَالها، وتيسّرت إرادات، كانت الأمّة منذُ زمانٍ لم ترمِ مَنالها، وساعدتِ العنايةُ الربانيّةُ فلم تُؤْنِ مقصودًا جميلا، ولا منًّا جزيلا .

وإلىٰ هذا ـ أدام الله كرامتكم ـ فإنا لم نزَلْ مع طُول المباشرة للأحوال كلّها، وتَردُّد المشاهدة لعقْد الأمور وحلّها، نَقِف وقُوفَ المتأمل علىٰ جُزئيّات الأمور وكليّاتها ، ولا يَغيبُ عن تصفّحنا وتعرّفنا شيءٌ من مصالح الجهات وكَيفيّاتها، ولم نمُرّ بمائل إلا تولّينا إقامتَه ، وأعَدْنا إليه اعتداله واستقامتَه ، ولا انتهينا إلىٰ صَوابِ قولٍ أو عملٍ إلا شِدْنا مَبْناه، وأظهرنا لفْظَه ومعْناه .

والآنَ حينَ استوفىٰ إشرافُنا علىٰ البلاد قاطبه ، ولزِمَنا بحكم القيام لله فى خَلْقه بحقّه أن نتعهّد الكافّة دانيةً ونائيةً وشاهدةً وغائبه ، ورجونا أن نتخلّص من القِسْم الأوّل فى قوله عليه السلام : «اللّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أمْرِ أُمّتي شَيْئاً فَرَفَق بهم فَارْفُقْ بِه» بأعمالٍ علىٰ الرِّفق دائبَه، وعلى الحقّ مواظِبه ـ صَرَفْنا أعِنّةَ الاعتناء بجوامع المصالح فرأينا الدِّين ينظِمُ تبدُّدَها، ويستوعب تَعَدُّدَها، لاتشِذُّ مصلحةٌ عن قوانينه، ولا تُنال بركةٌ إلا مع تحصينه وتحسينِه ، والله تعالىٰ يُعيننا وإياكم علىٰ إقامة حدُوده، وإدامة

عهوده . وأول مايتناول به الأمر كافة المسلمين الصلاةُ لأوقاتها ، والأداءُ لها على أكمل صفاتها ، وشهودُها إظهارًا لشرائع الإيمان فى جماعاتها ، فقد قال عليه السلام : «أحبُّ الأعمال إلى الله الصَّلاةُ ، فمَنْ حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيعُ» . وقال عمر رضى الله عنه : «ولا حظَّ فى الإسلام لمن ترك الصَّلاة» فهى الرُّكن الأعظم من أركان الإيمان ، والأسُّ الأوثق لأعمال الإنسان ، والمُواظبةُ على حضورها فى المساجد ، وإيثارُ ما لصلاةِ الجماعة من المزيَّة على صلاة الواحد ، أمرٌ لا يُضيِّعه المُفلحون ، ولا يحافظُ عليه إلا المؤمنون . قال ابن مسعود رضى الله عنه : «لقد رأيْتُنا وما يتخلَّف عنها إلا منافقٌ معلُوم النِّفاق ، ولقد كان الرجل يُؤتى به يُهادَى بين الرَّجُلين حتَّى يُقام فى الصَّف» وشُهودُ الصبح والعشاء الآخرة شاهدٌ بتمحيص الإيمان ، وقد جاء : «إنَّ شُهودَ الصُّبح فى جماعةٍ يَعْدل قيامَ ليلةٍ» وحَسْبُكم بهذا الرُّجحان . والواجبُ أن يُعتنى بهذه القاعدةِ الكُبرى من قواعد الدِّين ، ويُؤخذَ بها فى كافَّة الأمصار الصغيرُ والكبيرُ من المسلمين ، ويُلحظ فى التزامها قولُه عليه السلام : «مُرُوا أولادَكُمْ بالصَّلاةِ لِسبْع واضرِبُوهُمْ عليها لِعشر سنين» . وبحسبِ ذلكم رأينا أن نُلزم جارَ كلِّ مسْجد ، وأميرَ كلِّ سُوق وشيخَ كلِّ زُقاق ومُعلِّمَ كلِّ جهة الانتدابَ لهذا السعْى الكريم ، والبِدارَ لما فيه من الأجر العظيم ، وأن يحُضَّ كلَّ مَن فى جهته أو سُوقه أو حَوْمة مسجده أو موضِع صنعته أو تجارته أو تعليمه على الصَّلاة وحضُورها ، والاعتناء بأحكام طُهُورها ، وأن لا يتخلَّف عن الجماعة إلا لِعُذرٍ بيِّن ، أو أمرٍ يكون معه الشُّهودُ غيرَ ممكن . وعليهم أن يلتزمُوا هذه الوظيفةَ أتمَّ التزام ، ويقُومُوا بها مُؤتجرين أحسنَ قيام ، ويُشمِّروا عن ساعدِ كلِّ جِدٍّ واعتزام ، ويتعرَّفُوا كُلَّ من تحتوى عليه المنازلُ ممن بلَغ حدَّ التكليف من الرجال ، ويتعهَّدوهم الحينَ بعد الحينِ والحالَ إثرَ الحال ، ويَطْلُبوهم بالذِّكر بملازمة

هذا العمل الذى قدّمه الله علىٰ سائر الأعمال . وليَحْذر المسلم أن يواقعَ بإضاعة المكتوبة أمرا إمْرا ، ويَتْرُكَ من فرائض الإسلام ما يُقْتل متعمِّدُ تركه حَدًّا أو كُفْرا . وعلىٰ معلّمِى كتابِ الله أن يأخذوا الصِّبيان بتعَلُّم الصلاة والطهارةِ والإدامةِ لإقامتها والموالاةِ وحفظ ماتُقام به وأقلُّ ذلك سورةُ فاتحةِ الكتاب . وعلىٰ كل إنسانٍ فى خاصّته أن يأخُذَ صِغارَ بنيه وكِبارَهم وسائرَ أهْله ومَنْ إلىٰ نظره بذلك ويأمُرَهم به ، قال الله تعالىٰ : ﴿وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعيَّتِه » .

ثم ٱعلموا أنَّ الصلاة بما آثرها الله به من وظائِفِها الشريفه ، وخَصائصها المُنيفه ، تنْتَظِم من أعمال البِرِّ ضُرُوبا لا تُحْصَر ، وتَعْصِم من مُواقعة ما يُشْنأُ ويُنْكَر ، وتُحْظى من الخيراتِ العميمةِ الجسيمةِ بالقِسْم الأوْفَى الأوْفَر ، قال الله تعالىٰ : ﴿إنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر﴾ . ونحن لا نُوسِع تارِكَها بحالٍ عُذْرا ، ولا نُؤَخِّر له عِقابا وزَجْرا ، ولا نزال نُجْبِره علىٰ إقامتها قَسْرا ، واذا ٱستمرَّ التعهُّدُ لها مع الأحْيان ، وعمِلَ الناسُ بما جدَّدناه من إجراءِ التذكيرِ بها بينَ القَرابة والصَّحابة والجيران ، وتَواصَوْا بالمحافظة عليها حَسَبَ الإمكان ، لم تزَلْ بيوتٌ أذِن الله تعالىٰ أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها ٱسمه معمورةً بتِلاوة القرءان ، ولم تَنفَكَّ إلا للإقامة عنِ الأذان .

ومما يَزِيد هذه الوظيفةَ تأكيدا ، ويُوَفِّي قواعدَها تَشْييدا ، دَرْسُ كتاب الصلاة والطهارةِ حتّٰى يستحكِموه وَعْيا وحِفْظا ، ويُؤدُّوا مُضَمَّنَه لفظا فلَفْظا ، ففى ذلك من الإشراف علىٰ أحكام العبادتين ما تَبِين مزيّتُه وفضْله ، ولا يَسَع المؤمنَ بحال جَهْلُه ، ثم إذا أحكموه انتقلُوا إلىٰ دَرْس كتاب الجهاد ، وعَمَروا الآناءَ بتعرُّف ما أعدَّ الله للمجاهدين من الخير المستَفاد ، فالجهادُ فى سبيل الله فرضٌ علىٰ الأعيان ، وقدتأكّد

تعيُّنه لهذه البلاد المجاورة لعَبَدة الأصنام والصُّلبان ، ونرجو أن يُنجز الله ماوعدَ به من الفتح القريبِ لأهل الإيمان ، وليطَّلبوا الناس بعَرْض مايتدارسون تثبيتاً لمحفوظاتهم ، واستزادةً لقِسْمهم من الأجر وحُظوظهم .

ومن مقدّمات الجهاد ، وأقوى أسباب الاعتداد ، تعلُّم الرِّماية التى ورد الحَضّ عليها ، وندَبَ الشرعُ إليها ، قال عليه السلام فى قوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ « ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْىُ » قالها ثلاثا : فأظْفِروا الناسَ بتعلمهم ، ولْترتّبوهم طبقاتٍ علىٰ قدر إجادتهم وتقدُّمهم ، قال عليه السلام : « مَنْ تَرَكَ الرَّمْىَ بعْدَ ما عَلِمَهُ رَغْبةً عنه فإنَّها نِعمةٌ تَرَكَها أو قال كَفَرَها » . وقال عليه السلام : « مَنْ رَمىٰ بسَهْم فى سبيل الله فبَلَغَ العَدُوَّ أوْ لم يَبْلُغْ كانَ له كعِتْقِ رقَبةٍ » .

ولْيَعْلَمُوا أنهم يُطْلَبون فى وقت الحاجة بما يُثمِره هذا التأكيدُ من بِدَارهم ، ويترتّب عليه مِن آثمارهم ، ولْيَحْرِصُوا علىٰ أن يُلْفىٰ عددُهم وافراً فى حالتَىْ إيرادِهم وإصدارِهم .

ومما فيه مصلحةٌ كريمةُ الأثر ، واضحةُ الحُجُول والغُرَر ، يكونُ ذِكْرُها جميلا ، وأجرُها جزيلا ، تعهُّد الضُّعفاء والفقَراء ، وإسهامُهم من الكثير كثيراً ومن القليل قليلاً بحَسَب الإصابة والرَّخاء ، ووضعُ الصدقات فى أهل التعفُّف الذين لا يسألون الناس إلحافا أوّلَ ما يجيءُ حينُ العطاء ، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ المِسْكِينُ بهذَا الطَّوَّافِ الذى يَطُوف عَلَى النَّاسِ فتَرُدُّه التَّمْرةُ والتَّمْرتانِ وإنَّما المِسْكِينُ الذى لا يجِدُ غِنًى يُغْنِيه ولا يُفْطَنُ له فيُتَصدَّقَ عليه ولا يَقُوم فيَسْأَلُ النَّاس » فتفقَّدوا هذا الصِّنف فهو أَوْلىٰ بالإيثار ، وأحَقُّ أهلِ الإقتار ، والمؤمنون إخوة ويُعْنَى الجارُ بالجار ، ولْيُعِن الغنىُّ الفقيرَ فذلك من مكارم الآثار .

والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر وظيفةٌ تعيَّنت إقامتُها على المسلمين جميعاً فمن رأى منكرا فلْيُنْهِه إليكم وعليكم تغييرُه وتَعفيةُ أثَرِه على ما يُوجِبه الدِّين ويقتضيه، ولْيأخُذوا الحقَّ من كل من تعيَّن عليه سواءٌ فى ذلك القويُّ والضعيف، والمشروف والشريف. وكُلُّ من ارتكب منكرًا كائنًا من كان، عزَّ قدْرُه أو هان، فليبالَغْ فى عِقابه، ويُنكَّل على قَدْر ما ارتَكَب من المُنكَر وأتى به، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّما أهلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم أنَّهم كانُوا إذا سَرَق فيهم الشَّريفُ تَرَكُوه واذا سَرَق فيهم الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ، وإنِّي والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لو أنَّ فاطمةَ بِنْتَ محمدٍ سَرَقتْ لقَطَعْتُ يَدَها» وقال لأسامة فى الحديث نفسِه «أتَشْفَعُ فى حَدٍّ من حُدُود الله» وقد حدّ عمرُ رضى الله عنه ولَدَه، وحدّ عثمانُ رضى اللهُ عنه أخَاه. فلتكُن هذه الوظيفةُ منكم بمَرْأى ومَسْمَع، ولتَسْلُكُوا فى إقامتها على الخامل والنَّبِيه أوْضَحَ مَهْيَع، ووَفُّوا المعروفَ حقَّه من الإظهار، وتلَقَّوُا المنكر بأتمِّ وجُوه الإنكار، ثم عليكم أجمعين بالتَّواصِي بالخير والتَّعاوُن على البرّ والتقوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. وقال عليه السلام: «لاتَباغَضُوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَدابَرُوا ولا تَجَسَّسُوا وكُونُوا عِبادَ الله إخْوَانا».

و بالجملة فعلى المؤمن أن يستَنْفِد وُسْعه فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والسَّلَف من بعدِه، ولقد كان لكم فى رَسُولِ الله أُسْوةٌ حسنة، ولم يَنْشأ ما نَشَأ من الأهوال، ولا طرأ فى هذه الأمة ما طرأ من الاختلال، إلا بمُفارقة الاقتداء الذى هو للدِّين رأسُ المال، ورَضِى الله عن عمر حيث قال: «فُرِضتِ الفرائِضُ وسُنَّت السُّنَنُ وتُرِكْتُم على الواضِحةِ إلا أن تَضِلُّوا بالناس يَمِينا وشِمَالا».

ومن أشدّ المنكَرات بغير نكير وجُوبَ تغييرِ الخمرُ التى هى أُسُّ الإثم والفُجور، وأمُّ الخبائث والشُّرور، وأسُّ كلّ خَطِيئة ورأسُ كل محظُور، فليشتَدَّ أتمَّ الاشتداد

فى أمرها ، ويَبْحث غايةَ البحث عن مَكامن عَصْرها ، ويتفقّد الأماكنَ المُتّهَمة ببَيْعها ، ويتسبّب بكلّ وجه وكل طريق إلى قطعها . ولْيبادرْ حيث كانت إلى إراقة دِنانها ، ولْيبالغْ إلى أقصى غاياتِ الاجتهاد فى شأنها ، وإنَّ الله لعَنَ الخمرَ وعاصرَها ومعتَصِرَها وحاملَها والمحمولةَ إليه ؛ فليتّقِ اللهَ مُدْمِنُ شُرْبها فإنها رِجْس من عمل الشيطان، ولْيَحْذَرْ ما فى قوله عليه السلام : « لا يَشْرَبُ المؤمنُ الخمرَ حين يَشْرَبُها وهو مُؤْمِن» : من إخراجه عن أهلِ الإيمان؛ وشُرْبُ الخمر لجاجٌ فى الطَّبع، فلا خير فيها مع الاعتناء المبنىّ على الشَّرْع، ولو نُهِىَ الناسُ عن فَتّ البَعر لفَتّوه حرصًا غالبا على ما تقدّم فيه من الزَّجْر والمَنْع؛ فمن عُثِر عليه بعدُ من شاربٍ لها أو عاصرٍ، مستَسِرٍّ بها أو مجاهرٍ، فلْيُضْرَبِ الضربَ المبرِّح، ويُسْجَن السجنَ الطويل، ولْيُبْقَ إلى أن تَصِحَّ توبتُه صحةً لا تحتمل التأويل؛ ثم إن عاد فالحُسَام المصمّم يَحْسِم داءَه إذا أعضَل، ويُصَدّ به سواه عما آستحلّ من هذا الحَرام وآستَسْهل .

ومن أشدّ ماحُذِّرَ منه، وأُكّدَ النهىُ عنه ، كُتُبُ الفَلْسفة لعَنَ اللهُ واضِعَها ! فإنهم بَنَوْها على الكُفْر والتعطيل ، وأخْلَوْها من البرهان والدَّليل ، وعَدَلُوا بها ضَلالا وإضْلالا عن سَواءِ السبيل ، وجعلُوها تُكَأةً لعقائدهم ومقاصِدِهم المُخَيَّلة ركونًا إلى الباطل وتمسُّكا بالمستحيل. وقد كان سيدنا الإمام المنصور رضى الله عنه قد جدّ فيها بالتحريق والتمزيق، وسَدّ بإمضاء عَزْمه المسدَّد ورأيه المؤيَّد وجوهَ طُلّابها بكل طريق، فحَسْبُنا أن نقتدىَ فى ذلك بأثَره الجميل، ونأخُذَ فى إحراقها حيث وُجدت وإهانةِ كاتبِيها وطالبِيها وقارِيها ومُقْرِيها، ولا يُعدَلُ عن السيف فى عِقاب من آنتحلها وآستَوْهبَها وإنَّ السيف فى حقّه لقليل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تَرَكْتُ فيكم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلّوا ما تمسّكتُم بهما كِتَابَ الله وسُنَّةَ نبيّه » وبحَسْب العاقل كتابُ الله وسنّةُ الرسول .

ويتعلق بهذا المنهيّ عنه ما استرسل فيه مَرَدةُ أهل الأهواء ، والمتنكّبون فيما تلبّسوا به من الأدران عن سَنَن الاهتداء ، أولئك قومٌ اعتقدوا إباحةَ المحظورات كلّها ، وعدّوا بإيهاماتهم السخيفة ، وتخيّلاتهم الضعيفة ، كلّ واهي العُقَد منحلّها ، وادّعوا أنهم من الملة وأعمالُهم تقضى بأنهم ليسوا من أهلها ، فليُبحَث عن ذلك الصّنف الأول وهذا الثانى ، فمذهبنا أن نطهّر دينَ الله مما لَصِق به من الأدران ، وأن نعيده إلى ما كان عليه قبلُ والله المستعان .

ومن الوظائف التى يجبُ أن تعتَنوا بها غايةَ الاعتناء ، وأن تُقدّموا النظرَ فيها على سائر الأشياء ، أمرُ أسواق المسلمين فقد اتّصل بنا ما تطرّق للتجارات من مُسامحاتٍ تَعفّى عليها الخدع ، ولا ينشُرها إلا الحرصُ والطمع ، ولا توافق الشرعَ ولا يُطابقها الورَع ، حتى شابَ أكثرَ المعاملات الفساد ، ولا يجرى على القانون الشرعىّ فى كثير من المُبايعات الانعقاد ، وتصدّى المتحيّلون فيها لحِيَل يقصدُونها ، وأنواع لاجتلاب السُّحت يرصُدُونها ، وربّما وردَ التاجرُ من القطر الشاسع ، وحسّن الظنَّ بالمشترى منه أو البائع ، فيَبلُغ فى خِدعته ، والإضرار به فى سِلعته ، أسوأَ المبالغ ، ويرتكبُ من مُحرَّم الخلابة ماليس بالسائغ ، وسُمِع من ذلك أن من لا يتّقى الله تعالى يُلابِس الربا فى تجارته ، ويبنى عليه جميعَ إدارته ، وحفظُ المكاسب من الخبائث أوجبُ الواجبات ، والحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيّنٌ وبينهما أمورٌ متشابهات ، ويَمحق اللهُ الربا ويُربى الصدقات ، فَلتُلزِموا الأُمناءَ المعروفين بالديانه ، المشهورين بالأمانه ، تفقُّدَ هذه الأسواق ، وليُخص كلَّ أمين من تشتمِلُ عليه سُوقُه من التُّجّار ، وليَعرِف المختار منهم من غير المختار ، ومن لا يَصلُح للتجارة فى سوق المسلمين يُقام منها على أسوإ حال ، ومَنْ عُثِر منهم على رِباً فى معاملته عاجلتُموه بأشدّ العقاب وأسوإ النكال ، تخلّصوا المتاجرَ من الشوائب ، ومُروهم بأن يَسيروا فى بَيعهم وشرائهم واقتضائهم على

أجمل المذاهب، وأن يحذروا الغشّ فقد قال عليه السلام : «مَنْ غشّنا فليس منّا» والانتفاءُ من الإيمان من أعظم المصائب، وإذا اعتبرت فى المبايعات الوجوهُ الشرعيّة وحُفظت الأحكام زكّى الله عمل التاجر، وبورك له فيما يُدير من المتاجر. ثم لتوصُوا كلَّ من تُقدّمونه لشُغل من الأشغال أن يبدأ بصَلاح نفسه قبل سواها، وأن يلتزم الأعمال التى يُؤْثِرها الله تعالىٰ ويَرْضاها، وحذّروهم كلَّ الحَذَر أن تقِفُوا لهم علىٰ مايَشِين، أو تسْمَعُوا لهم قبيحا يخفىٰ أو يبين، فمن سمِعتم عنه أدْنىٰ سبَب من هذا فعاجِلُوه بالعقاب الشّديد، والنَّكال المبِيد، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

قلت : وعلىٰ هذه المعانى والأمور المأمور بها فى هذا الكتاب قد كانت الخلفاءُ تكتب بها فى المكاتبات علىٰ أنحاءٍ متفرقة علىٰ ماتقدّم فى مَقاصد المُكاتبات من المقالة الرابعة، وكانوا يُولُّون علىٰ الصلاة والمساجدِ مَن يقومُ بأمرها علىٰ ماتقدّم، وإنّ أكثر هذه الأمورِ الآنَ مضمّنة فى تواقيع أصحاب الحِسْبة علىٰ ما تقدّم ذكرُه فى الكلام علىٰ الولايات فى المقالة الخامسة وبالله التوفيق .

الفصل الثانى

من الباب الأول من المقالة السادسة

(فيما يُكتب من ذٰلك فى زماننا)

وهو قليل : لقلّة الاعتناء بأمر الدين والاكتفاء فى ذٰلك بالتفويض إلىٰ متولّى الحِسْبة، إلا أنه رُبّما كُتِب فى ذٰلك فى الأمور المهمة عند تعدّى الطَّوْر فى أمرٍ من الأمور الدّينيّة، والخُروج فيه عن الحدّ .

ثم هو علىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(ما يُكتَب عن الأبواب الســلطانية)

وهذه نسخةُ توقيع شريف من هذا النوع كُتِب به فى الأيام أن لايبَاع علىٰ أهل الذمَّة رقيقٌ حين كَثُر شراءُ أهل الذمة من اليهود والنصارى العبيدَ والجوارِيَ وتهويدَهم وتنصيرهم . (١)

(١) لم يذكر نسخة التوقيع بل كتب بهامش غير نسخة مانصه "بياض مقدار ورقة" .

الضرب الثانى

(مما يُكتب فى الأوامر والنّواهى الدينيـة ـ ما يُكتب عن نوّاب السلطنة بالممالك)

وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صَيْدا وبَيْرُوتَ وأعمالها من اعتقاد الرافضة والشِّيعة وردْعهم، والرُّجوع إلى السنّة والجماعة، واعتقادِ مَذْهَب أهل الحق، ومنْع أكابرهم من العُقُود الفاسدة والأنكحة الباطلة، والتعرّض إلى أحدٍ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين؛ وأن لا يَدَعُوا سلوكَ [طريق] أهل السنة الواضحة، ويَمْشُوا فى شَرَك أهل الشك والضَّلال، وأن كل مَن تظاهر بشىء من بِدَعهم قُوبِل بأشدّ عذاب وأتمّ نَكَال، ولْيُخْمَدْ نيرانَ بِدَعهم المُدْلَهِمَّه، ولْيُبادِرْ إلى حسم فَسادِهم بكل هِمّه، وتصريفهم عن (١) اعتبره، وتطهير بواطنهم من رُذَالة اعتقادهم الباطل إلى أن يُعْلِنُوا جميعُهم بالترضّى عن العَشَره. ولْيحفَظْ أنسابَهم بالعقود الصحيحه، ولْيُدَاوِمُوا على اعتقاد الحقّ والعمل بالسنّة الصريحه. فى خامس عِشْرِينَ (٢) جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهى:

الحمدُ لله الذى شَرَع الحُدُودَ والأحكام، وجَدَع بالحق لأنُوفَ العوامّ الأغْنَام الطَّغَام، وجمع الصَّلاح والنَّجَاح والفَلاح فى الأخذ بسُنَّة خير الخلق وسيّد الأنام، وقَمَعَ الزائغين عمّا عليه أهلُ السنة من الحق فى كلّ نقضٍ وإبرام.

نحمَده على نِعَمه الجسام، ومِنَنه التى تُومض بروقُها وتُشام، وآلائه التى لا تُسْأَم ولا تُسَام؛ ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةً ليس لمن تمسَّك

(١) بياض فى الأصل ولعله «عن التهوّك فى مهالك أهوائهم إلى ما نص عليه الشرع واعتبره».

(٢) كذا فى الأصل بإثبات النون ونقل الصبان عن ابن هشام تلحين الكتّاب فيه.

بعُروتها الوُثقَى انفصالٌ ولا انفصام، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الداعى إلى المَلِك العَلَّام، والهادِى إلى الحق بواضح الإرشادِ والإعْلام، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم أئمةُ الإسلام، وهُداةُ الخلق إلى دار السَّلام، خصوصًا أبا بكر الصدِّيقَ الذى سبَق الناس بما وَقَر فى صدره لا بمَزِيَّة صلاةٍ ولا بمزِيدِ صيام، وعُمَرَ بنَ الخطَّاب الذى كان له فى إقامة الحق أعظَمُ مَقام، ومن أهل الصلاح والفساد انتقاءٌ وانتقام، وعُثمانَ بنَ عَفَّان الذى جمع القرءان فحصَل لشَمْل سُوَره وآياتِه بما فعل أحْسَنُ الِتئام، وأنفق مالَه محتسِبا لله تعالى فحاز من الثواب رتبة لا تُرام، وعلِيَّ بنَ أبى طالب الذى كان صِهْرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم وآبنَ عمه ووارثَ عِلْمه المُلْهَم، والمجادِلَ عن دِينه بالعِلْم والمجاهِدَ بين يدَيْه بالحُسام، والباقين من العَشَرة الكِرام، صلاةً تُستَمَدُّ بركاتُها وتُستَدام، ويَنمو فضلُها بغير انقضاءٍ ولا انصِرام .

وبعـد، فإن الله تعالى بعثَ محمدا صلى الله عليه وسلم بشَرْعه الذى ارتضاه، ودِينه الذى قَضاه، وحُكْمه الذى أبْرمه وأمْضاه؛ فبلَّغ الرساله، وأوضح الدِّلاله، وأفصَح المَقاله؛ وجاهد فى الله طوائفَ الأعداء، وأمال اللهُ تعالى إلى قَبُول قوله وتصديقه من سبقَتْ له العنايةُ من الأوِدّاء، ونَصَره على مخالفيه من المشركين والحاسِدِين حتّى ماتَ كل منهم بما فى نَفْسه من الداء؛ وبيَّن الطريق، وبرْهَن على التحقيق، فأعلَن النِّذارة والبِشاره، ومَهَّد قواعدَ الدين تارةً بالنص وتارةً بالإشاره؛ وتمَّ الدينُ بإحكام أحكامه، وشُيِّدت قواعدُه بإعلاء أعلامه؛ وعمَّت الدعوةُ وتمَّت، وفشَتِ الهدايةُ ونَمت؛ ودخل الناسُ فى الدين أرْسالا، وبلغَتْ نفوسُ المؤمنين من إعلاء كلمة التوحيد آمالًا، وأصبحتِ الخيراتُ والبركاتُ تتواتَرُ وتتوالى، وخَمدت نارُ الشِّرك وطَفِئَت مصابيحُ الضلالة ووُحِّد اللهُ تبارك وتعالى .

فلمّا تكامل ماأراد الله تعالى إظهارَه فى زمانه، وتمّ ماشاء إبرازَه فى إبّانه، وأُعلنت الهداية، ومُحيت الغَوَايه، وقام عمودُ الدين، ودَحَضت حجةُ المُلْحدين، وآستوسق أمرُ الإسلام وآستَتَبّ، وتبّت يدَا مُناوئِه وتَبّ — آختار الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم جِوارَه وقُربَه، فقضَى نَحْبه ولَقِىَ ربَّه، فقام خلفاؤه بعده بآثاره يَقْتَدُون، وبِهَدْيِه وإرشاده يَهْتَدُون، ولأحكامه يَتَّبِعون، ولأوامره يستَمِعُون، ولمَعانى ماجاء به يَعُون، وإلى قضاياه يرجِعُون، لا يُغيِّرون ولا يبَدِّلون، ولا يتعرَّضون ولا يتأوَّلُون، فقضَى على ذلك الخلفاءُ الراشدون، والأئمة المَهْدِيُّون، لم يَتَّبِـع أحدٌ منهم فى زمانهم عقيدةً فاسده، ولم يُظْهِر أحدٌ مقالةً عن سَواء السبيل حائدَه، ثم تفرّقت الآراء، وتعدّدتِ الأهواء، وآختلفتِ العقائد، وتبايَنتِ المَقاصِـد، ووَهَت القواعِد، وتصادَمتِ الشَّواهِـد، وتفرّقتِ الناس إلى مُقِرّ بالحقّ وجاحد، وظهَرتِ البِدَع فى المَقَالات، وضَـلَّ كثيرٌ فى كثير من الحالات، وتهافَتَ غالِبُهـم فى الضَّلالات، وقال كلُّ قوم مَقالةً تضمَّنت أنواعًا من الجَهَالات، وكان من أسخفِهم عَقْـلا، وأضْعَفِهم نَقْلا، وأوْهَنِهم حُجَّه، وأبعدِهم من الرَّشَد مَحجَّه، طائفةُ الرافضة والشِّيعه، لآرتكابهم أمورا شَنِيعه، وإظهارِهم كلَّ مقالةٍ فظيعه، وخَرْقِهم الإجماع، وجمعِهم قَبِيح الآبْتِداع، فتبدّدُوا فِرَقا، وسَلَكُوا من فواحش الاعتقادات طُرُقا، وتنوّعَ ناسُهم، وتعـدّدتْ أجناسُهم، وتجرّءوا على تبديل قواعد الدِّين، وأقدموا على نَبْذ أقوال الأئمة المرشِدِين، وقالوا مالم يُسْبَقُوا إليـه، وأعظَمُوا الفِرية فيما حمّلُوا كلامَ الله ورسولِه عليه السلام عليه، وباءُوا بإثم كبير وزُورٍ عظيم، وعَرَّجُوا(١) عن سواء السبيل فخَرَجُوا عن الصراط المستقيم، وفاهُوا بمـا لم يَفُهْ به قبلهم عاقل، وآنتحلُوا مذَاهِبَ لا يُساعدُهم عليها نقْلُ ناقل، وتخيَّلُوا أشـياءَ فاسدةً حالُهم فيما تُخَيِّلُهـا أسوأُ من حالِ باقل، وتمسّكُوا بآثارٍ

(١) أى عدلوا عنه . انظر المصباح .

موضوعه، وحكايات إلىٰ غير الثقات مرفوعه؛ ينقل عن أحدهم ماينقله عن مجهول غير معروف، أو عمن هو بالكذب والتدليس مشهور وموصوف؛ فأداهم ذلك إلى القول بأشياء ـ منها مايوجب الكفر الصراح، ويبيح القتل الذى لاحرج علىٰ فاعله ولا جناح ـ ومنها ما يقتضى الفسق إجماعا، ويقطع من المتصف به عن العدالة أطماعا ـ ومنها ما يوجب عظيم الزجر والنكال ـ ومنها مايفضى بقائله إلىٰ الويل والوبال. لعب الشيطان بعقولهم فأغواهم، وضمهم إلىٰ حزبه وآواهم، ووعدهم غرورا ومناهم، وتمنوا مغالبة أهل الحق فلم يبلغوا مناهم؛ مرقوا من الدين، وخرقوا إجماع المسلمين، واستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم، واكتسبوا الجرائم؛ وعدلوا عن سواء السبيل، وتبوءوا من غضب الله شر مقيل. مذهبهم أضعف المذاهب، وعقيدتهم مخالفة للحق الغالب؛ وآراؤهم فاسده، وقرائحهم جامده، والنقول والعقول بتكذيب دعاويهم شاهده؛ لا يرجعون فى مقالتهم إلىٰ أدلة سليمه، ولا يعرجون فى استدلالهم علىٰ طريق مستقيمه؛ يعارضون النصوص القاطعه، ويبطلون القواعد لمجرد المنازعة والمدافعه، ويفسرون كلام الله تعالىٰ بخلاف مراده منه، ويتجرءون علىٰ تأويله بما لم يرده الله ولم يرد عنه؛ فهم أعظم الأمة جهاله، وأشدهم غواية وضلاله؛ ليس لهم فيما يدعونه مستند صحيح، ولا فيما ينقلونه نقل صريح.

فلذلك كانوا أقل رتبة فى المناظره، وأسوأ الأمة حالا فى الدنيا والآخره؛ وأحقر قدرا من الاحتجاج عليهم، وأقل وضعا من توجيه البحث إليهم؛ أكابرهم مخلطون، وأصاغرهم مثلهم ومعظمهم مخبطون؛ بل كلهم ليس لأحد [منهم] حظ فى الجدال، ولا قدم فى صحة الاستدلال؛ ولو طولب أحد منهم بصحة دعواه لم يجد عليها دليلا؛ ولو حقق عليه بحث لم يلق إلىٰ الخلاص سبيلا؛ غاية متكلمهم أن يروى عن منكر من الرجال مجهول، ونهاية متعلمهم أن يورد حديثا هو عند العلماء موضوع أو معلول؛ يطعنون

فى أئمة الإسلام، ويسُبُّون أصحابَ النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويدَّعُون أنهم شيعةُ أميرالمؤمنين عليِّ بنِ أبى طالب رضى الله عنه وهو برىء منهم، متزَّه عما يصْدُر عنهم، فقدرُه أرفعُ عند الله والناس، ومحلُّهُ أعلىٰ بالنص والقياس، ويحْرم أنْ يُنْسَب إليه الرِّضا بهذه العقائد، أو التقريرُ لهذه المَفَاسد، فإن طريقته هى المُثْلىٰ، وسيرته هى العُلْيا، فالأخْذُ بالحق إليه يَئُول، والصوابُ معه حيث يفْعَلُ أو يَقُول، ولا يصِحُّ نقلُ شيءٍ من هذا عنه، ولا يحل نسبةُ شيء إليه منه، ومنصبُهُ أجلُّ من ذلك، ومكانُه أعزُّ مما هُنالك، غير أنَّ هؤلاء يَعْرِض لأحدهم فى دينه شُبْهه، يقلِّد فيها مثلَه فى الضلالة وشِبْهَه، ويتردَّدُ فى نفْسه من الغَمِّ بُرْهةً لا يجد لخلاصِه منها وِجْهه، ولا يوجِّه قلبُه إلىٰ طلب النجاة منها وَجْهَه، ولايقَع نظرُ بصيرته علىٰ طريق الصواب ولايحقِّق كُنْهَه، فيرتكبُ خَطَرا يُوجب تو بيخَه فى القيامة وجَبْهه، وتَسْودُّ فى الموقِف ناصيةٌ منه وجبْهه، ويَعْـدَم لتحيره فى الضـلال عقْلَه وفهمه وفِقْهه، قد صَرَفوا إلىٰ الطعن فى العلمـاء، ومخالفة ربِّ الأرض والسماء، هَمَّهم وهِمَمَهم، وافترَوْا علىٰ الله كذبا فذَمَّهم وأباح دَمَّهم، وقال لسانُ حال أمرِهم أرا قَدَمهم أراقَ دَمَهم، وهانَ دَمُهم فما نَدَمُهم .

وقد بلَغَنا أن جماعةً من أهل بيْروتَ وضواحيها، وصَيْدا ونواحيها، وأعمالها المضافةَ إليها، وجهاتِها المحسوبةَ عليها، ومَزارِعَ كل من الجهتين وضِياعِها، وأصقاعها وبِقاعَها، قد انتحلُوا هـذا المذهبَ الباطل وأظهرُوه، وعملوا به وقرّرُوه، وبثُّوه فى العامَّة ونشَرُوه، واتخذوه دِينًا يعتقدُونه، وشرْعا يعتمِدُونه، وسلكُوا مِنهاجَه، وخاضُوا لجاجَه، وأصَّلوه وفرَّعوه، وتدينُوا به وشَرَعوه، وحصَّلوه وفصَّلوه، وبلَّغوه إلىٰ نفوس أتباعهم ووصَّـلوه، وعظَّموا أحكامَه، وقدَّمُوا حُكَّامه، وتمَّموا تبجيله وإعظامَه، فهم بباطله عاملُون، و بمقتضاه يتعاملُون، ولأعلام علِمه حاملُون، وللفساد

قايلون، وبئير السَّداد قائلون، وبحَرَم حرامه عائذون، وبحِمىٰ حمايته لائذون، وبكعبة ضلاله طائفون، وبسُدّة شِدّته عاكفون. وإنهم يسُبّون خيرَ الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلّون دمَ أهل السنّة من المسلمين، ويستبيحون نكاحَ المُتعة ويرتكبُونَه، ويأكلون مالَ مخالفيهم وينتهبُونه، ويجمعون بين الأختين فى النكاح، ويتديّنُون بالكفر الصُّراح، إلىٰ غير ذٰلك من فروع هذا الأصلِ الخبيث، والمذهبِ الذى ساوىٰ فى البُطلان مذهبَ التثليث ـ فأنكرنا ذٰلك غايةَ الإنكار، وأكبرنا وقوعه أشدَّ إكبار، وغضبْنا لله تعالىٰ أن يكون فى هذه الدولة للكُفْر إذاعه، وللعصية إشادةٌ وإشاعه، وللطاعة إخافةٌ وإضاعه، وللإيمان أزجىٰ بِضاعه؛ وأردنا أن نجهِّز طائفةً من عسكر الإسلام، وفرقةً من جُنْد الإمام، تستأصل شأْفَةَ هذه العُصْبة المُلْحِده، وتطهِّرُ الأرضَ من رِجْس هذه المَفْسَده، ثم رأينا أن نقدِّم الإنذار، ونسبِقَ إليهم بالإعذار، فكتبْنا هذا الكتاب، ووجَّهْنا هذا الخطاب، ليُقْرأ علىٰ كافّتهم، ويُبلَّغ إلىٰ خاصّتهم وعامّتهم، يُعلمهم أن هذه الأمورَ التى فعلُوها، والمذاهبَ التى انتحلُوها، تُبيح دماءَهم وأموالَهم، وتقتضى تعميمَهم بالعذابِ واستئصالهم، فإنّ من آستحلّ ما حرَّم الله تعالىٰ وعُرف كونُه من الدين ضرورةً فقد كفَر، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ ﴾ عطْفا علىٰ ما حكَم بتحريمه، وأطلق النصَّ فتعيَّن حملُه علىٰ تعميمه، وقد آنعقد علىٰ ذٰلك الإجماع، وآنقطعت عن مخالفته الأطماع، ومخالفةُ الإجماع حرام بقول من لم يزَلْ سميعا بصيرا ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾. ونكاح المُتعة منسوخ، وعَقْده فى نفس الأمر مَفْسُوخ، ومن آرتكبه بعد علمه بتحريمه واشتهارِه، فقد خرج عن الدّين بردّه الحقَّ وإنكاره؛ وفاعلُه ان لم يتُب فهو مقتول، وعُذْره فيما يأتيه من ذٰلك غيرُ مقبُول. وسبُّ الصحابة رضوانُ الله عليهم

مخالفٌ لما أمَرَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من تعظيمهم ، ومنابذٌ لتصريحه باحترامهم وتبجيلهم ، ومخالفتُه عليه السلام فيما شَرَعه من الأحكام ، موجبةٌ للكفر عند كل قائل و إمام ، ومُرتكبُ ذلك على العقوبة سائر ، وإلى الجحيم صائر . ومَنْ قَذَفَ عائشةَ أمَّ المؤمنين رضى الله عنها بعد ما برَّأها الله تعالى فقد خالف كتابَه العظيم ، وآستحقّ من الله النَّكالَ البليغَ والعذابَ الأليم ، وعلى ذلك قامتْ واضحاتُ الدلائل ، وبه أخذ الأواخرُ والأوائل ، وهو المَنْهج القَويم ، والصِّراطُ المستقيم ، وماعدا ذلك فهو مرْدُود ، ومن المِلَّة غيرُ معدُود ، وحادثٌ فى الدين ، وباعثٌ من المُلْحدين ، وقد قال الصادق فى كل مَقَاله ، والمُوضِّح فى كل دِلَاله ، «كُلُّ مُحْدَثة بِدْعةٌ وكلُّ بِدْعة ضَلَاله» . فتوبُوا إلى الله جميعا ، وعودُوا إلى الجماعة سرِيعا ، وفارِقُوا مذهبَ أهل الضَّلاله ، وجانبُوا عُصْبةَ الجَهَاله ، واسمَعُوا مقالَةَ الناصح لكم فى دينكم وَعُوا ، وعن الغَيِّ ارجعُوا ، وإلى الرَّشادِ راجِعُوا ، وإلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ باتِّباع السنة بادرُوا وسارِعُوا . ومن كان عنده امرأةٌ بنكاح متعة فلا يَقْرَبْها ، ولْيحذَرْ من غشْيانها ولْيتجنَّبْها . ومَنْ نكح أختين فى عقْدَيْن فليُفارِق الثانيةَ منهما فإنَّ عقدَها هو الباطل ، وان كانتَا فى عقدٍ واحدٍ فليُخْرِجْهما معا عن حِبَالِته ولا يُمَاطِلْ ، فإنَّ عذاب الله شديد ، ونكالَ المجرم فى الجحيم كلَّ يوم يَزِيد ، ودارَ غضب الله تُنادى بأعدائه هل من مَزِيد ، فلا طاقَةَ لكم بعذَابِه ، ولا قُدرةَ على أليم عقابه ، ولا مَفَرَّ للظالم منه ولا خَلَاص ، ولا ملجأً ولا مَنَاص . فرحِم اللهُ تعالى امرأً نظر لنفْسِه ، واستعدَّ لِرَمْسِه ، ومَهَّد لَمصْرَعه ، ووطَّأ لَمضْجَعه ، قبلَ فَوات الفَوْت ، وهُجوم المَوْت ، وانقطاعِ الصَّوْت ، واعتقالِ اللسان ، وانتقال الإنسان ، قبل أن تُبْذَل التوبةُ ولا تُقْبل ، وتُذْرَى الدموعُ وتُسْبَل ، وتنقضِى الآجالُ وينقطع الأمل ، ويمتنِعَ العمَل ، وتزهَق من العبد نَفْسُه ، ويضُمَّه رَمْسُه ، ويَرِدَ على ربه وهو عليه

غَضْبان ، وإنَّ سُخْطه عليه بمخالفة أمرِه قدْ بان ، ولا ينفعُه حينئذٍ النَّدم ، ولا تُقال عثرتُه إذا زلّت به القدَم ، وقد أعْذر من أنْذر ، وأنصَف من حذَّر ، فإنَّ حزب الله هم الغالبون ، والذين كفروا سيُغْلَبون ، وسيَعْلَمُ الَّذين ظلموا أىَّ منقلَبٍ ينقلبون ، ألهمنا الله وإيّاكم رُشْدَنا ، ووفّق إلىٰ مَرَاضيه قصْدَنا ، وجمَعنا وإيّاكم علىٰ الطاعه ، وأعاننا جميعا علىٰ السُّنَّة والجماعه ؛ بمنّه وكرمه ! .

وهــذه نسخة مرسوم كُتِب به عن نائب المملكة الطرابُلُسيَّة إلىٰ نائب حِصْن الأكراد ، بإبطال ما أُحْدِث بالحصن : من الخمَّارة ، والفَوَاحش ، وإلزام أهل الذِّمَّة بما أُجْرِى عليهم أحكامُه من أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه — فى أواخر جُمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وستين وسبعمائة ، وهو :

المرسومُ بالأمر العالى — لازال قصدُه الشريفُ المثابرةَ علىٰ تغيير المنكَر ، وشدَّ أزر المُنْكِر ، مشمِّرا فى إراحة القلوب بإزاحة مَوَاطن الفواحش : من سِفَاح ومخدّر ومَيْسر ومُسْكِر — أن يتقدّمَ الجنابُ الكريم باستمرار ماوفَّقنا الله تعالىٰ له ورَسَمْنا به ، وأعطيناه دُستُورا يجدُه من عَمِل به يوم حسابِه : من إبطال الخمَّاره ، وهدْم مبانيها بحيثُ لا يبقىٰ للنّفس الأمَّارة عليهــا أَماره ، وإخفاءِ معالمِها التى توطَّنها الشيطانُ فقطَن ، وإزالةِ ما بها من الفَواحِش التى ما ظهر منها أقلّ ممــا بَطَن ، وإخلاءِ تلك البلاد من هذا الفَسَاد الموجب لكثرةِ المحن والاختلاف وإراقة ما بها من الخُمور ، التى هى رأْسُ الإثم والشُّرور ، وإحراقِ كل مخَدَّر مذْمُوم فى الشَّرْع محْذُور ، وإذهاب اسم الحانة بالكليَّة بحيث لا يتلفَّظ به مسلمٌ ولا كافر ، ولا يُطامِع نفسَه فى الترتيب عليها مَنْ هو علىٰ خِزْيه وبَغْيه مُظَافِر . وقد غيَّرنا هــذا المنكر بيد أطال الله بفضلـه فى الخير باعَها ، وغنِمْنا إزالةَ هذه المَفْسَدة فأحرَزْنا بِرَّها واصطناعَها ، خوفاً من وعيد

قوله تعالى : ﴿كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عن منكرٍ فعلوه لِبِئْسَ ما كانُوا يَفْعلُون﴾ ورجاء أن نكونَ من المراد بقوله تعالىٰ : ﴿وَلْتَكُنْ منكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلىٰ الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بالمعْرُوف ويَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ وعملًا بقوله عليه السلام : «مَنْ رأىٰ منكم منكرًا فليُغيِّرْه بيَده» . وعلما بأنَّ أمير الرعية إذا لم يُزِل المنكَرَ من بينهم فكيف يُفْلِح فى يومِه وحالِ السُّؤال عنهم فى غَدِه .

وقد صار حِصنُ الأكراد بهذه الحسنةِ فى الحِصْن المَنِيع ، وأهلُهُ المتمسِّكُون بالعُروة الوُثْقىٰ فى مَرْبَعٍ خَصِيبٍ مَرِيع ، وضَواحِيه مطَهَّرةً من خُبْثِ السِّفاح ونَجاسة الخُمور ، ونَواحِيهِ كثيرةَ السُّرور قليلةَ الشُّرور ، قد أعلى الله تعالىٰ به كلمتَه ، وأجاب لصغيرِه وكبيرِه فى هذا الأمر دَعْوتَه ، وما ذٰلك إلا بتوفيقِ مَن أهلَّنا لذٰلك ، وألهمنا رُشْدنا وطهَّرَنا من هذه المَفاسد تلك المَسالك ، وله الحمدُ علىٰ ما وفَّق إليه ، وأعانَ عبدَه فى ولايتِه عليه ، فإن المنكَرَ إذا فشا ولم يُنْكَرْ آنَ خَرابُ الديار ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : «إنَّ الله ليَغَار» ، فعند ذٰلك تمنعُ السماءُ دَرَّها ، وتُمسِك الأرض بَذْرَها ، ويَجِفُّ الضَّرْع ، ويَيْبَس الزَّرْع ، وتَعْطَش الأكباد ، وتَهلِك البِلاد .

فليَبْسُطِ الجنابُ الكريم يدَه فى إزالة ما بَقِيَ من مُنْكَر ، متفقِّدًا لجَليلِه وحقيرِه بالفَحْص الشديد وما علىٰ ذٰلك يُحمَدُ بكل لسانٍ ويُشْكَر ، مترقبًا من يُدْخِل البلَدَ ذٰلك ليقابلَه بالضرب بالسياط ، آخذًا فى تتبُّع حلالِه بالحزم والتحرِّى والاحتياط ، إلىٰ أن تَصِل بنا أخبارُه ، ويعلُو لدَيْنا فى سياستِه ونَهْضته منارُه ، وتُحمَد عندنا إيالتُه وآثارُه ، وهو بحمد الله كما نعهد شديدٌ علىٰ كل مُفْسِد ومعانِد ، سديدُ الآثار والأَثارة والمقاصد .

وأما أهلُ الذمَّة فما رُفِع عنهم السيفُ إلا بإعطاء الجِزية والتزامِ الأحكام ، وأخْذِ عهودٍ أكيدةٍ عليهم من أهل النقض والإبرام .

فليتقدّم الجنابُ الكريمُ بالزامِهِم بما ألزمهم به الفارُوق رضوانُ الله عليه، ولْيُلْجِئْهم في كل أحوالِهم إلىٰ ما ألجاهم إليه : من إظهار الذِّلّة والصَّغار ، وتغْيِير النَّعْل وشدِّ الزُّنّار، وتعريفِ المرأة بِصَبْغ الإزار، ويُمْنَعُوا من إظهار المنكَر والخمرِ والناقوس وليُجعل الخاتَمُ أو الحديدُ في رقابهم عند التجرُّد في الحمّام، ولْيُلْزَموا بغير ذٰلك من الأحكامِ التي ورد بها المرسوم الشريف من مُدّة أيّام، ومن لم يلتزم منهم بذٰلك وٱمتنع، وأعلن بكفرِهِ وأعلى كلمتَه ورَفَع، فما له حَكَم إلا السيف، وغُنْم أمواله وسَبْيُ ذراريِّه وما في ذٰلك علىٰ مثله حَيْف، فهاتانِ مَفْسَدتان أمرْنا بالزامهما فِرارا من سُخْط الله تعالىٰ وحذَارا، إحداهُما إبطالُ الحانة والثانيةُ إخفاء كلمةِ اليهود والنَّصارىٰ .

فليتقدّمِ الجنابُ المشارُ إليه باستمرار ما رسَمْنا به فهو الحق الذي لا شكَّ فيه، والنُّور الذي يَتْبعُه المؤمنُ ويَحْكِيه، ونرجُو من كرم الله تعالىٰ استمرارَ هذه الحسنةِ مَدَىٰ الأزمان، وٱستثمارَ شجرها المائدِ الأغصان، و إبطالَ هذا الحُزْن المسمَّى ظلما بالفَرَح، و إعمالَ السيف في عُنُق من ٱرتضاه بين أظهر المسلمين فانهتك سِرُّه وٱفتضح .

وليَقْمَعْ أهلَ الشرك والضلال، بما يُلزِم الصَّغارَ عليهم والإذلال، إلىٰ أن لا يُرفَع لهم راس، ولا يُشَيِّدوا كيدا إلا علىٰ غير أساس، وليستجلِبِ الجنابُ الكريم لهذه الدولة الشريفةِ ولنا الدعاءَ من المسلمين، والفقراء والصالحين والمساكين، وليُطِبْ قلوبَهم باستمرار ما أزَلْناه، ومحَوْنا آثاره وأبطلْناه، وقصدْنا بابطاله من تلك الأرض، مسامحةً من الحَكَم العَدْل يوم العَرْض، ومَن أعاد ما أبطلناه أو أعان علىٰ إعادتِهِ، أو أمر بتشييده وبناء حجارتِه، أورتَّب مرَتَّبا علىٰ خِدْرِ بَغِيٍّ وموّه ودلّس بالأفراح، أو أطلق أن يُباعَ منكَر أو سوّل له شيطانُه أنه من الأرباح، فإن الله تعالىٰ يحاكمه وهو أحكم الحاكمين، وعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين .

الباب الثانى

فيما يكتب فى المسامحات والإطلاقات، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما يكتب فى المسامحات

والمُسامَحات جمع مُسامَحة، وهى [الجُود[1] والموافقةُ على ما أُريد منه] . والمراد المسامحةُ بما جرَتْ به عادةُ الدواوين السلطانية : من المقررات واللوازم السلطانية، وهى على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكتَب من الأبواب السلطانية)

وقد جرتِ العادةُ أنّ السلطانَ إذا سَمَح بترك شئٍ من ذلك كُتِب به مرسومٌ شريف وشمِلته العلامة الشريفة، وهو على مرتبتين :

المرتبة الأولى — المسامحاتُ العِظام .

وقد جرت العادةُ أن تُكتَب فى قطع الثلث مفتتحةً بـ«الحمد لله» .

وصورتُها أن يُكتب فى أعلى الدَّرْج بوَسَطه الاَسْمُ الشريف كما فى مراسيم الولايات، ثم يكتب من أول عَرْض الورق إلى آخره «مرسومٌ شريفٌ أن يُسامَح بالجهة الفلانية وإبطال المُكوس بها، أو أن يسامح بالباقى بالجهة الفلانية، أو أن يُسامَح أهلُ الناحية الفلانية بكذا وكذا، ابتغاءً لوجه الله تعالى، ورجاءً لنواله الجسيم

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المصباح .

علىٰ ما شُرح فيه» ثم يُترك وصلان بياضًا غير وَصْل الطُّرَّة، ويُكتَب فى أوّل الوصل الثالث البسملة، ثم الخطبةُ بالحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم يقال : وبعدُ، ويؤتى بمقدمة المسامحة : من شكر النعمة، والتوفيـة بحقها ومقابلتها بالإحسان إلىٰ الخلق، وعمل مصالح الرعية وعمارةِ البلاد، وما ينخرط فى هذا السِّلك، ثم يقال : ولذلك لمـا كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يُسامَح بكذا، ثم يُقال : فرُسِم بالأمر الشريف أن يكون الأمرُ علىٰ كذا وكذا، ثم يقال . فلتستقرّ هـذه المسامحةُ ويؤتىٰ فيها بمـا يناسب، ثم يقال : وسبيلُ كلِّ واقف علىٰ هذا المرسوم الشريف العمَلُ بمضمونه أو بمقتضاه ، ويُختَم بالدعاء بمـا يُناسِب .

⁂

وهذه نسخة مرسوم بمسامحة ببواقى دِمَشْق وأعمالهـا ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ رحمه الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله الرءُوف بخَلْقه ، المتجاوِزِ لعباده عما قصّروا فيه من حقّه، المُسامِح لبَرِيته بمـا أهملوه من شُكْر ما بَسَط لهم من رِزْقه، جاعلِ دولتِنا القاهرةِ مَطْلَع كرم ، تُجتَلىٰ أنوارُ البِرّ فى البَرايَا من أُفقه، ومَنْشأَ دِيَم، تُجتلَبُ أنواءُ الرِّفق بالرعايا من بَرْقه، ومِضمارَ جُود يحتَوِى علىٰ المعروف من جميع جهاتِه ويشتَمِل علىٰ الإحسان من سائر طُرُقه ، فلا بِرَّ تنتهى إليه الآمالُ إلا ولكرَمنا إليـه مزيَّة سَـبْقه ، ولا أجْرَ يتوجَّه إليه وجهُ الأمانىّ إلا تلقّته نِعمُنا بمُتهلِّل وجه الإحسان طَلْقِه، ولا معروفَ تُجْذب منه أرجاءُ الرجاءِ إلا واستهلّتْ عليه آلاؤُنا من صَوْب بِرِّنا المألوفِ لآلِئُ وَدْقه .

نَحْمَده علىٰ نِعمه التى عمّت الرَّعايا بتَوالى الإحسان إليهم، وأنامَتْهم فى مِهاد الأمن بمـا وضعَتْ عنهم مسامحتُنا من إصرِهم والأغلال التى كانَتْ عليهم ، وأنالَتْهـم ما لم

تطمح آمالهم إليه : من رفع الطّلب عن بواقى أموالٍ أخّروها وراءَ ظهورهم وكانت كالأعمال المقدّمة بين يديهم .

ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تبعثُ علىٰ نَشر رحمته، التى وَسعت كلَّ شىءٍ فى عباده، وتحُثُّ علىٰ بثِّ نعمته، التى عَمَرت كلَّ حىٍّ علىٰ اجتماعه وسَعَتْ إلىٰ كل حىٍّ علىٰ انفرادِه، وتحُضُّ علىٰ ما ألهمنا من رأفةٍ بمن قابله بتوحيده وشِدّةٍ علىٰ من جاهَره بعِناده .

ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله الذى أسكَتَ ألسِنةَ الشرك وأخرَسها، وعَفّىٰ معالِمَ العُدْوان وطَمَسها ، وأثّل قواعدَ الدين علىٰ أركانِ الهدىٰ وأسَّسَها ، وأوضح سُبُل الخيرات لسالِكيها فإذا سَعِدت بالملوك رَعاياها فإنما أسْعدتِ الملوكُ بذٰلك فى نفس الأمرِ أنفُسَها . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين شَفَعُوا العَدْلَ بالإحسان ، وجَمَعُوا بين مُلْك الدنيا والآخرة بإحياء السُّنَن الحِسان ، وزرَعُوا الجهادَ بالإيمان فى كل قلبٍ فأثمر بالتوحيد من كلِّ لسان ، صلاةً جامعةً أشتاتَ المُراد ، سامعةً نداءَ أربابها يوم يقومُ الأشهاد ، قامعةً أربابَ الشكِّ فيها والإلحاد ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإننا لِمَا آتانا الله من مُلْك الإسلام ، وخَصَّنا به من الحُكْم العامّ ، فى أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأيَّدَنا به من النصر علىٰ أعداء دينه، وأمدّنا به من تأبيد تأييده ودَوامِ تمكينه ، وجعل دَوْلَتنا مَرْكزا مَدارُ مُلك الأمة الإسلامية عليه، وفَلَكًا مآلُ أمور الأمّة المحمدية فى سائر الممالك علىٰ اختلافها إليه، ورزَقَنا من النصر علىٰ أعدائه ما أعزَّ المسلمين وأدالَهُم ، وأذَلَّ المشركين وأذالَهم، وكَفَّ بالرُّعب أطماعَهم، وأعمىٰ بما شاهَدُوه أبصارَهم وأصَمَّ بما سمِعُوه أسماعهم،

وحَصَرهم بالمَهابة فى بلادِهم، وأيأسَهم بالمَخافة من نفوسهم قبل طارِفهم وتِلادِهم ــ لم نزلْ نرْغَب فى حسنات تُحَلَّىٰ بها أيامُنا، وقُرُباتٍ تجرى بها أقلامُنا، ومكرُمات تكمُلُ بها عوارِفُنا وإنعامُنا، ومآثرَ يخلَّدُ بها فى الباقياتِ الصالحاتِ ذِكْرُنا، ومواهِبَ تجمِّلُ بها بين سِيَرِ العصور الذاهبةِ سِيرتُنا الشريفةُ وعَصْرُنا، ومَصالحَ يُصْرَف بها إلىٰ مصالح البلاد والعباد نظرُنا الجميل وفِكْرُنا، نُهوضًا بطاعة الله فيما ألقىٰ مَقَاليـدَه إلينا، وأداءً لشُكْرِه فيما أتمَّ به نِعمَه العميمةَ علينا، واكتساباً لثوابه فيما تُقَدِّمه من ذخائر الطاعات بين يدَيْنا، ونظرًا فى عِمـارة البلاد بخِفَّة ظهور ساكِنيها، وإطابةً لقلوب العباد من تَبِعاتِ البواقِى التى كانت تمنعهم من عِمارة أراضيهم وتُنَفِّرهم من التوطُّن فيها، ورغبةً فيما عند الله واللهُ عنـده حُسْن الثواب، وتحرِّيا لإصابة وجهِ المصلحة الإسـلاميَّة فى ذلك واللهُ الموفِّقُ للصواب .

ولذلك لمَّا اتَّصـل بنـا [أنَّ] باقِىَ البلاد الشامية من البواقِى التى يُتْعِب ألسنةَ الأقلام، إحصاؤُها، ويُثْقِل كواهلَ الأفهام، تَعدادُ وجوهها واستقصاؤُها، ممـا لايُسْمَح بمثله فى سالِف الدُّهور، ولا يَسْخُو به إلا من يرغَبُ مثلُنا فيما عندَ الله من أُجورٍ لاتُخرِجه عن مصالِح الجُمْهور ــ اقتضت آراؤُنا الشريفة أن نُعْفِى منها ذِممـا كانت فى أغلالِ إسارِها، وأثقالِ انكسارِها، ورَوْعة اقتِضائها، ولَوْعةِ التردُّدِ بينَ إنظارِ المطالبة وإمضائها؛ وأن نُعتِق منها نفوسا كانت فى سِياق مَساقِها، وحِبَال إزهاقِها وإرهاقِها، لتتوفَّر الهِمَمُ علىٰ عِمـارة البِلاد، بالأمن علىٰ الطارف والتِّلاد، وتُجمِع الخواطرُ علىٰ حُسْن الخلَف، بمـا حصَل لهم من المسامحة عما عليهم من ذلك سـلَف، بذمم بريَّة من تلك الأثقـال، عريَّة عن عَثَرات تلك البواقى التى ما كان يُقال إنها تُقَال .

فُرِسِم بالأمر الشريف ـ زاده الله تعالىٰ عُلُوّا وتشريفا ، وأمضاه بما يَعُم الآمالَ رِفْقا بالرعايا وتخفيفا ، وأجراه من العدل والإحسان بما يَعُمّ البلاد ، ويجبرُ العباد ، فإن الأرض يُحييها العَدْلُ ويَعْمُرها الاقتصارُ علىٰ الاقتصاد ـ أن يسامح ... ...

فليستقرّ حكمُ هذه المسامحةِ استقرارا يُبقِي رَسْمَها ، ويمحُو من تلك البواقي المُساقة رَسْمَها واسْمَها ، ويضَع عن كواهل الرعايا أعباءَها ، ويُسَيِّر بين البرايا أخبارَها الحسنةَ وأنباءَها ، ويُسْقِط من جرائد الحساب تفاصيلَها وجُمَلَها ، ويحقّق بتعفيته آثارَها رجاءَ رعيّةِ بلادنا المحروسة وأمَلَها .

فقد ابتغَيْنا بالمسامحة بهذه الجُمَل الوافرة ثوابَ الله وما عندَ الله خيرٌ وأبقىٰ ، وأعتقنا بها ذِمَم من كانت عليه من مَلَكة المال الذى كان له باستيلاء الطَّلَب واستمرارِه مسترقّا ، تقرُّبا إلىٰ الله تعالىٰ لِما فيه من إيثار التخفيف ، ووضْع إصْرِ التكليف ، وتقويةِ حال العاجز فإنّ غالبَ الأموال إنما تُساقُ علىٰ الضعيف ، وتوفيرِ هَمّ الرعايا علىٰ عِمارة البلاد وذلك من آكد المَصالح وأهمّها ، وتفريغ خواطِرهم لأداء ما عليهم من الحقوق المستقبَلة وذلك من أخصّ المنافع وأعمّها ، فلْيُقابِلوا هذه النِّعَمَ بشكر الله على ما خصّ دولتَنا به من هذه المَحاسن ، ويُوالُوا حمدَه علىٰ ما متَّعهم به من موادّ عَدْلها التى ماءُ إحسانها غيرُ آسن ، ويبتهِلُوا لأيّامنا الزاهرة بالأدْعيَة التى تُخلِّد سلطانَها ، وتشيد أركانَها ، وتُعْلِي منارَ الدين باعتلائها ، وتُؤيّدها بالملائكة المقرّبين علىٰ أعداء الله وأعدائها . وسبيلُ كل واقفٍ علىٰ مرسُومنا هذا : من وُلاة الأمر أجمعين العمَلُ بمضمونه ، والانتهاءُ إلىٰ مكنُونه ، والمبادرةُ إلىٰ إثبات هذه الحسنة ، والمسارعةُ إلىٰ العمل بهذه المسامحة التى تستدْعى مسارّ القلوب وثناء الألسنة ، وتعفيةِ آثار تلك البواقى التى عفَوْنا عن ذِكْرها ، ومَحْوِ ذكر تلك الأموال التى تعوّضْنا عن استيفائها بأجْرِها .

وهـذه نسخة مرسوم شريف بالمسامحة بالبواقى فى ذِمَم الجُنْـد والرَّعايا بالشام ، كُتب به فى الدولة النـاصرية محمد بن قلاوُون فى شهور سـنة آثنتين وسبعمائة بخط العـلّامة كمال الدين محمد الزَّمْلَكانى(١) من إنشائه ، وقُرِئَ علىٰ المِنْبر بالجامع الأُموى بدمَشق المحروسة ، وهى :

الحمدُ لله الذى وَسِع كلَّ شىء رحمةً وعِلْـما ، وسَمِـع نداءَ كلِّ حىّ رأفةً وحِلْما ، وخصَّ أيامَنـا الزاهرةَ بالإحسان فأنجح فيها مَنْ عـدَل وخابَ مَنْ حَمَل ظُلْمـا ، وزانَ دوْلَتنا بالعَفْوِ والتجاوُزِ فهى تعْتـدّ المسامحةَ بالأموال الجسيمة غُنْما إذا آعتدَّتْها الدُّوَلُ غُرْما .

نَحمَدُه علىٰ نعمه التى غَمَرت رعايانا بإدامةِ الإحسان إليهـم ، وعَمَرت ممالكَنا بمـا نَتعاهَدُ به أهلَها من نَشْر جَناح الرأفة عليهم ، وخفَّفتْ عن أهل بلادنا أثقالَ بواقى الأموال التى كانُوا مطلُوبين بها من خَلْفِهم ومن بيْنِ يدَيْهم ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً لم تزل تشْـفَع لأهلها العَدْلَ بالإحسـان ، وتجمع لأربابها بالرأفـةِ والرِّفق أشـتاتَ النِّعمِ الحِسان ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى جَلا الغُمَّه ، وهدَى الأُمّه ، وسَنَّ الرأفَةَ علىٰ خلْق الله والرحمه ، وحثَّ علىٰ الإحسان إلىٰ ذَوِى العُسْرة لمـا فى ذٰلك من براءةِ كل مشغُول الذِّمَّه ، صلىَّ الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أُمِروا بالتيسير ، وآقتنَعُوا من الدنيا باليسير ، وأوْضحوا طُرُق الإحسان لسالكيها فسَهُل على المقتدى بهم فى الحُنُوِّ علىٰ الأمة الصعْبُ ويُسْر العَسِير ، صلاةً تُدَّخَرليوم الحِساب ، وتُعَدّ للوقت الذى إذا نُفِخ فى الصُّور فلا أنْساب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

(١) نسبة إلى زملكان وقد ضـبطها صاحب القاموس بالـكسر وضـبطها ياقوت فى معجمه بالفتح فلعل فيها روايتين .

وبعـدُ ، فإن الله تعالىٰ لمَّا خصَّ أيامَنـا الزاهرةَ بالفُتُوح التى أنامَت الرعايا ، فى مِهادِ أمْنِها ، وأنالتِ البرايا ، مواقِـعَ يُمْنِها ومَنِّها ، وكفَّت أكُفَّ الحوادث عن البلاد وأهلِها ، ونشَرتْ عليهـم أجنحةَ البشائر فى حَزْن الأرض وسَهْلها ، وأعذبَتْ من الطُّمأنينة مواردَهم ، وعمَّت بالدَّعَة والسكونِ قاطنَهم وراحِلَهم ، وبدَّلتهم من بعد خَوْفهم أمْنـا ، ونوَّلتهم باجابة داعى الذَّبّ عنهم مِنًّا مَنًّا ، رأينا أن نُفسِح لهم مَجَالَ الدَّعة والسكون ، وأن لانَقْنَع لهم بمـا كان من أسباب المَسَارّ حتّى نُتْبِعَها بما يكُون ، وأن نُصَفِّى بالإعفاء من شوائب الأكْدار شِرْبهَم ، ونُؤمِّن بالإعفاء عن طلَب البواقى التى هى علىٰ ظُهورهم كالأوزار سِرْبهَم ، وأن نشْفَعَ العـدلَ فيهم كما أمر اللهُ تعـالىٰ بالإحسان إليهم ، ونضَعَ عنهم بوَضْع هذه الأثقالِ إصْرَهم والأغلالَ التى كانتْ عليهم ، وأن نُوَفِّر علىٰ عمـارة البلاد هِمَمَهم ، ونُبْرِئَ من تَبِعات هـذه الأموالِ اللازمة لهم ذِمَمَهم ، ونُرِيحَ من ذٰلك أسْرارَهم ، ونُطْلِق من رِبْقة الطلب المستمرِّ إسارَهم ، ونُسامِحَهم بالأموال التى أهمَلُوها وهى كالأعمال محسوبةٌ عليهم ، ونُعْفِيَهم من الطلب بالبَواقى التى نسُوْها كالآجال وهى مقدّمةٌ بين يدَيْهم ، لتكونَ بُشْراهم بالنصر كامله ، ومَسَرَّتُهم بالأمن من كل سبيلٍ شامله .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ــ لازال بِرُّهُ عميما ، وفضـلُه لحُسْن النظر فى مَصالح رعاياه مُديمـا ــ أن نُسامِحَ مدينةُ دمشق المحروسـة وسائرُ الأعمال الشامية بمـا عليها من البواقى المُساقَة فى الدواوين المعمُورة إلىٰ المُدَد المعينة فى التذكِرة الكريمة المتوّجة بالخط الشريف ، وجملةُ ذٰلك من الدراهم[1] ألفُ ألفٍ وسبعُمائةِ ألفٍ وستةٌ وأربعون ألفا ومائةُ ألف وخمسةٌ وأربعون درْهما ، ومن الغلال المنوّعة تسعةُ آلاف وأربعُمائة وآثنتانِ وأربعون غِرارة ، ومن الحبوب مائتان وثمـانٌ وعشرون غِرارة ، ومن الغَنَم

(١) لعله « من الدنانير » وحينئذ يستقيم الكلام .

خمسمائة رأس ، ومن الفُولاذِ سِتمائة وثمانيةُ أرطال ، ومن الزَّيْت ألفان وثلثمائة رِطْل ، ومن حَبِّ الرُّمَّان ألفٌ وستُّمائة رِطْلٍ .

فلْيتلقَّوْا هذه النعمةَ بباع الشكر المَدِيد ، ويستقبِلُوا هذه المِنَّةَ بحمد الله تعالىٰ فإنَّ الحمد يستدعى المَزِيد ، ويرْفُلوا فى أيامنا الزاهرة ، فى حُلَل الأمن الضافِيه ، ويَرِدُوا من نِعَمنا الباهرة ، مَناهِلَ السعد الصافيه ، ويُقْبِلوا علىٰ مصالحهم بقُلوبٍ أزال الأمنُ قَلَقَها ، وأذهبتْ هذه المسامحةُ المبرورةُ فَرَقَهَا ، ونفوسٍ أمِنَت المؤاخذَةَ من تلك التَّبِعات بحسابها ، ووثِقَتْ بالنجاة فى تلك الأموال من شِدّة طالبٍ يأبىٰ أن يُفارِق إلّا بها ، وليتوفَّروا علىٰ رفْع الأدعية الصالحة لأيَّامنا الزاهره ، ويتيمَّنُوا بما شَمِلهم من الأمن والمَنِّ فى دولتنا القاهره ، فقد تصدَّقْنا بهذه البواقى التى أبقَتْ لنا أجرَها وهى أكمل ما يُقتنىٰ ، وخفَّفتْ أثقالَ رعايانا وذٰلك أجملُ ما به يُعتنىٰ . وسبيلُ كل واقفٍ علىٰ هذا المرسوم الشريف آعتمادُ حُكْمِه ، والوقوفُ عند حدِّه ورَسْمِه ؛ ويُعفِّى آثارَ هذا الباقى المذكورِ بمَحْوِ رسْمِه واسْمِه ، بحيثُ لا يُترك لهذه البواقى المذكورة فى أموالنا آنتِساب ، ولا يبقىٰ لها إلىٰ يوم العَرْض عرضٌ نُورِده ولا حِساب ؛ والخط الشريف شرفه الله تعالىٰ أعلاه حجةٌ بمقتضاه .

⁂

وهذه نسخةُ مسامحةٍ بمُكُوس علىٰ جهاتٍ مستقْبَحة بالمملكة الطرابُلُسية ، وإبطالِ المنكَرات ، كُتِب بها فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أيضا فى شهور سنة سبعَ عشرةَ وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الدِّينَ المحمَّدىَّ فى أيامنا الشريفة علىٰ أثبتِ عِماد ، وآصطفانا لإشادة أركانه وتنفيذ أحكامه بينَ العباد ؛ وسهَّل علينا من إظهار شعائِره ما رَامَ

مَنْ كان قبلنا تسهيلَه فكان عليه صَعْبَ الانقياد ، وادّخرلنا من أجور نَصْره أجلَّ ما يُدَّخر ليوم يفتقَر فيه لصالح الاستعداد .

نحمَدُه علىٰ نِعَم بلّغتْ من إقامة منَار الحق المُرَاد، وأخمدتْ نارَ الباطل بمُظافرتِنا ولولا ذٰلك لكانت شديدةَ الاتّقاد ، ونكّست رُءُوس الفحشاء فعادَتْ علىٰ آستحياء إلىٰ مُسْتَسنِّها أقبحَ معَاد ، ونشكُره علىٰ أن سَطَّر فى صحائفنا من غُرَر السِّيَر ما تبقى بهجتُه ليوم المَعَاد ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً يجدُها العبدُ يوم يقُوم الأشهاد ، وتَسْرى أنوارُ هَـدْيها فى البرايا فـلا تزال آخذةً فى الازدياد ، ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ بالإنذار إلىٰ يوم التَّناد، والإعذار إلىٰ مَن قامتْ عليه الحجةُ بشهادةَ المَلكين فأوضح له سبيلَ الرَّشاد، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَنْ رَدّ أهلَ الردّة إلىٰ الدِّين القويم أحسَنَ تَرْداد ، ومنهم مَنْ عَمّم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سائرَ العِباد والبِلاد ، ومنهـم من بَذَل مالَه للجاهدين ونفْسَه للجِهاد، ومنهم من دافَع عن الحق فلابَرِح فى جِدالٍ عنه و فى جِلَاد، صلاةً تَهدِى إلىٰ السَّداد، وتقوِّم المُعْوجَّ وتُثقِّف المَيَّاد، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن الله تعالىٰ منذُ ملّكنا أمورَ خلْقِه، وبسَط قُدرتَنا فى التصرُّف فى عباده والمطالبةِ بحقِّه، وفوّضَ إلينا القيامَ بنُصرة دِينـه ، وفَهَّمَنا أنه تعالىٰ قَبَض قبل خَلْق الخلائق قبْضتين فرغِبْنا أن نكونَ من قَبْضة يمينِه ، والقىٰ إلينا من مَقَاليد الممالك، وأقام الحجةَ علينا بتمكين البسطةِ وعدمِ المُشاقق فى ذٰلك ، ومهَّد لنا من الأمر ما علىٰ غيرنا توعَّر، وأعدّ لنا من النَّصر ما أجرانا فيه علىٰ عوائدِ لُطْفه لاعن مَرَح فى الأرض ولا عن خدٍّ مُصَعَّر ــ ألهمنَا إعلاءَ كلمة الإسلام، وإعزازَ الحَلال وإذلالَ الحَرام، وأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا ، وأن لا نختارَ علىٰ دار الآخرة دارَ الدُّنيا ؛ فلم تَزَل تُقيم

للدّين شِعارا، ونُعَفّى للشّرك آثارا، ونُعلِن فى النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله صلى الله عليه وسلم جَهْرا وإسْرارا، ونتّبع أثر كرم نقتفيه، وممطولٍ بحقّه نُوفّيه، ونَعلم حق قُربة نُشَيّده، ومخذولا آستظهر عليه الباطلُ نؤيّده، وذا كُربة نَفرجها، وغريبةَ لخشاءَ آستطْرَدتْ من أدؤر الحق نُخْرجها، وسنّةً سيئةً تستعظم النفوسُ زوالها فنجعلُها هباءً منثورا، وجملةً عظيمة أُسّست علىٰ غير التقوىٰ مبانيها فيَحْطمها كرمُنا فنؤدى الجزاء عنها موفورا، فاستقصينا ذلك فى ممالكنا الشريفة مملكةً مملكه، وآستطردْنا فى إبطال كل فاحشةٍ مُوبِقة مُهْلِكه، فَعفَّينا من ذلك بالديار المصرية ماشاع خَبَرُه، وظهر بين الأنام أثرُه، وطُبّقت بمحاسنه الآفاق، ولَهِجتْ به ألسنةُ الدُّعاة والرّفاق: من مُكوس أبطلناها، وجهاتِ سُوءٍ عطّلناها، ومظالمَ رددناها إلىٰ أهلها، وزجرْناها عن غيّها وجهْلها، وبواقٍ سامحنا بها وسَمَحْنا، وطَلِبات خفّفنا عن العباد بتركها وأرحنا، ومعروفٍ أقمنا دعائمَه، وبُيُوتٍ لله عز وجل أثرْنا منها كل نائمه، ثم بثثْنا ذلك فى سائر الممالك الشامية المحروسه، وجنَيْنا ثمراتِ النصر من شجرات العدْل التى هى بيَد يقظتنا مغروسه.

ولما آتّصل بعلومنا الشريفة أنّ بالمملكة الطرابُلُسية آثارَ سُوء ليستْ فى غيرها، ومواطنَ فِسق لايقدرُ غيرُنا علىٰ دَفع ضررها وضَيْرها، ومَظانَّ آثام يجدُ الشيطان فيها مَجالا فسيحا، وقُرًى لا يوجَد بها من [كان] إسلامُه مقبولًا ولا مَنْ [كان] دينُه صحيحا، وخمورا يُتظاهَر بها، ويتصل سبَبُ الكبائر بسببها، وتُشاع بين الخلائق مُجْهَرا، وتُباع علىٰ رءُوس الأشهاد فلا يوجَد لهذا المنكرَ مُنْكِرًا، ويُحتجّ فى ذلك بمقرّراتٍ سُحْت لا تُجدى نفعا، وتبقى فى يد آخذها كأنها حيّةٌ تَسْعىٰ.

ومما أُنهِى إلينا أن بها حانةً عُبِّرَ عنها بالأفراح قد تطايَرَ شررُها، وتفاقم ضررُها، وجُوهِر فيها بالمعاصِى، وآذنتْ لولا حِلمُ الله وإمهالُه بزلزلة الصَّياصِى، وغَدت لأهل الأهوية مَجْمَعا، ولذوى الفساد مَرْبعا ومَرْتَعا، يُتظاهر فيها بما أُمِر بسَتْره من القاذُورات، ويُؤتَى بما يجب تجنُّبه من المحذورات، ويُسترسَل فى الأفراح بها بما يُؤدِّى إلىٰ غضَب الجبَّار، وتهافَتُ النفوسُ فيها كالفَراش على الاقتحام فى النار.

ومنها — أن المَسْجونَ إذا سُجِن بها أُخذ بجميع ماعليـه بين السجن وبين الطَّلَب، وإذا أُفرج عنه ولو فى يومه انقلَب إلىٰ أهله فى الخسارة بشرِّ منقلَب، فهو لا يجـد سُرُورا بفَرَجه، ولا يجد عُقبىٰ مُخْرَجه.

ومنها — أنَّ بالأطراف القاصية من هذه المملكة قُرَى سُكَّانُها يُعْرَفُون بالنُّصَيرية لم يَلِج الإسلامُ لهم قَلْبا، ولا خالَط لهم لُبًّا، ولا أظهَرُوا له بينهم شِعَارا، ولا أقامُوا له مَنَارا، بل يُخالِفُون أحكامَه، ويجهلون حَلَاله وحرامَه، ويَخْلِطون ذبائِحَهم بذبائح المسلمين، ومقابِرَهم بمقابرِ أهـلِ الدِّين، وكل ذٰلك مما يجب رَدْعُهم عنـه شرعا، ورجوعُهم فيـه إلىٰ سَواء السبيل أصْلا وفَرْعا، فعند ذٰلك رَغِبنا أن نفعل فى هذه الأمور مايَبقىٰ ذكرُه مَفْخَرة علىٰ ممرّ الأيَّام، وتدُومُ بهجتُه بدوام دولةِ الإسلام، ونمحُوَ منـه فى أيامنا الشريفةِ ماكان علىٰ غيرها به عارًا، ونسْترجعَ للحق من البـاطل ثوبا طالمَـا كان لديْه مُعـارا، ونُثْبِتَ فى سيرة دولتنا الشريفة عوارفَ لا تزال مع الزمن تُذْكَر، ونتلو علىٰ الأسماع قولَه تعالىٰ: ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَـدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبىٰ وينْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر﴾.

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف — لا زال بالمعروف آمِرا، وعن المُنْكَر ناهيًا وزاجِرا، ولامتثال أوامرِ الله تعـالىٰ مُسارعا ومبادِرا — أن يُبْطَل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتى ذكره:

جهات

الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجا عما لعله يستقر من ضمان الفرح الخ . وتقديرها



أقصاب

للأمراء بحكم أن بعض الأمراء كان لهم جهات زرع أقصاب وقرروا على بقية فلاحيهم العمل بها والقيام بنظيره آخر العمل . وتقدير ذلك



هبة الشاد

بنواحي الكهف تُشَدّ فيا كان يستأدى من كل مدير وتقدير متحصله



السجون

بالمملكة الطرابلسية خارجا عن سجن طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدم التاريخ وتقديرها



عفاية الشام

بكور طرابلس واقفة والسرون وما معه بحكم أن المذكورين كانوا ثبتوا على المراكز بالبحر فلما شكت المراكز بالعساكر المنصورة قرر على ذلك فى السنة



ضمان

المَشعل بطرابلس مما كان أولا بديوان الشام بالفتوحات ثم استقر بالديوان المعمور فى شهور سنة ست عشرة وسبعمائة وتقديره

سجن الأقصاب

المُحْدَث بأمر أقصاب الديوان المعمور التى كان فلاحو الكُورة بطرابلس يعملون بها ثم أُعْفُوا عن العمل وقرر عليه فى السنة



حق الديوان

بصهيون بطرابلس وقصريون بطرابلس عمن كان معا فى حصنها وتقدير متحصل ذلك



المستحدث

إقطاعا من بعض الأمراء على الفلاحين مما لم تجربه عادة : من حشيش وملح وضيافة . وتقديره



فلْيُبْطَل هــذا علىٰ ممرّ الأزمنة والدّهور، إبطالًا باقيًا إلىٰ يوم النُّشور، لا يُطْلَب ولا يُسْتادى، ولا يَبْلغ الشيطانُ فى بقائِه مُرادا .

ويُقْرأ مرسومُنا هــذا علىٰ المنابر ويُشاع ، وتُستجْلَب لنا منهم الأدعيةُ الصالحةُ فإنها نِعم المَتَاع .

وأما النُّصَـيريَّة فلْيَعْمُرُوا فى بلادهم بكل قَرْيةٍ مسـجدا، ويُطْلَق له من أرض القرية رُقْعــةُ أرضٍ تقومُ به وبمن يكون فيــه من القُوّام بمصالحه علىٰ حَسَب الكِفَاية، بحيثُ يستفزُّ الجناب الفلانىُّ نائبُ السلطنة بالمملكة الطرابُلُسيَّة والحصُونِ المحروسة ضاعف الله تعالىٰ نعمته مِنْ جِهتِه من يَثِق إليه لإفراد الأراضى وتحديدِها وتسليمها لأئمّة المساجد المذكُورة، وفَصْلها عن أراضى المُقْطَعين وأهل البلاد المذكورة ويَعْـمَلُ بذٰلك أوراقا وتُخَلَّد بالديوان المعـمور حتى لا يبقىٰ لأحد من المُقْطَعين فيهـا كلام، ويُنادى فى المقْطَعين وأهـل البلاد المذكورة بصُورة ما رسَمْنا به من ذٰلك .

وكذٰلك رسَمْنا أيضا بمنْع النُّصيريَّة المذكورين من الخطاب وأن لا يُمكَّنُوا بعـد وُرُود هذا من الخطاب جمـلةً كافية ، وتُؤخَذ الشهادة علىٰ أكابرهم ومشايخ قُراهم لئلا يَعُودَ أحدٌ منهم إلىٰ التظاهر بالخِطاب ومَنْ تظاهر به قُوبِل أشدَّ مقابلة .

فلتُعتَمدْ مراسمُنا الشريفـة ولا يُعْدلْ عن شىء منها ، ولْتجْرِ المملكة الطرابلسـيَّة مَجْرى بقيَّة الممالك المحروسة فى عدم التظاهر بالمُنكَرات، وتعفيـة آثار الفواحش وإقامة شعائرِ الدِّين القويم : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يُبَدِّلُونَه إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

وهذه نسخةُ توقيع بالمسامحةِ فى جميع المراكز بما يُستأدىٰ على الأغنام الدغالى الداخلةِ إلىٰ حلب ، وأن يكونَ ما يُستخْرَج من تجّار الغنم على الكِبار منها خاصّةً ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ بنِ فضل الله ، مما كُتِب به فى شهور سنة سبع وثلاثين وسبعمائة، وهى :

الحمدُ لله ذى المواهِب العَميمه، والعَطايا التى لاتجودُ بها يدُ كريمه ، والمِنَن التى عَوَّضَنا منها عن كل شىء بخيرٍ منه قيمه، والمسامحةِ التى ادّخرلنا بها عن كل مال حُسْنَ مآل وبكُلّ غَنَم غَنِيمه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى غَدتْ علىٰ كَثْرة الإنفاق مُقيمه، ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أكرمُ من سَمَحَ وسامح فى أمورٍ عظيمه . صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مستديمه، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فمنذُ ملّكنا الله لم نزَلْ نرغَب إليه، ونعامِلُه بما نَهَبُه له ونَربَح عليه، ولم نُبقِ مملكةً من ممالكنا الشريفة حتى سامحْنا فيها بأموال، وسامَيْنا فيها بنَفْع أرضها السُّحُب الثِّقال ، وكانت جهةُ العِداد بالمملكة الحلبيّة المحروسة مُثْقَلةَ الأوزار بما عليها، مَشْدُودةَ النِّطاق بما يَغُلّ من الطلب يَدَيها، مما هو علىٰ التُّرْكُمان بها محسُوب، وإلىٰ عديدهم عَدَدُه منسوب، ونحن نظُنُّه فى جملة ما أسقطتْه مسامحتُنا الشريفة وهو منهم مطلُوب ، وهو المعروف بالدغالى زائدًا علىٰ الرُّءوس الكبار، ومعدُودا عند الله من الكبائر وهو فى حساب الدَّواوين من الصِّغار، فلمّا اتصل بنا أنّ هذه المَظْلمةَ ما انجلى عنهم ظُلَمُها ، ولا رُفِع من الحساب عنهم قلمُها ــ أكبَرْنا مَوْقِعَ بقائها ، وعلمْنا أنها مدّةٌ مكتوبةٌ لم يكن بُدٌّ من المَصير إلىٰ انقضائها ، واستجلَبْنا قلوبَ

طوائِف التُّرْكُمان بها ، وأوثقنا أسبابَهم فى البلاد بسَببها، لأمرين كِلاهما عظيم : لرغْبتِنا فيما عند الله ولِمَا لهم من حقّ وَلاءٍ قديم ، كم صارُوا مع الجيوش المنصورةِ جُيُوشا، وكم سارُوا إلىٰ بلاد مُلُوك الأعداء فثلُّوا لهم عُرُوشا، وكم كانُوا علىٰ أعقابِ العساكر المؤيَّدة الإسلامية رِدْفا ومقدِّمتهم فى محاصَرة جالِيشا، وكم قتَلُوا بسِهامهم كافرا وقدّموا لهم رِمَاحَهم نُعوشا ، ومنهم أمراءُ وجُنود ، ونُزُولٌ ووُفُود ، وهم وإن لم يكونُوا أهلَ خِباء فهم أهلُ عَمود ، وذَوُو أنسابٍ عريقه ، وأحسابٍ حقيقه ، إلىٰ القَبْجاق الخُلَّص مرجعهم، والفُرْس بفرسان دولتنا الشريفةِ تجمَعُهم ـ فاقتضىٰ رأيُنا الشريف أن نَرْعىٰ لهم هـذه الحقوقَ بإبطال تلك الزيادةِ المراده، وأن نتناسىٰ منها ما هو فى العَدَد كالنَّسِىء فى الكُفْر زِيادَهْ .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ مواهِبـه تشمَلُ الآفاق، وتزيد علىٰ الإنفاق، وتُقدِّم ما ينفَدُ إلىٰ ما هو عِنْـد الله باق ـ أن يُسامَح جميعُ التَّراكمينَ الدَّاخِل عِدادُهم فى ضَمان عِدَاد التُّرْكُمان بالمملكة الحلبية المحروسةِ بما يُستأْدى منهم على الأغنام الدغالى، وأن يكون مايُستخْرَج منهم من العدد على الكِبَار خاصَّـةً : وهو عن كل مائة رأسٍ كِبار ثلاثةُ أرؤُس كِبار خاصَّةً لاغير من غير زيادةٍ علىٰ ذٰلك، مسامحةً مستمرّه، دائمةً مستقرّه ، باقيةً بقاءَ الليالى والأيام، لا تُبَدَّل لهـا أحكام، ولا تتغيّر بتغيُّر حاكم من الحُكَّام ، نرجو أن نُسَرَّ بها فى صحائف أعمالنا يومَ العَرْض ، لا يتأوّل فيها حِسَاب، ولا تمتدّ إليها [يدُ] حُسَّاب ، ولا يبقىٰ عليها سبيلٌ للدواوين والكُتَّاب ، ولا تُسَيَّب أغنامُهم ليَرْعاها منهم أُولٰئك الذِّئاب، كُلَّما مَرَّ علىٰ هذه المسامحة زمانٌ أكّد أسبابَها، وبيَّض فى صحائف الدفاترِ حِسَابَها، لا تُعارَض ولا تُناقَض ولا يتأوَّلُ فيها متأوِّل فى هـذا الزمان ولا فيما بعدَه من الزمان، ولا يدخل حُكْمُها فى النسيان ، ولا يُنْقَص أجرها المضمُون ، ولا تُطلَب أصحابُ هذه الدغالى عليها بعدَاد فى قَرْن من القُرون ،

ولا يُستحقَر بما يُستأدَى منها جليلةٌ ولا حقيرة، ولا يَسْمَح لنفسه من قال إنها صغيرةٌ وهى عِنـدَ الله كبيرة: لتَطيبَ لأهلها ومن تسامَعَ بمـا شَمِلهم من إحساننا الشريف النُّفُوس، ولا تُصَدَّع لهم بسبب هـذا الطَّلَب رُءُوس، فمَن تعرّض فى زماننا أمدّنا اللهُ بالبقاء أو كَشَف فى هذه الصدقة الجارية وجْهَ تأوِيل، أو سكن فيها إلى مُداومةِ بقليل، أو طلَبَ من ظالم بِعَيْنِه مُداواةَ قولِه العليل، فسيجدُ ما يُصْبِح به مُثْـلَة، ويتوبُ به مثلُه ويكون لمن بعده عِبْرةً بمن قُدِّم قبلَه، ونحن نبرأُ إلى الله ممن يتعرّضُ بعدَنا إلى نَقضها، وهذه المسامحة عليه حجَّتُنا التى لا يَقْدِر عندَ الله على دَحْضِها.

ولتُقْرأْ على المنابر وتُعلَ كلمتُها، وتمُدَّ فى أقطار الأرض كما امتدّ السحابُ رَحْمتُها، وسبيلُ كل واقفٍ عليها من أرباب الأحكام: أصحاب السيوف والأقلام، ومن يتناوبُ منهـم على الدَّوام، العملُ بمـا رسمنا به واعتمادُ ما حكم بموجبه، بعد الخط الشريف شرفه الله تعالى أعلاه. إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثـانية — من المسامحـات أن تُـكتَب فى قطع العادة مفتتحةً برسم بالأمر الشريف.

وغالبُ ما يُكتَب ذلك للتجار الخَواجَكية بالمسامحة بمـا يلزمُهم من المُكُوس والمقرَّرات السلطانية عن نظير ثمنٍ ما يُبتاع منهم من المماليك.

والعادةُ أن يكتب فى طُرَّتها «توقيعٌ شريفٌ بمسامحةِ فلان بمـا يجبُ عليـه من الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية» بحسَب ما رُسِم له به.

وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهى:

رُسِم بالأمر الشريف — لا زال يُتْبِـع السَّماحَ بمثله، ويشْمَل الرعايا كلَّ وقتٍ فى ممالكه الشريفة بعدْله، ويُواصِل إليهم رفقَـه ورِفْدَه فلا يبرحُون فى مهادٍ من

نِعَمِه وإسعادٍ من فضله ـ أن يُسامَحَ المجلسُ السامى (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى رفعته بما يجبُ عليه من الحقوق الدِّيوانيـة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وسائر الممالك الإسلامية، فيما يَبيعه ويبتاعُه ويتعوّضُه من سائر الأصناف خَلَا الممنوعات: صادرًا لا غيرُ أو صادرًا وواردًا، بنظير المماليك الذين ابتاعهم برَسْم الأبواب الشريفة بكذا وكذا ألفَ درهم .

فليَعتَمِدْ هـذا المرسومَ الشريف كلُّ واقف عليه ويعمَلْ بحَسبِه ومقتضاه، من غير عُدُول عنه ولا خُروج عن حكمه ومعناه، والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجةٌ بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .

+ + +

وهذه نسخةُ دعاءٍ آخر يفتتَح به توقيعُ مسامحة، وهو: لازالَتْ نِعمُه عميمه، وسَجاياه كريمه، ومواهِبُه فى الآفاق سائرةٌ وفى الأقطار مُقيمه، أن يُسامَح فلان بكذا وكذا .

آخــر : لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تحقِّق وسائلَ طالبها، وأوامِرُه المطاعةُ نافذةٌ فى مَشارق الأرض ومَغاربها، أن يسامح فلان بكذا وكذا .

قلت : والعادةُ فى مستَنَد ذلك أنه تُحَضَّر به قائمة من ديوان الخاص الشريف فيَكْتُب عليها كاتبُ السر بالتعيين، ويخلِّدها كاتبُ الإنشاء عنده شاهدا له بذلك كما فى غيره من سائر المستَنَدات .

الضــرب الثانى

(ما يُكتَب عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

وغالب ما يكونُ فى مسامحات التُّجار بمقرَّر ما يبتاعونه أو يشترُونه، أو بقدْرٍ معيَّن يحصل الوقوفُ عنـده، ويعبَّر عمـا يكتب فيه بالتواقيع كما فى الولايات عندهم، وأكثرُ ما يُفتتح برُسِم بالأمر .

وهذه نسخة مرسوم شريف بمسامحة كُتب بها عن نائب الشام فى الدولة الناصرية «فرج» لخواجا محمد بن المُزَلِّق، وهى :

رسم بالأمر العالى – لا زال قصدُ ذوى الحقوق عنده ناجحا، وإحسانُه للمُقرَّب إليه مسامِحا – أن يُسامحَ الجناب العالى، الصَّدْرِىّ، الكبيرِىّ، المحترَمىّ، المؤتمنىّ، الأوحدىّ، الأكملىّ، الرئيسىّ، العارِفىّ، المقرَّبىّ، الخواجكىّ، الشمسِىّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الأكابر فى العالمين، أوحدُ الأمناء المقرّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُّدور، عينُ الأعيان، كبير الخواجكيه، سفيرُ الدوله، مؤتمن الملوك والسلاطين: محمدُ بن المزَلِّق، عينُ الخواجكية بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة – أدام الله تعالىٰ نعمتَه – بما يجب عليه من الحقوق الديوانية بالطُّرقات المِصْرية، وجميع البلاد الشامية المحروسة والزكاه بدِمَشْق، وحلَب، وطرابُلُس، وحماةَ، وصفَد، وغزَّة، وحمْص، وبَعْلَبَكَّ المحروسات، والبروك، والمقطعين، وقَطْيا، مما يَبيعه ويبتاعه ويتعوّضُه من جميع الأصناف خلا الممنوعات صادرًا وواردًا، ويُثمَّن عليه بقيمة ما يشتريه بما مَبْلَغُه من الدراهم النُّقرة الجيِّدة مائتا ألف درهم، ولا يُطالَبُ عن ذٰلك بحقٍّ من الحقوق ولا بمقررٍ من المقررات، مسامحةً باقيةً مستمره، دائمة أبدًا مستقِره، لا يَنتقضُ حكمها، ولا يغيَّرُ رسمُها، لخدْمته الدُّوَل على آختلافها، ولمبالغته فى التقرّب بما يُرضِى الخواطرَ الكريمةَ وينفع الناس بما يُحْضِره من أنواع المتاجر وأصنافها، ولآستحقاقه لهذا الإنعام، ولآختصاصه به دُونَ الخاصّ والعام.

فليتلَقَّ ذٰلك بالحمد والآبتهال، والله تعالىٰ يُبلِّغه من مَزِيد إنعامنا الآمال، والآعتمادُ فى معناه، علىٰ الخط الكريم أعلاه. إن شاء الله تعالىٰ.

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة السادسة

(فيما يكتب من الإطلاقات : إمّا تقريرا لما قرّره غيرُه من الملوك السابقة، وإمّا ابتداء لتقريرِ مالم يكن مقرّرا قبلُ، وإما زيادةً على ماهو مقرّر، وفيه طرفان)

الطرَف الأوّل

(فيما يُكتَب عن الأبواب السلطانية ، وهو على ثلاث مراتِبَ)

المرتبة الأولى

(ما يُكتَب فى قطع الثلث مفتتحًا بالحمد لله ، وهو أعلاها)

وهذه نسخةُ توقيع شريف باستقرار ما أطلقه السلطان صلاحُ الدين يوسفُ آبنُ أيوب بالديار المصرية للعُمَريِّين أعصابِ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، كُتِب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله الذى أبْدأ الجميل وأعاده، وأجْرى تكرُّمنا على أجمل عادَه ، وقفّى بنا آثارَ الذين أحسنُوا الحُسْنى وزيادَه .

نحمَدُه على أن جعل جُودَنا المقدَّمَ وإن تأخّر أياما، والمُطَيِّب لذِكْرِ من تقدّم حتّى كأنما حالُه مثلُ المِسكِ خِتاما، والصَّيِّبَ الذى تقدّمه من بَوادر الغيث قطْرٌ ثم آستهَلَّ هو غَمَاما ، ونشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نرفَع أعلامها ونمنَعُ أن تَطْمِس الليالى لمن جاهد عليها من ملوك الزمان أعْلاما ، ونشهد أن سيدنا محمدًا

عبدُه ورسوله الذى هدىٰ به إلىٰ أوضح المسالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فتحُوا من الأرض ماوُعِد أنه سيبلغُ مُلْكُ أمته إلىٰ مازُوِى من ذٰلك، وسلم .

وبعدُ، فإن أفضل النِّعم ماقُرِن بالإدامه، وأعظمَ الأجور [أجْرُ] من سَنَّ سنةً [حسنةً] فله أجْرُها وأجْرُ من عَمِل بها إلىٰ يوم القيامه، وأحسَنَ الحسناتِ ما رَغَّبت السلفَ الصالحَ فى خَلَفهم، وأمَرَّتْ بأيديهم ماحازُوه من ميراثِ سَلَفهم، وكان المولىٰ الشهيدُ الملكُ الناصرُ صلاح الدين، منقذُ بيتِ المَقْدِس من المشركين، أبو المظفَّر يوسفُ بن أيوب ـ قدّس الله رُوحَه ـ هو الذى كان علىٰ قواعد العُمَرِيَّين بانيا، والفاتحَ لكثيرٍ من فتوحاتِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فُتوحًا ثانيا، ولما أعلى اللهُ بمصر دولتَه المُنيره، ومحا به من البِدَع الإسماعيلية عظائمَ كثيره، حَبَّس ناحيةَ « شَبَاس المِلْح » وما معها جميعُ ذٰلك بحدّه وحُدُوده وقريبِه وبعيده، وعامره وغامِره، وأوّلِه وآخره، على المُقيمين بالحرمين الشريفَيْن من الذُّرِّية العُمَرِيَّة، كما قاله فى توقيعه الشريف المكتَتَب بالخط الفاضل عمر الأنام، واْقتفى بهداه بعده من إخواننا الصالحين ملوكُ الاسلام، بجَدّدْنا لهم هذا التوقيع الشريف تبرُّكا بالمشاركة واستدراكِ ما فاتنا مع سَلَفهم الكريم بالإحسان إلىٰ أعقابِهم . ومرسومُنا أن يُحمَلُوا علىٰ حكم التوقيع الشريف الصَّلاحىِّ وما بعده من تواقيع الملوكِ الكِرام، ولا يُغَيَّر عليهم فيه مُغَيَّرٌ من عوائد الإكرام، ولا يُقبَلَ فيهم قولُ معترِض ولا تَعترِضَ إليهم يَدُ متعرّض، ولا يُفْسَح فيهم لمستعيص إن لم يكن رافضًا فإنه برفض حقّهم مترَفِّض، وليعامِل اللهَ فيهم بما يزيدُ جَدَّهم رضى الله عنه رِضًا، ويُحبَّس تحبيسا ثانيًا لولانا لقِيلَ لمن يُطالِب بها كيف تُطالب بشىءٍ مضىٰ مع مَنْ مَضىٰ ، ونحن نبرأ إلىٰ الله ممن سعىٰ فى نقضِها بسببٍ من الأسباب، أو مدَّ فيها إلىٰ فتح بابٍ، أو تأوّل فى حكم هذا الكتاب عليهم وقد وافق حُكْمُ جَدّهم حكْمَ الكِتاب، وأن لا يُقْسَم شىءٌ من رَيْع

هـذه الناحية على غير المقيمين منهم بالحرمين الشريفين . ومَنْ خاف على نَفْسه في المُقام فيهما ممن كان فى أحدهما ثم فارقه على عَزْم العَوْد إلى مكانه ، وأقام وله حنينٌ إلى أوطانه ، ولم يُلْهِه استبدالُ أرض بأرض وجيرانٌ بجيرانٍ عن أرضه وجيرانه ، إتباعا لشرطها الأول بمثله ، وآتباعا فيها (؟) فاز مع السابقين الأوّلين بمزيد فضله .

ولْيكُنِ النظرُ فيه لأمثل هذا البيتِ من المستحقين لهذا الحُبُس كابراً عن كابر ، ناظرًا بعد ناظر ، اتّباعا للمراد الكريم الصَّلاحىّ فى مرسومه المقدّم ، وتفسيراً لمن لا يَفْهَم ، من غير مشاركةٍ معهم لأحدٍ من الحُكّام ، لا أربابِ السيوف ولا أربابِ الأقلام : لنكونَ نحنُ ومحبِّسها — أثابه الله على هذه الحسنةِ — متناصِرَيْن ، ولتجد البقيّةُ التى قد ناصرها ناصرَيْن الناصرُ الأوّلُ منهما بناصرين ، وليحْذَر من تَتَبَّع عليهم تأويلا ، ومن وجَدَ فى قلبه مرضًا فأعداهُمْ به تعليلا ، فما كتبناه لتأويلٍ حصل عليهم ، ولا لتعليل المراسيم المُلُوكية التى هى فى يدَيْهم ، وإنما هو بمثابةِ إسجال آتّصل من حاكمٍ إلى حاكم ، وسيفٍ جدّدنا تقليدَه ليُضْربَ به على يَدِ الظالم ، وجُودٍ أعلمنا من يجىءُ أنه على مدَى الليالى والأيام ضَرْبٌ لازم ، وفضلٍ إن تقدّمنَا إليه من الملوك الكرامِ حاتِم ، فإنّ كَرَمنا عليه خاتِم ، فقد نَبّهوا رحمهم الله مكافأةً على إحسانهم إلى الذرّية العُمَرية عُمَرا ، ثم ماتُوا وأحالُوا على جُودِنا المحمدىّ فإنهم ببركاتِ من سُمِّينا باسمه صلى اللهُ عليه وسلم لأنواع الحسنات أُسَرا . فكان توقيعُنا هـذا لهم بمنزلة الخاتمة الصالحه ، والرحمةِ التى أرْبَتْ أوائلُها على الغيوثِ السائحه ، فلقد تداركْنا رمَق بِرِّهم المعَلّل ، ولحِقْنا سابقَ معروفهم فلم نتمهّل ، وأعدْنا ما بَدَأُوا به من الجميل فتكمل ، وقرَنّا مراسيمنا المطاعةَ بعضَها ببعض وربما زاد الآخرُ على الأوّل ، فأمددْناها منه بما لو لم يكن مِدادُه أعزّ من سَواد القَلْب والبصر لما كان قُرّةَ عين لمن يتأمّل : ليرتفع عن هذه الناحيةِ وعُمَرُ فيها كلُّ كارثٍ كارث ، ويُزالَ عنهم إلا ما يكونُ من مجدّدات

الخير خيرُ حادث، ويعلَمَ المَلِكان المتقدّمان أمامنا أن نُعزِّز بثالث . وجميع النوّاب والولاة والمتصرّفين، والمسارعين إلى الخيرات ونعوذُ بالله من المتوقّفين، ومن يدخُلُ فى دائرة الأعمال ، وينضمُّ إلى راية العُمّال ، فانا نُحذّره أن يتعرّض فيها إلى سُوء مآل ، أو يردّ منها يدَه إلى جيبه بمال ، أو يُشوِّش على أهلها ما آستقامُوا على أحسن حال ؛ وإن يحمَدِ الله من تقدّمنا من الملوك واتّبعُوا فيه التوفيقَ فى علاماتهم فإنا نحمَدُه وهو أملُنا ولنا فى الغيْب آمال ، والله تعالى يجعلُ هذه الحسنةَ خالصةً لوجهه الكريم ، معوّضة منه بالثواب العظيم ، واصلةً بالرحمة لرميم هـذا البيتِ القديم ، إن شاء الله تعالى ، والاعتماد ... ...

المرتبـــة الثـانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعد حمـــد الله»)

وهو على نحو ما تقدّم فى الولايات : إما فى قَطْع الثلث أو فى العادة المنصوريّ .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك ، وهى :

أما بعْدَ حمد الله الذى جعل أيّامنا مطْلَعا للسّعاده ، وجعل لأوليائها ، من إحساننا الحُسْنَى وزياده ، وأضفَى حُلَل بهائها ، على من لم يجتَمِع لغـيره ما آجتَمَع له من أوصاف السِّياده ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ عبدِه ورسوله الذى شيَّد اللهُ به مَبانِيَ الدين الحنيفيِّ ورفَع عِمـاده ، ونصَر جيوشَ الإسلام ومهّد مِهاده ، وعلى آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من جعـل طاعتَه ونُصرتَه عمدتَه وآعتِمادَه ، وآتخذ مُظافَرته ومُؤازَرته فى كل أمرٍ عَتادَه ، صـلاةً مستمرّةً على كَرِّ الجديدين إلى يوم الشَّهاده ـ فإنَّ أوْلَى من تلحَظُه دولتنا الشريفةُ فى أقبالها بمزيد إقبالهـا ، وتُعلِي قدرَه إلى غاية

تقْصُر الأفلاكُ عن إدراك مَنَارها وبُعْدُ[(١)] مَنَالها ، وتُضاعِفُ له أسبابَ الإحسان من حُسْن نَظَرها وآشتمالها ، وتُشَيِّدُ مبانِيَ عِزِّه فلا تصل يدُ الزمن إلىٰ بعض تصرُّمها ، وتُسْبِغ ملابسَ النِّعم عليه فيختالُ فى أضْفاها ومُعْلَمِها ، وتجدد من مزايا جُودِها ما يحسُن به الجزاءُ عما أسلفَه من خِدَمها ـ مَنْ نظر فى مصالح أحوالها المنصورة فأحسنَ النظر ، وعَضَد أنصارَها بآرائه التى تُشْرِق بها وجوهُ الأيّام إشراقَ الدَّرارِيِّ والدُّرَر ، وأضحىٰ وله فى العَلْياء المحلُّ الأثيل ، والمناقبُ التى هى كالنهار لا تحتاجُ إلىٰ دليل ، والسيادةُ التى تكسُو الزمنَ حُلَل البهاء فيَجُرّ منها على المَجَرَّة ذيلا ضافيًا ، والمآثرُ التى لولا ما أحيَتْه من مَعَالم الرياسة كان طَلَلا عافيا ، معَ ماله من الحقوق التى تشكُرها الأيّامُ والدُّول ، والخِدَمِ التى كم بلغَ بمخالصته فيها من قَصْد وأمَل ، والسَّجايا التى إذا خلعَتَ عليها حُلَلا من الثناء وجدْتها منه فى أبهىٰ الحُلَل .

ولما كان فلان هو الذى تحلّىٰ من هذا الثناء بدُرِّه الثَّمين ، وتلقّىٰ رايةَ هذا المجد كما تلقّاها عَرَابةُ باليمين ، وتنضَّدتْ كواكبُ هذا المَدْح لتنتظم سِلْكا لمآثِره ، وآتَّسقتْ فرائدُ هذا الشكر لترُصَّع عقودًا لمَفاخِره ـ وجب علينا أن نُجدِّد له فى أيامنا ما تتضاعف به أسبابُ النِّعم لدَيْه ، ويتحقَّق منه إقبالنا بوجْه الإقبال عليه .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ زاد الله تعالىٰ فى عَلَائه ، وأضْفىٰ علىٰ أوليائه حُلَلَ آلائه ، وأبقىٰ على الزمن بوُجُوده رَوْنَق بَهائه ـ أن يستقرّ للمشار إليه فى الشهر كذا وكذا مُضافًا إلىٰ غير ذٰلك من لحم وتوابِلَ وعَليق علىٰ ما يشْهَدُ به الديوانُ المعمُور إلىٰ آخرِ وقت ، فليتلَقَّ إحسانَنا بيد استحقاقٍ لها فى الفضل باعٌ شدِيد ، وَيثِقْ منّا بالإقبال الذى لا يزَالُ عنده إن شاء الله وهو ثابتٌ ويَزِيد ، ويتناوَلْ ما قُرِّر باسمه فى كل شهر من آستقبالِ تاريخه بعد الخطِّ الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله لارتفاعها وبعد الخ .

المرتبـــة الثـالثة

(ممـا يكتب به فى الاطـلاقات)

أن يُكتَب فى قطع العـادة مفتتحا برُسِم بالأمر الشريف ، والرسمُ فيـه علىٰ نحو ماتقدّم فى الولايات ، وهو أن يقـال : « رسم بالأمر لا زال ... ... أن يستقر باسم فلان كذا وكذا : لأنه كذا وكذا » ونحو ذلك .

وهـذه نسخة توقيع شريف بمرتَّب على الفرَنْج الجُرْجان الواردين لزيارة القُدْس أنشأْته لشرف الدِّين قاسم ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال عدْلُه الشريفُ لمال الفَىْء بينَ ذَوِى الاستحقاق قاسمـا ، وفضلُه العميمُ لأُولى الفضـل فى سِلك الصِّلات ناظِما ، ومعروفُه المعروفُ لمواقع البِّر بتُوْم عالمـا وبيبيت غانما ـ أن يستقرّ لمجلس القاضى فلانِ الدين علىٰ الفَرَنْج الجُرْجان الواردين لزيارة قُمَامةَ بالقُدْس الشريف كذا وكذا : لمـا اشتمَل عليـه : من مُبِين العلم ومَتِين العمل وجميلِ السِّيره، واجتمع لديْه : من طَيِّب الذِّكْر وجميل الأثَرِ وصَفْو السَّريره، ولإقامته بالمسْجدِ الأقْصىٰ الذى هو أحدُ المساجد الثلاثةِ التى تُشَدّ الرحالُ إليها، وإحدى القبلتين المعوّلُ فى أوّل الإسلام عليها، ومُجاورةِ الصَّخرة المعظّمه ، والآثارِ الشريفةِ والأماكن المكَرَّمه ، وقيامه بمـا يجبُ من الدعاء لدولتنا القاهره ، والابتهالِ إلىٰ الله تعالىٰ بدَوام أيَّامنا الزاهره .

فليتناوَلْ هذا المعلومَ مُهنّأً مُيَسَّرا ، وليَرْجُ من كرمنا الوافر فوقَ ذلك مَظْهَرا ، وليُشْهِرْ سلاحَ دعائه بتلك الأماكن الشريفةِ علىٰ أعداء الله وأعداء الدِّين ، ويَرْمِهم بسِهام الليل التى لا تُخْطِئ إن شاء الله تعالىٰ الطُّغَاة المتمرّدين ، فبذلك يستحقُّ هذا السَّهم من الفىْء حقًّا، ويُعَدّ من المقاتِلةِ الذَّابِّين عن الإسلام صِدْقا، وليَقُمْ علىٰ جادّة

الاستقامة فى الدّين وليُكُنْ مما سوىٰ ذٰلك بريًّا ، ويقابِلْ هو ومثله إنعامنا بالشكر يتلُو عليهم لسانُ كرمنا فكلوه هنيًّا مَريًّا ، والخط الشريف أعلاه ... ...

∴

وهذه نسخة توقيع شريف أيضا أنشأتُه باسم بهاء الدّين أبى بكر بن غانم كاتبِ الدَّسْت الشريف بالشام المحروس باستمرار مُرَتَّبه على الفَرَنْج الحُرْجان الواردين إلىٰ ثغر الرملةِ المحروسِ ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُ كَرمه يزين ببهاء حسنه المكارم ، وكَرَمُ إحسانه تتراكم سحائبُه الهاميةُ فتُزْرِى بالسُّيول وتَهْزأ بالغمائم ، وفىءُ نواله يُقْسَم فى أوليائنا خلَفًا بعد سَلَف فهم من فضله بين غانمٍ وابنِ غانم ـ أن يستقرّ مرتَّب المجلس السامى ... ...(١)

(١) لم يذكر الطرف الثانى وهو ما يكتب عن النواب فتنبه .

الباب الثالث

من المقالة السادسة فى الطَّرْخانيّات

والمرادُ بها أن يصيرَ الشخصُ مسمُوحا له بالخِدَم السلطانية : يُقيم حيثُ شاء ، ويرتحِلُ متىٰ شاء : تارةً بمعلوم يتناوَلُه مجّانا، وتارةً بغير معلوم، وفيه فصلان :

الفصل الأوّل

فى طَرْخانيّات أربابِ السُّيوف

وآعلم أنّ الطرخانية تُكتَب للأمراء تارةً وللأجناد أُخرىٰ، وأكثرُ ما تُكتب لمن كبِرتْ سِنُّه وضعُفت قُدرتُه وعجَز عن الخِدمة السلطانية .

وقد جرتِ العادةُ أن يسمّى مايكتب فيها مراسيم، وهى علىٰ ثلاث مراتِبَ :

المرتبة الأولىٰ

(أن يُفتَتح المرسوم المكتتَبُ فى ذلك بالحمدُ لله)

والرسمُ فيه علىٰ نحوٍ من الولايات : وهو أن تُستوفى الخطبةُ إلىٰ آخرها، ثم يقال: وبعدُ، ثم يقال : ولما كان فلانٌ ونحو ذلك، ثم يقال : آقتضىٰ رأينا الشريف، ثم يقال : فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقِرّ فلانٌ طرخاناً يتصرّف على آختياره يسيرُ ويُقيم فى أىّ مكان اختاره من بلاد المملكة، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك .

وهذه نسخة مرسوم شريف بطرخانيّةٍ لأمير، وهى :

الحمدُ لله اللطيف بعباده الرءُوف بخَلْقه، المانِّ بفضلِه الغامِرِ بجُوده الجائد برِزْقه، المتفضِّل علىٰ العبد : فى الصِّبا بصَفْحه وفى الكُهولة بعَفْوه وفى الشَّيْخُوخة بعتْقه .

نحمَدُه علىٰ أن جَبَلنَا علىٰ اصطِناع الصنائِع، وخَصَّنا برَفْع العوائِق وقَطْع القَواطع، وألهَمنا عطفَ النَّسق و إن كثُرتْ مما سِواه التَّوابع، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُسْكِن الرحمةَ فى قَلْب قائلها، وتَرْفَع سطوةَ الغضب عن متَحلِها فى أواخِر السَّطْوة وأوائِلِها، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفضَلُ نبىٍّ أوْعد فعفَا، وأكرَمُ رسول وَعَد فوفىٰ. صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين سلكُوا فى المعروف سَنَنه، ونهجُوا فى الإحسان إلىٰ الخَلْق نَهْجَه فكان لهم فى رسولِ الله أُسْوةٌ حسَنه، صلاةً تُقِيل العَثَرات، ونتلو بلسان قَبُولها ﴿إنَّ الحَسَنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئات﴾ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فإن أوْلىٰ مَن رمَقتْه المراحم الشريفة، بعيْن عِنايتِها، ولحظَتْه العواطفُ المنيفة، بلَحْظ رعايتِها، (١) مالا يُفارقه ولا يُباين، وأن لا يُحطَّ من قدْره العالى بسبب ما اتّفق إذ كلُّ مقدَّر كائن، وأن يُصرَّف اختياره فى الإقامة حيثُ شاء من الممالك المحروسة والمَدائن.

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف - لا زال من شِيَمِه السَّماح، ومن كرمه بلُوغُ النجا والنَّجاح، ومن نِعَمه الصَّفْحُ عن الذَّنْب المُتَاح، حتّٰى يَحفَظ علىٰ الأنفسِ النفيسة الأموالَ ويُرِيحَ لها الأرواح، [ولا برح يُولى](٢) من قِسْمة المكْرُمات مايُنْسى به الذَّنب فكأنّه كان برقًا أوْمض ولَمح وراح - أن يكونَ المُشارُ إليه طَرْخانًا يُقيم حيثُ شاء وأين أرادَ من البلاد الإسلامية المحروسة مُعامَلا بمزيد الإكرام والاحترام، وأوفَرِ العِناية والرِّعاية حسَبَ ما اقتضته المراسيمُ الشريفة فى ذٰلك عند ماشمِلتْه الصدقاتُ العميمةُ والمراحِمُ الشاملةُ بالعفو الشريف، والحُكْم المنيف، والإقبال والرِّضا،

(١) بياض فى الأصل ولعله «من أهله اخلاصه فى الخدم لأن يقوم مقاما الخ».
(٢) زدنا هذه الجملة لينتسق الكلام.

والصَّفح عمَّا مَضىٰ، لما رأيناه من تَرفيـه خاطره، وقَرار قلبه برفْع التكليف عنه وقُرَّة ناظره . ولما تخلَّقتْ به أخلاقُنا، من التيمُّن الذى ألبَسه أثوابَ الأمَان، وجُبلت عليه طِباعُنا، من الرأفة والرحمة والراحمُون يرحَمُهم الرحْمٰن ؛ ولما مَهَّده له عنـدَنا اعترافُهُ الذى هو له فى الحقيقة أقوى شَفاعه، ولمَا تحقَّقناه من أنه لم يفْعَل ذلك الا لوفُور الطاعة التى أوجبتْ له الإرهابَ إذ الهَرَب من الملوك طاعه، وكيف لا وقد تيقَّن سُخْطَنا الشريف وعلِم، وخشِىَ مهابَتنا الشريفةَ ومَنْ خاف سَلِم .

فليتقلَّدْ عقُودَ هذه المِنَن التى طوَّقت جِيدَه بالجُود، وليشكُرْ مواقِعَ هذا الحِلْم الذى سَرَّ وسار كالمَثَل السائر فى الوُجُود، وليُقابِلْ هـذا الإقبال بالدعاء لأيَّامنا الزاهره، وليحْظَ بمواهبنا العميمة وصَـدَقاتنا الباهره، وليُحِطْ عِلْما بأنَّ إحساننا العميمَ قد أعاد إليه ما ألِفَه من الإسـعاد والإصعاد، وأنَّ صَفْحنا الشريفَ قد أضربَ عمَّا مضىٰ والمـاضى لايُعاد، فليُقِمْ حيثُ شاء من البلاد المحروسه، متفيِّئا ظلالَ مواهبنا التى يَغْدو وسرائُره بها مأنوسـه ، وارداً بحارَ عطايانا الزاخره ، ممتَّعـا بملابس رضانا الفاخره، طيِّبَ القلب منبسط الأمَل، مُنْشرح الصدر بما عمَّه من الإنعام وشَمَل، مَرْعىَّ الجنابِ فى كل مكان ، معظَّم القَـدْر علىٰ تَوالى الأزمان، مبتهجا بفَقْد ماعَرَض من ذلك التقطيب، مستبشرا بإقبالنا الذى يَلَذُّ به عيشُه ويَطيب، والله تعالىٰ يُديم له عوارِفَنا المُطْلَقه ، وغمـائم كرمنا المُغْـدِقه ، ومواهبَنا التى انتشرَتْ له فى كلِّ قُطْر فهى لأنْواع العطايا مستغرِقه، ومِنَنَنا التى تسير معه حيثُما سار وتُقيم لدَيْه أنَّى أقام فلا تَزالُ عنده مخيِّمةً فى الأماكن المتفرِّقه ، والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

المرتبـــــة الثـانية

(أن يفتتح مرسومُ الطَّرْخانية بـ«أما بعد»)

والرسمُ فيه كما فى الولايات أيضا يقال فيه [أما بعد] فإن كذا وكذا ، ثم يُقـال : ولمـا كان كذا وكذا ، اقتضى رأينا الشريف ، ثم يقـال : ولذلك رُسِم بالأمر الشريف ، ويكمَّل عليه .

وهذه نسخة مرسوم من ذٰلك ، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى أوزَعَتْنا بالإحسان إلىٰ عباده أداءَ شُكْرِها ، وآلائِهِ التى ألهمَتْنا بالتخفيف عن بريَّته اقترانَ محامده بذِكْرِها ، ومِنَنِه التى وفَّق بهـا دولتَنا الشريفةَ لأن يكونَ العـدلُ والإحسان أوْلىٰ ما أجرَتْه بفِكْرِها ، وأحقَّ ما أمَرَتْه بذُكْرِها . والصلاةِ والسـلامِ علىٰ رسوله الذى أوضح سُبُلَ المعروف ، وشَرَع سَنَن العَدْل المألوف ، ووصفَه الله تعالىٰ بالرأفة والرحمة فبه يَقْتدِى كلُّ رحيم وبه يأتمُّ كلُّ رءُوف ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين رفعُوا منَار العدل لسالِكِه ، وقرّبُوا منَـالَ الفضل لآخِذِه وبيّنُوا الحَيْف والاشـتِطاط لتارِكه ـ فإن الله تعـالىٰ خصَّ أيامنا الزاهرة بتعاهُدُ أهل خدْمتِنا بالعَدْل والإحسـان ، وتفقُّد رعايانا بإزالةِ ما يكدِّر عليهم مواردَ النِّعم الحِسان ، فلا نزال نُنْعِم النظرَ فى أمورِهم ، ونُفِيض عامَّ إحسـاننا علىٰ خاصِّهم وجُمْهورهم ، ليناموُا من عدلنا فى مِهَاد الدَّعَة ، ويبِيتَ ضعيفُهم من مراحمنا الشريفة فى أتمِّ رأفة وفقيرُهم فى أوفرِ سَعة .

ولمـا كان فلانٌ ممن توفَّرَ فى الخدمة الشريفة قِسمُه ، وكَبِر فى الطاعة سِنُّه ووهَن عظْمُه ، وعجزتْ عن الركُوب والنزول حركتُه ، وذهبتْ مواقِفُ حَرْبه ولم يبقَ إلا أن تُلتَمَس بركتُه ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يُضاعَف إليه الإحسان ، ويُعامَل بوافرِ البِرِّ وجزيلِ الامتنا ن . . . .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُوالى المِنَن، ويُولِى الأولياء من المعروف كلَّ جميلٍ حسَن ـ أن يستقرّ المذكورُ طَرْخانًا لا يُطلَب لخدمة فى نهارٍ ولا ليل، ولا يُلزَم بالقيام بتَزْك(١) ولا خيل، فلْيُمْضَ حكمُ هذه الطَّرْخانية لا تتأوّلُ ألسنةُ الأقلام فى نصِّه، ولا تتطرّق أوهامُ الأفهام إلى اعتراضِ ماثبت من إعفائه بنقضِه ولا نقصِه، وسبيلُ كل واقف عليه اعتماد مضمونِه والوقوفُ عند حكمه، والانتهاءُ إلى حدّه واتِّباعُ رسْمه، إن شاء الله تعالى(٢).

الفصل الثانى

من الباب الثالث من المقالة السادسة

(فيما يكتب فى طَرْخانيّات أرباب الأقلام)

وهو قليل نادر قلَّ أن يُكتَب، وإذا كتب فغالب ما يفتتح برسم، ويسمّى مايُكتَب فيه تواقيع.

وهذه نسخة طَرْخانية كُتِب بها عن الملك الناصر محمد بن قلاوون للقاضى قُطْب الدين بن المكرَّم أحد كُتّاب الدَّرْج الشريف بالأبواب الشريفة، عند إقامته بالحجاز الشريف، بأن يستقرّ طَرْخانا بنِصْف معلومه الذى كان له على كتابة الدَّرْج الشريف وأن يقيم حيث شاء، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يأمُر فيُطاع، ويصِل فيُعين على الانقطاع، ويُرىٔ على اقتراح الآمل جُودُه المكررُ المكرَّم فالآمل يقترح ما استطاع ـ أن يستقرّ للمجلس السامى القضائى فلانِ بنِ المكرَّم نفع الله به من معلومه عن كتابة الدرج

(١) التزك الطعن بالتيزك وهو رمح صغير.
(٢) لم يذكر المرتبة الثالثة ولعلها ما يفتتح برسم بالأمر الشريف.

الشريف الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت النصف من كل شهر، على الأدعية الصالحة لهذه الدولة القاهرة، ويُقيم حيثُ شاء، ثم يستقر ذلك لأولاده من بعده، ثم لأولاد أولاده بالسَّوِيَّة إعانةً له على بلوغ قصده ورغائبه، وٱستعانةً بحاضر الجُود دُونَ غائبه، وإكراماً لجانبه، وطالبُ وجهِ الله تعالى [يُعان] على الفوز بكنوز مَطَالبه .

وما كنا لِنَسْمح ببُعْده عن أبوابنا الشريفه، ولا نُجيبَه لمفارقة مابيده من وَظِيفه، لأنه مايُدرِك أحدٌ من أبناء عَصْره مُدّه ولا نَصِيفه، ولديوان إنشائنا جمالٌ بعُقود كتابته النظيمة ومعانى ألفاظه اللطيفه، وإنَّما لإقباله على الآجِلَه، وإعراضه عن العاجِلَه، وٱستيعاب أوقاته بأداءِ الفريضةِ والنافله، أسعفنا سُؤالَه بالإجابه، وأعنَّاه على الإنابَه، وأجزلنا سَهْمَه من الإحسان فبلغ سَهْمُه الإصابه، ومن أحسنُ سبيلا ممن أخَذ لنَفْسه قبل الحَيْن، ونَفَضَ يدَيْه من الدنيا فرَاحَ بالخير مملُوءَ اليدَيْن، فنظر إلى مَعادِه فأقبلَ على الله قريرَ العين، وها نحن قد كرَّمناه فى وقتٍ واحدٍ بانشاءٍ ولَدَيْن .

فليَشْكُر لصدَقاتنا هذه النِّعَم المترايِدَه، والصِّلاتِ العائده، والإحسانَ إليه وإلى بَنِيه جملةً واحده، وليَدْعُ لدولتنا القاهرة حينَ يقوم لله قانِتاً، وحينَ يقُول ناطقاً وحيث يُفَكِّر صامتاً، وعند فِطْره من صَوْمه، وفى أعقابِ الصلوات فى ليلته ويومه، ولْيُوصَّل إليه هذا المرَتَّب مُيَسَّرا لا يُكدِّر موردُه بتأخير، ولْيُصْرَف إليه مُهَنَّأً لا يُشانُ طولُه بتقصير، ولا يُحْوَج إلى عناءٍ وطَلَب، ولا يُلْجأ فى تناوُله إلى كَدٍّ وتَعَب، بل يُرَفَّه خاطرُه عمَّا فاز به من حُسْن المنقلَب، والله تعالى يمُدّه بعَوْنه وفضله، ويُنجِب فرعَه ببركةِ أصله، والخطُّ الشريف أعلاه حجةٌ فيه، إن شاء الله تعالى .

الباب الرابع

من المقالة السادسة

(فيما يُكتَب فى التوفيق بين السِّنين الشمسيَّة [والقمَرِيَّة] المعبَّر عنه فى زماننا بتحويل السِّنين، وما يُكتَب فى التذاكر، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

[فيما يكتب فى التوفيق بين السنين، وفيه طرفان

الطرف الأوّل] (١)

(فى بيان أصل ذلك)

اِعلم أنَّ آستحقاقَ الخراج [و] جبايَتَه منُوطان بالزُّروع والثِّمار من حيثُ إن الخَرَاج من متحصَّل ذلك يُؤْخَذ، والزُّروعُ والثِّمار منوطةٌ بالشُّهور والسنين الشمسيَّة من حيث إن كل نوعٍ منها يَظْهَرَ فى وقتٍ من أوقاتها ملازمٍ له لا يتحوَّلُ عنه ولا ينتقل لُزُوم كل شهر منها وقتًا بعينِه من صيف أو شتاءٍ أو خريفٍ أو ربيع ؛ وآستِخراجُ الخراج فى المِلَّة الإسلامية مَنُوطٌ بتاريخ الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وشهورُه وسنُوه عربية . والشهورُ العربية تنتقِل من وقتٍ إلىٰ وقت، فربما كان آستحقاقُ الخَرَاج فى أوّل سنةٍ من السِّنين العربية ، ثم تراخى الحالُ فيه إلىٰ أن صار آستحقاقُه فى أواخِرها، ثم تراخى حتَّى صار فى السنة الثانية فيصيرُ الخَرَاج منسوبا للسنة السابقةِ، وآستحقاقُه فى السنة اللاحِقة، فيُحتاجُ حينئذ إلىٰ تحويل السَّنة الخراجيَّة السابقةِ إلى التى بعدها علىٰ ماسيأتى ذكرُه .

(١) الزيادة مأخوذ مما سيأتى له من التقسيم .

قال فى "موادّ البيان" : والسببُ فى آنفراج ما بينَ السنين الشمسية والهلالية أنَّ أيّام السنة الشمسية هى المُدّة التى تَقْطَع الشمسُ الفلكَ فيها دَفْعة واحدة، وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُع يوم بالتقريب حسَبَ ما تُوجِبه حركتُها، وأيّامُ السنة الهلاليّة هى المُدّة التى يقطع القمرُ الفلكَ فيها آثنتَىْ عشرة دَفْعة ، وهى ثلثمائة وأربعةٌ وخمسون يوما وسُدُسُ يوم ؛ فيكون التفاوُتُ بينهما أحدَ عشرَ يوما وسُدسَ يوم، فتكون زيادةُ السنين الشمسيةِ على السنين الهلاليةِ فى كل ثلاثِ سنين شهراً واحدا وثلاثةَ أيام ونصفَ يوم تقريبا . وفى كل ثلاثٍ وثلاثين سنةً سنةً بالتقريب ؛ فإذا تمادىٰ الزمان تفاوَتَ ما بين السنين تفاوتا قَبيحا ؛ فيرىٰ السلطانُ عند ذلك أن تُنْقَلَ السنة الشمسيةُ إلى السنة الهلاليّة بالآسم دُونَ الحقيقة توفيقًا بينهما ، وإزالةً للشبهة فى أمرهما ؛ ومتىٰ أُوعِزَ بذلك لم يَقِفْ على الغَرَض فيه إلا الخاصّةُ دُونَ العامّة ، وأسرع إلىٰ ظنّ المُعامَلين وأربابِ الخَراج والأملاك أنَّ ذلك عائدٌ عليهم بظُلم وحَيْف ، وإلىٰ ظَنّ مستحِقّ الإقطاع أنه منتقِصٌ لهم، ونسبوا الجَوْرَ إلى السلطان بسبب ذلك وشَنَّعوا عليه، فرَسَم بُلَغاءُ الكُتّاب فى هذا المعنىٰ رُسُوما تعودُ بتفهيم الغَبِي ، وتَبْصير العَمِى ؛ وتُوصِل المعنىٰ المرادَ إلى الكافّة إيصالًا يتساوَوْن فى تصديقه وتيقّنه، ولا تَتَوجّه عليهم شبهةٌ ولا شكٌّ فيه .

قلت : وقد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى الأوائل : أنّ أوّل من أخّر النَّيروزَ المتوكِّلُ على الله أحدُ خلفاء بنى العبّاس ، وذلك أنه بينَما هو يطُوفُ فى مُتَصَيَّد له إذ رأىٰ زرْعا أخضَرَ ، فقال : قد آستأذنَنى عبيدُ الله بنُ يحيىٰ فى فتح الخَراج وأرى الزَّرْع أخضَرَ ؛ فقيل له : إن جِبايةَ الخراج الآنَ قد تَضُرُّ بالناس إذ تُلْجِئهم إلىٰ أنهم يَقْترِضُون مايؤدُّون فى الخراج، فقال : أهذا شىءٌ حدَثَ أو لم يَزَلْ كذا ؛ فقيل له : بل حَدَث، وعُرِّف أنّ الشمسَ تقْطع الفلكَ فى ثلثمائة وخمسةٍ وستين يومًا ورُبُع يوم،

وأنّ الروم تَكْبِس فى كل أربع سنين يوماً فيطرَحُونه من العَدَد ، فيجعلُون شباطَ ثلاثَ سنين متواليات ثمانيةً وعشرين يوماً . وفى السنة الرابعة يَنْجَبِرُ من ذلك الرُّبُع اليومِ يومٌ تامّ ، فيصير شباطُ تسعةً وعشرين يوماً ، ويُسمُّون تلك السنة الكَبِيسةَ . وكانت الفرس تكبِسُ للفَضْل الذى بين سِنِيها وبين سَنةِ الشمس فى كل مائةٍ وستٍّ عشرةَ سنةً شهرا ؛ فلما جاء الإسلامُ عُطِّلَ ذلك ولم يُعْمَل به فأضر بالناس ذلك ؛ وجاء زمنُ هِشام بن عبد الملك فاجتمعَ الدَّهاقنةُ إلى خالدِ بن عبدالله القَسْرىّ وشرحُوا له ذلك (ولم يَعْمَل به فأضَرَّ بالناس ذلك)[1] ، وقد سألوه أن يُؤَخِّر إليه [فأرسل][2] الكُتُب إلى هشام سرًّا فى ذلك ، فقال هشام : أخافُ أن يكونَ ذلك من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِى الكُفْرِ ﴾ .

فلما كان أيّامُ الرشيد اجتمعُوا إلى يحيى بنِ خالد البَرْمَكىّ ، وسألوه فى تأخير النَّيْروزِ نحوَ شهر فعزَم على ذلك ، فتكلم أعداؤُه فيه وقالوا : تعَصَّب للمَجُوسية ، فأضرَبَ عنه فبقِىَ على ذلك إلى اليوم ؛ فأحضر المتوكِّلُ حينئذ إبراهيمَ بنَ العباس ، وأمَرَه أن يكْتُب عنه كتابا فى تأخير النَّيروز بعد أن تُحْسَب الأيام ، فوقع الاتّفاق على أن يُؤخَّر إلى سبعة وعشرين يوما من حَزيرانَ ، فكتب الكِتَابَ على ذلك . قال العسكرىّ : وهو كتابٌ مشهورٌ فى رسائل إبراهيم بن العباس ، ثم قُتِل المتوكل قَبل دخُول السنة الجديدة ، ووَلِىَ المنتصِرُ واحتِيجَ إلى المال فطُولِب به الناسُ على الرسم الأوّل ، وانتقَضَ ما رسَمَه المتوكل فلم يُعمَل به حتّى وَلِىَ المعتضد ، فقال لعلىّ بن يحيى المنجِّم : تذْكُر ضَجيجَ الناس من أمر الخَراج فكيف جعلتِ الفُرْس مع حِكمتِها وحُسنِ سِيرتها افتتاحَ الخراج فى وقتٍ مالا يتمكّن الناس من أدائه فيه ؟ فشرح له أمْرَه ، وقال :

---

(١) لعل ما بين القوسين مكرر من قلم الناسخ .

(٢) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

ينبغى أن يُرَدَّ إلىٰ وقته، ويَلْزَم يوما من أيام الرُّوم فلا يقع فيه تَغيُّر، فقال له المعتضد سِرْ إلىٰ عبيد الله بن سليمان فوافقه علىٰ ذلك، فصرت إليه ووافقته، وحسَبْنا حسابه فوقع فى اليوم الحادى عشر من حزيران، فأُحْكِم أمرُه علىٰ ذلك، وأُثبت فى الدواوين، وكان النَّيْروزُ الفارسىّ إذ ذاك يومَ الجمعة لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من صفر سنة آثنتين وثمانين ومائتين . ومن شهور الروم الحادى عشر من نَيْسانَ .

وقد قال أبو الحسين علىّ بن الحسين الكاتب رحمه الله : عَهِدتُ جبايةَ الخراج فى سنين قبل سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين فى خلافة أمير المؤمنين المتوكّل رحمة الله عليه تجْرِى لكل سنةٍ فى السنةِ التى بعدَها بسببِ تأخُّر الشهور الشمسيّة عن الشُّهور القَمَرية فى كل سنة أحدَ عشَرَ يوما ورُبُعَ يوم وزيادةَ الكسر عليه، فلما دخلَتْ سنةُ آثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد آنقضىٰ من السِّنين التى قبلها ثلاثٌ وثلاثون سنة، أوّلهن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة الله عليه، وآجتمع من هذا المتأخّر فيها أيامُ سنةٍ شمسيّةٍ كاملةٍ : وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُعُ يوم وزيادةُ الكسر، وتهيّأ إدراكُ غلّاتِ وثمار سنةِ إحدىٰ وأربعين ومائتين فى صدرِ سنةِ آثنتين وأربعين [ومائتين] ، فأمر أمير المؤمنين المتوكل رحمة الله عليه بالغاء ذكر سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين ، إذ كانت قد آنقضت ونُسِب الخراجُ إلىٰ سنة آثنتين وأربعين ومائتين .

قال صاحب "المنهاج فى صنعة الخَرَاج" : ولما نُقِلَت سنةُ إحدىٰ وأربعين ومائتين إلىٰ سنة آثنتين وأربعين، جَبَىٰ أصحابُ الدواوين الجَوالِىَ والصدقاتِ لسنتَىْ إحدىٰ وآثنتين وأربعين ومائتين فى وقتٍ واحدٍ، لأن الجَوالِىَ بسُرَّ مَنْ رأىٰ ومدينةِ السلام ومُضافاتهما كانت تُجْبىٰ علىٰ شهور الأهلة ، وما كان عن جماجِم أهل القُرىٰ

والضِّياع والمستغَلّات كانت تُجْبىٰ علىٰ شهور الشمس. فأُلْزِم(١) أهـلُ الحوالى خاصّةً في مدة الثلاثِ وثلاثين سنة ، ورفَعَها العُمّال فى حُسْباناتهم فاجتمع من ذٰلك ألوفُ ألوف دراهم ، بجرت الأعمـالُ بعد نقل المتوكّل علىٰ ذٰلك سنةً بعد سـنةٍ ، إلىٰ أن انقضتْ ثلاثٌ وثلاثون سـنةً آخرتُهن انقضاءُ سنة أربع وسبعين ومائتين ؛ فلم يُنَبِّه كُتّابُ أمير المؤمنـين : المعتمدِ على الله رحمة الله عليـه علىٰ ذٰلك، إذ كان رؤساؤُهم فى ذٰلك الوقتِ إسمعيلَ بنَ بُلْبـل وبَنِى الفُرات ، ولم يكونوا عمِلُوا فى ديوانِ الخَراج والضِّياع فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل رحمه الله، ولا كانتْ أسنانُهم أسنانًا بلغَتْ معرفتُهم معها هـذا النَّقْل، بل كان مولدُ أحمدَ بن محمد بن الفُرات قبل هذه السـنة بخمس سنين، ومولِدُ علىٍّ أخيه فيها؛ وكان إسماعيل يتعلّم فى مجلس لم يبلغْ أن يَنْسَخ، فلمـا تقلَّدتُ لناصر الدين رحمةُ الله عليه أعمالَ الضِّياع بقَزْوِين ونواحيها لسنةِ ستٍّ وسبعين ومائتين ، وكان مقيما بأَذْرَبِيجانَ، وخليفتُه بالجبل والقرى جَرَادَةُ بن محمد ، وأحمدُ بنُ محمد كاتبه ، واحتجْتُ إلىٰ رفع جماعَتى إليه ـ ترجمتُها بجماعةِ [سنةِ] ست وسـبعين ومائتين [التى أدركت غَلّاتها وثمـارها فى سنة سبع وسـبعين ومائتين](٢)، ووجب إلغاء ذكر سنةِ ستٍّ وسبعين ومائتين ؛ فلمـا وقَفَا علىٰ هذه الترجمة أنكراها وسألانى عن السبب فيهـا فشرحتُه لهما ، ووكّـدت ذٰلك بأن عرّفتهـما أنى قد استخرجْتُ حسابَ السنينَ الشمسيةِ والسنين القمريةِ من القرءان [بعد] ما عرضْته علىٰ أصحاب التفسـير ، فذكروا أنه لم يأْتِ فيـه شىءٌ من الأثر، فكان ذلك أوكد

(١) عبارة المقريزى ج ١ ص ٢٧٦ « وفى ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالى ورفعها الخ» وهى أوضح .

(٢) الزيادة من "المواعظ والاعتبار" للمقريزى ج ١ ص ٢٧٦ وقد اعتمدناها فى كثير من التصحيف فى هذا الموضع .

فى لُطف استخراجى : وهو أن الله تعالىٰ قال فى سورة الكهف : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ . فلم أجِدْ أحدًا من المفسِّرين عرَف ما معنىٰ وازدادوا تِسْعا ، وإنما خاطبَ اللهُ جل وعز نبيَّه بكلامِ العرب وما تَعْرِفُه من الحِساب ؛ فمعنى هذه التسع أن الثلثمائة كانت شمسيةً بحساب العَجَم ومن كان لا يعْرِف السنين القمرية ، فإذا أُضِيف إلىٰ الثلثمائة القمريّة زِيادةُ التسع كانت سنينَ شمسيةً [صحيحة] فاستحْسَناه ؛ فلما انصرف جَرادةُ مع الناصر رحمة الله عليه إلىٰ مدينة السلام وتُوفّى الناصر رضوان الله عليه وتقلد أبو القاسم عُبَيدُ الله بن سليمان رحمه الله كتابةَ أمير المؤمنين : المعتضد بالله صلوات الله عليه ، أجرىٰ له جرادةُ ذِكْرَ هذا النقل ، وشرح له سببَه : تقرّبًا إليه ، وطَعْنًا علىٰ أبى القاسم عُبيد الله رحمه الله فى تأخيره إيَّاه .

فلما وَقَف المعتضد بالله رحمه الله علىٰ ذلك تقدم إلىٰ أبى القاسم بإنشاء الكُتُب بنقل سنةِ ثمانٍ وسبعين ومائتين إلىٰ سنةِ تِسْع وسبعين ومائتين ، فكَتَب ، وكان هذا النقلُ بعدَ أربعِ سنين من وجُوبه ، ثم مضت السنونَ سنةً بعد سنة إلىٰ أن انقضتِ الآنَ ثلاثٌ وثلاثون سنةً أولاهن السنةُ التى كان النقل وجب فيها : وهى سنة خمسٍ وسبعين ومائتين ، وآخرتُهن انقضاءُ سنة سبع وثلثمائة ، فوافق ذلك خلافةَ المُطيع لله فى وِزارة أبى محمد المهلّبى ، فأمر بنقل سنة ستٍّ وثلثمائة إلىٰ سنةِ سبع وثلثمائة ، ونسبةِ الخراج إليها فنُقلَتْ ، وأمر بالكتابة بذلك من ديوان الانشاء فكُتِب به .

وقد حكىٰ أبو الحسين هلال بن المُحَسن بن أبى إسحق إبراهيم الصابى عن أبيه أنه قال : لما أراد الوزيرُ أبو محمّد المهلّبى نقلَ السنة أمرَ أبا إسحقَ والدى وغيرَه من كُتّابه فى الخراج والرسائل بإنشاء كتابٍ عن المُطِيع لله رحمة الله عليه فى هذا المعنىٰ ، وكلٌّ منهم كتَب ، وعُرِضت النُّسَخ على الوزير أبى محمّد فاختار منها كتابَ والدى

وتقدّم بأن يُكْتَب إلىٰ أصحاب الأطراف . وقال لأبى الفَرَج بن أبى هاشم[1] خليفته : اكْتُبْ إلى العُمّال بذلك كُتُبا مخففة ، وآنْسَخْ فى أواخر[ها] هذا الكتابَ السلطانى فغـاظَ أبا الفَرج وقوعُ التفضـيل والاختيار لكتابِ والدِى ، وقدكان عمِل نسخةً اطُّرِحت فى جمـلة ما آطُّرِح ، وكتب : «قد رأينا نقلَ سـنة خمسينَ [إلىٰ إحدىٰ وخمسين][2] فاعمل علىٰ ذلك » ولم ينسخ الكتاب السلطانى ، وعرَف الوزير أبو محمد ماكتب به أبو الفرج ، فقال له : لماذا أغفلْتَ نسخَ الكتاب السلطانى فى آخر الكتاب إلى العُمّال و إثباتَه فى الديوان ؟ فأجاب جوابا علّل فيه ، فقال له يا أبا الفرج : ما تركْتَ ذٰلك إلا حسَدا لأبى إسحق علىٰ كتابِه ، وهو والله فى هذا الفن أكتَبُ أهلِ زمانه .

قال صاحب "المنهاج فى صنْعة الخراج" : وقدكان نقلُ السنين فى الديار المصرية [أُغفِل][3] حتى كانت سنةُ تسع وتسعين وأربعمائة الهلاليّةُ فنُقلت سنة تسع وتسعين الخراجية إلىٰ سنة إحدى وخَمْسِمائة فيما رأيتُه فى تعليقات أبى . قال : وآخر مانُقِلت السنةُ فى وقتنا هـذا أنْ نُقِلت سنةُ خمس وستين وخمْسِمائة إلىٰ سـنة سبع وسـتين وخمْسِمائة الهلالية ، فتطابقَتِ السنتانِ . وذلك أنى لما قلْتُ للقاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانى : إنه قد آنَ نقلُ السـنة ، أنشأ سِجِلًّا بنقلهـا نُسِخ فى الدواوين ، وحُمِل الأمر علىٰ حُكْمه ، ثم قال : وما بَرِح الملوكُ والوزراء يَعْنَوْن بنقل السنين فى أحيانها ، ومطابقة العامَيْنِ فى أوّل زمان اختلافِهما بالبُعْد وتقاربُ اتفاقِهما بالنَّقْل .

قلت : والحـاصل أنه إذا مضىٰ ثلاثٌ وثلاثون سـنة من آخر السنة ، حُوِّلت السـنةُ الثالثةُ والثلاثون إلىٰ تِلْو السنة التى بعدها ، وهى الخامسةُ والثلاثُون ، وتُلْغىٰ

(١) فى المقريزى «هشام» .
(٢) الزيادة من المقريزى ج ١ ص ٢٧٧ .
(٣) من المقريزى ص ٢٧٦ — ج ١ .

الرابعةُ والثلاثون ؛ ومقتضىٰ البناء على التحويل الذى كان فى خلافةِ المُطيع فى سنة سبْع وثلثمائة المقدّمِ ذكُره أن تحوّل سنةُ سبع وثلثمائة إلىٰ سنة تسع وثلثمائة ؛ ثم تحوّل سـنةُ أربعين وثلثمائة إلىٰ آثنتين وأربعين وثلثمائة ، وتُلْغىٰ سـنةُ إحدىٰ وأربعين ؛ ثم تحوّلُ سـنةُ ثلاث وسبعين وثلثمائة إلىٰ سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وتلغىٰ سـنة أربع وسبعين ؛ ثم تحوّل سنة ست وأربعمائة إلىٰ سنة ثمـان وأربعمائة ، وتلغىٰ سنة سبع ؛ ثم تحوّل سـنةُ تسع وثلاثين وأربعمائة إلىٰ سـنة إحدَىٰ وأربعين وأربعمائة ، وتلغىٰ سـنةُ أربعين؛ ثم تحوّلُ سنة آثنتين وسبعين وأربعمائة إلىٰ سـنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وتلغىٰ سنةُ ثلاث وسبعين ؛ ثم تحوَّل سنةُ خمس وخمسمائة إلىٰ سنةِ سبع وخمسمائةٍ ، وتلغىٰ سـنة ستٍّ ؛ لكن قد تقدّم من كلام صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" أن التحويل كان تأخَّر بالديار المصرية إلىٰ آخر سنة تسع وتسعين وأربعِمائة ، فحوّلتْ سـنةُ تسع وتسعين الخراجية إلىٰ سـنة إحدىٰ وخمسمائة ؛ فيكون التحويل بالديار المصرية قد وقع قبل استحقاقه بمقتضى الترتيب المقدّم ذِكْره بستِّ سنين من حيثُ إنه كان المستحَقُّ مغَلَّ سنة خمس وخمسمائة إلىٰ سنة سبع وخمسمائة كما تقدّم ، فنقلت سـنة تسع وتسعين وأربعمائة إلىٰ سـنة إحدىٰ وخمسِمائة . والأمر فى ذلك قريبٌ إذ التحويل على التقريب دُونَ التحديد .

ثم مقتضىٰ ترتيب التحويل الرابع فى الديار المصرية بعد تحويل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلىٰ سـنة إحدىٰ وخمسمائة أن تحوّل بعد ذٰلك سنةُ ثنتين وثلاثين وخمسمائة إلىٰ سـنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وتلغىٰ سنة ثلاثٍ وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة خمس وستين وخمسمائة إلىٰ سنة سبع وستين وخمسمائة ، وتلغىٰ سنةُ ستٍّ وستين ؛ ثم تحوّل سنةُ ثمانٍ وتسعين وخمسمائة إلىٰ سنة ستمائة ، وتلغىٰ سنة تِسْع وتسعين وخمسمائة ؛ ثم تحوّل سنة إحدىٰ وثلاثينَ وستِّمـائة إلىٰ سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة ، وتُلْغىٰ سنةُ

آثنتين وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة أربع وستين وستمائة إلى سنة ستٍّ وستين وستمائة ، وتلغى سنةُ خمس وستين؛ ثم تحوّل سنة سبْع وتسعين وستمائة إلى سنة تسع وتسعين وستمائة ، وتلغى سنةُ ثمانٍ وتسعين ؛ ثم تحوّل سنة سبْعمائة وثلاثين إلى سنةِ سبعمائة وآثنتين وثلاثين ، وتلغى سنةُ إحدى وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنةُ ثلاثٍ وستين وسبعمائة إلى سنةِ خمس وستين وسبْعمائة ، وتلغى سنةُ أربع وستين وسبعمائة ؛ وتحوّلُ سنة ست وتسعين وسبعمائة إلى سنة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة، وتُلْغى سنةُ سبع وتسعين ؛ ثم لايكون تحويل إلى سنة تسع وعشرين وثمانمائة، فتحوّل إلى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، لكن قد حوّلَ كُتّاب الدواوين بالديارِ المصرية وأربابُ الدولة بها سنةَ تِسع وأربعين وسبعمائة : (وهى سنةُ الطاعون الجارف العامّ) إلى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، وألغَوْا سنة خمسينَ . وكان يقال : مات فى تلك السنةِ كلُّ شيءٍ حتّى السنة ، وسيأتى ذكر المرسوم المكتتب بها فى تحويل السنين فى هذه المقالةِ، إن شاء الله تعالى .

ونُقِل ذلك لتأخيرٍ وقع من إغفال تحويل سنة سبعمائة وثلاثين المتقدمة الذكر، وآخِرُ سنةٍ حُوّلت فى زماننا سنة ... ... (١) .

---

(١) بياض فى الأصل .

الطـــرف الثانى

(فى صورة ما يُكتَب فى تحويل السنين، وهو علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(ما كان يكتب فى ذلك عن الخلفاء، وفيه مذهبان)

المـــذهب الأوّل

(أن يُفتتح ما يكتَب بـ«أمّا بعـــد»)

وعلىٰ ذلك كان يُكتَب من ديوان الخلافة ببغدادَ .

وهذه نسخةُ ماذكر أبو الحسين بنُ على الكاتبُ المقدّم ذكُره أنه كُتِب به فى ذلك فى نقل سنة ثمـانٍ وسبعين ومائتين إلىٰ سنة تسع وسبعين ومائتين فى خلافةِ المعتضِد بالله أمير المؤمنين، وهى :

أمّا بعـدُ، فإنّ أَولىٰ ماصَرف إليه أميرُ المؤمنين عنايتَه، وأعملَ فيه فِكرَه ورَوِيّتَه، وشَـغَل به تفقُّدَه ورعايتَه، أمرُ الفَىْءِ الذى خصّـه الله به وألزمه جمْعَه وتوفيرَه، وحياطَتَه وتكثيرَه، وجعله عِمادَ الدِّين، وقِوامَ أمرِ المسلمين، وفيما يُصْرف منه إلىٰ أعطياتِ الأولياءِ والجنود؛ ومَنْ يُستعانُ به لتحصين البَيْضـة والذّبّ عن الحَريم، وحَجّ البيتِ، وجهاد العدوّ، وسَدّ الثُّغور، وأَمْن السـبل، وحَقْن الدّماء، وإصْلاح ذاتِ البَيْن . وأميرُ المؤمنين يسألُ الله راغباً إليه، ومتوكّلا عليه، أن يُحْسِن عَوْنَه علىٰ ماحَمَّله منه، ويُديمَ توفيقَه لـما أرضاه، وإرشادَه إلىٰ مايَقْضى عنه وله .

وقد نَظَر أميرُ المؤمنين فيما كان يجْرى عليه أمرُ جِباية هـذا الفَىْء فى خلافة آبائه الراشـدين فوجَدَه علىٰ حَسَب ما كانَ يُدْرِك مِن الغَلّات والثِّمـار فى كل سـنة أوّلًا

أوّلا على مجارى شهور سنى الشمس فى النجوم التى يحلّ مالُ كلّ صنف منها فيها ، ووجدَ شهورَ السنة الشمسية تتأخر عن شهور السنة الهلاليّة أحدَ عشر يوما وربُعا وزيادةً عليه ، ويكونُ إدراكُ الغلات والثمار فى كل سنة بحسب تأخُّرها .

فلا تزالُ السنونَ تمضى على ذلك سنةً بعد سنةٍ حتى تنقضىَ منها ثلاثٌ وثلاثون سنةً وتكونُ عدّة الأيام المتأخّرة منها أيامَ سنةٍ شمسيّة كاملة ، وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما وربُع يوم وزيادةٌ عليه ، فحينئذ يتهيّأ بمشيئة الله وقدرته إدراكُ الغلّات التى تجرى عليها الضرائبُ والطُّسوق فى آستقبال المحرّم من سنى الأهلّة . ويجب مع ذلك إلغاءُ ذكر السنةِ الخارجةِ إذ كانتْ قد آنقضتْ ونسبتُها إلى السنة التى أدركتِ الغلّاتُ والثمارُ فيها . وإنه وجدَ ذلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكّل على الله رحمة الله عليه عند آنقضاء ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، آخرتُهن سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فاستُغْنِىَ عن ذكرها بالغائها ونسبتها إلى سنة آثنتين وأربعين ومائتين ؛ فجرت المكاتباتُ والحُسْبانات وسائرُ الأعمال بعد ذلك سنةً بعد سنةٍ إلى أن مضتْ ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، آخرتهنّ انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، [ووجب إنشاء الكتب بإلغاء ذكر سنة أربع وسبعين ومائتين](١) ونسبتها إلى سنة خمس وسبعين ومائتين . فذهب ذلك على كُتّاب أمير المؤمنين [المعتمِد على الله وتأخّر الأمرُ أربع سنين الى أن أمر أمير المؤمنين](١) المعتضدُ بالله رحمه الله فى سنة سبع وسبعين ومائتين بنقل خَراج سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين ؛ فجرَى الأمرُ على ذلك إلى أن انقضتْ فى هذا الوقت ثلاثٌ وثلاثون سنةً : أُولاهنّ السنة التى كان يجب نقلُها فيها ، وهى سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرتُهن انقضاءُ شهور خراج سنةِ سبع وثلثمائة ؛ ووجب افتتاحُ خراج ما تجرى عليه الضرائبُ والطسوقُ فى أوّلها

(١) الزيادة من المقريزى ص ٢٧٧ ج ١ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

[وإن] من صَواب التدبير وآستقامة الأعمال، وآستعمالِ مايخِفُّ على الرعية معاملتُها به نقلَ سنة الخراج لسنة سبع وثلثمائة إلىٰ سنة ثمانٍ وثلثمائة، فرأىٰ أميرُ المؤمنين (لمَا يُلزِمه نفسه ويؤاخِذُها به، من العناية بهذا الفىء وحياطةِ أسبابِه، وإجرائها مجاريها، وسُلوكِ سبيلِ آبائه الراشدين رحمة الله عليهم فيها) أنْ يُكْتَبَ إليكَ وإلىٰ سائرِ العُمّال فى النواحى بالعمل علىٰ ذلك، وأن يكونَ ما يَصْدُرُ [إليكم] من الكُتُب وتُصْدِرونه عنكم وتجرى عليه أعمالُكم ورُفُوعكم وحُسْباناتُكم وسائرُ مُناظَراتكم علىٰ هذا النَّقل.

فآعلَمْ ذلك من رَأْى أمير المؤمنين وآعمَلْ به مستشعِرا فيه وفى كلِّ ما تُمضيه تقوى الله وطاعتَه، ومستعمِلًا [عليه] ثقاتِ الأعوان وكُفاتَهم، مُشرفا عليهم ومقوِّما لهم، واكتب بما يكونُ منك فى ذلك، إن شاء الله تعالىٰ.

⁂

وهذه نسخةُ ما كتَب به أبو إسحق الصابى عن المُطيع لله بنَقْل سنة ستٍّ[1] وثلثمائة إلىٰ سنة سبع وثلثمائة، وهى:

أما بعْـدُ، فإنَّ أمير المؤمنين لا يزالُ مجتهِدا فى مصالح المسلمين، وباعثًا لهم علىٰ مَراشِـد الدنيا والدِّين، ومهيِّـئا لهم إلىٰ أحسَنِ الآختيار فيما يُورِدون ويُصْدِرون، وأصْوبِ الرأى فيما يُبْرِمون وينقُضُون، فلا تَلُوحُ له خَلَّةٌ داخلةٌ علىٰ أُمورهم إلا سَدَّها وتلافاها [ولا حالٌ عائدة بحظٍّ عليهم إلا اعتمدَها وأتاها][2] ولا سُنَّةٌ عادلةٌ إلا أخذَهم باقامة رَسْمِها، وإمضاء حُكْمِها، والآقتـداءِ بالسلف الصالح فى العمل بهـا والآتباع لهـا، وإذا عرض من ذلك ما تعْلَمه الخاصَّة بوفُور ألبابها، وتجهلُه العامّةُ بقُصُور أفهامها، وكانت أوامِرُه فيـه خارجةً إليك وإلىٰ أمثالِك من أعيانِ رجالِه، وأماثِل

(١) صوابه «بنقل سنة خمسين وثلثمائة الى إحدى وخمسين وثلثمائة» كما يفيده نص الكتاب بعد اه.

(٢) الزيادة من "رسائل الصابى" ص ٢٠٩ ومن المقريزى ص ٢٧٨ ج ١.

عُمَّاله ، الذين يكتفُون بالإشاره ، ويجترِءُون بيَسير الإبانة والعباره ، لم يَدَعْ أن يبلُغ من تَلْخِيص اللفظ وإيضاح المعنىٰ إلى الحدّ الذى يُلْحِق المتأخِّر بالمتقدِّم ، ويجمعُ بين العالم والمتعَلِّم ، ولا سِيَّما إذا كان ذٰلك فيما يتعلّق بمعاملات الرعيّه ، ومن لا يَعْرِف إلا الظَّواهِرَ الجليَّـة دُونَ البواطن الخفيَّه ، ولا يَسْهُل عليـه الآنتقال عن العادات المتكره ، إلىٰ الرُّسوم المتغيِّره ، ليكون القولُ بالمشْرُوح لمن بَرَّز فى المعـرفة مذكِّرا ، ولمن تأخّر فيهـا مبصِّرا ، ولأنه ليس من الحق أن تُمنَع هـذه الطبقةُ من بَرْد اليقين فى صُـدُورها ، ولا أن يُقْتَصر علىٰ اللَّمحة الدالَّة فى مخاطبـة جُمْهورها ، حتَّى إذا آستوَتِ الأقدامُ بطوائف الناس فى فَهْم ما أُمِروا به وفِقْهِ ما دُعُوا إليه وصارُوا فيه علىٰ كلمةٍ سواء لا يعترِضُهم شكُّ الشاكِّين ولا آسترابة المسترِيبين ، آطمأنَّتْ قلوبُهم ، وآنشرحَتْ صدُورُهم ، وسقَط الخلافُ بينَهم ، وآستمرّ الآتفاق فيهم ، وآستيقَنُوا أنهم مَسُوسُون على آستقامةٍ من المِنْهاج ، ومحرُوسُون من جرائر الزَّيغ والآعوجاج ؛ فكان الآنقيادُ منهـم وهم دَارُون عالمون ، لا مقلِّدون مُسَلِّمون ؛ وطائعُون مختـارُون ، لا مُكْرَهُون ولا مُجْبَرُون .

وأميرُ المؤمنين يستمِدُّ الله تعـالىٰ فى جميع أغراضـه ومَرَاميه ، ومطالِبِـه ومَغَازِيه ، مادَّةً من صُـنْعه تَقِف به علىٰ سَنَن الصَّلاح ، وتَفتَحُ له أبوابَ النَّجاح ، وتُنْهِضه بما أهَّله لحَمْله من الأعباء التى لا يَدَّعى الاستقلالَ بها إلا بتوفيقه [ومَعُونته] ، ولا يتوجه فيها إلا بدِلَالته وهدايته ، وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيل .

وأميرُ المؤمنين يرىٰ أنَّ أوْلى الأقوالِ أن يكون سَدَادا ، وأحرىٰ الأفعال أن يكونَ رَشَادا ، ماوُجِد له فى السابق من حكْمِ الله أصولٌ وقَواعِد ، وفى النَّص من كتابِه آياتٌ وشواهد ؛ وكان مُفْضِيًـا بالأمة إلىٰ قَوَام من دينٍ ودُنْيا ، ووِفَاقٍ فى آخرةٍ وأُولىٰ ،

فذٰلك هو البناءُ الذى يثبُتُ ويعلو، والغَرْس الذى ينبُتُ ويزكو، والسَّعىُ الذى تنجح مَبادِيه وهَوادِيه، وتُبهِج عواقِبُه وتَواليه، وتستنير سُبُلُه لسالكيها، وتُورِدُهم موارد السعود فى مَقاصدهم فيها، غير ضالِّين ولا عادِلين، ولا مُنْحرِفين ولا زائِلين.

وقد جعل اللهُ عزّ وجلّ لعباده من هذه الأفلاكِ الدائِره، والنُّجوم السائِره، فيما تَتَقلَّب عليه من اتِّصالٍ وافتراق، ويتَعاقَبُ عليها من اختلافٍ واتِّفاق، منافعَ تظْهَر فى كُرُور الشُّهور والأعوام، ومُرُور اللَّيالِى والأيّام، وتَناوُب الضِّياء والظلام، واعتدالِ المَساكِنِ والأوطان، وتَغايُرُ الفُصول والأزمان، ونَشْء النَّبات والحيوان، فما فى نِظام ذلك خَلَل، ولا فى صَنْعة صانعه زَلَل، بل هو مَنُوط بعضُه ببعض، ومَحُوط من كلِّ ثُلْمة ونقْض، قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقال جل من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. وقال عزَّت قدرتُه: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾. ففَضَّل الله تعالىٰ فى هذه الآيات بيْنَ الشمسِ والقمرِ، وأنبأنا فى الباهِر من حِكَمه، والمُعْجز من كَلِمه، أنّ لكلٍّ منهما طريقًا سُخِّر فيها وطبيعةً جُبِل عليها، وأن كلَّ تلك المباينةِ والمخالفةِ فى المَسِير، تُؤدّى إلىٰ موافقةٍ وملازمةٍ فى التدبير؛ فمن هُنالك زادتِ السنةُ الشمسيةُ فصارت ثلثمائة وخمسةً وستين يومًا ورُبُعا بالتقريب المعمول عليه، وهى المدّة التى تقطَع الشمسُ فيها الفَلَكَ مرّة واحدة، ونقصَتِ السنةُ الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعةً وخمسين يوما وكَسْرا، وهى المُدّة التى يُجامِع القمرُ فيها الشمسَ اثنتىْ عَشْرة

مرة، واحتيج اذا آنساق هذا الفضلُ إلى استعمال النقل الذى يطابِقُ إحدى السنتين بالأخرىٰ اذا افترقتا، ويُدانِى بينهما اذا تفاوتتا .

وما زالتِ الأُمَم السالفة تَكْبِس زياداتِ السنين علىٰ افتنانٍ من طُرُقها ومذاهبها، وفى كتاب الله عز وجل شهادةٌ بذلك إذ يقول فى قصة أهل الكهف : ﴿ ولَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعا﴾ . فكانت هذه الزيادة بأن الفضْل فى السنين المذكورة علىٰ تقْرِيب التقريب .

فأما الفُرْس فإنهم أجْرَوْا معاملاتِهم على السنة المعتَدلة التى شهورُها اثنا عشر شهرا، وأيامُها ثلثمائة وستون يوما، ولَقَّبوا الشهورَ اثنَىْ عشر لقبا، وسَمَّوْا أيام الشهر منها ثلاثين آسما ، وأفردوا الأيّام الخمسةَ الزائدة ، وسَمَّوْها المسترقَةَ وكَبَسوا الرُّبْع فى كل مائة وعشرين سنةً شهرا .

فلما آنقرض مُلْكُهم ، بطل فى كَبْس هذا الربع تدبيرُهُم ، وزال نَوْرُوزُهم عن سُنَّته ، وآنفرج ما بينه وبين حقيقةِ وقْتِه، انفراجا هو زائدٌ لا يقف ، ودائر لا ينقطع ، حتّى إنّ موضوعهم فيه أن يقع فى مَدْخَل الصيف وسينتهى إلىٰ أن يَقع فى مَدْخَل الشتاء، [و يتجاوز ذلك، وكذلك موضوعهم فى المهرجان أن يقع فى مدخل الشتاء] (١) وسينتهى إلىٰ أن يَقَع فى مَدْخَل الصيف و يتجاوزه .

وأما الروم فكانوا أتقنَ منهم حكْمةً وأبعدَ نظرا فى عاقبةٍ : لأنهم رتَّبوا شهورَ السنة علىٰ أرصادٍ رصَدُوها ، وأنواءٍ عرَفُوها، وفَضُّوا الخمسةَ الأيام الزائدةَ على الشُّهور ، وساقُوها معها على الدُّهور، وكَبَسُوا الرُّبُع فى كل أربع سنِينَ يوما، ورسَمُوا أن يكون إلىٰ شَباطَ مضافا فقرّبوا ما بَعَّده غيرُهم، وسَهَّلوا على الناس أن يقتفُوا أثرَهم ، لا جرم

(١) الزيادة من "المقريزى" ص ٢٧٩ ج ١ ومن الرسائل وهى من سقطات الناسخ .

أن [المعتضد بالله صلواتُ الله عليه علىٰ أُصولِهم بنىٰ ، ولمثالهم ٱحتذى][(١)] فى تصييره نَوْرُوزَه اليومَ الحادِىَ عشرَ من حَزيران، حتّى سَلِم مما لَحِقَ النوارِيزَ فى سالف الأزمان، وتلافَوُا الأمرَ فى عَجْز سِنِى الهلال عن سِنِى الشمس، بأن جَبَرُوها بالكَبْس، فكُلَّما ٱجتمع من فُضُول سِنِى الشمس ما يَفِى بتمام شهرٍ جعلوا السنةَ الهلاليَّة التى يتَّفق ذٰلك فيها ثلاثةَ عشرَ هلالا، فرُبَّما تمَّ الشهر الثالث عشر فى ثلاثِ سنين وربَّما تمَّ فى سنتين بحَسَب ما يُوجبه الحساب، فتصير سنَتَا الشمسِ والهلال عندهم متقاربتين أبدًا لا يتباعَدُ ما بينَهما .

وأمَّا العربُ فإنَّ الله جل وعزَّ فضَّلها على الأُمَم الماضية، وورَّثها ثمراتِ مساعيها المتعِبة ، وأجرىٰ شهرَ صيامها ومواقيتَ أعيادِها وزكاةَ أهل ملَّتها ، وجزية أهل ذِمَّتها، علىٰ السنة الهلاليَّة ، وتعبَّدها فيها برُؤْية الأهلة ، إرادةً منه أن تكون مناهِجُها واضحه ، وأعلامُها لائحه ، فيتكافأ فى معْرفة الغَرَض ودخُول الوقت الخاصُّ منهم والعام، والناقِصُ الفِقْه والتام، والأنثىٰ والذكَر، وذو الصِّغَر والكِبَر، فصاروا حينئذ يَجْبُون فى سنةِ الشمس حاصلَ الغلّات المقْسُومة وخراج الأرض الممسوحة، ويجْبُون فى سنة الهلال الجَوالِىَ والصدَقات والأرجاء[(٢)] والمُقَاطعات والمستَغَلّات ، وسائرَ ما يجرى على المُشاهَرات ، وحدَث من التعاظُل والتداخُل بين السنين ما لو ٱستمر لقَبُح جِدًا، وازداد بُعْدًا، إذ كانت الجبايةُ الخراجيةُ فى السنة التى تنتهى إليها تُنْسَب فى التسمية إلىٰ ما قبلَها فوجبَ مع هذا أن تُطْرَح تلك السَّنَةُ وتلغىٰ ، ويُتجاوزَ إلىٰ ما بعدها ويُتَخطَّى ، ولم يجُزْ لهم أن يقتدُوا بمخالفيهم فى كَبْس سنة الهلال بشهرٍ ثالث عشر؛ لأنهم لو فعلوا ذٰلك لتزحزَحت الأشهرُ الحرُمُ عن مواقِعِها، وانحرفَتِ المناسكُ

(١) الزائد من "رسائل الصابى" و"المقريزى" .

(٢) كذا فى المقريزى أيضا والذى فى الرسائل الخطية «والأرحام» .

عن حقائقها ، ونقصت الجباية عن سنى الأهلة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تتم السنة، وأوجب الحساب المقرب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثا وثلاثين سنة هلالية ؛ فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية، وكانت هذه الكلفة فى دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة فى دينهم .

وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلثمائة الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلثمائة الهلالية جمعا بينهما، ولزوما لتلك السنة فيهما .

فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك، وما تضمنه كتابه هذا إليك ، ومر الكتاب قبلك أن يحتذوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمال نواحيك، ويخلدونه فى الدواوين من ذكورهم ورفوعهم ، ويقررونه فى دروج الأموال ، وينظمونه فى الدفاتر والأعمال، ويبنون عليه الجماعات والحسبانات، ويوعزون بكتبه من الروزنامجات والبراآت ، وليكن المنسوب كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلثمائة التى وقع النقل [عنها معدولا به إلى سنة إحدى وخمسين التى وقع النقل] (١) إليها ، وأقم فى نفوس من بحضرتك من أصناف الجند والرعية وأهل الملة والذمة أن هذا النقل لا يغير لهم رسما ، ولا يلحق بهم ثلما ، ولا يعود على قابضى العطاء بنقصان ما استحقوا قبضه ، ولا على مؤدى حق بيت المال بإغضاء عما وجب أداؤه ، فإن قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذى يؤثر أن تزاح فيه العلة ، وتسد به منهم الخلة ، إذ كان هذا الشأن لا يتجدد إلا فى المدد الطوال التى فى مثلها يحتاج إلى تعريف الناشى ، وإذكار الناسى ، وأجب بما يكون منك جوابا يحسن موقعه لك ، إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

المذهب الثانى

(مما كان يُكتَب عن الخلفاء فى تحويل السنين أن يُفتَتح ما يكتب بلفظ : « من فلانٍ أمير المؤمنين إلىٰ أهل الدولة » ونحوِ ذٰلك)

ثم يُؤتىٰ بالتحميد وهو المعبَّر عنه بالتصدير، وعليه كان يكتُب خلفاء الفاطميين بالديار المصرية .

قال فى "موادّ البيان" : والطريقُ فى ذٰلك أن يفتتح بعد التصدير والتحميد[(١)] ...
... ...

الضرب الأول

(ما كان يُكتب فى الدولة الأيوبية)

وكانت العادةُ فيه أن يفتتَح بخرجت الأوامرُ ونحو ذٰلك ، ثم يذكر فيه نحوا مما تقدّم .

وهذه نسخةُ مرسوم بتحويل السنة القبطية [إلى السنة العربية] ، من إنشاء القاضى الفاضل عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسفَ بنِ أيوب » تغمّده الله برحمته ، وهى :

خرجتِ الأوامرُ الصّلاحيّة بكَتْب هذا المنشورِ وتلاوة مُودَعه بحيث يستمِرّ، ونَسْخه فى الدّواوين بحيث يستقرّ، ومضمُونُه .

إنَّ نظرنا لم يزَلْ تتجلّىٰ له الجلائلُ والدقائِق ، ويتوخّى من الحسنات ما تَسيرُ به الحقائبُ والحقائق ، ويُخلّد من الأخبار المشروعةِ ، كلَّ عذبِ الطرائق رائق ، ويجدّد

(١) هنا بياض فى الاصل بقدر كلمات ولعل بعدها وهو على ضربين» الضرب الخ .

من الآثار المتبوعة، ما هو بثناء الخلائق لائق، ولا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير إلا جَهَدنا أن نكتسبها، ولا يُثَوِّب بنا الداعى إلىٰ مثوبة إلا رأينا أن نحتسبها، لا سيَّما ما يكون للسنينَ الماضية مُمضِيا، وإلىٰ القضايا العادلة مُفْضِيا، ولمحاسن الشريعة مُجَلِّيا، ولعوارض الشُّبَه رافعا، ولتناقُض الخبر دافعا، ولأبواب المُعاملات حافظا، ولأسباب المُغالطات لافظا، وللخواطر من أمراض الشُّكوك مصحِّحا، وعن حقائق اليقين مُفْصِحا، وللأسماع من طَيْف الأختلاف مُعْفِيا، ولغاية الإشكال من طُرُق الأفهام معفِّيا .

ولما ٱستهلَّتْ سنةُ كذا الهلالية، وقد تباعَدَ ما بينها وبينَ السنة الخراجية إلىٰ أن صارتْ غَلَّاتها منسوبةً إلىٰ ما قبلها، وفى ذلك مافيه: من أخْذ الدِّرْهم المنقُود، عن غير الوَقْت المفْقُود، وتسمية بيتِ المال مُمْطِلا وقد أنْجَز، ووَصْف الحق المُتْلَف بأنه دَيْنٌ وقد أعْجَز، وأكْل رِزْق اليوم وتسميته منسوبًا إلىٰ أمْسِه، وإخراج المعتَدّ لسنةِ هلالِه إلىٰ حسابِ المعتدِّ إلىٰ سنةِ شمْسِه .

وكان اللهُ تعالىٰ قد أجرىٰ أمرَ هذه الأمّة علىٰ تاريخ منزَّه عن اللَّبْس، مُوقَّر عن الكَبْس، وصرَّح كتابُهُ العزيز بتحريمه، وذَكَرَ ما فيه من تأخيرِ وقتِ النَّسِيء وتقديمه؛ والأمّةُ المحمديةُ لا ينبَغى أن يُدرِكَها الكسر، كما أنَّ الشمس لا ينبغى أن تُدْرِك القَمَر، وسُنَنُها بين الحق والباطل فارِقه، وسَنَتُها أبدًا سابِقَه، والسِّنُون بعدها لاحِقَه، يتعاوَرُها الكَسْر الذى يُزَحْزِح أوقاتَ العبادات عن مواضِعِها، ولا يُدْرِك عملَها إلا من دَقَّ نظرُه، واستفْرغت فى الحساب فِكَرُه، والسنةُ العربيةُ تَقْطَع بخناجِر أهلّتها الآشتباه، وتردُّ شهورَها حاليةً بعقودها موْسُومَةَ الجِباه، وإذا تقاعسَت السنةُ الشمسية عن أنْ تطأ أعقابَها، وتُوَاطِىَ حِسابَها، اجتذبَتْ قِراها قَسْرا، وأوجبتْ

لحقِّها ذكرا، وتزوَّجتْ سنةُ الشمس سنةَ الهلال وكان الهلالُ بينهما مَهْرا، فستّتُهم المؤنثةُ وستُّنا المذكَّره، وآيةُ الهلال هُنا دُونَ آية الليل هى المُبْصَرَه، وفى السّنة العربيَّة إلىٰ ما فيها من عَرَبِيَّة الإفصاح، وراحةِ الإيضاح، الزيادةُ التى تظهر فى كل ثلاثٍ وثلاثين سنةً تُوفى علىٰ عدد الأُمَم قَطْعا، وقد أشار اللهُ إليها بقوله: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾. وفى هذه السنةِ الزائدةِ زياده، من لطائف السَّعاده، ووظائِفِ العِبَاده، لأن أهلَ ملَّة الإسلام يمتازُونَ علىٰ كل ملة بسَنَة فى نظير تلك المدّة قصَدُوا صَلاتَها، وأدّوْا زكاتَها، وحجُّوا فيها البيتَ العتيقَ الكريم، وصامُوا فيها الشهرَ العظيم، واستوجَبُوا فيها الأجُورَ الجليله، وأَنِسَتْ فيها أسماعُهُم بالأعمار الطويله، ومخالِفُوهم فيها قد عُطِّلت صحائفُهم فى عُدْوانِهم، وإن كانت عاطله، وخلَتْ مواقِفُهم فى أديانِهم، وإن لم تكُنْ قطُّ آهِلَهْ.

وقد رأينا باستخارةِ الله سبحانه والتيمُّن باتّباع العوائد التى سلكَها السَّلَف، ولم تَسْلُك فيها السَّرَف، أن ينسَخُوا أسماءَها من الخَرَاج، ويذهبَ ما بين السنينَ من الاضْطِراب والاعوجاج، لا سيما والشهورُ الخراجيَّة قد وافقَتْ فى هذه الشهور الشهورَ الهلالية، وألقىٰ اللهُ فى أيامنا الوِفاقَ بين الأيَّام، كما ألقىٰ باعتلائنا الوِفاقَ بين الأنام، وأسكَنَ بنظرنا ما فى الأوقات من اضطرابٍ وفى القلوب من اضْطِرام.

فليُستأنَفِ التاريخُ فى الدواوين المعموره، لاستقبال السنة المذكوره، بأن تُوسَم بالهلاليَّة الخراجيَّةِ لإزالة الالتباس، ولإقامة القِسْطاس، وايضا [حا] لمن أمْرُه عليه عُمَّةٌ من الناس، وعلىٰ هذا التقرير، تُكْتَب سِجِلَّات التحضير، وتنتظِم الحُسْبانات المرفُوعه، والمَشارِعُ الموضُوعه، وتَطَّرِد القوانينُ المشْرُوعه، وتُثْبَتُ المكلَّفات المقطوعه، ولو لم يكُنْ بين دَواعى نقلِها، وعَوارض زَلَلِها وزوالها، إلا أنَّ الأجناد

إذا قبضُوا واجباتِهم عن منشورٍ إلىٰ سنةِ خمس فى أواخرِ سنةِ سبع وسقَط ساقِطُهم بالوفاة، وجرىٰ بحكم السمْع لا بالشَّرْع إلىٰ أن يرث وارثُه دُونَ بيت المال مستغَلَّ السنة الخراجية التى يلتقى فيها تاريخ وفاتِه من السنة الهلالية وفى ذٰلك ما فيه، ممـا يُباينُ الإنصاف وينافيه [لكفى].

وإذا كان العدلُ وضْعَ الأشياء فى مواضعها فلسنا نحْرِم أيَّامنا المحرَّمةَ بذمَامِنا، مارُزِقَتْه أبناؤُها من عدل أحكامنا، بل نخْلَع عن جديدها المس كل المس، و[نمْنَع] تَبِعة الضَّلال أن تُسند مهادنَتُه إلىٰ نُور الشمس، ولا نجعلَ أيامنا معمورةً بالأسقاط التى تجمعها، بل مَغْمورةً بالأقساط التى تنفَعُها، فلْيُبْنَ التاريخُ علىٰ بُنْيانه وليُحْسَم الخُلْف الواقع فى السنين، بهذا الحقِّ الصادِع المبين، وليُنْسَخ المشهودُ به فى جميع الدواوين، وليُكاتَبْ بحُكمه من الخراج إلىٰ من يمكِنُه من المستَخْدَمين ــ ومنها أن المستجِدّ من الأجناد لو حُمِل على السنة الخراجية فى استِغْلاله، وعلى الهلاليَّة فى استِقْباله، لكان مُحالًا علىٰ مايكون مُحالا، وكان يتعجَّل استِقْبالا، ويُباطِن استعلالا، وفى ذٰلك ماينافِرُ أوصافَ الإنصاف ويصُون الفلاح إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــرب الثـانى

(ما يُكتَب به فى زمانـــا)

وقد جرتِ العادةُ أن يُكتَب فى قطع الثُّلُث وأنه يفتَتَح بخطبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» ثم يقال: وبعـدُ فإنا لَما اختصَّنا الله تعالىٰ به من النظَر فى أمرِ الناس ومصالحِهم، ويذكر ماسنح له من ذٰلك ثم يُقال: ولمّـا كان، ويذكُر قصـة السِنين: الشمسيةِ والقمريّة، وما يطْرَأ بينهما من التباعُد الموجب لنقْل الشمسية إلى القَمرية،

ثم يقال : آقتضىٰ الرأىُ الشريفُ أن يحوّلَ مُغَلُّ سنةِ كذا إلىٰ سنة كذا وتُذْكر نسخة ذٰلك ، ثم يقال : فرُسِم بالأمر الشريف الفلانى لا زال ... ... أن تحوّل سنةُ كذا إلىٰ سنةِ كذا .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القِبْطية إلى العربية ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ الليلَ والنهارَ آيتين ، وصيَّر الشهورَ والأعوام لآبتداءِ المُدَد وانتهائها غايتيْن ، ليَعْلَمَ خلقُه عَددَ السنينَ والحساب ، وتعمل برِيَّتُه علىٰ توفيةِ الأوقات حقَّها من الأفعال التى يحصُل بها الاعتداد ويحسُن بها الآحتِساب .

نحمدُه علىٰ ما خَصَّ أيامنا الزاهرةَ من إنعام النظَر فى مصالح خَلْقِه ، وإمعانِ الفِكْر فى تشييد ما بَسَط لهم من رِزْقِه ، وإزالة الضَّرر فى تيسيرِ القيام بما أوجبَ عليهم من حقِّه ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً عاصمةً من الزيغ ذا هَوىٰ ، معتصمةً من التوفيق بأقوىٰ أسباب التوثيقِ وأوثَقِ أسباب القُوىٰ ، شافعةً حُسنَ العمل فى مصالح العباد بحُسْن النية ، فإنَّ الأعمالَ بالنيات وإنَّما لكُلِّ آمرئٍ ما نوىٰ ، ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله رحمةً للعالمين ، وحجةً على العامِلين ، ونشر دعْوتَه فى الآفاق فأيَّده لإقامتها بنَصْره وبالمؤمنين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أُمِروا فأطاعُوا ، ونُهُوا فاجتنَبُوا ما نُهوا عنه ما استطاعُوا ، صلاةً تَمى نَماءَ البُدور ، وتبْقىٰ بقاءَ الدُّهور ، وتُطْوى بنشرها مراحلُ الأيام إلىٰ يوم النُّشور .

وبعد ، فإنَّا لمَا آختصَّنا اللهُ تعالىٰ به من التوفُّر علىٰ مصالح الإسلام ، والتناوُل لمَا تنْشَرِح به فى مواقِف الجهاد ، صدُورُ السيوف وتنطِقُ به فى مصالح العِبَاد ، ألسنةُ الأقلام ، نَتْبَع كلَّ أمرٍ فنَسُدّ خَللَه ، ونُثَقِّف مَيْلَه ، ونُقيم أوَدَه ، وننظُر ليومه

بما يصلح به يومه ولغده بما يُصْلح غَدَه، إصلاحًا لكل حالٍ بحسبه، وتقريبًا لكل شيء على ما هو أليَقُ بشأنه و إقرارا لكلّ أمر على ما هو الأحسنُ به .

ولما كان الزمنُ مقسومًا بين سنين شمسيةٍ يتّفق فيها ما أخرج الله تعالى من الرِّزق لعباده، ويحصُلُ بها ميقاتُ القُوت الذى قال الله تعالى فيه : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ وقمريّة لا يُعوَّل فى أحكام الدِّين إلا عليها، ولا يُرجع فى تواريخ الإسلامِ إلّا إليها، ولا تُعتبر العبادةُ الزمانيّةُ إلا بأهلّتها، ولا يُهتدى إلى يومِ الحجِّ الأكبرِ إلا بأدلّتها، ولا يعتدُّ فى العِدَد التى تُحفَظ بها الأنسابُ إلا بأحكامها، ولا تُعلَم الأشهرُ الحُرُم إلا بوُجُودها فى الأوقات المخصوصة من عامها . وكان قد حصل بينهما من تفاوُت الأيام فى المُدَد، واختلاف الشُّهور الهلالية فى العَدَد، ما يلزم منه تداخُلُ مُغَلّ فى مُغَل ، ونسبةُ شىءٍ راح وانقضى إلى ما أدرك الآنَ وحصَلْ، ويؤدّى ذلك إلى إبقاء سنةٍ بغير خَراج، وهَدْر ما يجب تركُه فليس الوقتُ إليه محتاج ، وإلغاءِ ما يتعيَّن إلغاؤه ، وإسقاطِ ما تلتفتُ إليه الأذهان وهو لا يمكنُ رجاؤُه، وإن كان ذلك الإسقاط لاضرَرَ فيه على العِباد والبِلاد ، ولا نقْص يَنْتُج منه للأُمَراء والأجناد ، ولا حقيقةَ له ولا معنىً ، ولا إهمالَ شىء أفقر تركُه ولا إبقاؤه أغنىٰ ، ولكن صار ذلك من عوائد الزّمن القديمه ، ومُصطَلَحا لا تزال العقول بالاحتياج إلى فعْله عَليمه ، وأمرا لا بُدّ للمُلْك منه ، وحالا لامندُوحة للدُّوَل عنه ، لتغدو التصرُّفاتُ على الاستقامة ماشِيَه، والمعاملاتُ من الحق ناشِيَه، ويُعفىٰ رسمُ مالم يكن فى الحقيقة رابطْ ، ويزال اسمُ مالو توسَّمه الفضلُ لأضحىٰ كأنه يُغالِط ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن تحوَّل هذه السنةُ التى يحصُل بها الكَبْس ، وأن يَدْحَضها يقينُ النفس ، وأن يُرفَع ما بها من أشكال الإشْكال ، ويُزالَ هذا السببُ الذى نشأ عنه دخولُ الأكثر باستدراج الأقلّ فلا يكونُ للأذهان عليه اتِّكال .

نظرًا بذلك فى مصالح الأمّه ، ودفعا لما يحدونه من أوهام مُدْلهِمَّه ، وعملًا يطابق به الدليلُ حكمَه ، و يوافقُ فيه اللفظُ معناه والفعلُ آسمَه ، وتخفيفًا عن الرعية من لزوم مالا يلزم فى الحقيقةِ عملًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال عدلُه سائرًا فى الأيّام والأنام ، وفضلُه [سائدا] بالرِّفق الذى تغْدُو به العقولُ والعيونُ كأنها من الأمْن فى منام ــ أن يُحوّل مُغَلُّ سنة تسع وأربعين وسَبْعمائة بالديار المصرية المحروسة ، لمُغَلّ سنة خمسينَ وسبعمائة ، ويُلْغىٰ آسمُ مُغَل السنة المذكوره ، من الدّواوين المعموره ، ولا يُنْسب إليها مُغَلٌّ بل يكون مُغَلُّ سنة خمسين وسبعمائة تاليًا لمُغَل سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة ، وتستقرّ السنةُ حينئذٍ هلاليّةً خَراجيةً بحكم دَورانِ السنين ، وآستحقاقُ هذا التحويل من مدّةِ خمسَ عشرةَ سنة ، حيث آتفاقُ مبدإ السنين الشمسيةِ والقمريّة ، ووُقوع الإغفال عن هذا المُبْهَم فى الدول الماضية ، لتكون هذه الدولة الشريفة قائمةً بما قعد عنه من مَضىٰ من الدول ، مُقوِّمةً بعوْن الله لكل متأوِّدٍ من الزَّيْغ والخلَل ، لما فى ذٰلك من المصلحة العامّه ، والمِنْحة التامّه ، والحقّ الواضح ، والقَصْد الناجح ، والمَنْهج القويم ، والصِّراطِ المستقيم ، والاعتمادِ على الشهور القمريّة قال الله تعالىٰ : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتّٰى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

فليُعْتَمَدْ حُكْمُ ماقرّرْناه ، وليُمتثَلْ أمرُ ماأمرْناه ، وليُثْبَتْ ذٰلك فى الدّواوين ، وليُشْهر نبَؤه المبين ، وليُسْقَطْ ماتخلّل بين هاتين السنتينِ من المُغَلّ الذى لاحقيقةَ له ، وليُترَكْ ما بينهما من التفاوُتِ الذى لا تَعرِف الحُسْباناتُ مُعدّله ، ولْيُمْحَ آسمُ هٰذه الأيام من الدفاتر ، ولْيُنْسَ حكمُها فإنها أَوْلىٰ بذٰلك فى الزمن الآتى والغابر ، فليس المُغَلّ سوىٰ للعام الذى وُجِد فيه سببُه ، وظهر فيه حصولُه وتعيّن طلبُه ، وأُدْرِكَ فى إبّانه ، وجاء

فى زمانه، وأينع به ثمرُ غَرْسه، وٱستُحِقّ فى وقته لا كما يَلزَم أن يكون اليومُ فى أمْسه؛ وفى ذٰلك من الأسباب الباعثة علىٰ مارسَمْنا به، والدّواعى اللازمة لذَهابه، والبراهين القاطعة بقَطْعه، والدلائلِ الواضحة علىٰ دَفْعه، ماقدّمناه : من المصالح المعيَّنه، والطُّرُق المبيَّنه، وإزالة الأوْهام، وتأكيد الأفْهام، وإراحة الخَواطر، وإزاحة ما تتشوّق إليه الظُّنونُ فى الظاهر؛ وليُبْطَل ذٰلك من الآرتفاعاتِ بالكُلِّيَّه، ويُسْقَط من الجرائد لتغدُوَ الحُسْبانات منه خَلِيَّه، ولا يُذْكَرُ مُغَل السنة المدحوضة فى سِجِلٍّ ولا مَشْروح، ولا مشهودٍ يغْدُو حكمه ويَرُوح، ولا مكلَّفات تُودِعها الأقلام شيئًا على المَجاز وهو فى الحقيقة مَطْروح، لتَثْبُتَ الحسناتُ لأيامنا الزاهرة فى هذا النَّحْو، ويُكْشَف ماينْتج بسماء العقل من غيم الجَهالة بما وَضَح من هذا الصَّحْو، ويتَمسَّك فى صحة العبادات والمعاملاتِ بالسنينَ العربية من غير خُروج عن ذٰلك النحو، والله تعالىٰ يُبيِّن بِنا طُرُقَ الصواب، ويُحْسِن ببقاء مُلكِنا الشريفِ المآلَ والمآب، ويجعلُ دولتنا تُوَضِّح الأحكام على آختلاف الجديدين : ﴿إنَّ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وٱخْتِلاف اللَّيْلِ والنَّهارِ لآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَاب﴾ .

والآعتمادُ فيه على الخط الشريف ــ أعلاه الله تعالىٰ ــ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

حادى عِشْرِين[1] جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسين وسبعمائة .

حسَبَ المرسوم الشريف، بالإشارة الكافلية السيفيَّة، كافلِ الممالك الشريفة الإسلامية، أعزّ الله تعالىٰ نُصْرته، ثم الحَمْدلة والتصلية والحَسْبلة .

قلت : وهذه النسخةُ صدْرُها إلىٰ قوله : والشهورُ الهلالية أجنبيٌّ عما بعدَ ذٰلك من تَتمة الكلام . وذٰلك أنى ظَفِرت بعَجُز النسخة، وهو المكتَتَب فى تحويل

(١) كذا فى الأصل بإثبات النون وهو كثير فى كتابات الكتّاب وهو لحن .

سنة تسع وأربعين فى نفس المرسومِ الشريفِ الذى شملتْه العلامةُ الشريفة ، وقد قُطِع أوّله فركّبتها علىٰ هذا الصدْر .

ومن عجيبِ ما يُذْكَر فى ذلك أن سنة تِسع وأربعين التى حُوِّلت إلىٰ سنة خمسين هى السنة التى وقَع فيها الطاعونُ الجارفُ الذى عمّ الأقطارَ خلا المدينةَ النبويّةَ، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام التى أخبر النبىُّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يَدْخُلها الطاعون، وكَثُر فيها الموتُ حتى آنتهىٰ إلىٰ عشرين ألفًا فى اليوم الواحد، وكان يُقال فى هذه السنة لما حُوِّلت : [مات كلُّ شىء حتى السنة] لإلغائها . وجَعْل مُغَلّ سنة خمسين تاليا لمُغَل سنة ثمانٍ وأربعين كما تقدّم .

الفصـــلُ الثانى

من البـاب الرابـــع من المقـالة السادسـةِ

(فيـما يُكتَب فى التـذاكر)

والتَّـذاكر جمـع تَذْكِرة .

قال "فى مواد البيان" : وقد جرتِ العادةُ أن تُضمَّن جمَلَ الأموال التى يُسافِر بها الرسولُ ليعودَ إليها إن أغفل شيئًا منها أو نسيه ، أو تكونَ حجةً له فيما يُورده ويُصدره، قال : ولا غنًى بالكاتب عن العِلم بعُنْواناتها وترتيبها .

فأما عُنوانُ التـذْكِرة فيكون فى صَدْرها تِلْوَ البسملة، فإن كانت للرسول يعْمَل عليها، قيل : تَذْكِرة مُنْجِحة صدرتْ علىٰ يدِ فلان عند وصوله إلىٰ فلان بن فلان، ويَنْتَهِى بمشيئة الله تعالىٰ إلىٰ ما نُصَّ فيها . وإن كانت حجةً له يَعْرِضها لتَشْهد بصدق

مايورده، قيل : تذكرة مُنْجحة صدرتْ علىٰ يد فلانِ بن فلان بما يحتاجُ إلىٰ عَرْضه علىٰ فلان .

وأما الترتيبُ فيختلف أيضا بحَسَب آختلاف العُنوان : فإن كانتْ على الرسم الأوّل ، كانَ بصدرها « قد آستخَرْنا الله عزّ وجل وندَبْناك ، أو عوّلنا عليك ، أو نفّذناك ، أو وَجّهناك إلىٰ فلان : لإيصال ما أودَعْناك وشافَهْناك به من كذا وكذا » ويَقُصّ جميع الأغراض التى أُلقيت إليه مجملة . وإن كانت محمولةً علىٰ يده كالمجة له فيما يَعْرِضه ، قيل : «قد آستخرْنا الله عزّ وجل وعوّلنا عليك فى تحمّل تَذْكِرتنا هذه والشُّخُوص بها إلىٰ فلان ، أو النُّفُوذ ، أو التوجُّه ، أو المَصير ، أو القصد بها وإيصالها إليه ، وعَرْض ماتضمّنته عليه ، من كذا وكذا » ويَقُصّ جميع أغراضها .

ثم قال : وهذه التذاكرُ أحكامُها أحكامُ الكتب فى النُّفوذ عن الأعلىٰ إلى الأدْنىٰ ، وعن الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، فينبغى أن تُبْتَنَىٰ علىٰ مايَحفَظ رتَب الكاتب والمكتوب إليه : فإن كانتْ صادرةً عن الوزير إلى الخليفة مثلا فتُصَدَّر بما مثاله «قد آستخرتُ الله تعالىٰ ، وعوّلتُ عليك فى الشُّخُوص إلىٰ حضرة أمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه ـ متحمّلا هذه التَّذْكِرة ، فإذا مَثَلت بالمواقف المطهَّرة ، فوَفّها حقّها من الإعظام والإكبار ، والإجْلال والوَقار ، وقدِّم تقبيلَ الأرض والمطالعةَ بما أشاءُ مواصلتَه من شُكْرِ نِعَم أمير المؤمنين الضافيةِ علىّ ، المتتابِعةِ لَدَىّ ، وإخْلاصى لطاعته ، وآنتصابى فى خدمته ، وتَوْفيرى على الدعاء بثَبات دولته ، وخُلُود مملكتِه ، وطالِعْ بكذا وكذا » وعلىٰ هذا النظام إلىٰ آخر المراتب يعنى مراتب المكاتبات .

قلت : والذى جرىٰ عليه آصطلاحُ كُتّاب الزمان فى التذاكر أنّ التذْكرة تكتب فى قطع الشامى ، تُكْسَر فيها الفَرْخة الكاملةُ نصفين ، وتجعل دفترًا وورقةً إلىٰ جنب

أخرىٰ لا كُرَّاسةً بعضُها داخلُ بعض ، وتكون كتابتُها بقلَم الرِّقاع ، وتكون البسملة فى أعلىٰ باطن الورقة الأُولىٰ ببياضٍ قليلٍ من أعلاها وهامش عن يمينها ؛ ثم يُكتب السطر التالي من التذكرة علىٰ سَمْت البسملة ملاصِقًا لها ، ثم يُخَلَّىٰ قدرُ عرض إصبعين بياضا ويُكتَب السطر التالي ، ثم يخلَّىٰ قدر إصبع بياضا ويكتب السطر التالى ، ويجرى فى باقى الأسطُر علىٰ ذلك حتى يأتى علىٰ آخر الورقة ، ثم يُكتَب باطنُ الورقة التى تليها كذٰلك ، ثم ظاهرها كذلك ، ثم الورقة الثانيةُ فما بعدها علىٰ هذا الترتيب إلىٰ آخر التذكرة ، ثم يكتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم التاريخ ، ثم الحمدلة والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبلة ، علىٰ نحو ماتقدم فى المكاتَبات والولايات وغيرِها علىٰ ماتقدم بيانه فى المقالة الثالثة فى الكلام على الخواتم .

⁂

وهذه نسخةُ تذكِرة أنشأها القاضى الفاضلُ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ ابن أيُّوب ، سيَّرها صُحْبةَ الأمير شمس الدين الخطيب : أحدِ أمراءِ الدولة الصلاحية إلىٰ أبواب الخلافة ببغْدادَ فى خلافة الناصر لِدِين الله ، وهى :

تذكِرةٌ مباركة ولم تزل الذِّكْرىٰ للمؤمنين نافعة ، ولعَوارِض الشكّ دافعه ، ضُمِّنت أغراضًا يُقيِّدها الكِتَاب ، إلىٰ أن يُطلِقَها الخطاب . علىٰ أن السائرَ سيَّار البيان ، والرسولَ يَمْضِى علىٰ رِسْل التبيان ، والله سبحانه يُسدِّده قائلا وفاعِلا ، ويحفَظُه بادئًا وعائدًا ومُقِيما وراحِلا .

الأميرُ الفقيهُ شمسُ الدين خطيبُ الخطباء ـ أدام الله نعمتَه ، وكتب سلامتَه ، وأحسن صَحابَته ـ يتوجَّه بعد الاستخارة ويقصد دارَ السلام ، والخِطَّةَ التى هى عُشُّ بيضة الإسلام ، ومجتمَع رجاء الرِّجال ، ومتَّسع رحاب الرِّحال ، فإذا نظر تلك الدارَ

الدارَ سَحابُها ، وشافَهَ بالنظر مَعالِمَ ذلك الحَرم المحترَم على الخُطوب خِطابُها ؛ ووَقَف أمامَ تلك المواقف التى تحسُد الأرجلَ عليها الرُّءوس ، وقام بتلك المنازل التى تُنافِس الأجسامَ فيها النُّفُوس ، فلو آستطاعَتْ لزارَتِ الأرواحُ محرِمةً من أجسادِها ، وطافَتْ بكَعْبتها متجردةً من أغْمادِها ، فلْيُمطِر الأرضَ هناك عنّا قُبلا تُخضِّلها ، بأعداد لا نُحصِّلها ، ولْيُسَلِّم عليها سلاما نعتدُّه من شعائر الدين اللازمه ، وسُنن الإسلام القائمه ، ولْيُورِدْ عنا تحيةً يستنزِلها من عند الله تحيةً مباركةً طيِّبه ، وصلاةً تخترِق أنوارُها الأستارَ المحجَّبه ، ولْيُصافِحْ عنّا بوجْهه صَفْحة الثّرىٰ ، وليستشرِفْ عنّا بنظره فقد ظَفِر بصباح السُّرىٰ ، ولْيستلِمِ الأركانَ الشريفة ، فإن الدِّين إليها مستنِد ، وليستدِم الملاحظاتِ اللَّطيفة ، فإنَّ النُّور منها مستَمَدّ ، وإذا قضَى التسليمَ وحقَّ اللقاء ، وآستدعى الإخلاصُ جَهْد الدعاء ، فلْيَعُدْ ولْيُعِدْ حوادثَ ما كانتْ حديثا يُفْترىٰ ، وجَوارِىَ أمور إن قال منها كثيرًا فأ كثرُ منه ما جرىٰ ، وليشْرَحْ صدرا منها لعلّه يشرَحُ منا صَدْرا ، ولْيُوضِّح الأحوالَ المستسرة فإنّ الله لا يُعْبَدُ سِرّا :

وَمِن الغَرائِب أنْ تَسيرَ غَرائِبٌ * فى الأرضِ لَمْ يَعْلَمْ بها المَأْمُول

كالْعِيس أقتَلُ ما يكونُ لها الظَّمَا * والماءُ فَوْقَ ظُهُورِها محْمُول

فإنّا كنّا نقتبِس النارَ بأيدينا ، وغيرنا يستنير ، ونستَنْبِط الماء بأيْدِنا ، وغيرُنا يستَمير ، ونَلْقَ السِّهام بنحورنا ، وغيرُنا يغيِّر التصوير ، ونُصافِح الصِّفاح بصُدُورنا ، وغيرنا يدّعى التصدير ، ولا بدّ أنْ نستردّ بضاعتنا ، بموقف العدْل الذى تُردّ به الغُصوب ، ونُظْهِر طاعتنا ، فَنأخُذ بحظ الألسنة كما أخذْنا بحظّ القُلُوب ، وما كان العائقُ إلا أنّا كنّا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمه ، يُضاهى ابتداءَنا بالخِدْمه ، وإيجابًا للحق ، يشاكل إيجابَنا للسَّبْق ، إلىٰ أن يكون سَحابُها بغير يد مستنزَلا ، وروضُها بغير غرْس مُطْفِلا .

كان أوّلُ أمرنا أنا كُنّا فى الشام نفْتَح الفُتوحاتِ مُباشرين بأنفسنا ونُجاهد الكفَّارَ متقدّمين لعساكره نحنُ ووالدُنا وعمُّنا، فأىُّ مدينة فُتِحت، أو معْقِلٍ مُلِك، أو عسكر للعدُوّ كُسِر، أو مَصَافٌّ للإسلام معه ضرب، فما يجهَل أحد، ولا يجحَدُ عدو، أنَّا نَصْطلِى الجَمْره، ونملِك الكَسْره، ونتقدّمُ الجماعة، ونرتِّب المقاتِلة، وندبِّر التعبئة، إلىٰ أن ظهرتْ فى الشام الآثارُ التى لنا أجْرُها، ولا يضُرُّنا أن يكون لغيرنا ذِكْرُها .

وكانت أخبارُ مصرَ تتَّصل بنا بما الأحوالُ عليه فيها من سُوء التدبير، ومما دوْلتُها عليه من غَلَبة صغيرٍ علىٰ كبير، وأن النِّظام قد فَسَد، والإسلامَ بها قد ضَعُف عن إقامته كلُّ قائم بها وقَعَد، والفرَنج قد احتاج مَنْ يُدَبِّرها إلىٰ أن يُقاطِعَهم بأموال كثيره، لها مَقاديرُ خَطيره، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجمُوعه، فإنها مقْمُوعه، وأحكامَ الشريعة وإن كانت مُسَمَّاه، فإنَّها مُتَحاماه، وتِلكَ البِدَع بها علىٰ ما يُعْلَم، وتلك الضَّلالاتِ فيها علىٰ ما يُفْتَى منها بفِراق الإسلام ويُحكَم، وذٰلك المذْهَبُ قد خالط من أهْله اللَّحْم والدَّم، وتلك الأنصابُ قد نُصِبت آلهةً تُتَّخذ من دُون الله تُعظَّم وتُفَخَّم، فتعالى الله عن شَبَه العِباد، ووَيْلٌ لمن غَرَّه تقلُّب الذين كفَروا فى البِلاد .

فسمَتْ هِمَمُنا دُونَ هِمَم ملوك الأرض إلىٰ أن نستَفْتِح مُقْفَلها ونسترجِعَ للإسلام شارِدَها ونُعيد على الدِّين ضالَّته منها فسِرْنا إليها بعساكرَ ضَخْمه، وجموعٍ جَمَّه، وبأموالٍ انتهكَت الموجُود، وبلغَتْ منَّا المجهُود، وأنفقْناها من خالص ذِممِنا وكَسْب أيدينا، ومن أَسارَى الفرَنج الواقعين فى قبْضتِنا، فعرَضَتْ عوارِضُ منعتْ، وتوجَّهت للمصريين حِيَل باستنجاد الفرَنج تمَّت : ﴿ولكُلِّ أجلٍ كِتاب﴾ . ولكلِّ أملٍ باب .

وكان فى تقدير الله سبحانه أنَّا نملِكُها على الوجه الأحسَن، ونأخُذُها بالحكم الأقوى الأمْكَن، فغَدَر الفرَنج بالمِصريين غَدْرة فى هُدْنةٍ عظُم خطْبها وخَبْطُها ،

وعُلِم أنّ استئصال كلمة الإسلام محطُّها، وكاتبَنا المسلمون من مِصر فى ذلك الزمان، كما كاتبَنا المسلمون من الشام فى هـذا الأوان، بأنّا إن لم نُدرِك الأمر وإلا خرج من اليـد، وإن لم نَدفَع غريمَ اليوم لم يُمهِل إلى الغـد، فسرْنا بالعساكر الموجودة والأمراءِ الأهل المعروفةِ إلىٰ بلادٍ قد تمهّد لنا بها أمران، وتقرّر لنا فيها فى القلوب وُدّان: الأوّلُ لما علموه من إيثارنا المذهبَ الأقوم، وإحياءِ الحقِّ الأقدم، والآخَرُ لما يرجونه من فكّ إسارهم، وإقالةِ عِثارهم، ففعل اللهُ ما هو أهلُه، وجاء الخبرَ إلى العدوّ فانقطع حبلُه، وضاقتْ به سُبُله، وأُفرِج عن الديار بعد أن كانت ضِياعُها ورساتيقُها وبلادُها وإقليمُها قد نفذَت فيها أوامرُه، وخفقَتْ عليها صُلبانه، وأمِن من أن يُسترجعَ ما كان بأيديهم حاصِلا، وأن يُستنقَذ ماصار فى مِلكهم داخِلا، ووصلْنا البـلاد وبها أجنادٌ عددُهم كثير، وسوادُهم كبير، وأموالُهم واسِعه، وكلمتهم جامعه، وهم علىٰ حربِ الإسلامِ أقدرُ منهم علىٰ حربِ الكُفْر، والحِيلةُ فى السِّرّ منهم أنفذُ من العزيمة فى الجهر. وبها راجِلٌ من السُّودان يزيد علىٰ مائة ألف رجل كلهـم أغتامٌ أعجام، إنْ هُمْ إلا كالأنعام، لايعرِفُون ربًّا إلا ساكنَ قصْره، ولا قبلةً إلا مايتوجّهُون اليـه من رُكْنه. وبها عسكرٌ من الأرمَن باقونَ على النّصرانية موضوعةٌ عنهم الجِزْية كانت لهم شوكةٌ وشكّه، وحَمِيّـة وحُمَة، ولهم حواشٍ لقَصْرهم من بين داعٍ تلطُف فى الضّلال مَداخلُه، وتُصيب العقولَ مخاتلُه، ومن بين كُتّاب أقلامُهم تفعل أفعالَ الأَسَل، وخُدّامٍ يجمعُون إلىٰ سَوادِ الوجُوه سَوادَ النِّحَل، ودولةٍ قد كبِر عليها الصغير، ولم يعرِفْ غيرَها الكبير، ومهابةٍ تمنع خَطَرات الضمير، فكيفَ لَحَظَاتُ التدبير.

هذا إلى استباحةٍ للمَحارم ظاهرة، وتعطيلٍ للفرائض علىٰ عادة جارِية، وتحريف للشّريعة بالتأويل، وعُدُول إلىٰ غير مُراد الله فى التنزيل، وكُفْر سُمّى بغـير اسمه، وشرع يُتستّر به ويُحكَم بغير حُكْمه.

فما زلنا نَسْحَتُهم سَحْتَ المَبَارِد للشِّفار، ونتحيَّفهم تحيُّفَ الليل والنهار للأعمار، بعجائبِ تدبيرٍ، لا تحتملها المَسَاطير، وغرائبِ تقريرٍ، لا تحملها الأساطير، ولطفِ تَوصُّلٍ ما كان فى حيلةِ البشرِ ولا قُدرتِهم إلا إعانةُ المقادير، وفى أثناء ذٰلك استنجدُوا علينا الفرنجَ دفعةً إلىٰ بُلْبَيْس، ودَفْعةً إلىٰ دِمْياط، فى كل منهُما وصَلُوا بالعدوِ المُجْهَر، والحَشْدِ الأوفَر، وخصوصا فى نَوْبة دِمْياطَ فإنهم نازَلُوها بحرًا فى ألفِ مَرْكَبٍ مُقاتِلٍ وحامل، وبَرًّا فى مائتى ألفِ فارس وراجل، وحصَرُوها شهرين يباكِرُونها ويُراوِحُونها، ويُماسُونها ويُصابِحُونها، القتالَ الذى يُصْليه الصَّلِيب، والقِراعَ الذى يُنادىٰ به من مكانٍ قريب، ونحن نُقاتِلُ العدُوين: الباطنَ والظاهِر، ونُصابِرُ الضِّدَّيْن: المنافِقَ والكافِر، حتَّى أتَى الله بأمره، وأيَّدنا بنَصْره، وخابتِ المَطامع من المِصْريِّين ومن الفرنجِ ومن مَلِك الرُّوم ومن الجَنَوِيِّين وأجناسِ الرُّوم لأن أنْفارهم تنافَرَتْ، ونَصارَاهم تناصَرَت، وأناجِيلَ طَواغيتِهم رُفِعتْ، وصُلُبَ صَلَبُوتِهم أُخْرِجتْ، وشرَعْنا فى تلك الطوائف من الأجنادِ والسُّودان والأرمن فأخرجْناهم من القاهرة تارةً بالأوامِرِ المُزْهِقة لهم، وبالذُّنوب الفاضحةِ منهم، وبالسُّيوف المجرَّدة وبالنار المُحْرِقة، حتَّى بقِيَ القصرُ ومَنْ به من خَدَمِه قد تفرّقتْ شِيَعُه، وتمزَّقت بِدَعُه، وخفتَتْ دعْوتُه، وخَفِيَت ضلالتُه. فهنالك تمَّت لنا إقامةُ الكلمةِ والجهرُ بالخطبة والرفعُ لِلواء السَّواد الأعظم، والجمعُ لكلمةِ السَّواد الأعظم، وعاجلَ اللهُ الطاغيـةَ الأكبرَ بفنائه، وبرَّأنا من عُهْدةِ يمينٍ كان حِنثُها أيسَرَ من إثمِ إبقائه، إلا أنه عُوجِل لفَرْط رَوْعته، ووافَق هلاكُ شخصه هَلاكَ دَوْلته.

ولمـا خَلا ذَرْعُنا، ورَحُب وُسْـعُنا، نظرْنا فى الغَزَوات إلىٰ بلاد الكُفَّار، فلم تخرُجْ سَنَة إلا عن سُـنَّة أُقِيمَتْ فيها برًّا وبحرا، ومَرْكَبًا وظهرا، إلىٰ أن أوسَعْناهم قَتْلا وأَسْرا، ومَلَكْنا رقابهم قَهْرا وقَسْرا، وفتحْنا لهم معاقلَ ماخطَرَ أهلَ الإسلام فيها

منذُ أُخذت من أيديهم ، وما أوجفتْ فيها خيلُهم ولا رِكابُهم مُذْ ملكها أعاديهم ، فمنها ماحكمتْ فيه يدُ الخراب ، ومنها ما آستولتْ عليه يدُ الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيْلَةَ كان العدوّ قد بناها فى بحر الهند ، وهو المسلوكُ منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحلَ الحَرَم فسبىٰ منه خلْقا ، وخَرَق الكفرُ فى هذا الجانب خَرْقا ، فكادتِ القبلة أن يُستولىٰ علىٰ أصلها ، ومساجدُ الله أن يسكُنها غيرُ أهلها ، ومقامُ الخليل صلواتُ الله عليه أن يقومَ به مَنْ نارُه غيرُ بَرْدٍ وسَلام ، ومَضْجَعُ الرسولِ شرّفه الله أن يتطرّقه من لايَدِينُ بمـا جاء به من الإسلام ، ففتح اللهُ هذه القلعةَ وصارتْ مَعْقلا للجهاد ، ومَوْئلا لسُفّار البلاد ، وغيرِهم من عُبّاد العِباد ؛ فلو شُرِح ماتمَّ بها للمسلمين من الأثرِ الجليل ، وما آستدّ من خَلّاتهم ، وأُحْرِق من زُروع المشركين ورُعِى من غَلّاتهم ، إلىٰ أن ضعُفت ثغورُهم ، وآختلّت أمورُهم ، لاحتيج فيه إلىٰ زمن يشْغَل عن المهمات الشريفة لسَماع مَوْرِده ، وإيضاح مَقْصده .

وكان باليَمَن ما عُلِم من آبن مَهْدِىٍّ الضالّ وله آثارٌ فى الإسلام ، وثارٌ طالبُه النبىُّ عليه الصلاةُ والسلام ، لأنه سبى الشرائفَ الصالحاتِ وباعهُنّ بالثمن البخس ، وآستباحَ منهن كلَّ ما لا تَقِرّ عليه نفس ، وكان بِبِدْعِه دَعا إلىٰ قبر أبيه وسمّاه كَعْبه ، وأخذ أموالَ الرعايا المعصومة وأجاحَها ، وأحلَّ الفروجَ المحرّمةَ وأباحها ، فأنهضْنا إليه أخانا بعسكرِنا بعد أن تكلّفْنا له نفقاتٍ واسعه ، وأسلحةٍ رائعـه ؛ وسار فأخذْناه ولله الحمد ، وأنجح اللهُ فيه القصْد ، ووردتْنا كُتُبُ عساكرنا وأُمَرائنا بمـا نفَذ فى آبن مهدىٍّ وبلاده المفتتحة ومعاقله المستضافة ، والكلمةُ هنالك بمشيئة الله إلىٰ الهند سارِيَهْ ، وإلىٰ مالم يقتضّ الإسلامُ عُذرتَه مُذْ أقام الله كلمتَه مُتمادِيَهْ .

ولنا فى المَغْرب ، أثرٌ أغْرب ، وفى أعماله أعمـالٌ دُونَ مَطْلبها كما يكُون المَهْلَك دُونَ المَطْلَب ، وذلك أن بنى عبد المُؤمن قد آشتهر أنّ أمْرَهم أمر ، ومُلْكهم

قد عَمِر، وجُيوشَهم لا تُطاق، وأوامِرَهم لا تُشاق، ونحن والحمدُ لله قد ملَكْنا مما يُجاورنا منه بلادًا تزيد مسافتُها علىٰ شهر، وسيَّرنا عسكرًا بعد عسكر رجع بنصْرٍ بعد نَصْر، ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير – لَكُّ – بَرْقَة – قَفْصة – قَسْطِيلِيَة – تَوْزَر، كلُّ هذه تُقام فيها الخُطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلامُ الله عليه، ولا عَهْدَ للإسلام باقامتها، وتُنَفَّذُ فيها الأحكام بعَلَمها المنصورِ وعلامتِها . وفى هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وُفُود الأمصار، مِقدارُه سبعون راكبًا كلُّهم يطْلُب لسلطان بلده تقليدًا، ويرجُو منَّا وعْدا ويَخَافُ وَعِيدا .

وقد صدرَتْ عنا بحمد الله تقاليدُها، وأُلقيتْ إلينا مقاليدُها، وسيَّرنا الخِلَع والألْوِيه، والمَناشير بما فيها من الأوامر والأقْضِيه .

وأما الأعداءُ الذين يُحدِقُون بهذه البلاد، والكُفَّارُ الذين يُقاتِلونَها بالممالك العِظام والعزائِم الشِّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطِينِيَّةَ وهو الطاغية الأكبرَ، والجبَّار الأكفَر، وصاحبُ المملكة التى أكلَتْ على الدَّهر وشَرِبت، وقائمُ النَّصرانية التى حكمَتْ دولتُه علىٰ ممالكها وغلَبَتْ، وجرَتْ لنا معه غَزَواتٌ بحريَّة، ومُناقَلات ظاهريَّة وسرِّية، وكانت له فى البلاد مطامعُ منها أن يجبى خراجا، ومنها أن يملِكَ منها فِجَاجا، وكانت غُصَّةً لا يُسِيغها الماء، وداهيةً لا تُرجىٰ لها الأرضُ بل السَّماء، فأخذْنا ولله الحمدُ بكَظَمه، وأقمْناه علىٰ قدَمه، ولم نَخْرُج من مصر، إلىٰ أن وصلَتْنا رسُلُه فى جمعةٍ واحدة فى نوبتَيْن بكتابين كُلُّ واحد منهما يُظْهِر فيه خفضَ الجَناح، وإلقاءَ السِّلاح، والانتقالَ من مُعاداه، إلىٰ مُهاداه، ومن مناصَحَه، إلىٰ مناصحه، حتَّى إنه أنْذَر بصاحب صِقِلِّيَة وأساطيله التى يَرِدُ ذكْرُها، وعساكره التى لم يَخْفَ أمرُها .

ومن هٰؤلاء الكفّار صاحبُ صِقِلّيَّة هـذا كان حينَ علم أن صاحبَ الشام وصاحبَ قُسطَنْطينيَّةَ قد ٱجتمعَا فى نَوْبة دِمْياطَ فغُلِبا وهُزِمَا وكُسِرا، أراد أن يُظْهِر قوّتَه المستقِلّةَ بمُفْرَدِها، وعزمتَه القائمةَ بمجرَّدِها، فعَمَر أسـطولاً ٱستوعَبَ فيه مالَه وزمانَه: فإنه الى الآنَ منذُ خمس سنين يكثّرُ عِدّتَه، وينتخبُ عُدّتَه، ويجتلبُ مقاتِلتَه الىٰ أن وصل منها فى السنة الخالية إلى إسكندريّةَ أمرٌ رائع، وخَطْب هائل، ما أثقَلَ ظهرَ البحر مثلُ حِمْله، ولا ملأ صَدْرَه مثلُ خيلِه ورَجْله، ماهو إقليمٌ بل أقاليمُ نَقلَه، وجيشٌ ما ٱحتفَل ملكٌ قطُّ بنظيره لولا أنّ الله خَذَلَه؛ ولو ذهبنا نَصِفُ ما ذهبَ، فيه من ذَهَب، وما أُخِذَ منـه من سِلاحٍ وخيلٍ وعُدَدٍ ومجانيقَ، ومَنْ أُسِرَ منه من خَيَّالةٍ كِبَار، ومقدّمِينَ ذَوِى أقدار، وملوكٍ يُقاطِعُون بالجمل التى لها مِقْدار، وكيف أخْذُه وهو فى العَدَد الأكثرِ بالعَـدَد الأقلّ من رجالنا، وكيف نصر اللهُ عليـه مع الأصعب من قتاله بالأسهَل من قتالِنا، لعُلِم أنّ عنايةَ الله بالإسلام تُغْنيه عن السلاح، وكفايَةَ الله لهذا الدِّين تكْفيه مَئُونةَ الكِفَاح؛ ومن هؤلاء الجَنَوِيِّين الذين يُسَرِّبون الجيوش ــ البنادقةُ ــ البياشنه ــ الجنوية كلُّ هؤلاء تارةً لاتُطاق ضراوةُ ضُرِّهم، ولاتُطفأُ شرارةُ شَرِّهم؛ وتارةً يُجَهِّزُون سُفَّارا يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبه، وتقصُر عنهم يدُ الأحكام المرهُوبه؛ وما منهم الآنَ إلا من يجلُب إلىٰ بلدنا آلةَ قتالِه وجهادِه، ويتقرّبُ إلينا بإهداء طرائفِ أعمـالِه وبلادِه؛ وكلُّهم قد قرِّرت معه المواصَفَه، وانتظمتْ معه المسالمه، علىٰ ما نريد ويكرَهُون، ونُؤْثِر ولا يُؤْثِرون .

ولـما قضى اللهُ بالوفاة النُّورية، وكنّا فى تلك السنة علىٰ نيّة الغَزْو، والعساكرُ قد ظهرَت، والمَضارِبُ قد برَزَت، ونزل الفِرَنْج بَانِيَاس وأشرفُوا على ٱحتيازها، ورأَوْها فرصـةً مدُّوا إليها يدَ ٱنتهازها، اسـتصرخَ بنا صاحبُها للمانَعـه، وٱستنهضَنا لتفريج الكُرَب الواقعه؛ فسِرْنا مراحلَ ٱتّصـل بالعدو أمرُها، وعُوجل بالهُدْنة الدِّمَشقيّة

التى لولا مسيرُنا ما انتظم حكمُها ولا قُبِل كثيرُها ولا قليلُها ؛ ثم عُدْنا إلى البلاد فتوافتْ إلينا الأخبارُ بما الدولة النُّوريَّة عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها، وأن كلَّ قلعة قد حصَل فيها صاحِب، وكلَّ جانب قد طَمَح إليه طالب ؛ والفرَنْج قد بنَوْا بلادا يتخيَّفُون بها الأطرافَ الإسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميَّه ؛ وأمراءُ الدولة قد سُجِن أكابرُهم وعُوقِبوا وصُودِرُوا ، والمماليكُ الذين للتوقِّى أغرارٌ خُلِقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعِلوا للقيام لا للجلُوس فى المَحْفِل المحصُور ؛ وقد مَدُّوا الأعيُنَ والأيدىَ والسُّيُوف ، وساءتْ سِيرتُهم فى الأمر بالمنكر والنهىِ عن المعروف ؛ وكلُّ واحد يتَّخِذ عند الفَرَنْج يدا ، ويجعلُهم لظهره سَنَدا ؛ ويرفَع عنهم ذخيرةً كانت للإسلام ، ويُفَرِّج لهم عن أسيرٍ من أكابر الكُفَّار كان مُقامُه مما يدفَع شرا، ولا يَزِيدُ نار الكفر جَمْرا، وإطلاقه يجلُب قطيعةً تقُوِّى إسلاما وتُضْعِف كفرا؛ فكثُرت إلينا مكاتباتُ أهل الآراء الصائبه، ونظرْنا للإسلام ولنا ولبلاد الإسلامِ فى العاقبه؛ وعرَفْنا أن البيتَ المقدَّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتحه، وأمْرَ الكفر إن لم يجرِّد العَزْمُ فى قلْعِه ؛ وإلا ثبتَتْ عُرُوقه، واتسعت علىٰ أهل الدين خُرُوقه؛ وكانت الحجةُ لله قائمه، وهِممُ القادرين بالقُعود آثمه؛ وإنا لا نتمكن بمصْرَ منه مع بُعْد المسافة ، وانقطاع العِمارة وكَلال الدواب ، واذا جاوَرْناه كانت المصلحة بادِيَة ، والمنفعة جامعة ، واليدُ قادرة، والبلادُ قريبة ، والغَزْوةُ ممكنة ؛ والمِيرةُ متسعةٌ والخيلُ مستريحة ، والعساكر كثيرة ، والجموعُ متيسرة ، والأوقاتُ مساعدة؛ وأصْلحنا ما فى الشام من عقائدَ معتَلَّه ، وأمور مختلَّه ؛ وآراء فاسده، وأمراء متحاسده؛ وأطماع غالبه، وعقولٍ غائبه؛ وحفِظْنا الولَدَ القائم بعدَ أبيه، وكفَلْناه كفالَةَ من يقضى الحقَّ ويُوفيه ؛ فإنَّا به أوْلىٰ من قوم يأكُلون الدنيا باسمه ، ويُظهرون الوفاء بخِدَمه وهم عاملون بظُلْمه ؛ والمرادُ الآنَ هو كل ما يُقوِّى الدوله،

ويؤكد الدعوه، ويجمع الأمه، ويحفظ الألفه، ويضمن الزلفه، ويفتح بقية البلاد، ويطبق بالاسم العباسى كل ما تخطئه العهاد ـ ونحن نقترح على الأحكام المعهوده، وننتظر أن يأتى الإنعامُ على الغايات المزيده، وهو تقليدٌ جامعٌ لمصر والمغرب واليمن والشام، وكلّ ماتشتمل عليه الولايةُ النورية، وكل ما يفتحهُ الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ وولدٍ من بعدنا، تقليدًا يضمن للنعمة تخليدا، وللدّعوة تجديدا، مع ماينعم به من السمات التى يقتضيها الملك، فإنّ الإمارة اليوم بحسن نيّتنا فى الخدمة تصرّف بأقلامنا، وتستفادُ من تحت أعلامنا، ويتبيّن أنّ أمراء الدولة النورية يحتاج اليهم فى فتح البلاد القدسية ضرورةً: لأنها منازلُ العساكر، ومجمعُ الأنفار والعشائر، فمتى لم يكن عليهم يدٌ حاكمه، وفيهم كلمة نافذه، منعهم ولاةُ البلاد، وبغاة العناد.

وبالجملة فالشامُ لاينتظمُ أمرُه بمن فيه، وفتحُ بيت المقدس ليس له قِرنٌ يقومُ به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يملّ الشرّ حتّى يملّوا، وقِرْنا لا يزالُ يحرم السيف حتّى يحلّوا، حتى إنا لمّا جاورناهم فى هذا الأمد القريب، وعلموا أنّ المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب، استشعروا بفراق بلادهم، وتهادَوْا التعازِىَ لأرواحهم بأجسادهم، وإذا سدّد رأينا حسنُ الرأى ضربنا بسيفٍ يقطع فى غمده، وبلغنا المنىٰ بمشيئة الله ويدُ كلّ مسلم تحت برده، واستنقذنا أسيرًا من المسجد الذى أسرىٰ اللهُ اليه بعبده.

هذا ما لاح طلبهُ علىٰ قدر الزمان، والأنفسُ تطلب علىٰ مقدار الإحسان، فإنّ فى استنهاض نيّات الخُدّام بالإنعام مايعود على الدولة منافعُه، وتنكأ الأعداءَ مواقعُه، وتبعثُ العزائم من موتِ منامها، وتنفض عن البصائر غبارَ ظلامها، والله تعالىٰ ينجد إرادتنا فى الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار، إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــرب الثانى

(ما كان يُكتَب لنوّاب السلطنة بالديار المصرية عند سَــفَر السلطان عن الديار المصـــرية)

والعادة أن يُكتَب فيما يتعلق بمُهِـمّات الديار المصرية وأحوالهـا ومصالحها ، وما يترتَّب فيها، وما يُمشَىٰ علىٰ حكمه بمصر والقاهرة المحروستين، وسائر أعمال الديار المصرية، وما تَبْرُز به المراسيم الشريفةُ فى أمورها وقضاياها ، وآستخراج أموالها وحُمُولها ، وعَمَل جُسُورها وحفائِرها ، وما يتجدّدُ فى ذٰلك، وما يجرى هـذا المَجْرىٰ من سائر التعلُّقات، وتصدُر بذٰلك التذكرة .

وهذه نسخة تذكرة سلطانية كُتِب بها عن السلطان الملك الصالح علىّ، ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية، الأمير زين الدين كتبغا، عند سفر السلطان الملك الصالح الى الشام، وآستقرارِ كتبغا المذكور نائبًا عنه فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، من إنشاء أحمدَ بنِ المُكرَّم بن أبى الحسن الأنصارىّ، أحد كُتّاب الدرج يومئذ ومن خَطّه نقَلْتُ ، وهى :

تذكرة نافعة، للخيرات جامعة، يعتَمِد عليها المجلسُ العالى، الأميرىُّ ، الزَّينىّ ، كتبغا المنصورىّ، نائب السـلطنة الشريفة ـ أدام الله عزه ـ فى مُهِمّات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها، وما يترتَّب بها، وما يُبَتّ ويُفْصَـل فى القاهرة ومصر المحروستين وسائر أعمال الديار المصرية، صانها الله تعالىٰ ، وما تُستخرَج به المراسيمُ الشريفة، المَوْلوية، السلطانية، المَلَكية، الصالحيّة، الفلانية ـ أنفذها الله تعالىٰ ـ فى أمورها وقضاياها، وولاياتها ووُلاتها ، وحمولها وحفيرها وحفْظها ومتجدِّداتها علىٰ ماشُرح فيـــه :

فصل الشَّرع الشريف :

يَشُدّ من حُكّامه وقُضاته فى تنفيذ قضاياه وتَصْريف أحكامه ، والشَّدّ منه فى نَقْضه وإبرامه .

فصل العَدْل والانصافِ والحق :

يعتَمِدُ ذلك فى جميع المملكة الشريفة : مُدُنِها وقُراها وأعمالِها ووِلاياتها : بحيث يشْمَل جميعَ الرعايا من خاصّ وعامّ ، وبعيدٍ وقريب ، وغائب وحاضر ، ووارِدٍ وصادِر ، ويستجْلِب الأدعيةَ الصالحة من جميع الناس لهذه الأيّام الزاهرة ، ويَستَنطِق الألسنةَ بذلك ، فإنّ العدل حجةُ الله ومَحَجّة الخير ، فيدفع كلّ ضَرَرٍ ويرفَع كلّ ضَيْر .

فصل الدماء :

يعتَمِد فيها حكمَ الشرع الشريف . ومن وجب عليه قصاصٌ يسلَّم لغريمه ليقتَصّ منه بالشرع الشريف ، ومن وجَب عليه القطعُ يُقطَع بالشرع الشريف .

فصل الأمور المختصّة بالقاهرة ومصر المحروستين حرسهما الله تعالىٰ :

لا يَتَجوّهُ فيها أحدٌ ، ولا يَقْوىٰ قوِىٌّ علىٰ ضعيف ، ولا يتعدّىٰ أحدٌ علىٰ أحد جملةً كافية .

فصل

يتقدّم بأن لا يَمْشِىَ أحدٌ فى المدينة ولا ضواحيها فى الحُسَيْنيّة والأحكار فى الليل إلا لضَرُورةٍ ، ولا يخرُجَ أحدٌ من بيته لغير ضرورةٍ ماسّةٍ ، والنساء لا ينْصرفن فى الليل ولا يخرُجْن ولا يمشِينَ جملةً كافية .

فصل الحبوس :

تُحرس وتُحفظ بالليل والنهار، وتحلَق لِحى الأسارى كلِّهم : من فرنج وأنطاكيِّين وغيرهم ، ويُتعهَّد ذلك فيهم كلما تَبُتَ ، ويُحترز فى أمر الداخل إلى الحُبوس ، ويُحترز على الأسارى الذين يُستعمَلون، والرجال الذى يخرُجون معهم، وتُقام الضُّمَّان الثِّقاتُ على الجانداريَّة الذين معهم، ولا يُستخدَم فى ذلك غريب، ولا مَنْ فيه رِيبة، ولا تبيت الأسارى الذين يُستعمَلُون إلا فى الحُبوس ، ولا يخرج أحدٌ منهم لحاجة تختص به ولا لحمَّام ولا كنيسة ولا فُرْجة ، وتُتفقَّد قيودُهم وتُوثَّق فى كل وقت .

ويضاعَف الحرس فى الليل على خِزانة البُنود باظهار ظاهِرها وعلوِّها وحولَها وكذلك خِزانةُ الشمائل وغيرها من الحُبوس .

فصل

يُرتَّب جماعة من الجند مع الطُّوَّاف فى المدينة لكَشْف الأزقَّة وغَلْق الدُّروب وتفقُّد أصحابِ الأرباع، وتأديب من يُخلُّ بمركزه من أصحاب الأرباع ، وتكون الدُّروب مغْلَقه . وكذلك تجرّدُ جماعة الحُسينيَّة والأحكار وجميع المراكز، ويعتَمد فيها هذا الاعتماد؛ ومن وُجد فى الليل قد خالف المرسومَ ويمشى لغير عُذْر يُمْسَك ويؤدَّب .

فصل

يُحترَز على الأبواب غايةَ الاحتراز ، ويُتفقَّد فى الليل خارجَها وباطِنَها وعند فَتْحها وغَلْقها .

فصل

الأماكنُ التى يجتمع فيها الشَّبابُ وأولو الدَّعارة ومن يتعانَى العَيْث والزَّنْطرة ، لا يُفسح لأحد فى الاجتماع بها فى ليلٍ ولا نهار ، ويَكُفُّون الأكُفَّ اللئامَ بحيث تقوم المهابةُ وتعظُم الحرمة ، وينزجرُ أهل الغيِّ والعَيْث والعبث .

فصل

يرتّب المجرّدون حولَ المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة، وكذٰلك جهةُ القَرافةِ وخلفَ القلعةِ وجهةُ البحر، وخارجُ الحسينية، ولا يهمَلُ ذٰلك ليلةً واحدة، ولا يفارقُ المجرّدون مراكزهم إلا عند السُّفُور وتكاملِ الضوء .

فصل

يتقدّمُ بأن لا تجتمعَ الرجالُ والنساءُ فى ليالى الجُمَع بالقرافتين، ويمنعُ النساءَ من ذٰلك .

فصل

مُهِمّات الغائبين فى البيكار المنصور تُلْحَظ ويَشُدّ من نوابهم فى أمورهم ومصالحهم ، ويَستخلِص حقوقَهم لنوابهم وغِلْمانهم ووُكَلائهم؛ ومن كانت له جهةٌ يستخلِص حقّه منها ولا يتعرّضُ إلىٰ جهاتهم المستقرّة فيما يستحقّونه ؛ ويُقوِّى أيديَهم، وتُؤخَذ الحُجج علىٰ وكلائهم بما يقبِضُونه حتى لا يقولَ موكِّلوهم فى البيكار : إنّ كُتُب وكلائنا وردَتْ بأنهم لم يقبِضوا لنا شيئا ، فيكون ذٰلك سببا لردّ شكاويهم .

فصل

خليجُ القاهرة ومصرَ المحروستين يُرْسَم بعَمَله وحَفْره وإتقانِه فى وقته : بحيث يكون عملا جيّدا مُتْقَنا من غير حَيْف علىٰ أحد، بل كلُّ أحدٍ يعمل ما يلزَمُه عملا جيّدا .

فصل

جُسورُ ضواحى القاهرة يُشْرع فى إتقانها وتعريضها ، ويجتهد فى حُسْن رَصْفها وفتح مَشارِبها ، وحِفْظها من الطارِق عليها ، وتبقىٰ مُتْقَنةً محكمة إلىٰ وقتِ النيل المبارك ؛ ولا يخرُجُ فى أمرها عن العادة، ولا يحتَمى أحدٌ عن العمل فيها بما

يلزمه ؛ ويحمل الأمر فى جراريفها ومقلقلاتها علىٰ ما تقدمت به المراسيم الشريفة فى أمر الجسور القريبة والبعيدة .

فصـل فى الأعمال والولايات .

تُنجز الأمثلة الشريفة السلطانية ، المولوية ، الملكية ، الصالحية ، الفلانية ، شرفها الله تعالىٰ ، بإتقان عمل الجسور وتجويدها وتعريضها وتفقد القناطر والترّاع ، وعمل ماتهدّم منها وترميم ماوهىٰ ، وإصلاح ماتشعّث من أبوابها ، وتحصيل أصنافها التى تدعو الحاجة اليها فى وقت النّيل ، وتعتمد المراسيم الشريفة من أنّ أحدا لايعمل بالجاه ، ومَنْ وجب عليه فيها العمل يعمل على العادة فى الأيام الصالحيّة ، ويؤكّد على الوُلاة فى مباشرتها بنفوسهم ، وأن لايتّكلوا على المُشدّين ، وأىّ جهة حصل منها نقصٌ أو خلل كان قُبالة ذلك رُوح والى ذلك العمل وماله ؛ ويُشدّد على الولاة فى ذلك غاية التشديد ، ويحذّر أتمّ التحذير ، وتؤخذ خطوط الولاة بأنّ الجسور قد أُتقن عملها على الوضع المرسوم به ، وأنها أُتقنت ولم يبق فيها خلل ، ولا مايخشون عاقبته ، ولا مايخافون دركه ، وأنها عُمِلت علىٰ ما رُسم .

فصـل

يتقدمُ إلىٰ الوُلاة ويستخرج الأمثلة الشريفة السلطانية بترتيب الخُفراء علىٰ ما كان الحالُ رُتّب عليـه فى الأيام الظاهريّة : أن يُرتّب من البلد إلى البلد خُفراءُ ينزلون ببيوت شعر على الطُّرُقات على البلدين ، يخفرون الرائح والغادى ، وأىُّ مَنْ عُدم له شىء يلزمه دركه ، ويُنادىٰ فى البلاد أن لايسافر أحدٌ فى الليل ولا يُغرّر ، ولا يسافر الناس إلا من طلوع الشمس إلىٰ غروبها ، ويؤكّد فى ذلك التأكيد التام .

فصل الثغور المحروسة :

يُلاحظ أمورَها ومهمَّاتها، ويستخرج الأمثلةَ الشريفة السلطانية فى مُهمَّاتها وأحوالها وحفظها، والاحتراز على المعتقَلين بها، والاستظهار فى حِفظهم، والتيقُّظ لمهمَّات الثغر، واستجلاب قُلوب التجار، واستمالة خواطرِهم، ومعاملتِهم بالرِّفق والعدل حتى تتواصلَ التجار وتَعْمُر الثغور، ويؤكِّد عليها فى المستخرَج وتحصيل الأموال، وأصناف الذَّخائر، وأصناف الخزائن المعمورةِ والحوائج خاناه، ويُوعز إليهم بأنَّ هذا وقتُ انفتاح البحر وحضور التجار وتزجيةِ الأموال، وصلاح الأحوال، والنهضة فى تكثير الحُمُول، ويُؤكِّد عليهم فى المُواصلة بها، وأن تكون حُمُولا متوفِّرة، وأنه لا يُفرِّط فى مستخرَج حقوقِ المراكب الواصلة، ولا يُقلِّل متحصِّلُها، ولا ينقص حِملُها، ويسيِّر بحملها حَمْلا إلى بيت المالِ المعمورِ على العادة، ويؤكِّد عليهم فى الاستعمالات، وتحصيل الأقمشةِ والأمتعةِ على اختلاف أصنافها وإزالةِ الأعذار فيها : بحيثُ لا يتوقَّف أمر الاستعمالات ولا يؤخَّر مهمُّها عن وقته، ومهمَا وصل من المماليك والجوارى والحريرِ والوبَرِ والأطلس والفِضَّة الحجر، وأقصابِ الذهب المغْزُول يعتَمَدُ فى تحصيله العادة .

فصل

يؤكِّد على وُلاة الأعمال فى استخلاص الحُقوق الديوانية من جهاتها، والمواصلةِ بالحمول فى أوقاتها، ومباشرةِ أحوال الأقصابِ ومَعاصِرها فى أوقاتها، واعتمادِ مصلحة كل عملٍ على مايناسبه وتقتضيه مصلحتُه : من مستخرَج ومستغَل، ومحُمول ومُزْدرَع، ومستعمل ومُنْفَق، ويحذِّرهم عن حصول خَلَل، أو ظهور عَجْز، أو فُتُور عزْم، أو تقصير رأى، أو ما يقتضى الإنكارَ ويُوجِب المؤاخذة، ويشدِّد فى ذلك ما تقتضيه فرصُ الأوقات التى ينبغى انتهازُها على ما يطالعون به .

فصـــل [أموال] الخراج الديوانية :

يُحْتَرَزُ عليها وتُرَبَّى وتُنَمَّى، ولا يطلَقُ منها شيءٌ إلا بمرسوم شريف منا، ويُطالِع بأنَّ المرسوم ورد بكذا وكذا ويعود الجواب بما يعتَمَد فى ذلك .

فصـــل حقوق الأُمراءِ والبحرية والحَلْقةِ المنصورة والجُنْد وجهاتهم :

يستخْلِصُ أموالَهم ووكلاءَهم، ويُوجِد الشهادات بما عليهم من غَلَّة ودراهم، وغير ذلك، ولا يحوِجُ الوكلاءَ إلىٰ شكْوىٰ منهم تتصل بمن هو فى البِيكار، ويَحْسِم هذه المادّة، ويَسُدّ أبواب المماطلة عنهم .

فصـــل

يتقدّمُ إلىٰ الوُلاة والنُّظّار والمستخْدَمين بعمل أوراق بما يتحصَّل للمُقْطَعين الأصلية(؟) فى كل بلد، ولمُقْطَع الجهة، ولمن أُفْرِد له طينٌ بجهة، وان جِهتُه على الرسوم : ليُعلَمَ حالُ المقطَعين فى هذه السنة الجيشيَّة والجهاتيَّة وما تحصَّل لكل منهم، ولا يحصُلُ من أحد من الوُلاة مكاشرةٌ ولا إهمالٌ، ولا يطْمَع فى الوكلاء لأجل غَيْبةِ الأمراء والمقْطَعين فى البِيكار، ولا يُحوَج أحدٌ من المقطَعين إلىٰ شكْوىٰ بسبب متأَخّر ولا ظليمةٍ ولا إجْحاف .

فصـــل

إذا خرج جانْدار من مصر إلى الأعمال لايُعطىٰ فى العمل أكثَرَ من درهمين نُقْرَةً، ويوصِّل الحقَّ الذى جاء فيه لمستَحِقّه، فإن حصل منه قالٌ وقيلٌ أوحيفٌ أوتعنُّت يُرسَم عليه، ويُسَيّر الحق مع صاحبه مَعه، ويطالِعُ بأن فلانا الجاندار حضر وجرىٰ منه كذا وكذا، ويشرحُ الصورةَ ليحْسِم الموادّ بذلك .

فصـــل

إذا سَيَّرَ أحدٌ من الولاة رسولا بسببِ خلاص حقٍّ من بعض قرىٰ أعماله فيكون مايُعْطىٰ الجاندار عن مسافة سفر يومٍ نصفَ نُقْرة ، وعن يومين دِرهمٌ واحدٌ لاغيرُ، وأيُّ جاندار تعدّىٰ وأخذ غيرَ ذٰلك يؤدَّبُ ويُصْرَف من تلك الولاية .

فصـــل :

تُكتبُ الحُجج علىٰ كل وكيل يقبِضُ لمخدُومه شيئًا من مُغَلّه أو جِهته : من الديوان أو الفلّاحين ، ولا يسلَّم له شيءٌ إلا بشهادةٍ بحُجَج مكتتبة عليـه ، تُخَلّد منها حجّـةُ الديوان المعمور بمـا قَبَضه من جِهته أو إقطاعه ، وتبقَ الحججُ حاصلة حتى إذا شكا أحد إلينا وسيَّرْنا عَرَّفناهم بمن يشكو مِن تأخُّرحقه ، يُطالعونَنا بأمرِ وكيله وما قَبَض من حقه ، وتُسيَّر الشهادةُ عليه طَيَّ مطالَعته ، (ويُحترز من الشهادات) بما وصل لكلِّ مُقْطَع ، حتّىٰ إنا نعلم من مضمون الحجج والشهادات متحَصّل المُقْطَعين من البلاد والجهات مُفَصَّلا وجملةَ مَا حصل لكل منهم : من عين وغلة وما تأخّرلكل منهم ، ويَعمل بذٰلك صورةَ أمور البلاد والمُقْطَعين وأحوالِهم ، ويُزيلُ شكوىٰ من تجب إزالةُ شكواه ، وتُعلم أحوالهم علىٰ الجليَّة .

فصـــل

تقرأ هـذه التذاكر على المنابر فصلا فصلا ، ليسمعَها القريبُ والبعيدُ ، ويُبلِّغها الحاضرُ والغائب ، ويَعمَل بمضمُونها كل أحد . ومَنْ خَرَج عنها أو عمِل بخلافها فهو أخبَرُ بمـا يلقاه من سَطواتنا وشدّة بأسنا ، والسلام .

الضـــــرب الثـالث

(ما كان يُكتَب لنُوّاب القِلاع ووُلَاتها : إما عند آستقرارِ النائب بها ، وإما فى خلال نيابتِــه)

والعادةُ فيها أن يُكتب فيها باعتماد الكَشْف عن أحوال القَلْعة وأسوارِها وعَرْض حواصِلها، ومقدَّمى رجالها ، وترتيبِ الرجال فى مراكِزهم ، وكشفِ مَظَالِم الرعايا، والنظرِ فى الاحتراز على القلعةِ وعلىٰ أبوابها، والآحتفاظِ بمفاتيحها على العادة، وتحصيل مايُحتاج إليه فيها من الزاد والحَطَب والمِلْح والفَحْم وغيرِ ذٰلك . والمطالعةِ بمتجدِّدات الأخبـار .

⁂

وهذه نسخةُ تذكِرة كُتِب بها عن السلطان الملك المنصور قلاوون بسبب قلعة صَرْخَدَ من الشام، عند آستقرار الأمير سيف الدين باسطى نائبًا بها، والأمير عز الدين واليًا بها فى سنة تسع وسبعين وستمائة، من إنشاء القاضى محيى الدِّين بنِ عبد الظاهر صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية، وهى :

تذكِرةٌ مباركة نافعه، لكثيرٍ من المصالح جامِعَه، يعتَمِد عليها الأميران: سيفُ الدين وعزُّ الدين عند توجُّهِهما إلىٰ قلعة صَرْخَدَ المحروسة :

يعتَمِدان العدلَ فى الرعيه، وسلُوكَ مَنْهَج الحق فى كل قضيَّه، وآعتمادَ ما يُرضِى الله تعالىٰ ويُرْضِينا ، وليَكُنِ الإنصافُ لهما عقيدةً والتقوىٰ دِينا، ولا يتطلَّع أحدُهمـا إلىٰ ما فى يدِ أحد من مال ولا نَشَب، ولا يُعـارِضْ أحدٌ أحدا بلا سَبَب، وليتقوا اللهَ ويخشَوْه، ويتجنَّبوا الباطل ولا يَغْشَوْه، ولا يظُنَّ أحدٌ منهم أن قد بَعُد عنا فيطمَحَ إلى الظلم أو يطْمَع، فإنا منهم بمرأًى ومَسْمَع، وليكونُوا على المصالح متفقين، وبأذيال الحق متعلِّقين، وعلى الرعيَّة مشفِقين .

فصل

يتقدّمانِ بكَشْف أسوار القلْعة المنصورةِ وأبراجها وبَدَناتها وأبوابها ، وما يحتاجُ إلىٰ إصلاح وترميم وعمارة، ويحرِّران أمرَ ذلك تحريرا، ويجتهدانِ فى إصلاح ما يجب إصلاحُه وترميم مايجب ترميمُه، والمطالعةِ بما كشفَاه وما آعتمدَاه .

فصل

يَتقدّمان بعَرْض حَواصل القَلْعة المنصورة ، والخزانة المعمُورة ، ويحقِّقون ما بها من الأموال والغِلال والذخائر والحواصل ، ويعملون بذلك أوراقا محرّرة ، ويُسَيِّرون نسختَها إلى الباب الشريف .

فصل

يتقدّمان بعَرْض مقدَمى رجال القلعة ، وأرباب الجامكيّات والرواتب بها ، ويُحرِّران أمرَ مقرّراتهم : من جامكية وجراية ، ويُجْرِيان فى صَرْف ذلك على العادة الجارية المستقِرّة .

فصل

يستوْضِحان من الأمير عزّ الدين والأمير علَم الدين المنصرِفَيْن عن المصالح المختصّة بهذه القلعة وعن أُمورها ، جليلِها وحقيرِها ، فإنهما قد أحسنا فى ذلك التدبير، وأجملا التأثير، وسلَكا أجملَ مَسْلَك ، ويهتديان بما يوَضِّحانه لهما من المصالح والمهمّات ليكون دُخولُهما فى هذا الأمر علىٰ بَصيرة .

فصل

يكونُ أمرُ النيابة والحُكْم العامّ فى القلعة المنصورة ، وتنزيلِ الرجال وآستخْدامِهم وصَرْف من يجب صرْفُه — للأمير سيف الدّين باسطى بمشاركة الأميرِ عز الدين فى أمر الرجال والاستخدامِ والصَّرْف ، ويكون أمرُ النيابة راجعا للأمير سيف الدين

باسطى والحكمُ فيها له ، ويكون أمرُ ولاية القلعة للأمير عزّ الدين ، ويجريان فى ذٰلك علىٰ عادة من تقدّمهما فى هذه النيابة والولاية ، ويكونُ الأمير سيفُ الدين فى الدار التى كان يسكُنها الأميرُ عزُّ الدين ، وحكمُه فى النيابة كحكمه ؛ ويسكُنُ الأميرُ عزُّ الدين فى الدار التى كان يسكُن فيها الأميرُ علَمُ الدّين ، وحُكْمُه فى الولاية كحكمه . ولا يتعدّىٰ أحدٌ طَوْره ، ولا يخرجُ عما قُرِّر فيه ، ويَرْعىٰ كلٌّ منهما لصاحبه حقَّه فيما رُتِّب فيه ، ويتفقانِ على المصالح كلِّها ، ويكونان كرُوحينِ فى جسدٍ واحدٍ .

فصــل

يتقدّمانِ بأن يترتّبَ الرجال فى مراكزِهم ومنازلهم على العادة فى الليــلِ والنهار ، والحَرَسيَّة على العادةِ فى الليل والنهار . وإن كان ثَمَّ خَلَل فى ذٰلك أو تفريطٌ أو إهمالٌ ، فليُستدْرَك الفارطُ ويرتّبِ الأمرُ فيه علىٰ أحسن ترتيب .

فصــل

ينتصبان فى أوقاتِ العادة فى بابِ القاعة لكَشْف مظالِمِ الرعيــة فى القَلْعة والبرّ ، ويعتمدانِ إنصافَهم ، وتلبيةَ داعِيهم ، وسَمَاعَ كَلِمِهم ، وكفَّ ظالِمِهم وإعانة مظلومِهم ، واعتمادَ ما يجبُ من العدل وبسْطِه فى الرعية ، وكَفَّ الأيدى العادية .

فصــل

أبوابُ القلعة إذا أُغلِقتْ فى كل ليلة تُبِيّت المفاتيحُ عند النائب فى المكان المعتادِ بعد خَتْم الوالى عليها على العادة ، وإذا تسلّمها يتسلَّمها بختْمها على العادة .

فصــل

الذَّخائر والغَلاَل يُجتهَد فى تحصيلها بالقلعة ، ولا تُخْزَن غلةٌ جديدةٌ علىٰ غلة عتيقة . وكلُّ هُرْيٍ يُخْزَن فيــه غَلّة يحرَرُ أمرُها وتُشال عيّنتُها فى كِيس وتجعــل فى الخزانة ويُخْتَم عليها ، ولا يُصرَف من الجديد قبل نَفَاد العتيق ، ولا يُتْرَك العتيقُ ويُصْرف من الجديد . وكذٰلك بقيةُ الحواصل يُسْلَك فيها هذا المَسْلَك .

فصــل

مَهْما جرت العادةُ بتثمينه علىٰ أرباب الجامكيّات والمقرّرات ، فلْيُجْر الأمرُ فيه على العادة من غير حَيْف ، وليَدْخُل الديوانُ والمباشرُون فى التثمين لئلاّ يُسْلَكَ أمرُ التثمين على الرَّجّالة والضُّـعَفاء مع قلّة معلومهم ويُوَفَّر من ذٰلك أربابُ الدّواوين مع كثرة معلومِهم ، بل يكُونوا أوّلَ من يُثَمَّن عليه ؛ ومن لا قُدرةَ له : مثلُ راجل ضعيف أو رَبِّ معلومٍ قليل ، فلْيُرْفَق به فى ذلك ، نظرًا فى حقِّ الضعفاء .

فصــل

يُكَثِّرون من الأحطـاب ومن الفَحْم والمِلْح بالذخائر ، وكذٰلك من كلِّ ما تدْعُو الحاجةُ إليه ، ويجتهدُون فى تحصيـل الأموال وتوفيرها بالخزانة المعمورة : بحيث لا يكون لهما شُغْل يَشْغَلُهما عن ذلك ، بل يَصْرِفان الهمَّة فى غالب أوقاتهما إلى الفكرة فى مالٍ يحصّلونه ، أو صِنْف يدّخرونه ، ولا يهملان ذٰلك .

فصــل

يُطالعانِ الأبوابَ العاليـةَ فى غالب أوقاتهما بما يتجدّدُ عندَهـما من المصالح ، وبما يتميّزُ من الأموال ، و[بما] حُمِـل إلى الخزائن وإلى الأهراء من الأموال والغِلال . وكذلك يُطالعان نائبَ السلطنة بدِمَشْق المحروسـة على العادة فى ذٰلك ، ولٰكن مطالعتهما جامعةٌ وعليها خطُّهما . ومَنْ لاحت له مصلحةٌ فى بعض الأوقات وآختار أن يطالع بانفراده فلْيُطالِـعْ .

فصــل

لا يمكّنان أحدا من الرجال المرتَّبين بالقلعة المحروسـة وأربابِ النُّوَب أن يُخِلَّ بنَوْبته ولا يفارقَها ، ولا يخرُج من القلعة أحدٌ من الرجال إلا بدُسْتور ويعودُ فى يومه والله الموفق .

قلت : وبالجملة فالتذاكر مَنُوطة بحال المكتوب له التذكرة، والمكتوب بسببه؛ فيختلفُ الحال باختلاف الأسباب، ويُؤتىٰ لكل تذكرة بفصول تُناسِبها بحسب ماتدعُو الحاجة إليه .

واعلم أنَّ اللائق بالتذاكر الخارجةِ من ديوان الإنشاء أن تكونَ فى الفصاحة والبلاغة علىٰ حدِّ الرسائل، فيعلو شأنُ التَّذكرة باعتبار اشتمالها على الفَصَاحة والبلاغة، ويَنحطُّ بفواتهما ؛ وانظرْ إلىٰ تذكرة القاضى الفاضلِ المبتدَإ بها ، وما اشتملتْ عليه من الفَصَاحة والبلاغة ، وأين هى من التذكرتين اللتين بعدَها ؛ فإنه قد أُهمِل فيهما مراعاةُ الفصاحة والبلاغة جملةً، بل لم تُراعَ فى الأخيرة منهما قوانينُ النحو، إذ يكون يتكلّم بصيغة التثنية علىٰ سياق ماعُقِدت له التذكرة لاشتمالها علىٰ اثنين فإذا هو قد عدل إلى لفظ الجمع ، ثم يعود إلىٰ لفظ التثنية، هذا، وهى منسوبةٌ إلى القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء يومئذ، وهو من بيت الكتابة والبلاغة ، إلا أنه قد يُريد بعُدوله من التثنية إلى الجمع أن ينتقل إلىٰ خطاب جمع المتحدِّثين فى القلعة فيما يتعلّق بذٰلك الفصل الذى يكون فيه، وإلا فلا يجوزُ صدُور مثلِ ذٰلك عنه وتكرارُه المرّة بعد الأخرىٰ .

المقالة السابعة

في الإِقْطاعات والقَطَائع ، وفيها بابان

الباب الأوّل

في ذكر مقدِّمات الإقطاعات ، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

في ذكر مقدّماتٍ تتعلّق بالإقطاعات ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأوّل

(في بيان معنى الإقطاعات وأصلِها في الشرع)

أما الإقطاعاتُ فجمعُ إقطاع ، وهو مصدر أقطع ، يقال : أقطعه أرض كذا يقطعه إقطاعا ، وآستقطعه إذا طلبَ منه أن يُقْطِعه ، والقَطِيعة الطائفةُ من أرض الخَرَاج .

وأما أصلُها في الشرع فما رواه الحافظ آبن عساكر في تاريخ دِمَشْق بسنَده إلى آبن سيرينَ عن تميم الدارِيِّ أنه قال : « آستَقْطَعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرضًا بالشأم قبل أن تُفْتَح فأعطانِيها ، ففتحها عمرُ بنُ الخطاب في زمانه فأتيتُـه ، فقلتُ : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضًا من كذا إلى كذا ، فجعل عمرُ ثلثها لآبن السبيل ، وثلثا لعمارتها ، وثُلُثًا لنا » .

وفي رواية : آستقْطَعتُ أرضًا بالشام فأقطعَنِيها ، ففتحها عمرُ في زمانه فأتيتـه ، فقلت : إنَّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم أعطانِي أرضًا من كذا إلى كذا ، فجعل عمر ثلُثَها لآبن السبيل ، وثُلُثها لعمارتها ، وترَك لنا ثُلُثا .

وذكر الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية" : أنّ أبا ثَعْلبةَ الخُشَنِىّ رضى الله عنه سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يُقْطِعه أرضًا كانت بيَد الروم فأعجبه ذلك ، وقال ألا تَسْمَعُون ما يقول ؟ فقال : والذى بعثَكَ بالحق ليُفْتَحَنَّ عليك ، فكتب له بذلك كتابا .

وذكر أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : أقطَع الزُّبيْرَ بنَ العوّام رَكْضَ فرسه من مَواتِ البَقِيع فأجراه ورمىٰ بسَوْطه رغبةً فى الزيادة ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «أَعْطُوه منتهَىٰ سَوْطه» .

وذكر أنّ الأبيضَ بن حَمّال آستقْطعه مِلْحَ مَأْرِب فأقطَعَه ، فأخبره الأقرعُ ٱبنُ حابس أنه كان فى الجاهلية [وهو بأرض ليس فيها غيره مَنْ وَرَده أخَذَه ، وهو مثلُ الماء العِدّ بالأرض ، فاستقالَ الأبيضَ فى قطيعة المِلْح فقال قد أقلتُكَ على أنْ تجعلَه مِنّى صَدقةً ، فقال النبىّ عليه الصلاة والسلام : هو منك صَدَقةٌ ، وهو مثل الماء العِدّ من وَرَده أخذه](١) .

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : أنّ أوّلَ من أقطع القطائعَ بالأَرَضين أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه ـ ولا وَجْهَ له بعد ما تقدم ذكره ؛ اللهم إلا أن يُريد أن عثمان أوّلُ من أقطع القطائعَ بعد الفتح ، فإنّ ما أقطعه النبىُّ صلى الله عليه وسلم كان قبل الفتح كما تقدّم .

قال بعد ذلك : ويروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أقطع قطائعَ فاقتدىٰ عثمانُ به فى ذلك وأقطَعَ خَبّابَ بنَ الأرَتّ وسعْدَ بنَ أبى وقّاص وسعيدَ بنَ زيد

(١) ترك فى الأصل بياضا فى هذا الموضع وقد تداركناه من كتاب الأحكام السلطانية ص ١٧٤ تمما للكلام .

والزُّبير، وأقطع طلحة أَجَمَة الجُرُف [(١)] : وهو موضع النَّشاسْتج ، فكتب إلى سعيد ابن العاص وهو بالكوفة أن يُنَفِّذها له .

الطـــرف الثانى

(فى بيان أوّل من وَضَع ديوانَ الجيش، وكيفيّة ترتيب منازل الجُنْد فيـه ، والمساواةِ والمفاضـلةِ فى الإعطاء)

ذكر أبو هلال العسكرى فى "الأوائل" والماوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية" أن أوّل من وَضَع الديوان فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه . قال الماوردى : وآختلف [الناس] فى سبب وضْعه [له] : فقال قومٌ : سببُه أن أبا هُرَيرة قَدِم عليه بمالٍ من البَحْرين، فقال له عمر : ماجئتَ به ؟ قال خَمْسُمائة ألفِ دِرْهم، فاستكثره عمرُ، وقال : أتدرِى ما تقول ؟ قال نَعَمْ ! مائةُ ألفٍ خَمْسَ مرات ، فقال عمر : أطَيِّبٌ هو ؟ قال لا أدْرى . فصَعِد عمرُ المنبرَ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أيُّها الناس ! قد جاءنا مالٌ كثيرٌ، فإن شئتم كِلْنا لكم كَيْلا ، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عَدًا ، فقام إليـه رجل فقال ياأمير المؤمنـين : رأيتُ الأعاجِمَ يُدَوِّنُون دِيوانًا، فدَوِّن أنتَ لنا دِيوانا .

وذهب آخَرون إلى أن سبَبَ وَضْـع الديوان أنَّ عمـر بعث بَعْثـا وعنده الهُرْمُزان ، فقال لعمر : هـذا بَعْثٌ قد أعطيْتَ أهلَه الأموالَ ، فإن تخلَّف منهم رجل وأَخَلَّ بمكانه ، فمِن أيْنَ يعلم صاحبُك به ؟ فأثْبِتْ لهم ديوانا، فسأله عن الدِّيوان ففَسَّره له .

---

(١) فى الأوائل "الجوف" .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ رضى الله عنه آستشار المسلمينَ فى تَدْوين الدواوين ، فقال علىُّ آبن أبى طالب كرَّم الله وجهه : تَقْسِم كلَّ سنة ما آجتَمع اليك من المال ، ولا تُمسك منه شيئا . وقال عثمان : أرىٰ مالًا كثيرا يَسَع الناس ، فإن لم يُحصَوْا حتّى يُعْلَم من أخَذَ ممن لم يأْخُذ، خَشِيت أن ينتشِر الأمْرُ - فقال خالدُ بنُ الوليد رضى الله عنه : قد كنْتُ بالشام فرأيتُ ملوكَها دَوّنوا دِيوانا وجَنَّدوا جنُودا ، فدوِّنْ ديوانًا وجنِّد جُنُودا ، فأخَذَ بقوله ودعا عَقِيلَ بنَ أبى طالب ، ومَخْرمةَ بنَ نوْفل ، وجُبَيرَ بنَ مُطْعِم ، (وكانوا من شَبابِ قريش) فقال : آكتبوا [النّاسَ] علىٰ منازِلهم ، فبدءوا ببنى هاشم فكتَبُوهم ، ثم أتبعُوهم أبا بكر وقوْمَه ، [ثم عمرَ وقومَه] وكتبُوا القبائل و وضَعُوها على الخلافة ، ثم رفعُوه إلىٰ عمر ، فلما نظر فيه ، قال : لا ! وما وَدِدْت أنه هكذا ، ولكن آبدَءوا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأقربَ فالأقربَ حتّى تضعُوا عمرَ حيثُ وضعه الله . فشكره العبّاس علىٰ ذلك ، وقال : وصَلَتْك رَحِمٌ .

وروىٰ زيدُ بن أسلَمَ عن أبيه : أن بَنِى عَدِىٍّ جاءُوا إلىٰ عمر ، فقالوا : إنك خليفةُ أبى بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله ، فلو جعلتَ نفسَك حيثُ جعلك هؤلاء القومُ الذين كتَبُوا؟ فقال : بَخٍ بَخٍ يابنى عَدِىٍّ ! ! إنْ أردتُم إلّا الأكْلَ علىٰ ظهرى ، وأنْ أُذْهب حسناتى لكم ، لا والله ! حتّى تأتيكم الدعوةُ ولو آنطبق عليكم الدفترُ . يعنى ولو أن تُكتَبوا آخرَ الناس . إنّ صاحِبَيَّ سلكَا طريقا ، فإن خالفتُهما خُولِفَ بى ، والله ماأدركنا الفضلَ فى الدنيا والآخرة ، ولا نرجُو الثوابَ عند الله علىٰ عملنا إلا بمحمد صلّى الله عليه وسلم ، فهو أشرَفُنا ، وقومُه أشرَفُ العرب ، ثم الأقربُ فالأقربُ ، ووالله لَئِن جاءتِ الأعاجِمُ بعَمَلٍ وجئنا بعملٍ دُونَهم ، لَهُم أوْلىٰ بمحمد صلى الله عليه وسلم منّا يومَ القيامة : فإنّ من قَصَّر به عملُه لم يُسْرِع به نَسَبُه .

ورُوِى أنّ عمر رضى الله عنه حينَ أراد وضْعَ الديوان، قال : بمن أبدأ؟ فقال له عبدُ الرحمن بنُ عوف : ٱبْدَأْ بنَفْسِك، فقال عمر : أذكر أنّى حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَبْدأ ببنى هاشم وبنى عبدِ المُطَّلب، فبدأ بهم عمرُ، ثم بمن يليهم من قبائل قُرَيش بَطْنا بعد بَطْن، حتى ٱستوفى جميع قُرَيش، ثم ٱنتهى إلى الأنصارِ، فقال عمرُ : ٱبدَأُوا برهْطِ سعدِ بنِ مُعاذ من الأوس، ثم بالأقرب فالأقرب لسَعْد .

⁂

وأما المُساواةُ والمفاضلةُ فى العطاء فقد ٱختُلِف فيه : فكان أبو بكر رضى الله عنه يرى التسوية [بينهم] فى العطاء [ولا يرى التفضيلَ بالسابقة] كما حكاه عنه الماوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية" .

قال أبوهلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وقد رُوِى عن عَوَانة أنه قال : جاء مالٌ من البَحْرَيْن إلى أبى بكر رضى الله عنه فَسَاوى فيه بينَ الناس، فغَضِبت الأنصارُ، وقالوا له : فَضِّلْنا، فقال : إن أردْتُم أنْ أُفَضِّلَكم فقد صار ما عمِلتموه للدُّنيا، وإن شئْتم كان ذلك لله، فقالوا : والله ما عمِلْناه إلا لله! وٱنصرَفُوا . فرَقِى أبو بكر رضى الله عنه المِنْبر، فحمِدالله وأثنى عليه، ثم قال : يامَعْشَرَ الأنصار لوشئتم [أن] تقولُوا : إنا آوَيْناكم وشارَكْناكم أموالَنَا ونَصرْناكم بأنفُسِنا لقُلْتم، وإنّ لكم من الفضل مالايُحصَى له عَدَد، وإن طال الأمَد، فنحنُ وأنتم كما قال الغَنَوِىّ :

جَزَى اللهُ عنّا جعْفَراحين أزْلَقَتْ * بنا نَعْلُنا فى الواطئين فزلَّتِ
أبَوْا أنْ يملُّونا ولَوْ أنَّ أُمَّنا * تُلَاقِى الّذى لاقوه مِنّا لَملَّتِ
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم * ظلالِ بيوتٍ أدفأت وأكَنَّتِ

قال الماوردىّ : وإلىٰ ما رأىٰ أبو بكر رضى الله عنه ذهب علىّ رضى الله عنه فى خلافته ، وبه أخذ الشافعىّ ومالكٌ .

وكان عمرُ رضى الله عنه يرىٰ التفضيلَ بالسابقة فى الدِّين، حتّى إنه ناظرَ أبا بكر رضى الله عنه فى ذلك ، حين سوّى بين الناس ، فقال : أتُساوِى بينَ من هاجرَ الهجرتَيْن وصلّى إلى القِبلتين وبيْنَ من أسلم عامَ الفتح خوفَ السيف ؟ ! ـ فقال أبو بكر : إنما عَمِلُوا لله ، وإنما أُجورُهم على الله ، وإنما الدُّنيا [دار] بَلاغ [للراكب][1]، فقال له عمر: لا أجعل [من قاتل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ فلما وضع الديوان جرىٰ][1] على التفضيل بالسابقة ، ففَرض لكلّ رجلٍ شهِد بَدرًا من المهاجرين [الأوّلين] خمسةَ آلاف دِرْهم كلَّ سنة ، ولكل من شَهِد بَدرا من الأنصار أربعةَ آلاف درهم ، ولكلّ رجلٍ هاجَر قبل الفتح ثلاثةَ آلافِ دِرْهم ، ولكلّ رجلٍ هاجر بعد الفتح ألفَين ؛ وفرض لِغلْمانٍ أحداثٍ من أبناء المهاجرين والأنصار أسوةَ من أسْلم بعد الفتح ؛ وفرضَ للناس علىٰ منازلهم ، وقِراءتِهم القُرآن ، وجِهادِهم بالشام والعِراق ؛ وفرضَ لأهل اليَمن وقَيْس : لكل رجلٍ من ألفَىْ درهم إلىٰ ألف دِرْهم ، إلىٰ خمسمائة درهم ، إلىٰ ثلثمائة درهم ، ولم يَنْقُص أحدا عنها ، وقال : لَئِن كَثُرَ المال لأَفْرِضَنَّ لكلّ رجل أربعةَ آلافِ درهم : ألفا لفَرَسه ، وألفا لسِلاحه ، وألفا لسَفَره ، وألفا يُخلِّفها فى أهله ؛ وفرض للنفُوس مائةَ دِرْهم ، فإذا تَرَعْرَع فرضَ له مائتين ، فإذا بلَغ زاده . وكان لا يَفْرِض للمولود شيئًا حتّى يُفْطَم ، إلىٰ أن سَمِع ليلةً آمرأةً تكرِه ولَدَها على الفِطام ، وهو يَبْكى ، فسألها عنه ـ فقالت : إن عمرَ لا يَفْرِض للمولُود حتى يُفْطَم فأنا أُكْرِهُه علىٰ الفطام حتى يُفْرَض له ـ فقال ياوَيْحَ عُمَر ! كم آحتَقَب من

(١) الزيادة من "الاحكام السلطانية" ص ١٧٧ .

وِزْر وهو لايدرِى ؛ ثم أمر مناديا فينادى : ألّا لاتُعْجِلوا أولادكم بالفِطام ، فإنا نفرض لكلِّ مولُودٍ فى الإسلام . قال الماوردى : ثم رُوعِىَ فى التفضيل عند انقراض أهل السوابِق التقدُّم فى الشجاعة والبَلاء فى الجهاد .

⁂

وأما تقديرُ العطاء فمعتبر بالكِفَاية حتّى يستغْنِىَ بها عن التماس مادّة تقْطَعه عن حماية البَيْضة . ثم الكفايةُ معتبرةٌ من ثلاثة أوجه : أحدُها عددُ من يعُوله من الذَّرارِىّ والممالِيك ـ والثانى عَدَد ما يرتَبِط من الخيل والظَّهْر ـ والثالث : الموضعُ الذى يحُلُّه فى الغَلاء والرُّخْص فتقدّر [كفايتُه فى] نفقَتِهِ وكسوته لعامِه كلِّه . ثم تُعتَبر حالُه فى كل عام ، فإن زادتْ نفقَاتُه زِيد ، وإن نقَصَت نُقِص ؛ فلو تقدّر رزقُه بالكِفاية ، فمنع الشافعىّ من زيادته على الكفاية وإن اتّسع المال ، لأن أموال بيْت المال لا توضَع إلا فى الحقوق اللازمة ؛ وأجاز أبو حنيفة زيادَته حينئذٍ .

الطــرف الثالث

(فى بيان من يستحق إثباتَه فى الديوان ، وكيفية ترتيبهم فيه)

فأما من يستحق إثباتَه فى الديوان ، ففيه خمسةُ أمور :

أحدها ــ البُلُوغ . فلا يجوز إثباتُ الصَّبىّ فى الدّيوان ، وهو رأْىُ عمر رضى الله عنه ، وبه أخذ الشافعىُّ رضى الله عنه ، بل يكونُ جاريًا فى جملة عطاءِ الذَّرارِىّ .

الثانى ــ الحُرِّيَّةُ . فلا يُثْبَت فى الديوان مملوكٌ ، بل يكون تابعًا لسيِّده داخلا فى عطائه ، خلافًا لأبى حنيفة فإنه جوَّز إفرادَ المملوك بالعطاء ، وهو رأْىُ أبى بكر رضى الله عنــه .

الثالث — الإسلامُ، لِيَدْفع عن المِلّة باعتقاده، حتّى لو أُثبِت فيهم ذمّيّ لم يجز، ولو ٱرتد منهم مُسْلِم سَقَط .

الرابع — السَّلامة من الآفاتِ المانعة من القتال . فلا يجوز أن يكون زَمِنًا ولا أعْمَى ولا أقْطَع، ويجوز أن يكون أخْرَس أو أصَمّ . أما الأعْرَج، فإن كان فارسا جاز إثباتُه أو راجلًا فلا .

الخامس — أن يكون فيه إقدامٌ على الحرب ومَعْرِفةٌ بالقتال، فإن ضَعُفت هِمَّته عن الإقدام، أو قلَّت معرفتُه بالقتال لم يجز إثباتُه .

فإذا وُجِدتْ فيه هذه الشروطُ، ٱعتُبِر فيه خُلُوُّه عن عمل وطَلَبُه الإثباتَ فى الديوان، فإذا طَلَب فعلىٰ وَلِىّ الأمرِ الإجابةُ إذا دعتِ الحاجةُ إليه . ثم إن كان مشهورَ الٱسم فذاك، وإلا حُلِّىَ ونُعِت، بذكرِ سِنّه وقَدِّه ولَوْنِه وصفةِ وجْهه، ووُصِف بما يتميَّز به عن غيره، كى لا تتفق الأسماءُ، أو يَدَّعِىَ فى وقت العطاء، ثم يُضَمُّ إلىٰ نقيبٍ عليه أو عريفٍ يكونُ مأخوذا بدَرَكه .

⁂

وأما ترتيبهم فى الديوان فقد جعلهم الماوَرْدِى فى "الأحكام السلطانية" علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل — الترتيبُ العامُّ . وهو ترتيبُ القَبائل والأجناس حتّى تتميَّز كلُّ قبيلةٍ عن غيرها وكلُّ جِنْس عمن يخالفه، فلا يُجمَع بين المختلفين، ولا يُفرَّق بين المؤتلفين : لتكونَ دعوةُ الديوان علىٰ نَسَق معروفِ النسب يزولُ فيه التنازُع والتجاذُب . فإن كانُوا عَرَبا رُوعِىَ فيهم القُرْب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما فعل عمرُ

رضى الله عنه : فيُقدَّمُ العربُ المُسْتعْربة : وهم عَدْنانُ من ولد إسماعيلَ عليه السلام، على العَرَب العاربة : وهم بنو قَحْطانَ عربُ اليَمَن : لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم من عدْنانَ . ثم عَدْنانُ تجمع ربيعةَ ومُضَرَ، فتقدَّم مُضرُ على ربيعةَ : لأن النُّبوّة فى مُضَر، ومُضَرُ تجمع قُرَيْشا وغيرَ قُرَيش ، فتقدّم قرَيْشٌ على غيرهم : لأن النبوّةَ فيها ، فيكون بنُو هاشِم هم قُطْب الترتيب، ثم من يليهم من أقرب الأنسابِ إليهم حتّى يستوعِب قريشا، ثم مَنْ يليهم فى النَّسَب حتّى يستوعِبَ جميعَ مُضَر، ثم من يليهم حتى يستوعب جميع عَدْنان .

وإن كانوا عَجَماً لا يجتمِعُون على نَسَبٍ ، فالمرجوعُ إليه فى أمرهم : إما أجْنَاسٌ وإما بِلَاد ، فالمُمَيَّزُون بالأجناس كالتُّرك والهِند ؛ ثم تَمَيَّزَ التُّرك أجناسا ، والهنـدُ أجناسا . والمُمَيَّزُون بالبلاد : كالدَّيْلم والجَبَل ؛ ثم تُمَيَّزُ الديلم بُلْدانا ، والجبـل بُلْدانا . فإذا تميَّزُوا بالأجناس أو البُلْدان : فإن كانت لهم سابقةٌ ترتَّبوا عليها فى الديوان ، وإن لم تكن لهم سابقـة ترتَّبوا بالقُرْب من وَلِيِّ الأمر ، فإن تساوَوْا فبالسَّبْق إلى طاعته .

الضرب الثانى الترتيبُ الخاصُّ : وهو ترتيبُ الواحد بعدَ الواحد ، فيقدّم فيه بالسابقة بالإسلام كما فعل عُمَرُ رضى الله عنـه ، فإن تساوَوْا ترتَّبوا بالدِّين ، فإن تقارَبُوا فيه رُتِّبوا بالسِّن ، فإن تقاربُوا بالسِّن رُتِّبوا بالشَّجاعة ، فإن تقاربوا فيها ، كان وَلِيّ الأمر بالخيار بين أن يرتِّبهم بالقُرْعة أو على رأيه واجتهاده

الفصــــل الثانى

من البـاب الأول من المقـالة السابعة

(فى بيان حُكْم الإقطـاع)

قال فى "الأحكام السلطانية" : وإقطاعُ السلطان مختصٌّ بما جاز فيه تصرُّفه، ونفذتْ فيه أوامِرُه، دُونَ ماتعيَّن مالِكه وتميَّز مُستحقُّه .

ثم الإقطـاع علىٰ ضربين :

الضــرب الأول

(إقطاع التَّمليــك)

والأرض المُقْطَعة بالتمليك إمَّا مَوَاتٌ، وإمَّا عامِرٌ، وإمَّا معْدِن .

فأمَّا المَوَاتُ فإنْ كان لم يَزَلْ مَوَاتا علىٰ قديم الزمان، لم تجْرِ فيه عِمارةٌ، ولم يَثْبُت عليه مِلْك، فيجوزُ للسلطان أن يُقطِعه مَنْ يُحْيِيه ويَعْمُره. ثم مَذْهَب أبى حنيفةَ أنَّ إذنَ الإمام شرطٌ فى إحياء الموات، وحينئذٍ فيقومُ الإقطاع فيه مَقام الإذن . ومذهبُ الشافعى أن الإقطاعَ يجعَلُه أحقَّ بإحيائه من غيره . وعلىٰ كِلَا المذهبين يكون المُقْطَع أحقَّ بإحيائه من غيره .

وأما إن كان المواتُ عامِرًا فخرِب وصار مَوَاتا عاطِلا، فإن كان جاهليًّا : كأرض عادٍ وثمودَ، فهى كالمَوَات الذى لم تَثْبُتْ فيه عِمَارة فى جَوازِ إقطاعه . قال صلى الله عليه وسلم : « عادَت الأرضُ للهِ ولِرَسُولِه ، ثم هِىَ لَكُم مِنِّى ، يعْنِى أرضَ عادٍ » . وإن كان المَواتُ إسلاميًّا جرىٰ عليه مِلْكُ المسلمين، ثم خَرِب حتّى صار مَوَاتا عاطِلا،

فمذهبُ الشافعيّ أنه لا يُملك بالإحياء، عُرِفَ أربابُه أم لم يُعْرَفوا، ومذهبُ مالك أنه يُمْلَك بالإحياء، عُرِف أربابُه أم لم يُعْرَفوا، ومذهبُ أبى حنيفة أنه إن عُرِف أربابُه لم يُملك بالإحيـاء، وإلّا مُلِك . ثم إذا لم يجز أنْ يُملَك بالإحياء على مذهبِ[(١)] الشافعى، فإن عُرِف أربابُه لم يجُزْ إقطاعُه، وإن لم يعْرفوا جاز إقطاعُه وكان الإقطاعُ شرطًا فى جواز إحيائه. فإذا صار المواتُ إقطاعًا لمن خَصَّه الامامُ به لم يستقرّ مِلْكُه عليـه حتى يُحْيِيَه ويكْمُلَ إحياؤُه، فإنْ أمسك عن إحيائه كان أحقَّ به يدًا وإن لم يَصِرْ له مِلْكا .

وأمّا العامر : فإن تعيَّن مالِكُوه، فلا نَظَر للسلطان فيه إلا ما تعلّق بتلك الأرض من حقُوق بَيْتِ المـال إذا كانتْ فى دار الإسلام، سواء كانتْ لمسلم أوذِمّيّ، وإن كانت فى دار الحربِ التى لم يثبُتْ عليها للسلمين يدٌ جاز للإمام أن يُقْطِعَها ليملكَها المُقْطَع عند الظَّفَر بها ، كما أقطعَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم تميمًا وأصحابَه أرضًا بالشام قبل فتحه، على ماتقدّم ذكره فى أوّل الباب .

وإن لم يتعيَّنْ مالِكُوه: فإن كان الإمامُ قد ٱصطفاه لبَيْتِ المـال من فُتوح البلاد : إما بحَقّ الخُمس ، أو بٱستطابة نفوس الغانمين ، لم يجُزْ إقطاعُ رقبته : لأنه قد صار باصطفائه لبيتِ المـال مِلْكا لكافّة المسلمين، فصار على رَقَبته حكمُ الوقْف المؤبَّد[(٢)]، والسلطانُ فيه بالخيار بينَ أن يستغلَّه لبَيْت المـال وبين أن يتخيَّر له من ذَوِى المَكنَة والعمل من يَقُوم بعمارة رقَبته ، ويأخُذُ خَراجه ، ويكونُ الخراجُ أجرةً عنـه تُصْرَف فى وجوه المصالح .

(١) عبارة الأحكام السلطانية «وان لم يجز على مذهبه أن يملك» الخ والضمير عائد على أبى حنيفة ، وحرر .

(٢) عبارة "الأحكام" السلطانية «يجرى على رقبته حكم الخ» وهى أوضح .

وإن كان العامر أرضَ خراجٍ لم يجُزْ إقطاعُ رِقابِها تمليكًا .

وأما إقطاعُ خراجِها فسيأتى فى إقطاع الاستغلال فيما بعْدُ، إن شاء الله تعالى .

وإن كان المَوَاتُ قد مات عنه أربابُه من غير وارِث، صار لبَيْت المال مِلْكًا لعامَّة المسلمين . ثم قيل : تصيرُ وقْفا على المسلمين بمجرَّد الانتقال الى بيت المال، لا يجُوز إقطاعُها ولا بيعُها . وقيل : لاتصيرُ وقْفا حتَّى يَقِفها الإمام، ويجوز للإمام بيعُها اذا رأى فيه المصلحةَ ويُصْرَف ثَمَنها فى ذَوِى الحاجات . ثم قيل : يجوزُ إقطاعها كما يجوز بيعها، ويكون تمليك رَقَبتها بالإقطاع كتمليك ثَمَنها . وقيل : لايجوز إقطاعها وإن جاز بيعُها : لأن البيع معاوَضةٌ والإقطاعَ صِلَة .

الضـرب الثـانى

(من الإقطاع إقطاع الاسـتغلال)

وهو : إمَّا خَراجٌ أو عُشْر .

فأما الخَراج : فان كان من يُقْطِعه الإمامُ من أهل الصَّدَقات لم يجز أن يُقْطَع مالَ الخراج : لأن الخراج فَىْءٌ لايستحقُّه أهل الصدقة كما لايستحِقُّ الصدقَةَ أهلُ الفَىْء وأجاز إقطاعَه أبو حنيفة .

وإن كان من أهل المصالح ممن ليس له رِزْق مفروض فلا يصحُّ أن يُقْطَعَه على الإطلاق وإن جاز أن يُعْطى من مال الخراج : لأنهم من نَفْل أهل الفَىْء لا من فَرْضه، وما يُعْطَوْنه إنما هو من غَلَّات المصالح، فإن جُعِل لهم من مال الخراج شىءٌ أُجْرِى عليه حكمُ الحَوالة لاحُكْمُ الإقطاع .

وإن كان من مُرْتَزِقة أهـل الفَىْء وهم أهلُ الجَيْش، فهم أخَصُّ الناس بجواز الاقطاع : لأن لهم أرزاقا مقدّرةً تُصْرف اليهم مَصْرف الاستحقاق، من حيثُ إنها أعواضٌ عما أرْصَدُوا نفوسهم له من حماية البَيْضة والذَّبّ عن الحريم .

ثم الخراج : إما جِزْيةٌ وهو الواجب على الجَماجم، وإما أُجْرة وهو الواجِبُ على رِقَاب الأرض . فإن كان جزيةً لم يجز إقطاعُه أكثر من سَـنَةٍ، لأنه غير موثوق باستحقاقه بعدها لاحتمال أن يُسْـلِم الذمّىّ فتزولَ الجزيةُ عنه . وإن كان أجرةً جاز إقطاعُه سنينَ لأنه مستقرّ الوجوبِ على التأبيد .

ثم له ثلاث أحـــوال :

إحداها — أن يُقدّر بسنينَ معلومة، كما إذا أقطعه عَشْرسنين مثلا، فيصحُّ، بشرط أن يكون رزْق المُقْطَع معلومَ القَدْر عند الإمام، وأن يكون قدرُ الخراج معلومًا عند الإمام وعند المُقْطَع، حتّى لو كان مجهولا عندهما أو عندَ أحدهما لم يصِحَّ . ثم بعد صِحّة الإقطاع يُراعى حالُ المقْطَع فى مُدّة الإقطاع : فإن بقى إلى انقضاء مُدّة الإقطاع على حال السـلامة فهو على استحقاقِ الإقطاع إلى انقضاء المدّة، وإن مات قبـل انقضاء المُدّة بطل الإقطاعُ فى المدّة الباقية، ويعودُ الإقطاع إلى بيت المـال . وإن كان له ذرّية دخلُوا فى عطـاء الذرارىّ دُونَ أرزاق الأجناد، ويكون ما يُعْطَونه تسبُّبا لا إقطاعا . وإن حدَث بالمُقْطَع زمانةٌ فى تلك المدّة ففى بقاء الإقطاع قولان : (أحدهما) أنّ إقطاعه باقٍ عليه إلى انقضاء المدّة (والثانى) أنه يُرْتَجَع منه .

الثـانية — أن يُقْطَعه مدّة حَياته ثم لعَقِبه وورثته بعد موته، فلا يصحُّ : لأنه يخرُج بذلك عن حقُوق بيتِ المـال إلى الأملاك الموروثة، فلو قبَض منه شيئا برِئ أهلُ الخراج بقَبْضه : لأنه عقدٌ فاسدٌ مأذُونٌ فيه ويُحاسَب به من جملة رِزْقه : فان

كان أكثَرَ رَدَّ الزيادة، وإن كان أقلَّ رجَع بالباقى ، وعلى السلطان أن يُظهر فسادَ الإقطاع حتَّى يمتنِعَ هو من القَبْض ويمتنع أهل الخراج من الدَّفْع ولم يبرءُوا بما دفعوه إليه حينئذ .

الثالثة — أن يُقطِعه مدّة حياته . ففى صِحَّة الاقطاع قولان للشافعى بالصحَّة والبطلان، ثم إذا صَحَّ الإقطاع فللسلطان آسترجاعُه منه فيما بَعْدَ السنة التى هو فيها، ويعودُ رِزْقه إلىٰ دِيوان العطاء . أما السنةُ التى هو فيها : فإن حَلَّ رزقُه فيها قبْل حلول خراجها لم يسترجع منه فى سنته لآستحقاق خراجها فى رزْقه ، وإن حل خراجُها قبل حلول رزقه جاز آسترجاعُه منه : لأنَّ تعجيلَ المؤجَّل وإن كان جائزا فليس بلازم .

وأما العُشْر فلا يصحُّ إقطاعُه، لأنه زكاةُ الأصناف، فيعتبر وصفُ آستحقاقِهم عند دفعها إليهم، وقد يجوز أن لا يُوجدَ فلا تجب .

قلتُ : هذا حكم الإقطاع فى الشريعة، وعليه كان عملُ الخلفاء والملوكِ فى الزمن السالف، أما فى زماننا فقد فَسَد الحالُ وتغيَّرت القوانينُ ، وخرجتِ الأمورُ عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعاتُ تَرِد من جهة الملوك علىٰ سائر الأموال : من خَرَاج الأرضينَ، والجِزْية ، وزكاةِ المواشِى، والمَعادنِ، والعُشْر، وغير ذٰلك . ثم تفاحَشَ الأمرُ وزاد حتَّى أقطعُوا المُكُوس على آختلاف أصنافها ، وعمَّت بذٰلك البَلْوىٰ، والله المستعانُ فى الأمور كلِّها ! .

الباب الثانى
من المقالة السابعة
(فيما يُكْتَب فى الإقطاعات فى القديم والحديث، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى أصل ذلك

والأصل فيه ما رُوِى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم أقطع تَمِيمًا الدَّارِىَّ أرضًا بالشام وكَتَب له بها كِتابًا.

وقد ذكر الحافظ ٱبن عساكر فى تاريخ دِمَشْق فيه طُرُقا مختلفة. فروَى بسنده إلى زياد بن فائد، عن أبيه فائد، عن جدّه زيادِ بن أبى هند، عن أبى هندٍ الدارىّ أنه قال: قَدِمْنا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مكّةَ ونحن سِتّةُ نَفَر[1]: تَمِيمُ بنُ أوس، ونُعَيم بنُ أوْس أخوه، ويزيدُ بنُ قيس، وأبو هندِ بنُ عبد الله، وهو صاحب الحديث، وأخوه الطيِّبُ بنُ عبد الله [كان ٱسْمُه برا[2]] فسماه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن[3]، وفاكهُ بنُ النعمان، فأسلَمْنا وسألْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يُقْطِعَنا أرضا من أرض الشأم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «سَلُوا حيثُ شِئْتُم». فقال تميمٌ: أرىٰ أن نسأله بيتَ المَقْدِس وكُوَرَها، فقال أبو هند: [هذا محلُّ مُلْك العجم[4]] وكذٰلك يكون فيها مُلْك العرب وأخاف أن لا يَتِمَّ لنا هذا، فقال تَمِيم: فنسأله

(١) فى "سيرة ٱبن هشام" عدهم ثمانية.
(٢) الزيادة من "سيرة ٱبن هشام" ج ٢ ص ١٩٥ وهى لازمة لصحة المقام.
(٣) فى "سيرة ٱبن هشام" عبدالله - وأن الذى سماه عبدالرحمن إنما هو عرفة بن مالك ولم يذكرها هنا.
(٤) الزيادة من "السيرة الحلبية وتاريخ ابن عساكر المحفوظ بدار الكتب الأزهرية".

بيت جِبْرِينَ وكُورتها ، فقال أبو هِند : هـذا أكبر وأكبر . فقال : فأين ترىٰ أن نسأله ؟ فقال : أرىٰ أن نسأله القُرى التى يقع فيها تلٌّ مع آثار إبراهيم . فقال تميم : أصبْتَ ووُفِّقت ـ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم : «أتُحِبُّ أن تُخبِرَنى بمـا كنتُمْ فيـه أو أُخبِرَك ؟ » ـ فقال تميم : بل تُخْبِرنا يارسولَ الله نزدادُ إيمـانًا ـ فقال رسول‌الله صلى الله عليه وسلم : «أردتُمْ أمرًا فأراد هذا غَيْرَه» ونِعم الرأْىُ رأَىٰ ـ قال : فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم بِقِطْعةِ جِلْدٍ من أَدَم، فكَتَب لنـا فيها كتابا نُسْخته :

« بسم الله الرحمن الرحـيم »

«هـذا [كتابٌ](١) ذُكِر [فيه](١) ماوَهَب محمدٌ رسولُ الله للدَّارِيِّين إذا»
«أعْطاه اللهُ الأرضَ . وَهَب لهم بيت عيْنُونَ وحَبْرُونَ، و بيتَ إبراهيمَ»
«بمَنْ فيهنَّ لهم أبدًا» .

«شهِد عبَّاسُ بنُ عبد المطَّلب ، وجَهْم(٢) بنُ قيس ، وشُرَحْبِيلُ بنُ»
«حَسَنةَ، وكَتَب» .

قال : ثم دخل بالكتاب إلىٰ منزله فعالَج(٣) فى زاوية الرُّقعة وغَشَّاه بشىء لايُعْرَف، وعَقَده من خارج الرُّقعة بسَـيْرٍ عُقْدتين ، وخرج إلينـا به مَطْوِيًّا وهو يقول : ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وهذا النَّبِيُّ والَّذِين آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِين ﴾

---

(١) الزيادة من "السيرة الحلبية" ج ٣ ص ٢٩٦ وتاريخ ابن عساكر .

(٢) فى "السيرة الحلبية" ص ٢٩٦ ج ٣ « وخزيمة بن قيس » .

(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمة ، والتصحيح من تاريخ ابن عساكر .

ثم قال : آنصرِفُوا حتَّى تسمَعُوا بِي قد هَاجَرْتُ . قال أبو هند : فانصَرَفْنا . فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قَدِمْنا عليه فسألْناه أن يُجَدد لنا كِتابا ، فكتب لنا كتابا نُسْخَتُه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا ما أنطَى محمدٌ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لتَمِيم الدَّارِيّ »
« وأصحابِهِ ، إنّي أنطيْتكم عَيْنُونَ وحَبْرُونَ والرطوم و بيْتَ إبراهِيمَ برُمَّتِهِم »
« وجميع مافِيهِم نَطِيَّةَ بَتّ ، ونَفَذْتُ وسَلَّمت ذلِك لهم ولأعقابِهم مِنْ »
« بَعْدِهِم أَبَدَ الأَبَد ، فمَنْ آذاهُمْ فيها آذاه اللهُ » .

« شهِد أبو بكْرِ بنُ أبي قُحافة ، وعُمرُ بنُ الخطَّاب ، وعثمانُ بنُ عفَّانَ ، »
« وعلِيُّ بنُ أبي طالبٍ ، ومعاوِيةُ بنُ أبي سُفْيانَ ، وكَتَب » .

فلما قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووَلِى أبو بكر ، وَجَّه الجنودَ إلى الشأم ، فكتب لنا كِتاباً نُسْخَتُه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« مِن أبِي بكرٍ الصدّيقِ إلى عُبيدَةَ بنِ الجَرَّاح ، سلامٌ عليك فإنّي »
« أحمَدُ إليكَ اللهَ الّذِى لا إلهَ إلّا هُو » .

« أما بعد ، آمْنَعْ مَنْ كان يُؤْمِن بِاللهِ واليَوْم الآخِرِ من الفَسَاد »
« فى قُرَى الدَّارِيِّينَ ؛ و إنْ كان أهْلُها قد جَلَوْا عنها وأرادَ الدَّارِيُّون »

«أن يَزْرَعُوها فَلْيَزْرَعُوها، فإذا رجَع أهلُها إليها فَهِى لَهُمْ وأحقُّ بِهِمْ»
«والسلامُ عليْكَ» .

وروى بسنده أيضا إلى الزُّهرِىِّ وثورِ بن يزيدَ عن راشد بن سَعْد، قالا : قام تميمٌ الدارِىُّ وهو تميم بنُ أوْس، رجلٌ من لَخْمْ، فقال يارسولَ الله، إنَّ لى جِيرةً من الرُّوم بفِلَسْطِينَ لهم قريةٌ يقال لها حَبْرَى، وأخرى يقال لها بيْتُ عَيْنُون : فإنْ فتحَ الله عليك الشأم فهَبْهُما لى، قال : هُمَا لك، قال : فاكْتُبْ لى بذلك، فكتَبَ له :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم لتميمِ بنِ أوْسٍ»
«الدارِىِّ ، إنَّ له قَرْيةَ حَبْرَى وبَيْتَ عَيْنُون قَرْيَتَها كلَّها سَهْلَها وجَبَلَها»
«وماءَها وحَرَّتَها وأنْباطَها وبَقَرها ولعَقِبه من بعده لا يُحاقُّه فيها أحدٌ»
«ولا يَلِجُه عليهم أحدٌ بظُلْمٍ . فمَن ظَلَمَهم أو أخذَ من أحدٍ منهم شَيْئا»
«فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين» وكتب علىٌّ .

فلما وَلِى أبو بكر كتب لهم كتابا نُسْخته :

«هذا كتابٌ مِن أبى بكرٍ أمينِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذى»
«آستُخْلِف فى الأرض بعدَه، كتَبه للدارِيِّين أن لا تُفْسَدَ عليهم مأْثُرتُهم»
«قريةُ حَبْرَى و بيتُ عَيْنُون، فمَن كان يَسْمَع و يُطِيع فلا يُفْسِد منها شيئا»
«ولْيَقُمْ عمرُو بنُ العاصِ عليهما فلْيَمْنَعْهُما من المُفْسِدين» .

وروى ابن منده بسنده إلى عمرو بن حزم رضى الله عنه أنه قال : أقطعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تميماً الداريّ، وكتب :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لتميمِ بنِ أوْس الداريّ، إنّ له صِهْيَوْنَ»
«قريتَها كلَّها سَهْلَها وجبلَها وماءَها وكُرُومها وأنْباطها وورَقها، ولعقبه من»
«بعده لايُحاقُّه فيها أحدٌ، ولا يَدْخُل عليه بِظُلْمٍ؛ فمن أراد ظُلْمَهم»
«أوْ أخذَه منهم فإنّ عليه لعنةَ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين» .

قلتُ : وهذه الرُّقعةُ التى كَتَب بها النبيّ صلى الله عليه وسلم موجودةٌ بأيدى التميميين خُدّامِ حَرَم الخليل عليه السلام إلى الآنَ، وكُلّما نازعهم أحدٌ أتوْا بها إلى السلطان بالديار المصريّة ليقف عليها ويكُفّ عنهم من يَظْلِمهم . وقد أخبرنى برؤيتها غيرُ واحدٍ، والأديمُ التى هى فيه قد خَلِق لطُول الأمَد .

الفصـــل الثانى

من البـاب الثـانى من المقالة السابعة

(فى صورة ما يُكتَب فى الإقطاعات، وفيـه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فيما كان يُكتَب من ذٰلك فى الزَّمَن القديم)

وكانتِ الإقطاعات فى الزَّمن الأوّل قليلةً، إنَّمـا كانت تُجْبىٰ الأموالُ إلىٰ بَيْت المـال ثم يُنْفَق منه على الجُنْد علىٰ ما تقـدّم ذِكره، ورُبَّمـا أقطعُوا القريةَ ونحوَها وقرَّرُوا علىٰ مُقْطَعِها شـيئا يقومُ به لبَيْتِ المـال فى كل سـنةٍ، ويُسَمُّون ذٰلك المقاطعـةَ .

ثم ما كان يُكتَب فى ذٰلك علىٰ ضربين، كِلاهما مفتتَح بلفظ «هذا» :

الضـــرب الأوّل

(ما كان يُكتَب عن الخلفاء، ولهـم فيه طريقتان)

الطريقـــةُ الأُولىٰ

(طريقة كُتَّاب الخُلفاء العبَّاسيِّين ببغدَادَ)

وكان طريقُهم فيها أن يُكتَب « هـذا كتابٌ من فلان (بلَقَب الخليفـة) إنك ذكرتَ من أمْر ضَيْعَتِك الفلانية كذا وكذا ، وسألتَ أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا ، وقد أجابك أميرُ المؤمنين إلىٰ سُؤالك فى ذٰلك ونحوه » .

وهـذه نسخةُ مُقاطعةٍ، كُتِب بها عن المُطِيع لله الخليفةِ العبَّاسىِّ، من إنشاء أبِى إسحاقَ الصابِى، وهى :

هذا كتابٌ من عبد الله الفَضْلِ، الإمامِ المُطيع لله أمير المؤمنين، لفلان بن فلان.

إنّك رفعْتَ قِصّتَك تذكُر حالَ ضَيْعتك المعروفة بكذا وكذا، من رُسْتاق كذا وكذا، من طَسُّوج كذا وكذا؛ وأنها أرضٌ رَقيقةٌ قد توالىٰ عليها الخَراب، وآنغلَق أكثرُها بالسِّدّ والدَّغَل، وأنَّ مِثْلَها لا تتَّسِع يدُ الليالى للإنفاق عليه، وقلب بالاسله(؟) وآستخراج سُدُوده وقَفْل أَرْضه؛ ولا يرغَبُ الأَكَرَةُ فى آزْدِراعه والمعاملة فيه. وإن أميرَ المؤمنين مُقاطِعُك عن هذه الضَّيْعة علىٰ كذا وكذا من الوَرِق المُرْسَل فى كلِّ سنةٍ، علىٰ آستقبال سنة كذا وكذا الخراجيّة، مُقاطَعةً مؤبَّدة، ماضيةً مُقرَّرةً نافذة، يُستخْرَج مالُها فى أوّل المحـرَّم من كلِّ سـنة، ولا تُتْبَع بنقضٍ ولا يتأوَّلُ فيها متأوِّل، ولا تُعترَضُ فى مستأنَف الأيّام، [إن] آجتهَدْتَ فى عمارتها، وتكلَّفْتَ الإنفاقَ عليها وآستخراجَ سُدُودها، وقَفْلَ أراضيها وآحتفارَ سواقِيها، وآجتلابَ الأَكَرة إليها، وإطلاقَ البذُور والتقاوى فيها، وإرْغابَ المُزارعين بتخفيف طُسُوقها بحق الرقبة ومُقاسماتها، وكان فى ذلك توفيرٌ لحقِّ بيْتِ المـال وصلاحٌ ظاهرٌ لايختَلّ.

وسألتَ أميرَالمؤمنين الأمْرَ بذٰلك والتَّقدُّمَ به والإسجالَ لك به، وإثباتَه فى ديوان السَّواد ودَواوِين الحَضْرة وديوان الناحية، وتَصْييرَه ماضيًا لك ولَعقِبك وأعقابهم، ومَنْ لعَلَّ هذه الضَّيْعةَ أو شيئًا منها ينتَقِلُ اليه ببيع أو ميراثٍ أو صَدَقةٍ أو غير ذٰلك من ضُرُوب الآنتقال.

وإنَّ أمير المؤمنين بإيثاره الصَّلاحَ، وآعتمادِه أسبابَه، ورَغْبته فيما عادَ بالتوفير علىٰ بَيْت المال، والعِمارةِ والتَّرفيه للرَّعية، أمَرَنا بالنظر فيما ذكرْتَه، وآستقصاءِ البَحْثِ عنه، ومَعْرِفةِ وجهِ التدبير، وسبيلِ الحظّ فيه، والعملِ بمـا يُوافق الرُّشْد فى جميعه. فرُجِع إلى الدِّيوان فى تعرُّف ماحكيتَه من أحوال هذه الضَّيعة، فأُنْفِذ منه رجلٌ مختارٌ ثقةٌ

مأمونٌ، من أهل الخِبْرة بأمور السَّواد وأعمال الخَراج: قد عَرَف أميرُ المؤمنين أمانته وعِلْمه ومعرفته، وأمر بالمَصير إلىٰ هٰذه الناحية، وجَمْع أهلها: من الأدلّاء والأكَرَة والمُزارعين، وثِقات الأمناء والمجاورين، والوُقوف علىٰ هـذه الأقرحة، وإيقاع المِساحة عليها، وكَشْف أحوال عامرِها وغامرِها، والمَسير علىٰ حُدودها، وأخْذ أقوالهم وآرائهم فى وجه صَلاح وعمارة قَراح قَراح منها، وما يُوجبه صوابُ التدبير فيما ٱلتمسته من المقاطعة بالمَبْلغ الذى بذَلْته. وذكرتَ أنه زائدٌ على الأرتفاع، والكِتاب بجميع ذٰلك الى الديوان، ليوقَف عليه ويُنْهىٰ الىٰ أمير المؤمنين فينظُرَ فيه: فما صَحَّ عنده منه أمْضاه، وما رأىٰ الأستظهار علىٰ نَظَر الناظر فيه ٱستظْهَر فيما يرى منه، حتَّى يقِفَ علىٰ حقيقته، ويَرْسُم مايُعمَل عليه.

فذكر ذلك النـاظرُ أنه وقَف علىٰ هـذه الضَّيْعة، وعلىٰ سائر أقْرحتها وحُدُودها ونِطاقها، بمَشْهَدٍ من أهل الخِبْرة بأحوالها: من ثِقات الأدلّاء والمجاورين، والأكَرة والمزارعين، والأُمَناء الذين يُرجع الىٰ أقوالهم، ويُعمَلُ عليها؛ فوجد مِساحَةَ بُطُون الأقْرحة المزدَرَعة من جميعها، دُون سَواقيها و بُرُورِها وتِلالِها وجنائِبها ومستنقعَاتها، وما لا يُعتَمد من أرضها، بالجَرِيب الهاشمى- الذى تُمسح به الأرضُ فى هذه الناحية كذا وكذا جَرِيباً: منها جميعُ القَراح المعروف بكذا وكذا، ومنها قَراحُ كذا وكذا، ومنها الحِصْن والبُيوتُ، والساحاتُ، والمَراحات، والخَزّانات؛ ووجد حالَها فى الخَراب والآنسِداد، وتعذُّر العِمارة، والحاجة الىٰ عظيم المئُونة وفَرْط النَّفقة علىٰ ما حكيْته وشكَوْته؛ ونظر فى مِقدار أصْل هذه الخَزّانات من هذه الضَّيعة، وما يجب عليها، وكشفَ الحالَ فى ذٰلك.

ونَظَر أمير المؤمنين فيما رفعه هـذا المؤتَمَنُ المُنفَذُ من الديوان، واستظهر فيه بما رآه من الاستظهار، ووجبَ عنده من الاحتياط، فوجد مارفَعه صحيحًا صحّةً عرَفها أميرُ المؤمنين وعلِمها، وقامتْ فى نَفْسه، وثبَتَتْ عنده، ورأى إيقاعَ المُقاطَعة التى التمسْتَها على حقِّ بَيْت المال فى هذه الضَّيعة، فقاطَعَك عنه فى كلِّ سنةٍ هلاليَّة، على استقبال سـنة كذا وكذا الخراجية، على كذا وكذا : درْهما صِحاحًا مُرسَلَة بغير كَسْر ولا كعابه (؟) ولا حقِّ حَرْب ولا جَهْبذة، ولا مُحاسَبةٍ ولا زيادةٍ، ولا شَىْءٍ من جميع المُؤَن وسابق التواقيع والرُّسوم . تؤدَّى فى أوّل المحرَّم من كلِّ سنة، حسَبَ ما تُؤدَّى المقاطعةُ، مقاطعةً ماضيةً مؤبَّدة، نافذةً ثابتة، على مُضِىِّ الأيام، ولُزُوم الأعوام، لا تُنْقَض ولا تُفْسَخ، ولا تُتْبَع، ولا يُتأوَّل فيهـا، ولا تُغَيَّر. على أن يكون هـذا المـالُ : وهو من الوَرِق المرسَـلِ كذا وكذا فى كل سـنة مؤدًّى فى بيت المـال، ومصحَّحا عند من تُورَد عليه فى هذه الناحية أموالُ خَراجِهم ومقاطعاتهم وجباياتهم، لا يُعْتَلّ فيها بآفةٍ تَلْحق الغَلّات، سماويّةٍ ولا أرضيَّة، ولا بتعَطُّلِ أرض، ولا بقُصُور عِمارة، ولا نُقصانِ رَيْع، ولا بانحطاطِ سِـعْر، ولا بتأخُّر قَطْر، ولا بشُرْب غَلَّة، ولا حَرَق ولا شَرَق، ولا بغير ذلك من الآفات بوجْه من الوجوه، ولا بسَبَبٍ من الأسباب، ولا يحتجَّ فى ذلك بحُجَّة يحتجُّ بها التنا (؟)، والمُزارِعُون، وأربابُ الخَراج فى الالتواءِ بمـا عليهم، وعلى أن لا يدخُلَ عليك فى هذه المقاطعة يَدُ ماسِحٍ ولا مُخَمِّن، ولا حازِر، ولا مقدِّم، ولا أمينٍ، ولا حاظِر، ولا ناظِرٍ، ولا متتبِّع، ولا متعرِّف لحال زراعةٍ وعِمارة، ولا كاشِف لأمر زَرْع وغَلَّة، ماضِيًا ذلك لك ولعَقِبك من بعدك، وأعقابهم، وورثتِك وورثتِهم، أبدًا ما تناسَلُوا، وان عسى أن تنتقِلَ هذه الأقْرِحةُ أو شىءٌ منها إليه بإرْثٍ، أو بيْع، أو هِبةٍ، أو نَحْل، أو صَدَقة، أو وَقْف، أو مُناقَلَة، أو إجارة، أو مُهايأة، أو تمليك، أو إقرار، أو بغير ذلك من الأسباب التى تنتقِل بها

الأملاكُ من يَد إلىٰ يَد، ولا يُنقضُ ذلك ولا شىءٌ منه، ولا يغيَّر ولا يفسَخ، ولا يُزال ولا يبـدَّل، ولا يعقَّب، ولا يعترَض فيه بسَبَب زيادة عمـارةٍ، ولا ٱرتفاع سِعْر ولا وُفُور غَلّة، ولا زكاء رَيْع، ولا إحياءِ مَوَاتٍ، ولا أعمال مُعطَّل، ولا عمـارةِ خَراب، ولا ٱستخراج غامرٍ، ولا صـلاح شِرْب، ولا ٱستحداثِ غلّات لم يَجْرِ الرسمُ باستحداثِها وزراعتِها، ولا يُعَدُّ ولا يُمْسَحُ ما عسىٰ أن يُغْرس بهذه الأقرحة: من النَّخْل وأصناف الشَّجَر المعدُود والكَرْم، ولا يُتأوّل عليك فيما لعلَّ أصلَ المساحة أن تزيدَ به فيما تُعمِّره وتسـتخرجُه من الجَبـابِين(١) والمـستنقَعات، ومواضع المَشارب المُسْـتغنىٰ عنها، إذْ كان أميرُ المؤمنين قد عرَف جميعَ ذلك، وجعـل ما يجب علىٰ شىءٍ منه عند وجوبه داخلًا فى هذه المُقاطَعة، وجارِيا معَها.

علىٰ أنّك إن فصَّلْت شيئًا من مال هـذه المُقاطَعة علىٰ بعض هـذهِ الأقرحةِ من جميع الضَّـيعة، وأفردْتَ باقِىَ مال المقاطَعة بباقيها عنـد مِلْك ينتقلُ منها عن بَدَل، أو فَعَل ذلك غيرُك ممَّن جُعِل له فى هذه المقاطَعة ما جُعِل لك من وَرَثتك ووَرَثتهم، وعَقِبك وأعقابهم، ومَنْ لعلَّ هذه الضَّيعةَ أو شيْئًا من هذه الأقرحة ينتقلُ إليه بضَرْب من ضُروبِ الانتقال، قُبِل ذلك التفصيلُ منكم عند الرِّضا والاعترافِ ممَّن تَفْصِلُون باسمه، وتُحيلون عليه، وعُومِلتم علىٰ ذلك، ولم يُتأوّل عليكم فى شَىْءٍ منه.

وعلىٰ أنك إن ٱلتمستَ أو ٱلتمس مَن يقُوم مَقامَك ضَرْبَ مَنارٍ علىٰ هذه الضيعةِ، تُعرَف به حدُودُها ورسومُهـا وطُرُقها، ضُرِب ذلك المَنـار أىَّ وَقْتٍ ٱلتمسْتُموه، ولم تُمنَعُوا منـه، وإن تأخر ضربُ المَنـار لم يُتأوّلْ عليكم به، ولم يُجْعَلْ عِلّةً فى هـذه المقاطعة، إذْ كانت شهرةُ هذه الضيعةِ وأقرِحتِها فى أماكنها، ومعرفةُ مجاورِها بما ذُكر من تسميتِها ومِساحتِها، تُغنى عن تَحْديدها أو تَحْديد شىءٍ منها، وتقوم مقام المَنَار

(١) الجبابين الصحارى .

فى إيضاح معالمها، والدّلالة على حُدُودها وحُقُوقها ورسُومها . وقد سوّغك يافلانُ ابن فلان أميرُ المؤمنين وعقبَك من بعدك وأعقابهم، ووَرثتك وورثتهم أبدًا ماتناسلوا، ومَن تنتقل هذه الأقرحةُ أو شىءٌ منها إليه - جميعَ الفضل بين ما كان يلزم هـذه الضّيعةَ وأقرحتها من حقّ بيت المال وتوابعه، على الوَضيعة التامة، وعلى الشروط القديمة، وبين ما يلزمها على هذه المقاطعة، وجعل ذلك خارجًا عن حاصل طَسُّوج كذا وكذا، وعما يرفعُه المؤتَمَنون، ويُوافق عليه المتضمِّنُون، على غابر الدهر ومَرّ السنين، وتعاقُبِ الأيّام والشهور .

فلا تُقبل فى ذلك سِعايةُ ساعٍ، ولا قَدْحُ قادِحٍ، ولا قَرْفُ قارِفٍ، ولا إغراءُ مُغْرٍ، ولا قولُ معنِّفٍ، ولا يُرجَع عليك فيما سُوِّغتَــه ونُظِرَلك به فى حالٍ من الأحوال؛ ولا يُرْجَع فى التقريرات، ولا تُنقَض بالمعاملات وردِّها إلى قِوام أُصُولها، ولا ضَرب من ضُرُوب الحُجَج والتأويلات، التى يتكلم عليها أهلُ العَدْل على سبيل الحُكْم والنظَر، وأهل الجور على سبيل العُدْوان والظُّلْم. ولا تُكلَّف يافلان بن فلان، ولا عقِبُك من بعدك، ولا ورثتُك، ولا أعقابُهم، ولا أحدٌ ممن تخرُج هذه الضَّيعة أو هذه الأقْرِحة أو شىءٌ منها إليه، على الوجوه والأسباب كلِّها - إخراجَ توْقيعٍ، ولا كتابٍ مجدَّد، ولا منشورٍ بانفاذ شىءٍ من ذلك، ولا إحضارَ سجِلٍّ به، ولا إقامةَ حُجّة فيه فى وقتٍ من الأوقات .

وعلى أن لا يلزَمَك ولا أحدًا ممن يقوم مَقامَك فى هذه المقاطَعة مَئُونةٌ، ولا كُلْفةٌ، ولا ضَريبةٌ، ولا زيادةٌ، ولا تقسيط كِراء منه، ولا مصلحةٌ، ولا عاملُ بريد، ولا نفقةٌ، ولا مئونةُ جماعة، ولا خفارةٌ، ولا غيرُ ذلك . ولا يَلزم بوجه من الوجوه فى هذه المقاطَعة زيادةٌ على المبلغ المذكور المؤدَّى فى بيت المال فى كلِّ سنةٍ خراجية،

وهو من الورق المُرْسَل كذا وكذا، ولا تمنعُ من رَوْزِجهْبذ[(١)] أو حُجّة كاتب أو عامل بما لهذه المقاطَعة إذا أدّيتَه أو أدّيتَ شيئا منه أولا أولا، حتّى يتكمّل الأداء، وتحصُلَ فى يَدِك البراءة فى كلّ سنةٍ بالوفاء بجميع المالِ بهذه المقاطعةِ .

وعلىٰ أن تُعاوَنوا علىٰ أحوال العِمارة ، وصلاح الشِّرْب ، وتُوفَّر عليكم الضِّيافةُ والحِمايه، والذَّبُّ والرِّعايه .

ولا يَتعقّبَ ما أمر به أميرُ المؤمنين أحدٌ من وُلاة العهود والأمراءِ والوُزراءِ وأصحاب الدواوينِ، والكُتّاب والعُمّال والمُشْرفين، والضُّمَناء والمؤتَمنين، وأصحاب الخراج والمَعَاونِ، وجميع طَبقات المُعاملين، وسائر صُنوف المتصرِّفين - يُبْطِله أو يُزيلَه عن جهته، أو ينقُضُه، أو يفسَخُه، أو يغيِّره، أو يبدِّله، أو يوجِبُ عليك أو علىٰ عَقِبك من بعدك وأعقابِهم وورَثتهم أبدا ما تناسلُوا ومن تخرُج هذه الضيعةُ أو شيءٌ منها [اليه] حجةً علىٰ سائر طُرُق التأويلات، ولا يُلزِمُكَ شيئا فيه، ولا يكلّفكم عِوَضًا عن إمضائه، ولا ينظر فى ذلك أحدٌ منهم نَظَرَ تتبّع ولا كَشْف، ولا بَحْث، ولا فَحْص . فإن خالف أحدٌ منهم ما أمَر به أميرُ المؤمنين ، أو تعرّض لكَشْف هذه المقاطعة أو مساحتها أو تخمينها أو آعتبارها والزيادةِ فى مبلغ مالها ، أو ثبَتَ فى الدّواوين فى وقتٍ من الأوقات شيءٌ يخالِفُ ما رسمه أميرُ المؤمنين فيها : إما علىٰ طريق السَّهْو والغَلَط، أو العُدْوان والظُّلْم والعِناد والقَصْد ، فذلك كلّه مردود ، وباطلٌ، ومُنْفَسِخٌ ، وغيرُ جائز، ولا سائغ ، ولا قادحٍ فى صحّة هذه المقاطَعةِ وثبُوتها ووجوبها ، ولا معطِّلٍ لها، ولا مانعٍ من تلافى السَّهْو وآستدراكِ الغَلَط فى ذلك ، ولا مغيِّرٍ لشيء من شرائط هذه المقاطَعة . ولا حجّةَ تقوم عليك يافلانُ بنَ فلان ، ولا علىٰ من يقومُ فى هذه المقاطعة بشيء من ذلك : إذ كان ما أمَر به أميرُ المؤمنين

(١) الروزالتجربة .

من ذلك على وجه من وجوه الصلاح، وسبيلٍ من سُبُله رآهما وأمضاهما، وقطع بهما كلَّ آعتراض ودعوى، وآحتجاجٍ وقذف، وأزال معهما كلَّ بحثٍ وفحص، وتبِعةٍ وعلاقة، وإن كان من الشرائط فيما سَلَف من السنين وخلا من الأزمان ما هو أوكدُ وأتمُّ وأحكمُ وأحوطُ لك، ولعقبك وورثتك، وأعقابهم وورثتهم؛ ومَنْ تنتقل هذه الأقرحةُ أو شىءٌ منها إليه مما شُرِط(١) فى هذا الكتاب بحال، أوجبها لك الاحتياطُ على آختلاف مذاهب الفقهاء والكُتّاب وغيرهم مما للخلفاء أن يفعلوه وتُنفَّذ فيه أمورهم، وحُمِلت وحُمِلوا عليه، وهو مضافٌ إلى شروط هذا الكتاب التى قد أتى عليها الذكرُ، ودخلتْ تحت الحَصْر، ولم يكلَّف أحدٌ منكم إخراجَ أمرٍ به.

وإن آلتمست [أنت] أو أحدٌ من ورثتك وأعقابك، ومَنْ عسى أن تنتقل هذه الضَّيْعة والأقرحةُ أو شىءٌ منها إليه فى وقتٍ من الأوقات تجديدَ كتابٍ بذلك، ومكاتبةَ عاملٍ أو مشرف، أو إخراجَ توقيع ومنشورٍ إلى الديوان بمثل ماتضمَّنه هذا الكتابُ، أُجبتم إليه ولم تُمنَعوا منه.

وأمَرَ أمير المؤمنين بإثبات هذا الكتاب فى الدَّواوين، وإقراره فى يدك، حُجةً لك ولعقبك من بعدك وأعقابهم، وورثتك وورثتهم، ووثيقةً فى أيديكم، وفى يد من عسى أن تنتقلَ هذه الضيعةُ أو الأقرحةُ أو شىءٌ منها إليه، بضَرْب من ضُروب الانتقال التى ذُكِرتْ فى هذا الكتاب والتى لم تُذْكَر فيه، وأن لا تُكلَّفوا إيراد [حجة] من بعده، ولا يتأوّلَ عليكم متأوِّلٌ فيه.

فمَن وقف على هذا الكتاب وقرأه أو قُرِئ عليه: من جميع الأمراء، ووُلاة العهود والوُزَراء، والعُمّال، والمشرفين، والمتصرِّفين، والناظرين فى أمور الخرَاج، وأصحاب السيوف على آختلاف طبقاتهم، وتباينُ منازلهم وأعمالهم. فليَمْتثِلْ ما أمَرَ به أمير

(١) متعلق بأوكد وما بعده.

المؤمنين ولينفّذْ لفلانِ بن فلان وورثته وورثتهم، وعقِبه وأعقابهم، ولمن تنتقل هذه الأفرحةُ أو شيءٌ منها إليه ـ هذه المقاطعةَ، من غير مراجعةٍ فيها، ولا آستئمارٍ عليها، ولا تكليف [له] ولا لأحدٍ ممن يقوم بأمرها إيرادَ حُجَّة بعدَ هـذا الكتاب بها . وليَعْمَلْ بمثل ذلك مَن وَقَف علىٰ نسخة من نُسَخ هذا الكتاب فى ديوانٍ من دواوين الحضرة، وأعمالها أو الناحية، وليُقَرَّ فى يد فلانِ بن فلان أو يَدِ من يُورِده ويحتجّ به ممن يقوم مقامه، إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقـــــة الثانيــــة

(ما كان يُكْتَب فى الإقطاعات عن الخُلَفاء الفاطميين بالديار المِصرية)

وهو علىٰ نحوٍ ممـا كان يُكْتَب عن خلفاء بنى العبَّاس .

قال فى "مواد البيان" : والرسم فيها أن يُكْتَب :

أميرُ المؤمنين بمـا وهَبَه الله تعالىٰ : من شَرَف الأَعْراق، وكَرَم الأخْلاق، ومَنَحه من علُوِّ الشان، وآرتفاعِ السُّلطان، يَقْتدى بإذن الله سبحانه فى إفاضة إنعامه وبِرِّه، على الناهضين بحُقُوق شكرِه، ويُوقع أياديَه عند من يقوم بحقِّها، ويتألَّفُها بحَمْدها، وشُكْرِها، ولا يُنَفِّرها ويُوحِشُها بكُفْرها، وجَحْدها، ويتحرَّىٰ بعَوارفه المَغَارِسَ التى تُنْجِب شَجَرتُها، وتَحْلَوْلِى ثَمرَتُها، والله تعالىٰ نسألُه أن يوفِّقه فى مقاصده، ويُرِيَه مخايِلَ الخير فى مَصادِره ومَوارِدِه، ويُعِينَه علىٰ إحسانٍ يُفِيضُه ويُسْبِغُه، وآمتنانٍ يُضْفِيه ويُفْرِغُه .

ولمـا كان فلانُ بنُ فلان ممن غَرَس أميرُ المؤمنين [إحسانَه] لديْه فأثمر، وأولاه طَوْلَه فشَكَر، ورآه مُسْتَقِلًّا بالصَّنِيعه، حافِظًا للوَديعه، مقابِلًا العارفةَ بالإخلاص فى الطاعه، مُستَدِرًّا بالانْقِياد والتِّباعه، أخلافَ الفَضْل والنِّعمة (ويُوصَف الرجل

المقطَع بما تقتضيه منزلتُه) ثم يقال : رأىٰ أميرُ المؤمنين مضاعفةَ أياديه لديْه ، ومُواصلةَ إنعامه إليه ، وإجابةَ سُؤاله ، وإنالتَه أقاصِيَ آماله ، وتنويلَه ما نحَتْ إليه أمانيُّه ، وطمَحَت نحوَه راحتُه ، وإسْعافَه بما رَغِبَ فيه من إقطاعه الناحيةَ الفلانيةَ ، أو الدارَ أو الأرضَ ، أو تسويغَه ما يجب عليه من خَراج مِلْكه ، وما يجرِى هذا المجرى . ثم يقال : ثقةً بأنّ الإحسانَ مغروسٌ منه فى أكرم مَغْرِسٍ وأزكاه ، وأحقّ مَنْزِلٍ بالتنويل وأَوْلاه . وخرج أمْرُه بإنشاء هذا المنشور بأنه قد أقْطَعه الناحيةَ الفلانية ، لاستقبال سنةِ كذا بحقُوقها وحدُودها ، وأرْضِها العامرةِ ووجُوه جِباياتها ، (وينص علىٰ كلّ حق من حقُوقها ، وحدّ من حدُودها) فإذا آستوفىٰ القول عليه ، قال : إنعامًا عليه ، وبَسْطا لأمله ، وإبانةً عن خَطَره .

فلْيعلَمْ ذٰلك كافّةُ الولاة والنُّظّار والمستخْدَمين من أمير المؤمنين ورَسْمه ، ليعمَلُوا عليه وبحَسَبه ، ولْيحْذَرُوا من تجاوُزه وتعدّيه ، وليُقَرّ بيدِه بعد العملِ بما نُصّ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : والتحقيق أنّ لهم فى ذٰلك أساليبَ : منها ما يفتتح بلفظ « هذا » والمعروفُ أنه كان يسمّى ما يُكتَب فى الاقطاعات عندهم سِجِلّات كالذى يُكتَب فى الولايات .

✧

وهذه نسخةُ مَنْشورٍ من مَناشيرهم ، من إنشاء القاضى الفاضلِ لولدٍ من أولاد الخليفة آسمُه حسَن ولقبُه حُسامُ الدّين مفتَتَحٌ بلفظ «هذا» وهى :

هذا كتابٌ من أمير المؤمنين لولدِه الذى جَلّ قَدْرا أن يُسامىٰ ، وقرّ فى ناظر الإيمان نُورا وسَلّته يدُ الله حُساما ، وحَسُن به الزمانُ فكان وجُودُه فى عِطْفه

حِليةً والغُرّةِ ٱبتساما، وأضاءتْ وجوهُ السعادة لمَنْحها[(١)] بكريم ٱسمِه ٱتّساما، وتهيّأتِ الأقدارُ لأن تَجْرِىَ علىٰ نَقْش خاتَم إرادته ٱمتثالًا وٱرْتساما - الأميرِ فلان، جَرْيًا علىٰ عادة أمير المؤمنين التى أوضحَ اللهُ فيها إشراقَ العوائد، وٱتّباعًا لسنّة آبائه التى هى سَنَن المكارم والمراشد، وٱرتفادًا مع ٱرتياح [إلىٰ موارِد] كرمه التى هى موارد لا يُحَلَّأُ عنها وارِد، وٱختصاصًا بفضله لمن كفَاه من الشّرَف أنّه له والد، وعموما بما يَسُوقُه اللهُ علىٰ يدِه من أرزاق العباد، وإنعامًا جعل نَجْلَه طريقَه إلىٰ أن يُفِيض علىٰ كلِّ حاضِرٍ وبَاد .

وأميرُ المؤمنين بحرٌ يَنْتَشِئ من آله السَّحابُ المتزّل، ويُمِدّهم جوادَ العطاءِ الأجْزَل.

أمر بكَتْبه لما عُرِضتْ لمَقامه رُقْعةٌ بكذا وكذا، وخرج أمرُ أميرِ المؤمنين إلىٰ وَلِيِّه وناصِره، وأمينِه علىٰ ما ٱستأمنَه اللهُ عليه ومُوازِره، السيدِ الأجلِّ الذى لم تزل آراؤُه ضوامنَ لمَصالح كوافِل، وشُهُبُ تَدْبيره من سماء التوفيق غيرَ غاربةٍ ولا آوافِل، وخِدَمُه لأمير المؤمنين لا تَقِف عند الفرائض حتّى تَتخطّى إلى النّوافل، وجاد فأخلافُ النِّعم به حَوافِل، وأقبلَ فأحزابُ الخِلاف به جَوافِل، وأيقَظَ عيونا من التدبير على الأيّام لا تَدّعى الأيّامُ أنها غوافِل، بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الإنشاءِ بإقطاع ناحيةِ كذا بحَدِّها، والمعتاد من وصفِها المعاد، وما يدُلُّ عليه الديوان من عِبْرتها، ويتحصَّل له من عَيْنها وغَلّتها، إلى الديوان الفُلانىِّ: إقْطاعا لاينقَطِع حكمه، وإحسانا لايعفُو رَسْمه، وتسويغًا لا يطيش سَهْمُه، وتكيلًا لا يُمْحىٰ وَسْمُه، وتخويلًا لا يُثْنىٰ عَزْمُه، يتصرَّف فيه هذا الديوانُ ويستبدُّ به مالكا، ويُفاوِض فيه مُشارِكا، ويزرَعُه متعمِّلا ومضمِّنا، ويستَثْمِره عادلًا فى أهله مُحْسنا، لاتتعقَّبه الدواوين بتأوُّلٍ ما، ولا الأحوالُ بتحوُّلٍ ما، ولا الأيّام بتقلُّبها، ولا الأغْراض بتعقُّبها، ولا ٱختلافُ الأيدى بتنقُّلها، ولا تعترضُه الأحكام بتأوُّلها .

(١) فى الأصول هكذا «عها» باهمال نقط الكلمة بتمامها .

وقد أوجب أميرُ المؤمنين على كلِّ والٍ أن يتحامى هذه الناحية بضَرره، ويقصِدها بجميل أثَره، ويُحيطها بحُسْن نظَره، ويتّقِيَ فيها رُكوبَ عواقِب غَرَره، ويجتنب فيها مطالِبَ وِرْده وصَدَره، ونزول مستقرّه؛ ولا يمكِّن منها مُستخْدَما، ولا يكلّف أهلها مَغْرما، ويُجريَها مُجرى ما هو من الباطل حِمىً؛ مالم يقل فيها بميل، أو يُخِف من سُبُلها سبيل، وله أن يتطلّب الجانيَ بعَيْنه، ويقتضِيَه بأداء ما ٱستوجَب من دَيْنه، وأخْذُه مَسُوقا بجرائم ذَنْبه إلى مَوْقِف حَيْنه، فمَن قرأه فليعمَلْ به .

وهذه نسخة سجِلٍّ بإقطاع، عن العاضد آخِرِ خلفاء الفاطميين أيضا لبعض أُمَراء الدولة، من إنشاء القاضي الفاضل أيضا، وهي :

أميرُ المؤمنين — وإن عمّ جودُه كما عمّ فضلُ وجُودِه، وسار كثيرُ إحسانه وبِرِّه في سُهول المعمُور ونُجوده، ورحِمَ اللهُ الخلقَ بما ٱستأْثَره دُونَ الخلائق من قُرْبه في سُجُوده — فإنه يخُص بني القُرْبَى من جَدِّه، والضاربِينَ معه في أنصِباء مَجْدِه؛ : من سُلالته الزكيَّه، وطينتِه المِسْكيَّه، وأعْراقِه الشريفه، وأنسابه المُنِيفه؛ فكُلُّ غرّاءَ لا تخفَى أوضاحُها، إلا إذا فاضَتْ أنوارُهم ، وكل عَذْراء لا يُعْهَد إسْماحُها (١) ، إلا إذا راضَتْ أخطارُهُم .

ولمّا عُرِضت بحضْرته ورقَةٌ من ولده الأميرِ فلان الذى أقرّ اللهُ به عينَ الإسلام، وأنجزَ به دَيْنَ الأيّام ؛ وأطلعه بدْرًا في سماء الحَسَب ، وجَلَا بأنواره ظَلَامَ النُّوَب ؛ وٱمتاحَ من مَنْبَع النبوّة وٱرتوى ، وٱستولَى على خصائص الفضْل الجَليِّ وٱحتوى ،

(١) أي انقيادها .

وأعدّ اللهُ لسعد الأئمة ذا مِرّةٍ شديدَ القُوىٰ ، وأدْنىٰ الاستحقاقَ من الغايات حتّى تأهّب لأن يكون بالوادِ المُقدّس طُوىٰ ، وأضحتْ كافّةُ المؤمنين مؤمّنين علىٰ مكارمه ، وأمستْ كافّةُ الخائفين خائفينَ من سَيْل أنفُسهم علىٰ صَوارمه ؛ وآراؤه أعلىٰ أن يُضاهيها [رأىٌ] وإن جلّ خَطَرُه ، وأعطيتُه أرْقىٰ أن يُدانيها عطاءٌ وإن حَسُن فى الأحوال أثرُه ، وإنما يُنْبِع بمُلْكه منها ما راقَ بعيْن اختياره وإيثاره ، وسَعِد بالانتظام فى سِلْك جُوده الذى يعرِّضُه أبدًا لانْتثارِه ، وتضمّنتْ هذه الرُّقْعة الرغبةَ فى كذا وكذا ، وذكر الديوانُ كذا .

خرَج أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ فتاه وناصِره ، ووَزيره ومُظاهِره ؛ السيد الأجلّ الذى انتصر اللهُ به لأمير المؤمنين من أعدائه ، وحَسَم بحُسَامه ما أعضَل من عارض الخَطْب ودائه ، ونطقَتْ بفضله ألْسُن حُسَّاده فضلًا عن ألسنة أودّائه ، وسخَتِ الملوكُ بأنفُسها أن تكونَ فِداءً له إذا حَوَّزها المجدُ فى فِدائه ؛ الذى ذخَره الله لأمير المؤمنين من آدم ذَخيره ، وجمع له فى طاعته بينَ إيقاظ البَصيرة وإخْلاص السَّريره ، وفُضِّلت أيامُه علىٰ أيَّام أوليائه بما حَلّاها من جميل الأُحْدوثة وحُسْن السِّيره ؛ وسهَّل عليه التَّنَوِّى فى المنافع والعُكُوفَ على المصالح ، وأجْنىٰ من أقلامه ورِمَاحِه ثمراتِ النَّصائح ، وفازَ بما حاز من ذخائر العمل الصالح بالمَتْجَر الرَّابح ؛ وألهمه من حِراسَة قانُون المُلْك ما قضىٰ بحِفْظ نِظامِه ، ولم ينصَرفْ له عَزْمٌ إلا إلىٰ ما صُرِف إليه رضا ربّه ورِضا إمامِه .

ونفَذتْ أوامرُه بأن يُوعَزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجل إلى الديوان الفلانىّ بإقطاعه الناحيةَ وما معها منسوبًا إليها وداخلًا فيها لاستقبال [سنة] كذا ، منْحةً سائغه ، لا يَعترِضُها التكدير ، ونِعمةً سابغه ، لاينقُضُها التَّغْيير ؛ وحِباءً موصولَ

الأسباب، وعطاءً بغير منٍّ ولا حساب ؛ يتحكّم فيه على قضايا الاختيار ، وتنفذ فيه أوامره الميمونةُ الإيرادِ والإصدار .

ومنها ــ أن يفتتح السِّجلّ بلفظ : « إنّ أمير المؤمنين » ويذكُر من وصفه ما سَنح له ، ثم يذكُر حكمَ الإقطاع ، وكيفيةَ خروجه .

وهـذه نسخة سجلٍّ من ذلك كُتِب به لبعض وزرائهـم ، من إنشاء القاضى الفاضل ، وهى :

إنَّ أمير المؤمنين لمـا أطلقَ الله يدَه من أميالٍ تبدُو على الأحوال شواهدُ آثارِها ، وتَرُوض الآمالَ سحـائِبُها بسائب مِدْرارِها ، وتَتنزّه مواعِدُها عن إنْظارِها ، ومواردُها عن أن يُؤتىٰ بأنْظارِها ، ويقُوم بناصِرِها فيكونُ أقوىٰ أعوانها على الشكر وأنصارها ؛ وألهمَه من مُواصَـلة المِنَن التى لا تنقطع رِوايتُها ولا تتناهىٰ مراتِبُها ، ومُوالاة المِنَح التى تَهُبُّ علىٰ جَنَاب الخـير شمـائِلُها وجنائِبُها ، وتَلْتقى فى مَسارح المـدائح غرائِبُها ورغائِبُها ؛ وحبَّبه إليـه من آنتهاز فُرَص المَكارِم فى الأكارِم ، وآبتـداءِ المعروف وآبتدارِ مَغانِمه التى لا تَعْقُبها مَغارم ــ يُولِى آلاءَه من يَجْزِى عن حسَنتِها عَشْرا ، ويعقِلُ عقائلَها عنـد من يَسُوق إليهـا من آستحقاقها مَهْرا ، ويقـابِلُ بالإحسان إحسانَ أجَلِّ أوليـائه قدرا ، ويُضاعِف الآمتنان عنـد من لم يَضْعُف فى مُوازَرته أَزْرا ؛ ويُودِع ودائعَ جُودِه فى المَغارس الجيِّدة بالزَّكاء والنَّماء ، ويُزكّى أصولَ معروفه لمن يفتخر بالآنضواء إلىٰ مُوالاته والآنتماء ، ويستكرِم مستقَرَّ مِنَنِه وآلائه ، ويُحْسِن إلى الإحسان ثم يبتهج بموالاته لديْه وإيلائه .

ولمـا كان السـيدُ الأجلُّ أميرُ الجيوش آيةَ نَصْر أمير المؤمنـين التى آنبرتْ فمـا تُبارىٰ ، ونعمةَ الله التى أشرقتْ أنوارُها وأورتْ فمـا تُوارَىٰ ؛ وسيفَ حقّه الذى

لا تَكِلُّ مَقاطعه ، وبحرَ جُودِه الذى لا تُكَدِّر مَشارعُه ، والمستقلَّ من الدِّفاع عن حَوْزته بما عَجزت عنه الأُمَم ، والعلىَّ على مِقْدار الأَقْدار إذا تفاوَتت قِيمُ الهِمَم ، والكاشفَ الجُلَّى عن دَوْلته وقد عَظُمت مظالِمُ الظُّلَم ، والجامعَ على المُمَاراة والمُوَاراة قَلْبَ المُؤالف والمُخالِف ولِسانَ العَرَب والعَجَم ، والمتبوِّئَ من المُلْك مُلْكا لا ينبغى لأحدٍ من بعْدِه ، والمتوقِّلَ من الفخْر مَحَلاًّ لا يطمَعُ النَّجمُ فيه من بُعْدِه ، والمُغيرَ على الحرْب العَوانِ بقَبَلِيَّة البِكْر ، والمنفِّذَ بمبتدَع العَزَمات ما لولا وقُوعُه لمَا وقع [فى] الفِكَر ، والقاضىَ للدِّين بحدِّ سُيوفه مطْلُولَ حقِّه وممطولَ دَيْنه ، والقائمَ لأمير المؤمنين مَقامًا قام به أَبُوه فى نُصْرة جدِّه صلى الله عليهما يوم بَدْره ويوْم حُنَيْنه .

ولقد أظهر اللهُ آياتِ نَضارةِ نَظَره على الأرض فأخَذَتْ زُخْرُفَها وآزَّيَنَتْ ، وآبتدَتْ أيْديه الحَنَى فتظاهرَتْ أدلَّتُها على دَوْلته وتبيَّنَتْ ، وآستلأَمتِ المملكةُ من تدبيره بجُنَّة تَحاماها الأقدارُ وهى سِهَام ، ووَثِقتْ من عنايته إلى هَجْر الخُطوب بما يعيد نارَها وهى بَرْدٌ وسَلام ، وما ضَرَّها مع تيقُّظ جَفْنه أنْ يَهْجَع فى جَفْنِه طَرَفُ الحُسَام ، ولا آحتاجَتْ وقلْبُه يُساوِر جَسيمَ أمورِها أن تَتْعَب فى وِدِّها الأجْسام ؛ فأىُّ خيرٍ يُولَى ـ وإن عَظُم ـ يناهِضُ آستحقاقَه؟ وأىُّ غايةٍ وإن جلَّت تَرومُ نَيْل مدَى مَسْعاه ولَحاقَه ؟ ؛ وأنَّى لأعْراض الدنيا أن تُهدِى لجَوْهره عَرَضا ، ولا تَبْلُغُ مبالِغُ النعم الجلائل أن تعتدَّ اليومَ من مَساعيه عِوَضا ؟ ؛ وهل لأمير المؤمنين أعمالٌ فى مُجازاته عن قيامه بغِمْد رأْيِه ومجرَّد عَضْبه ، ودِفاعِه عن حَوْزة عُدَّته وذَبِّه ، وكَرِّه فى مواقِف كَرْبه ، وكِفايته للأمة فى سِلْمِه وحَرْبه ، وإيالتِه التى خَصَّ الأرضَ منها فضلُ خِصْبه ، إلا أن يَذْكُره بقَلْبه عند ربِّه ، وأن يرفَعَ الحُجُب عند كلِّ سُؤالٍ كما يرفع اللهُ عند دعائه مُسْدَلَ حُجُبه ؟ .

وعُرِضتْ بحَضْرة أمير المؤمنين مطالعةٌ منه عن خَبرٍ باسمِه الكريم مَقْصورٍ على الرَّغبة فى خُرُوج الأمر بتمليك جهتِه التى تقومُ عِدّتُها عِدّةَ ألْفٍ، مستخْرِجا بها الخطَّ الشريف بإمضاء التمليك وإجازتِه، وتَسْلِيم المِلْك وحِيازتِه .

فتلقَّى أميرُ المؤمنين هـذه الرغبة بإفرازٍ جَرىٰ فيه من الأوامر علىٰ أفضل سَنَن، وتقبَّلها منـه بقَبُولٍ حَسَن، وتهلَّلتْ عليه لسُؤاله مصابيحُ الطَّلاقة والبِشْر، ونفذت (١) مَواقعُ توقيعه مالَا تَبلُغه مواقعُ ماءِ المُزْن فى البَلَد القفْر . وشَمِله خطُّه الشريفُ بما نُسْختُه : خَرج أمرُه اليـه بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلّ بتمليك الجهةِ المقدّمِ ذِكْرُها بجميع حُدُودها وحُقُوقها، وظاهِرها وباطِنها، وأعاليها وأسافلها، وكلِّ حقٍّ لها، داخلٍ فيها وخارجٍ عنها، وما هو معروفٌ بها ومَنْسوبٌ إليها؛ تمليكاً مخلَّدا، وإنعامًا مؤبَّدا، وحقًّا مؤكَّدا؛ يَجرِى على الأصل والفرع، ويُحكَم أحكامَ الكَرَم والشَّرْع؛ ماضـياً لا تُتعقَّب حدودُه بفَسْخ، جائزا لا تُتجاوَز عقودُه بنَسْخ؛ مَوْصولةً أسـبابُه فلا تتطرّقُ أسبابُ التغيـير إليها، مورُوثا حتّى يرثَ اللهُ الأرض ومَن عليها .

فليعتَمِدْ كافَّةُ وُلاة الدَّواوين، ومَنْ يليهم من المتصرِّفين؛ حملَ الأمر علىٰ مُوجَبِه، والحذَرَ من تعدِّيه وتَعقُّبِه؛ وآمتثالَ مارَسمه أمير المؤمنين وحَدَّه، والوقوفَ عند أمره الذى عَدم مَنْ مالَ قَرَدَّه، وليقرّ فى يد الديوان حُجّةً لمودَعِه بعد نَسْخه فى الدواوين بالحَضْرة؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) لعله «وبلغت مواقع» الخ .

الضـــرب الثـانى
(ممـا كان يُكتب فى الإقطاعات فى الزمن المتقدم ما كان يُكتب عن ملوك الشرق القائمين علىٰ خُلَفاء بنى العبّاس)

وطريقتُهم فيـه أن يُكتَب فى الابتداء : « هـذا كتابٌ » ونحوُ ذٰلك ، كما كان يُكتَب عن خُلَفاء بنى العبّاس فى ذٰلك ، ثم يُذكر عرْضُ أمْره على الخليفـة ، وآستكشافُ خبر ما تقع عليـه المقاطعةُ من الدواوين ، وموافقـةُ قولهم بما ذكره فى رُقْعته ، ويذكَرُ أنّ أمير المؤمنين وذٰلك السُّلطانَ أمْضيا أمرَ تلك المقاطعةِ وقرّراه . ثم ربّما وقَع تسويغُ ما وجب لبيتِ المـال لصاحبِ المقاطعـة زيادةً عليها ليكون فى المعنىٰ أنّه باشَرَها .

وهذه نسخةُ مقاطعةٍ بضَيْعةٍ كُتِب بها عن صَمْصام الدولة بن رُكْن الدولة بن بُوَيْه ، وهى :

هذا كتابٌ من صَمْصام الدولة ، وشَمْس المِلّة ، أبى كَالِيجار ، بنِ عَضُد الدولة وتاج المـلّة أبى شجاع ، بن رُكن الدّولة أبى علىّ مَوْلىٰ أمير المؤمنـين ، لمحمد بن عبد الله آبن شهرام .

إنك ذكرتَ حالَ ضِياعك المعروفةِ برسدولا والبَـذْرِيّة من طَسُّوج نَهْر المَلِك ، والحظائرِ والحِصّـة بنهر قُلّا من طَسُّوج قُطْرَبُّل ، وما لَحِقها : من آختـلال الحال ونُقْصان الآرتفـاع ، وآندواب المَشارب(١) ، وآستِئْجام المَزارع ، وطَمَع المجاورِين ، وضَـعْف الأَكَرَة والمُزارِعين ، وظُلْم العُمّال والمتصرِّفين ، لتطاوُل غَيْباتك عنهـا ، وآنقطاعك بالأسفار المتصـلة عن آستيفاءِ حقُوقها ، وإقامةِ عماراتها ، والإنفاق علىٰ

(١) كذا بالأصل ، ولا معنى لها ولعلها : «واندثار المشارب» .

مصالحها، والانتصاف من المجاورين لها والمعاملين فيها، ووصفت ما تحتاج إلى تكلّفه من الجملة الوافرة: لاحتفار أنهارها، وإحياء مواتها، واعتمال متعطّلها، وإعادة رسومها، وإطلاق البذور فيها، وابتياع العوامل لها، واختلاف الأكرة إليها.

وسألت أن تقاطع عن حق بيت المال فيها وجميع توابعه، وسائر لزومه، على ثلاثة آلاف درهم فى كلّ سنة، معونةً لك على عمارتها، وتمكينا من إعادتها إلى أفضل أحوالها، وتوسعةً عليك فى المعيشة منها.

فأنهينا ذلك إلى أمير المؤمنين الطائع لله، وأفضنا بحضرته فيما أنت عليه من الخلائق الحميده، والطرائق الرشيده، وما لك من الخدمات القديمة والحديثة، الموجبة لأن تلحق بنظرائك من الخدم المختصين، والحواشى المستخلصين، بإجابتك إلى ماسألت، وإسعافك بما التمست. فخرج الأمر - لازال عاليا - بالرجوع فى ذلك إلى كتّاب الدواوين، وعمّال هذه النواحى، وتعرّف ما عندهم فيه مما يعود بالصلاح، ويدعو إلى الاحتياط. فرجع إليهم فيما ذكرته وحكيته، فصدّقوك فى جميعه، وشهدوا لك بصحّته، وتردّد بينك وبينهم خطابٌ فى الارتفاع الوافر القديم، وما توجبه العبر لعدّة سنين؛ إلى أن استقر الأمر على أن توقّعت على هذه الضياع المسمّاة فى هذا الكتاب خمسةُ آلاف درهم ورقًا مرسلا بغير كسر، ولا كفاية، ولا حقّ خزن، ولا جهبذة ولا محاسبة، ولا غير ذلك من المؤن كلّها.

ثم أنهينا ذلك إلى أمير المؤمنين الطائع لله، فأمر - زاد الله أمره علوًّا - بإمضاء ذلك، على أن يكون هذا المال، وهو خمسة آلاف درهم مؤدّى فى الوقت الذى تفتتح فيه المقاطعات: وهو أوّلُ يوم من المحرّم فى كلّ سنة، على استقبال السنة الجارية، سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة الخراجية، عن الخراج فى الغلّات الشتوية

والصَّيْفية، والمُحْدَثة والمبكِّرة الجارية على المِساحة، والحاصلِ من الغلّات الجارية على المُقاسَمة والجَوالى، والمَراعى، والأرْحاء، وسائر أبواب المـال، ووُجوه الجِبايات، وتقْسيطِ المصالح، والحِـماية، مع ما يلزمُ ذلك من التوابع كلِّها : قليلها وكثيرها؛ والرسومِ الثابِتة فى الدواوين بأَسْرِها؛ وعن كلّ ماأُحْدِث ويُحْدَث بعـدها على زيادة الارتفاع ونُقصانه، وتَصَرُّف جميع حالاته: مقاطعةً مقرّرة مؤبّده، مُمْضاة مخلّده؛ على مُرُور الليالِى والأيّام، وتعاقُبِ السنين والأعْوام. لك ولوَلَدك، وعَقِبك من بعدك، ومَنْ عسىٰ أن تنتقلَ هذه الضياعُ إليه بميراثٍ، أو بيْعٍ، أو هِبةٍ، أوتمليك، أو مُناقلةٍ، أو وَقْفٍ، أو إجارةٍ، أومُبادَرة، أومزارَعة أو غير ذلك من جميع الوجوه التى تنتقل الأملاكُ عليها، وتجرى بين الناس المعاملاتُ فيها، لايُفْسَخُ ذلك ولايغيَّر، ولايُنْتَقَض ولا يبدَّل، ولا يُزال عن سَبِيله، ولا يُحَال عن جهته، ولا يُعترَضُ عليـك ولا على أحدٍ من الناس فيـه ولا فى شىءٍ منـه، ولا يتأوّل عليـك ولا على غيرك فيـه، بزيادةِ عِمـارةٍ، ولا زكاءِ رَيْع، ولا غُلُوِّ سعْر، ولا إصْلاحِ شِرْب، ولا آعتمال خَراب، ولا إحياءِ مَواتٍ، ولا بغـير ذلك من سائر أسبابِ وُفُور الارتفاع ودُرُور الاسـتغلال.

وحظَر مولانا أميرُ المؤمنين الطائعُ لله، وحظَرْنا بحَظْره على كُتّاب الدَّواوين : أُصُولهـا وأزِمّتها، وعُمّال النواحى، والمشْرِفين عليها، وجميع المتصرِّفين على آختلاف طبقاتِهم ومنازلهم، الاعتراضَ عليك فى هذه المقاطَعة، أو إيقاعَ ثَمن أو مساحةٍ على ما كان منها جارِيًا على الخراج، أوتقريرٍ أو حَزْرٍ، أو قسمة على ما كان منها جاريًا على المقاسمة، أو أن تدخُلَها يَدٌ مع يدك لناظِر أو حاظِر أو مستظْهِر أو معتبِر أو متصَفِّح، إذ كان ما يظهر منها من الفَضْل على مُرُور السنين مسوَّغًا لك، لاتُطالَب به، ولا بمَرْفَقٍ عنـه، ولا على ماظهر عليه وعلى شىءٍ منه؛ ولا يُلتَمس منك تجديدُ كتاب،

ولا إحضار حجةٍ، ولا توقيعٌ به ولا منشورٌ بعد هذا الكتاب : إذ قد صار ذلك لك وفى يدك بهذه المقاطعة، وصار مايجب من الفضل بين ماتوجبه المسائحُ والمقاسماتُ وسائرُ وجوه الجبايات، وبينَ مالِ هذه المقاطعة المحدودةِ المذكورةِ فى هذا الكتاب خارجًا عمّا عليه العُمّال، ويرفعه منهم المؤتمنون، ويوافق عليه المتضمّنون ؛ علىٰ مرور الأيّام والشهور، وتعاقُبِ السنينَ والدُّهور؛ فلا تُقبَل فى ذلك نصيحةُ ناصحٍ، ولا توفير موفّرٍ، ولا سِعايةُ ساعٍ، ولا قَذْفُ قاذفٍ، ولا طَعْن طاعنٍ .

ولايلزم عن إمضاء هذه المقاطعة مَئُونةٌ، ولا كُلفةٌ، ولا مُصانعةٌ، ولا مصالحة، ولا ضَريبةٌ، ولا تقسيطٌ، ولا عمَلُ بَريد، ولا مصلحةٌ من المصالح السلطانية، ولا حقُّ حماية، ولا خِفارة، ولا غيرُ ذلك من جميع الأسباب التى يتطرّق بها عليك، ولا [على مَن] بعدَك، لزيادةٍ علىٰ مالها المحصورِ المذكورِ فى هذا الكتاب، ولا حقُّ خَزْن ولا جَهْبَذة، ولا محاسَبة ولا مَئُونةٍ ولا زيادة . ومتىٰ آستُخرِج منك شىءٌ أو من أحدٍ من أنسبائك، أو ممّن عَسَى أن تنتقل إليه هذه المقاطعةُ بشىءٍ زائدٍ عليها علىٰ سبيل الظلم والتأوّل والتعنّت لم يكنْ ذلك فاسخًا لعقدها، ولا مُزيلا لأمرها، ولا قادحًا فى صحّتها، وكان لك أن تطالِب بردّ المأخوذ زائدًا علىٰ مالها، وكان علىٰ من ينظر فى الأمور إنصافُك فى ذلك وردُّه عليك، وكانت المقاطعةُ المذكورة ممضاةً علىٰ تصرُّف الأحوال كلّها .

ثم إنّا رأينا بعد ماأمضاه مولانا أميرُ المؤمنين، وأمضيناه لك من ذلك وتمامه وإحكامه ووُجوبِه وثُبوته، أنْ سوّغناك هذه الخمسةَ آلاف درهم المؤدّاةَ عن هذه المقاطعة على آستقبال سنة ثلاثٍ وسبعين وثلثمائة الخراجية، تَسْويغًا مؤبّدًا، ماضيا علىٰ مرّ السنين : ليكون فى ذلك بعضُ العِوَض عن باقى أملاكِك وضِياعك التى

قُبِضت عنك ، وبعضُ المَعُونة فيما أنت متَصرِّف عليه من خِدْمتنا ، ومتردَّدٌ فيه من مهمَّات أمورنا ؛ وأوجَبْنا لك فى هذا التَّسْويغ جميعَ الشروط التى تُشْـترَط فى مثله ، ممـا ثبت فى هذا الكِتاب وممـا لم يَثْبُت فيه : لينحسِم عنك تَتبّع المتتبِّعين ، وتعقُّب المتعقبين ، وتأوُّلُ المتأولين على الوجوه والأسباب .

وأمرنا ـ متىٰ وقَع علىٰ مال هذا التَّسْويغ (وهو خمسةُ آلاف درهم) ٱرتجاعٌ ، بحدَثٍ يحدُث عليك ، أو بتَعْويض تُعَوَّض عنه ، أو بحالٍ من الأحوال التى تُوجب ٱرتجاعَه ـ أن يكون أصلُ المُقاطَعة ممضًى لك ، ورسْمُها باقياً عليك وعلىٰ مَن تنتقل هذه الضياعُ إليه بعدك ، علىٰ ما خَرَج به أمرُ أمير المؤمنين فى ذٰلك ، من غير نَقْضٍ ولا تأول فيه ، ولا تغييرٍ لرسْم من رسومه ، ولا تجاوُزٍ لحدّ من حدوده ، علىٰ كلِّ وجه وسبب .

فلْيُعلَمْ ذٰلك من رَأْيِ أمير المؤمنين الطائع لله وأمرِه ، ومن ٱمْتثالِنـا وإمضائنا ، ولْيَعْمَلْ عليه جماعةُ مَن وقف علىٰ هذا الكتاب : من طبقات الكُتّاب ، والعمّال ، والمشْرِفين ، والمتصرفين فى أعمال الخراج والحمايةِ والمصالح ، وغيرهم . وليحْذَرُوا من مخالفته ، ويُمْضُوا بأسْرهم لمحمد بن عبد الله بن شهرام ومن بعده جميعه ، وليحْمِلُوه علىٰ مايُوجِبه . ولْيُقَرّ هذا الكتابُ فى يده وأيديهم بعدَه حجةً له ولهم ، ولْيُنْسَخ فى جميع الدواوين ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقة الثانيـــة

(ممـا كان يُكتَب فى الإقطاعات فى الزمن المتقدم ـ ما كان يُكْتَب عن الملوك الأيوبيَّـة بالديار المصرية)

وكانوا يُسَمُّون مايُكتب فيها تواقيع ، ولهم فيه أساليبُ :

الأسـلوب الأوّل

(أن يُفْتتح التوقيعُ المكتَتَب بالإقطاع بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله»)

وكان من عادة خُطَبهم أن يُؤتىٰ فيها بعد التحميد بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يُؤتىٰ ببعْدِيَّة ، ثم يُذْكَر ماسنَح من حال السلطان ، ثم يُوصَف صاحبُ الإقطاع بمـا تقتضيه حالُه من صفات المدح ، ويُرتَّب علىٰ ذلك آستحقاقُه للإقطاع . وقد كان من عادتهم أنهم يأتُون بوَصية علىٰ ذلك فى آخره .

وهـذه نسخةُ توقيع علىٰ هذا الأسلوب ، كُتِب به عن السلطان صـلاح الدين «يوسفَ بن أيوب» رحمه الله ، لأخيه العادل «أبى بكر» بإقطاع بالديار المصرية ، وبلاد الشام ، وبلاد الجزيرة ، وديار بكْر ، فى سنة ثمـانين وخمسمائة ، بعد الآنفصال من حَرْب الكفار بعكّا وعَقْد الهُدْنة معهم ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أيَّامنا حِسانا ، وأعلىٰ لنا يدًا ولِسانا ، وأطابَ مَحْتِدَنا أوْراقًا وأغصانا ، ورفع لمجدنا لواءً ولجدّنا بُرهانا ، وحقَّق فينا قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ .

نحمَدُه علىٰ سُبوغ نِعْمته ، ونسأله أن يجعلَنا من الداخلين فى رَحمتِه .

ثم نُصلِّى علىٰ رسوله محمد الذى أيَّده بحِكْمته ، وعَصَمَه من الناس بعِصْمتِه ، وأخرج به كلَّ قلب من ظُلْمته ؛ وعلىٰ آله وأصحابه الذين خَلَفُوه فأحسنوا الخِلافة فى أُمّته .

أما بعدُ ، فإن فُروعَ الشَّجرة يأْوِى بعضُها إلىٰ بعضٍ لمكان قُرْبه ، ويُؤْثِر بعضُها بعضا من فَضْل شِرْبه ؛ ونحن أهلُ بَيْتٍ عُرِف منا وِفاقُ القلوب وُدّا ، وإيثارُ الأيدى رِفْدا ؛ وذٰلك وإن كان من الحَسَنات التى يكثُر فيها إثباتُ الأقلام ، فإنه من مصالح المُلْك التى دلّت عليها تَجارِبُ الأيّام ؛ وكِلا هٰذَين الأمرين مشكورةٌ مَذَاهبُه ، محمودةٌ عواقِبُه ، مرفوعةٌ علىٰ رُءُوس الأشهاد مَناقِبُه ؛ وما من أحدٍ من أدانِينا إلا وقد وَسَمْناه بعوارفَ يختالُ فى مَلابسها ، ويُسَرُّ فى كلّ حينٍ بزِفاف عرائسها ، ولم نَرْضَ فى بَلِّ أرحامهم بمواصلة سَلامِها دُون مواصَلةِ بِرِّها وإدناءِ مجالسها ؛ ولإخْوتِنا من ذٰلك أوفَرُ الأقسام ، كما أنّ لهم منّا رَحِمًا هو أقربُ الأرحام ؛ وقد أمَرْنا بتَجْديد العارفة لأخينا الملكِ العادل ، الأجلّ ، السيدِ ، الكبيرِ ، سيفِ الدين ، ناصرِ الإسلام «أبى بكر» أبقاه الله . ولو لم نفعلْ ذٰلك قضاءً لحقِّ إخائه الذى تَرِفُّ عليه حَوانِى الأضالع ، لَفعلْناه جزاءً لذائع خِدَمه التى هى نِعْم الذَّرائع ؛ فهو فى لُزُوم آدابِ الخِدْمة بَعيدٌ وقَفَ منها علىٰ قَدَم الاجتهاد ، وفى لُحْمة شوابِك النَّسب قريبٌ وَصَلَ حُرمةَ نَسَبه بحُرْمة الوِداد ؛ وعنده من الغَناء ما يحكُم لآماله بَبْسطة الخِيار ، ويرفعُ مكانَتَه عن مكانة الأشباه والأنظار ، ويجعلُه شريكًا فى المُلْك والشريكُ مساوٍ فى النَّقض والإمرار ، فكَمْ من مَوْقِفٍ وقَفَه فى خِدْمتنا فجمَل وَعْره سَهلا ، وفاز فيه بإرضائنا وبفَضِيلة التقدّم فانقلب بالحبَّذَيْنِ إرضاءً وفَضْلا ؛ ويكفِى من ذٰلك ما أبلاه فى لِقاء العدوّ الكافر الذى آستَشْرَى فى هِيَاجه ، وتمادىٰ فى لَجَاجه ، ونزل علىٰ ساحل البحر فأطلّ عليه بمِثل أمْواجه ، وقال : لا بَراحَ ، دُون آستِفْتاح ، الأمْرُ الذى عَسُرتْ معالجةُ رِتَاجه ؛ وتلك وقائعُ آستضأْنا فيها برأيه الذى يَنُوب مَنابَ الكمين فى مُضْمره ، وسَيْفِه الذى يُنْسَب من الآسم إلىٰ أبيضه ومن اللّون إلىٰ أخْضَره ؛ ولقد آستغنينا عنهما بنَضْرة لَقَبه الذى تولّتْ يدُ الله طَبْع فضلِه ، وعُنِيت يدُ

السيادة برونق صقله؛ فهو يفرى قلوبَ الأعداء قبلَ الأجساد، ويَسْرى إليهم من غير حاملٍ لمَناط النجاد، ويستقصى فى استلابهم حتى ينتزع من عيونهم لذّة الرقاد، وليس للحديد جوهرُ معدنه المستخرَج من زكاء الحسب، وإذا استُنجد قيل له: ياذا المعالى! كما يُقال لسميّه: ياذا الشُّطب، ولو أخذنا فى شرح مناقبه لظلّ القلم واقفًا على أعواد منبره، وامتدّ شأوُ القول فيه فلم ينته مَوْرِدُه إلى مَصْدَره؛ فمهما خوّلناه من العطايا فإنه يسيرٌ فى جنب غنائه، ومهما أثنينا عليه فإنه سطرٌ فى كتاب ثنائه.

وقد جعلنا له من البلاد ما هو مقتسَم من الديار المصرية والشاميّة، وبلاد الجزيرة وديار بكر: ليكون له من كلّ منها حظٌّ تُفيض يدُه فى أمواله، ويركب فى حشد من رجاله، ويُصبحُ وهو فى كلّ جانب من جوانب مُلكنا كالطّليعة فى تقدّم مكانها، وكالرّبيئة فى إسهار أجفانها.

فليتسلّمْ ذلك بيدٍ معظِّم قدرا، ولا يستكثر كثرا، ويحمل منها رفدها غيثا أو بحرا، وكذلك فليعدل فى الرعيّة الذين هم عنده ودائع، وليجاوز بهم درجة العدل إلى إحسانِ الصنائع؛ فإذا أسند هذا الأمرَ إلى وُلاته فليكونوا تُقاةً لا يجدُ الهوىٰ عليهم سبيلا، ولا يجدُ الشيطانُ عندهم مَقيلا، وإذا حُمّلوا ثِقلًا لا يجدون حَمْله ثقيلا.

وقد فشا فى هذا الزمن أخذُ الرّشوة وهى سُحتٌ أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنبذه، ونهىٰ عن أخذه، وعن الرغبة فى تداوله، وهو كأخذ الرِّبا الذى قُرِنت اللّعنةُ بمؤكله وآكله.

وأما القُضاة الذين هم للشريعة أوتاد، ولإمضاء أحكامها أجناد، ولحفظ علومها كنوزٌ لا يتطرّق إليها النّفاد؛ فينبغى أن يُعوّل فيهم على الواحد دون الاثنين، وأن يُستعانَ منهم فى الفصل بذى الأيدى وفى اليقظة بذى اليدَين، ومن رام هذا

المنْصِبَ سائلا فَلْيَلُمْهُ وليغلِظ القولَ فى تجْريع ملامِه ، وليعْرِف أنه ممَّن رام أمْرا فأخطأ الطَّرِيقَ فى آستجلاب مَرَامه ؛ وأمرُ الحكّام لايتولّاه من سأله ، وإنما يتَوَلّاه من غَفَل عنه وأغْفَله .

وإذا قضَيْنا حقَّ الله فى هذه الوصايا فلْنَعْطِفها علىٰ ما يكون لها تابعا ، ولقواعد المُلْك رافعا ، وذاك أنَّ البلادَ التى أضفْناها اليك : فيها مدنٌ ذاتُ أعمالٍ واسعه ، ومعاقِلُ [ذات] حَصانةٍ مانعه ؛ وكلُّها يفتقر إلى آستخدام الفِكْر فى تدْبيره ، وتصريف الزمان فى تَعْميره ؛ فولِّ وَجْهَك إليها غيْرَوانٍ فى تكثير قليلها ، وترويض مُحِيلها ، وبثّ الأَمَنَةِ علىٰ أوساطها ، وإهداء الغِبْطة إلىٰ أفئِدَة أهلها حتّى تسمع باغتباطها ؛ وعنـد ذلك يتحدّثُ كلُّ منهم بلسان الشّكُور ، ويتمثل بقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور ﴾ .

وآعلم أنه قد يُجاوِرُك فى بعضها جيرانٌ ذُو بِلادٍ وعساكِر ، وأُسرَّة ومنابِر ، وأوائلَ لَلْمجد وأَوَاخِر ؛ وما منهم إلا من يتمسَّك منّا بودٍّ سليم ، وعَهْـدٍ قديم ، وله مساعدة نَعْرِف له حقَّها (والحَقُّ يعرِفُه الكريم) .

فَكُنْ لهؤلاء جارًا يَوَدُّون جِوارَه ، ويحمدون آثارَه ؛ وإن سألوك عهدا ابذُلْه لهم بَذْلَ وفِيٍّ واقفٍ على السُّـنَن ، مساوٍ بين السرِّ والعَلَن ؛ ولا يكُنْ وفاؤُك لخوف تتّقى مَراصِـدَه ، ولا لرجاء ترَقُّب فوائدَه ؛ فاللهُ قد أغناك أن تكونَ إلى المُعاهدة لاجيا ، وجعلك بنا مَخُوفا ومَرْجُوًّا لاخائفا ولا راجيا ؛ وقد زِدْناك فَضْلةً فى محلك تكون بها علىٰ غيرك مُفَضَّـلا ، وقد كنتَ من قبلها أغرَّ فأوْفَتْ بك أغرَّ محجَّلا ؛ وذاك أنَّا جعلناك علىٰ آية الخيل تَقُودها إلىٰ خَوض الغِمار ، وتُصرِّفها فى منازل الأسفار ، وترتِّب قلوبَها وأجْنِحتَها على آختلاف مراتبِ الأطوار ، فنحنُ لانلْقَىٰ عدُوّا ولا ننْهَد إلىٰ

بلدٍ إلا وأنت كوكَبُنا الذى نهتدى بمَطْلَعه، ومفتاحُنا الذى نستفتح المُغْلَق بيُمْن موقعه، ونُوقِن بالنصر فى ذَهَابه وبالغنيمة فى مَرْجِعه؛ والله يشرحُ لك صدْرا، ويُيَسِّر لك منَّا أمْرا، ويشُدّ أزْرَنا بك كما شَدّ لموسىٰ بأخيه أزْرا، والسلام.

الأسلوب الثانى

(أن يُفتتَح التوقيع بالإقطاع بلفظ: «أما بعد فإنّ كذا»)

ويذكُرُ ماسَنَح له من أمر السلطان أو الإقطاع أو صاحبه، ثم يتعرّض إلىٰ أمر الإقطاع، وهو دُون الأسلوب الذى قبله فى الرتبة.

وهذه نسخةُ توقيع بإقطاع من هذا الأسلوب، كُتِب بها لأميرٍ قدم على الدولة فاستخدمَتْه، وهى:

أما بعدُ، فإنّ لكلِّ وَسِيلةٍ جزاءً علىٰ نِسْبة مكانها، وهى تتفاوَتُ فى أوقات وجُوبها ومثاقِيلِ ميزانها؛ ومِن أوجَبِها حقًّا وسيلةُ الهجرة التى طَوَى لها الأمَلُ من شُقَّته ماطَوىٰ، وبَعَث بها علىٰ صِدْق النيّة «ولكُلِّ آمْرِئٍ ما نَوىٰ»؛ فالأوطانُ إليها مُودَعه، والخَطواتُ مُوسَّعه، والوجُوه من بَرْد الليل وحَرِّ النهار مُقَنَّعه؛ وقد توخّاها قومٌ فى زَمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحَظُوا فى الدُّنيا باعتلاءِ المَنَار، وفى الآخرة بعُقْبىٰ الدار، وقُدِّموا علىٰ مَنْ آوى ونَصَر فقال تعالىٰ: ﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ من المُهَاجِرِين والأَنْصار﴾. ثم صارتْ هذه سُنَّةً فيمن هاجَرَ من أقوام إلىٰ أقْوام، وآستبدَل بأنام عن أنام؛ وكذٰلك فعلتَ أيُّها الأميرُ فلان - وفقك الله - وقد تُلُقِّيَتْ هجرتُك هذه بالكَرَامه، وزُخْرِفَتْ لها دارُ الإقامه؛ فما آبتغَيْتَ بها بُغْيةً إلا سُهِّلَت لك فِجَاجُها، أو عاجَ عليك مَعاجُها، وحُمِد لديْك تأوِيبُها وإدلاجُها؛ وأصبحت

وقد وجدتَ خَفضا غِبَّ السُّرى، وخِيطتْ منك الجفُونُ على أمْن الكَرى، وتبوَّأتَ كَنَف الدولة التى هى أمُّ الدُّوَل إذ صِرْتَ إلى القَرْية التى هى أُمُّ القُرى . ونحن قد أدْنيناكَ منَّا إدناءَ الخليط والعَشِير ، ورَفَعْناكِ إلى محلِّ الآختصاص الذى هو المحَلُّ الأثير ، وآخَينا بينَك وبين عَطَايانا كما وُوخِىَ بينَ الصَّحابة النَّبوِيَّة يومَ الغَدير .

هذا ولك وسيلةٌ أخرى تُعَدّ من حِسان المناقب، وتُوصَف بالصِّفات الأطايب؛ وما يُقال إلا أنها من الأطْواد الرَّواس، وأنها تَبْرُز فى اللباس الأحمر وغيرُها لا يبْرُز فى ذلك اللِّبَاس ؛ وهى التى تجعلك بوَحْدتها فى كَثْرة ، ونتأمَّر بها من غير إمْرة ؛ وطالما أطالَتْ يدَك بمَناط البيض الحِداد ، وفرَّجتْ لك ضِيقَ الكَرِّ وقد غَصَّ بهوادِى الجِياد ، وحسَّنَتك العُيون وقد رُمِيتْ منك بشَرَق القَذا ونَبوة السُّهاد ؛ ومن شَرَف الإقْدامِ أن العدُوَّ يُحِبُّ العدوَ من أجْلِه ، ويَضْطرُّه إلى أن يُقِرّ بفَضْله ؛ ومذ وصلْتَ إلينا وصَلْناك بأمرائنا الذين سلفَتْ أيَّامُهم ، وثبَتَتْ فى مَقامات الغَناء أقْدامُهم ؛ وتوسَّمْنا أنك الرجلُ الذى يزكُو لديْك الصَّنيع ، وأنك ستشْفَعُه بحقوق خِدْمتِك التى هى نِعْمَ الشفيع .

وقد عَجَّلْنا لك من الإقطاع ما لا نرضَى أن تكونَ عليه شاكِرا ، وجعلناه لك أوّلا وإن كان لغيرك آخِرا ؛ وهو مُثْبَتٌ فى هذا التَّوْقيع بقلم الديوان الذى أُقِيم لفرْض الجُنْد كتابا، ولمعرفة أرزاقِهم حِسابا، وهوكذا وكذا .

فتناوَلْ هذا التَّخْويلَ الذى خُوِّلتَه باليمين، وآستمسِكْ به آستمْساكَ الضَّنِين .

وآعلم أنه قد كَثُر الحواسِدُ لِما مدَدْناه من صُنْعك ، وبسَطْناه من ذَرْعك ؛ فأشْجِ حلُوقَهم بالسَّعْى لآستحقاق المَزِيد، وآرْق فى درجات الصُّعود وأَرْهِقْهم صَفحةَ الصَّعِيد .

والذى نأمرك به أن [تُعِدّ] نفسك للخدمة التى جُعلت لها قِرْنا وأنت بها أغنى، وأن تنتهى فيها إلى الأمد الأقصى دون الأدنى؛ فلا تضمّ جناحك إلا على قوادم من الرجال لا على خواف، وإذا استُنفِرت فانفر بثقال من الخيل وخفاف؛ وكن مذخورا لواحدة يقال فيها: ياعزائم اغضبى، وياخيل النصر اركبى؛ وتلك هى التى تتظلّم بها الجماجمُ من الضِّراب، وتلاقى فيها عُصَب الغربان والذباب؛ ولا تحتاج مع هذه إلى منقبة تجمّل بتفويفها، وتتكثّر بتعريفها، وتنتمى إلى تليدها باستحداث طريفها.

والله تعالى يشدّ بك أزرا، ويملأ بك عينا وصدرا، ويجعل الفلج مقرونا برأيك ورايتك حتى يقال: «ومكروا مكرا» وجرّدنا بيضا وسُمرا؛ والسلامُ إن شاء الله تعالى.

الأسلوب الثالث

(أن يفتتح التوقيعُ المكتتَب بالإقطاع بما فيه معنى الشجاعة والقتال وما فى معنى ذلك، وهو أدنى من الذى قبله رُتبةً)

وهذه نسخةُ توقيعٍ بإقطاع من هذا النمط، كُتب به لبعض الأمراء الصغار، وهى:

القلم والرمح قلمان كلاهما أسمر، وكما تشابها فى المنظر فكذلك تشابها فى المخبر، غير أن هذا يركب فى عسكر من القول وهذا يحمل فى عسكر؛ وقد نطق أحدهما بالثناء على أخيه فأحسن فى نطقه، وأقرّ له بالفضيلة ومن الإنصاف أن يقرّ لذى الحق بحقه، غير أن هذه الفضيلة تعزى إلى من يقيم أود الساعى بتقويم

أوده، ولا يرى لها سبيلًا قصدا إلا بالوطء على قصده، وهو أنت أيها الأمير فلان أيدك الله ! .

وقد آخترناك لخدمتنا على بصيره، وأجريناك من آعتنائنا على أكرم وتيره، ورفعنا درجتك فوق درجة المعلّى لمن سبقك وإنها لكبيره .

ولم يكن هـذا الآختيار إلا بعد آختبار لا يحتاج معـه إلى شهاده ، ولو كشف الغطاء لم يجد اليقين من زياده؛ فطالما عجمت نبعتك، ويمنت طلعتك، ولم تعرض سلعة الغناء إلا نفقت سلعتك؛ ومثلك من تباهى الرجال بمكانه، وتحلّى له فضلة عنانه ، ويتسع ميدان القول فى وصـفه إذا ضاق بغيره سعة ميدانه ؛ وما يقال إلا أنك الرجل الذى تقذف الجانب المهم بعزمك، وترمى برأيك قبل رماء سهمك ؛ وبك يحسر دجى الحرب الذى أعوزه الصباح، ويحمى عقابها أن يحص له جناح؛ فأسـباب الآعتضاد بك إذن كثيرة الأعداد ، وأنت الواحد المشار إليـه ولا تكثر إلا مناقب الآحاد .

وقد بدأناك من العطاء بما يكون بسم الله فى صـدر الكتاب ، وجعلناه كالغمامة التى تأتى أولا بالقطار ثم تأخذ فى الآنسكاب ؛ وخير العطاء مارب بعـد ميلاده ، وأينع ثمره بعـد جداده؛ وإن صادف ذلك وسائل خدم مستأنفة كان لهـا قرانا ، وصادف الإحسان منـه إحسانا ؛ وقد ضمن الله تعالى للشاكر من عباده مزيدا ، ولم يرض له بأن يكون مبدئا حتى يكون معيـدا ؛ وكذلك دأبه فيمن عرف مواقع نعمه، وعلم أن صحتها لاتفارقه مالم يعدها بسقمه .

ونحن أولى من أخذ بهـذا الأدب الكريم، وألزم نفسـه أن تحلّى بخلقـه وإنه لخلق العظيم ؛ وعطاؤنا المنعم به عليـك لم يذكر فى هذا التوقيع على حكم الآمتنان ،

بل إثباتا لِحساب الجُنْـد الذين هم أعوانُ الدّولة ولا بدّ من إحصـاءِ الأعوان ؛ وهو كذا وكذا .

فامدُدْ له يدًا تجمع من(١) الشُّكر مُواظَبـه ، ومن(١) الطّاعة مُراقَبـه ؛ وكُنْ فى التأهّب للخدمة كالسَّهم الموضُوع فى وَتَره ، وأصغ بسَمْعك وبصرك إلىٰ ما تُؤمَر به فلا آئتمار لمن لم يُصغ بسَـمْعه وبَصَره .

ومِلاكُ ذٰلك كلّه أن تتكثر من فُرْسان الغِوَار ، وحُماةِ الذِّمار ، والذين هم زينةُ سِلْم ومَفْزَعُ حِذَار ، ومثلُ هٰؤلاء لا يضُمُّهم جَيْشٌ إلا تقدّمه جيشٌ من الرُّعْب ، ودارتْ منه الحربُ علىٰ قُطْبها ولا تدُور رحًى إلا علىٰ قُطْب ؛ وإذا ساروا خلفَ رايَتك نُشرت ذوائبُها علىٰ غابةٍ من الآساد ، وخفَقتْ علىٰ بَحْرٍ من الحديد يسِـيرُ به طَودٌ من الجِياد .

ومن أهمّ الوصايا إليك أن تُضيف إلىٰ غَنائهم غِنًى يُبْرزُهم فى زَهْرة من اللِّباس ، ويُعينُهم علىٰ إعداد القُوّة ليوم البأس ، ويُقصّر لديهم شُقّة الأسفار التى تذهَب بنَزَقات الشِّماس ، وينقَطِع دُونَ قَطْعها طُولُ الأنفاس ؛ وأىُّ فائدةٍ فى عسكرٍ يأخذ بعد المَسْرىٰ فى حَوْره ، ولا يزيدُ صَبْرُه بزيادة سَفَره ، ويكون حافِرُه وخُفُّه سواءً فى آنتساب كلٍّ منهما إلىٰ شدّة حَجَره .

فانظُرْ إلىٰ هذه الوصية نظَرَ من طالَ علىٰ صَحْبـه بالكَفّ الأوْسَع ، وعَلِم ما يَضُرُّ فيهـم وما ينْفَع ؛ والله يمنَحُك من لَدُنه توفيقا ، ويَسْـلُكُ بك إلى الحُسْنىٰ طريقا ، ويجعلُك خَليقًا بمـا يُصْلِحك وليس كلُّ أحدٍ بصلاحِه خَليقا ، والسلام .

---

(١) لعله «مع» بدل «من» فى الموضعين .

الطـــرف الثـانى

(ما يُكتَب فى الإقطاعات فى زماننا)

وهـــو علىٰ ضَرْبين :

الضـــربُ الأوّلُ

(ما يُكتَب قبـــل أن يُنْقَل إلىٰ ديوان الإنشـاء)

وفيـــه جملتان :

الجملة الأُولىٰ — فى ابتداء ما يُكتب فى ذٰلك من ديوان الجَيْش .

اِعلم أنّ مَظِنّة الإقطاعات هو دِيوانُ الجيش دُونَ ديوان الإنشاء، وما يُكْتب فيه من ديوان الإنشاء هو فَرْع ما يُكْتَب من دِيوان الجَيْش .

ثم أوّل ما يُكتَب من ديوان الجَيْش فى أمر الإقطاع إما مِثالٌ ، و إما قِصّة ، و إما نزول[1] .

فأما المِثال، فإنه يكتُب ناظرُ الجيش فى نِصْف قائمة شامىّ، بعد ترك الثلثين من أعلاها بياضا، فى الجدْول الأيمن من القائمة ما صُورته :

«خُبْز فلان المتوفَّى إلىٰ رحمة الله تعالىٰ» أو «المرسوم آرتجاعه» أو «المنتقل لغيره» ونحو ذلك . و يكون «خُبْز» سطرا، و باقى الكلام تحتَه سطرا . وتحت ذلك ما صُورته : «عبرة كذا وكذا دينارا» بالقلم القبطى . وفى الجَدْول الأيسر ما صورته :

« بآسم فلان الفلانى » و إن كان زيادة عُيِّن ، ثم يشـمَلُه الخط الشريف السلطانى بما مثاله : «يُكتَب» ثم يكتُب تحته ناظرُ الجيش ما مثاله : «يمتَثِل المَرْسُوم

(١) أى إشهاد بنزول كما يؤخذ من التفصيل الآتى .

الشريف » ويُعيِّنه علىٰ مَن يَختاره من كُتَّاب الجيش، ثم يُترَك بعد ذٰلك بديوان النظر ، ويُكتَب تاريخُه بخطِّ كاتب ناظر الجَيْش بذَيْل المثال ، ويخلّده الكاتب المعيَّن عليه، ويكتُبُ بذٰلك مربَّعة، علىٰ ما سيأتى ذِكْره .

وأما القِصصُ فتختلفُ بحسَب الحال : فتارة يُنهىٰ فيها وَفاةُ من كان بيده الإقطاع، وتارة ٱنتقالُه عنه، وتارةً ٱرتجاعُه، وتارة طلبُ إعادة ما خَرج عنه، وتارةً طلبُ تجديدٍ، ونحو ذلك .

ويكْتُبُ ناظرُ الجَيْش علىٰ حاشيتها بالكَشْف. ويُكْتَب الكشفُ بذَيْل ظاهرها من ديوان الجيش بما مثاله :

« رافعُها فلان أنهىٰ ما هو كذا وكذا ، وسأل كذا وكذا » ويذكُرُ حالَ الإقطاع . ثم يشمَلُها الخطُّ الشريف السلطانى بما مثاله : « يكتب » وباقى الأمر علىٰ ما تقدّم فى ذكر المثال .

وأما الإشهادات فتكون تارةً بالنزول، وتارة بالمقايَضَة، وربَّما وقع ذٰلك بالشركة، ثم يكْتُبُ ناظرُ الجيش علىٰ ظاهر الإشهاد بالكَشْف ، ويُعمَل فيه علىٰ ما تقدّم فى القِصَّة .

الجملة الثانية — فى صورة ما يكتَب فى المربَّعة الجَيْشية .

قد جرتْ عادةُ ديوان الجيش أنه إذا عَيَّن ناظرُ الجَيْش المثالَ أو القصةَ أو الإشهادَ علىٰ أحَدٍ من كُتَّاب ديوان الجيش ، يخلِّد الكاتبُ ذٰلك عنده، ثم تُكتَب به مَربَّعةٌ من ديوان الجَيْش وتكَمَّل بالخطوط علىٰ ما تقدّم، وتجهَّز إلىٰ ديوان الإنشاء، فيعيِّنها كاتبُ السِّرّ علىٰ من يَكْتب بها منشورًا علىٰ ما سيأتى .

وصورة المربَّعة أن يَكْتُبَ فى ورقة مربَّعة، يجعل أعلى ظاهر الورَقة الأولى منها بياضا، ويَكْتُب فى ذيلها معترِضا: آخذا من جهة أسفل المربعة إلى أعلاها أسطرا قصيرةً على قَدْر عَرْض ثلاثة أصابع ما صورته:

«مثالٌ شريف — شرَّفه الله تعالى وعظمه — بما رُسِم به الآنَ: من الإقطاع» باسم من عين فيه من الأمراء أو من المماليك السلطانية بالديار المصرية، أو بالمملكة الفلانية، أو من الحَلْقة المِصرية أو الشامية، أو نحو ذلك «على ما شُرِح فيه حسَبَ الأمر الشريف شرَّفه الله تعالى وعظمه».

وتحت ذلك كلِّه ما صُورته:

«يحتاج (١) الشريف أعلاه الله تعالى».

ثم يَكتُب داخل تلكَ الورقة بعد إخلاء هامِش عَرْض إصبعين البَسْملةَ، وتحتها فى سطرٍ ملاصِقٍ لها: «المرسُومُ بالأمر الشريف العالى، المولَوىّ، السلطانىّ» ثم ينزل إلى قدر ثلثى الصفحة، ويكتب فى السَّطر الثانى بعد البياض الذى تركه على مُسامتة السَّطر الأوّل: «المَلَكىّ الفلانىّ الفلانىّ» بلَقَب السلطنة: كالناصِرىّ، ولقب السلطان الخاص كالزَّينىّ «أعلاه الله تعالى وشرَّفه، وأنْفذه وصرَّفه، أن يُقْطَعَ من يُذْكَر: من رجال الحلْقة بالدِّيار المصرية أو المملكة الشامية أو نحو ذلك، ما رُسِم له به الآنَ فى الإقطاع، حسَبَ الأمر الشريف شرَّفه الله تعالى وعظَّمه».

ثم يكتبُ فى الصفحة الثانية مقابل البسملة: «فلان الدِّين فلان الفلانِىّ، المرسومُ إثباتُه فى جُمْلة رجال الحَلْقة المنصورةِ بالديار المِصْرية أو الشامية، بمقتضى المثال

---

(١) بياض فى الأصل ولعله «إلى الخط الشريف».

الشَّريف أو المرَبَّعة الشريفة المشمولة بالخط الشريف» . ثم يكتب تحتَ السَّطر الأخير فى الوسط ما صورته : « فى السنه كريستا » إن كان جميع البَلَد أو البلاد المقْطَعة لا يُستثنىٰ منها شيءٌ ، أو يكتب : « خارجاً عن المِلْك والوَقْف » أو نحو ذلك «علىٰ ما يقتضيه الحقُّ» .

ثم يكتب تحت ذلك علىٰ حيال السُّطور ممتدًا من أول السَّطر إلىٰ آخره :

« خــبز » .

ثم يكتب تحته : «فلان بن فلانى الفلانى، بحكم وفاته، أو بحكم نزوله برضاه» ونحو ذلك علىٰ عادته ـ ناحية كذا . ناحية كذا . ناحية كذا .

وإن كان فيه نَقْد ونحوه ذكره ، ويستوفى ذلك إلىٰ آخر : « بعد الخط الشريف — شرفه الله تعالىٰ — إن شاء الله تعالىٰ » .

ثم يُؤَرّخ فى سَطْرين قصيرين ويُحضَر إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء، فيعَيِّنه علىٰ مَن يكتُبه من كُتَّاب الإنشاء، علىٰ ماسيأتى بيانُه .

الضـــــرب الثانى

(فيما يُكتَب فى الإقطاعات من ديوان الإنشاء، وفيه خمس جمل)

الجمـــلة الأولى

(فى ذكر آسم ما يُكتب فى الإقطاعات من ديوان الإنشاء)

قد اصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ تَسْمية جميع ما يُكْتَب فى الإقطاعات: من عَالِيها ودَانِيها، للأمراء والجُنْد والعُرْبان والتُّرْكُمان وغيرهم ـ مَنَاشِيرَ، جمع مَنْشـور. والمنشورُ فى أصـل اللُّغة خلافُ المَطْوِىِّ. ومنـه قوله تعالىٰ: ﴿وكِتَابٍ مَسْطُورٍ فى رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾.

وآعلم أن تَخْصيص ما يكتَب فى الإقطاعات باسم المناشير ممـا حدَث الآصطلاحُ عليه فى الدولة التُّرْكية.

أما فى الزَّمَن المتقـدِّم فقد كانوا يُطلِقون آسم المَنَاشـير علىٰ ما هو أعَمُّ من ذٰلك: ممـا لا يَحتاجُ إلىٰ خَتْم: كالمكتوب بالإقطاع علىٰ ما تقـدّم، والمكتوبِ بالوِلاية، والمكتوب بالحمـاية، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك. ورُبَّمـا سمِّى ما يُكْتَب فى الإقطاع مُقاطعةً، وربمـا سمِّى سِجِلًّا وغير ذٰلك.

أما الآنَ فإذا أُطْلِقَت المناشيرُ لا يُفْهَم منها إلا ما يكتَب فى الاقطاعات خاصَّة، وخَصُّوا كلَّ واحدٍ ممـا عداها باسمه، علىٰ ما هو مذكُور فى مواضعه دُونَ ما عداها، ولا مشاحَّةَ فى الآصطلاح بعدَ فَهْم المعنىٰ.

قلتُ: ومن خاصَّة المناشير أنَّهـا لا تُكتَب إلا عن السـلطان مشمولةً بخَطِّه، وليس لغيره الآنَ فيها تصرُّفٌ، إلَّا ما يكتُب فيه النائبُ الكافلُ آبتداءً.

الجملة الثانية

(فى بيان أصناف المناشير، وما يخُصُّ كلَّ صِنف منها: من مقادير قطْع الورق، وما يختصُّ بكلِّ صِنف منها من طَبَقات الأمراء والجُنْد)

اِعلم أنَّ المناشيرَ المصطَلَح عليها فى زمانِنا علىٰ أربعةِ أصناف: يختصُّ بكلِّ صِنف منها مِقدارٌ من مقادير قَطْع الورق .

الصِّنف الأوّل — ما يكتب فى قطْع الثُّلُثين وهو لأعْلَى المراتب من الأمراء .

قال فى "التعريف" : ومن كان مُؤَهَّلا لأن يُكتَبَ له تقليدٌ كان منشورُه من نوعه ومِن دُونِ ذٰلك إلىٰ أدنى الرُّتَب .

قال فى "التثقيف": وفى قَطْع الثُّلُثين يُكْتَب لمقدَّمى الألوف بالديار المِصرية، سواء كان من أولاد السلطان أو الخاصكِيَّة أو غيرهم، وكذٰلك جميعُ النوّاب الأكابر بالممالك الإسلامية، والمقدَّمُون بِدِمَشْق . وكلُّ من له تقليد فى قَطْع الثلثين يكون منشورُه فى قطع الثلثين .

الصنف الثانى — ما يُكتب فى قَطْع النِّصف .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب لأُمَراء الطَّبْلخانات بمصر والشام، سواءٌ فى ذلك الخاصكيَّة وغيرهم . وكذٰلك الأمَراء المقدَّمُون من نُوّاب القِلاع الشامية . وفى معناهم المقدَّمون بحَلَب وغيرها : من نوّاب القِلَاع وغيرهم .

الصنف الثالث — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب لأمراء العَشَرات مطلقًا بسائر الممالك، يعنى مصْر والممالكَ الشامية بجملتها . قال : وكذٰلك الطَّبْلَخانات من التُّرْكمان والأكراد بالممالك الإسلامية .

الصنف الرابع — ما يكتب فى قطع العادة المنصورى .

قال فى "التثقيف" : وفيه يكتب للماليك السلطانية، ومقدّمى الحلقة، ورجال الحلقة . إلا أنه يختلف الحالُ بين المماليك السلطانية، ومقدمى الحلقة، وبين رجال الحلقة بزيادة أوصال الطُّرّة، والإتيان بالدُّعاء المناسب: يعنى أنه يُترك فى طُرّة مناشير المماليك السلطانية ثلاثةُ أوصال بياضًا، وفى مناشير رجال الحلقة وصلان .

قلتُ : ولا فرقَ فى ذلك بين حلْقة مصرَ وغيرها من الممالك الشاميّة .

الجملة الثالثة

(فى بيان صُورة ما يكتب فى المناشير فى الطُّرّة والمتْن)

قال فى "التثقيف" : إن كان المنشور فى قطع الثُّلثين، كُتِب فى طرّته من يمين الورق بغير هامش ما صُورتُه :

«منشورٌ شريفٌ بأن يجْرى فى إقطاعات المَقرّ الكريم» أو «الجناب الكريم العالى الأميرى الكبيرى» وإن كان نائبا زِيدَ بعدها : «الكافلىّ الفلانى» يعنى بلقبه الخاصّ «فلان الفلانى» بلقب الإضافة إلى لقب السلطان: كالناصيرىّ ونحوه . ثم الدعاءُ بما جرتْ به عادتُه دَعوةً واحدة« ما رُسِم له به الآنَ من الإقطاع » ويَشْرح ما تضمّنته المربَّعةُ إلى آخره، فمن ذلك جميعه سطران بقَلَم الثلث .

قال : والأحسن أن يكون آخرُ السطر الثانى الدعاءَ والتتمةُ بالقلم الرِّقاع أسْطُرا قصاراً بهامش من الجانبين، ثم يكتُب فى الوسط سَطْرا واحدًا بالقلمَ الغليظ : «والعدّة» وتحته بالقلم الدقيق «خاصته، ومائة طواشىّ أو تسعون طواشِياً أو ثمانون طواشِـيًا أو سبعون طواشيا » حسَبَ ما يكون فى المربَّعة . ويترك ثلاثةَ أوصال بياضا بما فيه من وصل الطُّرّة، ثم تُكتَب البسملة فى أول الوَصْل الرابع، وبعدها

خُطْبة مفتتحة بالحمد، ويكمّل بما يناسبه ، ثم يقال : « أما بعدُ » ويَذْكُرُ ما ينبغى ذِكْرُه علىٰ نحو ما تقدّم فى التقاليد .

قال فى "التعريف" : إلا أن المناشيرَ أخصر ، ولا وصَايَا فيها .

قال فى "التثقيف" : ثم يذكُرُ بعد ذلك آسْمَه بأن يقول : «ولمّا كان الجناب» وبقيةُ الألقاب والنعوتِ والدُّعاء ـ ولا يُزاد علىٰ دَعْوة واحدة « هو المرادَ بهذه المِدَح ، والمَخْصُوصَ بهذه المِنَح » أو نحو ذلك ـ « آقتضىٰ حسنُ الرَّأى الشريف أن نُخَوّله بمزيد النعم » .

وإن كان المنشورُ فى قَطْع النِّصف كُتِب علىٰ ما تقدّم ، إلا أنه لا يقال : «أن يُجرىٰ فى إقطاعات» . بل إن كان مقدّما بحلَبَ أو غيرها أو طبلخاناه خاصكيا، أو كان من أولاد السُّلطان، كُتِب : «أن يجرى فى إقطاع المجلس العالى أو السامى» . وإن كان طبلخاناه ممّن عدا هؤلاء، كُتِب « منشورٌ شريفٌ بما رُسِم به من الإقطاع للمجلس السامى» والتّتمة علىٰ حكم ما تقدّم من غير فَرْق .

وأمّا ما يكتب فى قطع الثلث فيُكْتَب : «مَنْشُورٌ شريفٌ بما رُسِم به من الإقطاع لمجلس الأمير» .

وأما التجديداتُ فيُكتَب فى طُرّتها : «مَنْشُورٌ شريفٌ رُسِم بتَجْديده بآسم فلان بنِ فلان الفلانى ، بما هو مُسْتقِرٌّ بيَدِه من الإقطاع الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وقت» ويُشْرَح حَسَب ما تضمّنته المربَّعة، ثم يقال : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

وأما الزياداتُ والتَّعْويضاتُ، فقال فى "التعريف" : إذا رُسِم للأمير بزيادة أو تعويض : فإن كان من ذَوى الأُلُوف : كالنُّوّاب الأكابر، ومقدّمى الألوف بمصر والشام، كُتِب له فى قَطْع الثلث الطُّرّةُ على العادة ، وبعد البسملة : « خَرَج الأمرُ

الشريف العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكى، الفلانىّ، الفلانى، ويُدْعىٰ له بما يناسبُ الحالَ «أن يُجْرىٰ فى إقطاعات المقرّ الفُلانىّ أو الجناب الفُلانى». وفى التتمّة نظيرُ ما تقدّم فى المناشير المفتتحة بالخُطْبة، علىٰ ما تقدّم بيانه.

والذى ذكره فى "التعريف": أنه يُكتَب فى ذلك لمقدَّمى الألوف أو مَن قاربهم: «أما بعدَ حمدِ الله».

وإن كان من أمراء الطبلخاناه الصغار فمَن دُونَهم حتَّى جُنْد الحلْقة، كتب له فى قطع العادة: «خرجَ الأمرُ الشريفُ».

قال فى "التثقيف": وكذٰلك الزيادات والتعاويضُ، سواءٌ فى ذٰلك كبيرهُم وصغيرهُم. قال: ويمكن أن يميَّز أميرُ آل فضل فيُكْتَبَ له ذٰلك فى قطع الثلث. قال فى "التعريف": أما إذا ٱنتقل الأميرُ من إقْطاعٍ إلىٰ غيره، فإنه يُكتَب له كأنَّه مبتدَأٌ علىٰ ما تقدّم أوّلا.

وٱعلم أنه لم تَجْرِ العادةُ بأن تُكتَب فى أعلى الطرّة إشارةٌ إلىٰ العلَامة السلطانية، كما يُكتَب فى الولايات الاسمُ الشريف فى أعلىٰ الطُّرّة. قال فى "التثقيف": والسببُ فيه أنَّ العلامةَ لاتخرُج عن أحدِ ثلاثةِ أمور: إما الاسمُ الشريف مفردًا، كما فى الأمثلة السلطانية إلىٰ مَن جرَتِ العادةُ أن تكونَ العلامةُ له الاسمَ الشريفَ، وما يتعلَّق[1] بالتقاليد والتواقيع والمراسيم الشريفة، وأوراقِ الطريق. أو يضافُ إلىٰ الاسم الشريف والدُه، أو أخُوه، وذٰلك ممَّا يتعلق بالأمثلة الشريفة خاصة إلىٰ من جرَتْ عادتُه بأن تكون العلامةُ إليه كذٰلك. وذٰلك بخلاف المناشير فإنّ العلامةَ فيها علىٰ ما جرتْ به العوائدُ، أن يَكتُبَ السلطانُ: «اللهُ أمَلِى» أو «اللهُ وليِّى» أو «اللهُ حَسْبِى» أو «المُلْكُ لله» أو «المِنَّة لله وحْدَه» لا يختلفُ فى ذٰلك أعلىٰ

(١) لعله «وذلك مما يتعلق» الخ.

ولا أدْنىٰ، فلا يُحتاج إلىٰ إشارة بسببها يُنَبه عليها، لأن ترك الإشارة إليها دليلٌ عليها، وإشارةٌ إليها، كما ذكر النحاةُ علاماتِ الآسم والفِعْل ولم يذكروا للحرف علامةً، فصار تركُ العلامة إليها علامةً؛ بخلاف الأمثلة: فإنها تختلف: فتكون العلامةُ فيها تارةً الآسمَ، وتارةً أخوه، وتارةً والده.

الجملة الرابعة

(فى الطُّغْرىٰ[(١)] التى تكونُ بين الطُّرّة المكتتَبة فى أعلى المنشور وبين البسملة)

قال فى "التعريف": قد جرت العادة أن تُكتَب للمناشير الكِبار كمُقَدَّمِي الألوف والطبلخانات طُغْرىٰ بالألقاب السلطانية، ولها رجُل مفرَد بعَمَلها وتحصيلها بالدِّيوان. فإذا كَتَب الكاتبُ منشوراً أَخَذ من تلك الطُّغْراوات واحدةً، وألصقها فيما كَتَب به. قال فى "التعريف": وتكونُ فوقَ وصلِ بياضٍ فوقَ البسملة. قال فى "التثقيف": فَبَعْدَ وصلَيْن أو ثلاثة من الطُّرَّة.

قلتُ: ولم تَزَلْ هذه الطُّغْرى مستعملةً فى المناشير إلىٰ آخر الدولة الأشرفيَّة «شعبانَ بنِ حُسَين» ثم تُرِكَتْ بعد ذلك ورُفِض آستعمالُها وأُهمِلَتْ. ولا يخفىٰ أنه يرِدُ عليها السُّؤالُ الواردُ على الطُّغْرىٰ المكتَتَبة فى أول المكاتبات إلىٰ سائرِ مُلوك الكُفْر من تقديم آسمِ السلطان على البَسْملة، علىٰ ما تقدّم بيانُه فى موضِعه.

وقد تقدّم الآحتجاجُ لذلك بقوله تعالىٰ فى قِصّة بِلْقِيس: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. وأنه يحتمل أن يكون قولُه:

---

(١) نص فى التاج علىٰ أن الطغرىٰ بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء مقصورة كلمة أعجمية آستعملتها العرب.

﴿ إنَّه مِنْ سُلَيمٰن ﴾ حكايةٌ عن قول بِلْقِيس ، ويكونُ ﴿ بسم الله الرحمنِ الرحيم ﴾ هو أوّلَ الكِتاب ، فلا يكون فى ذٰلك حجةٌ علىٰ تقدّم الاسم على البَسْملة . وأنه إنما يَتَّجِه الاحتجاجُ بذٰلك على القَوْل بأنَّ قولَه : ﴿ إنَّه مِنْ سُلَيمٰن ﴾ من كلام سُلَيمان عليه السلام . وأنه إنما قَدَّم اسمَه على البَسْملة وقايةً لاسم الله تعالىٰ ، من حيثُ إنه كان عادةُ ملوكِ الكُفْر أنهم إذا لم يَرضَوْا كتابًا مزَّقوه أو تَفَلُوا فيه ، فجعل اسمَه حالًّا محلَّ الوقاية . ولا شكَّ أنَّ مثلَ ذٰلك لا يَجِيءُ هنا ، لأن المحذورَ فيه مفقود ، من حيث إنَّ هذه المناشيرَ إنما تُلْقىٰ إلى المسلمين القائمِينَ بتعظيم البَسْملة والمُوفِين لها حقَّها . وحينئذ فيكونُ لتركِ استعمالها وجهٌ ظاهرٌ من جهة الشرع ، بخلاف مافى المكاتبات إلىٰ مُلُوك الكُفْر .

واعلم أن هـذه الطُّغْراوات تختلف تركيباتُها باعتبار كَثْرة منتصباتها من الحروف وقلَّتها ، باعتبار كثرة آباء ذٰلك السلطان وقلَّتهم ، ويحتاجُ واضعُها إلىٰ مُراعاة ذٰلك باعتبار قلَّة منتصِبات الكلام وكثرتها . فإن كانت قليلةً أُتِى بالمنتصِبات كما سيأتى بيانُه بقلمِ جليلٍ مَبْسوط ، كمختَصَر الطُّومار ونحوه ، لتَملأ علىٰ قلَّتها فضاءَ الورق من قَطْع الثلثَيْن أو النِّصف . وإن كانت كثيرةً أُتِى بالمنتصِبات بقلمٍ أدقَّ من ذٰلك ، كجليل الثُّلُث ونحوه اكتفاءً بكثرة المنتصِبات عن بَسْطها .

ثم تختلف الحالُ فى طُول المنتصِبات وقِصَرها باعتبار قَطْع الورَق : فتكون منتصِباتُها فى قَطْع النِّصف دُونَ منتصِباتها فى قَطْع الثلثين .

ثم قد اصطلَح واضِعُوها علىٰ أن يجعلوا لها هامِشًا أبيضَ من كلٍّ من الجانبين بقدر إصبعيْن مطبوقَيْن ، وطرّةً من أعلى الوصل قدرَ ثلاثة أصابعَ مطبُوقة .

ثم إن كانت فى قَطْع النصف جُعِلت متنصباتُها مع تصوير الحروف بأسفلها فى الطول بقدر [١] ذراع، وفى العَرْض بقَدْر [١] ذراع .

وإن كانتْ فى قطع الثلثين جُعِل طولُها مقدارَ [١] ذراع ، وعرضها مقدار [١] ذراع . ثم تارةً تكون متنصباتٍ مَحْضةً يقتصر فيها من آسم السلطان على ما هو مذكور من آسمه وآسم أبيه ، وتارةً يجعل آسمُ السلطان وآسمُ أبيه بأعالى المنتصبات فى الوَسَط بقَلَم الطُّومار قاطعًا ومقطوعًا ، بحيث يكونُ ما بين أعلى الآسم وآخرِ أعلى المنتصبات قدْرَ أربعة أصابعَ أو خمسة أصابعَ مطبوقة . ثم إذا ألْصَق الكاتبُ الطُّغْرى ، كَتَب بأسفلها فى بَقية وَصْلها فى الوَسَط ، بعد إخلاء قدر إبهام بياضا ماصُورتُه : «خَلَّد الله سلطانَه» .

وهذه صورةُ طُغْرى منشورٍ بألقاب السلطان الملكِ الناصر «محمدِ بنِ قلاوون» مضمونُها .

«السلطانُ الملك الناصرُ، ناصر الدُّنيا والدِّين ، محمد آبنُ السلطان الشهيد الملك المنصور، سيف الدين قلاوون» .

وعددُ متنَصباتها من الألِف وما فى معناها خمسةٌ وثلاثون منتصبًا بقلَم النِّصف ، وهو بقدْر قلَم الثلثِ الثقيلِ وقدْرِ نصفه .

وترتيبُ متنصباتها [منتصبان] متقاربان بينهما بياضٌ لطيفٌ بقدْر مِرْودٍ دقيق ، ثم منتصبٌ يحفُّه بياضان، كلٌّ منهما أعرضُ من المنتصب الأسودِ بيسير . وبعد ذلك مُنْتصبان متقاربانِ بينهما على ماتقدّم . وكذلك إلى آخر المنتصباتِ، فتُختَم

(١) بياض فى الأصل فى هذه المواضع .

بمنتصبين مُزْدَوِجين ، كما افْتُتِحت بمنتصبين مُزْدَوِجين ، على ما اقتضاه تحريرُ التقسيم ، وهى فى طُول نصفِ ذراعٍ بذراع القُماش القاهرىّ مع زيادةِ نحو نصف قيراط ، وعرْضٍ مثل ذلك . وتحتها فى الوسط بقَلَم الثلث الجليل بعد نحْوِ عَرْض إصبع بياضًا ما صورته : « خلّد الله سلطانه » وهى هذه :



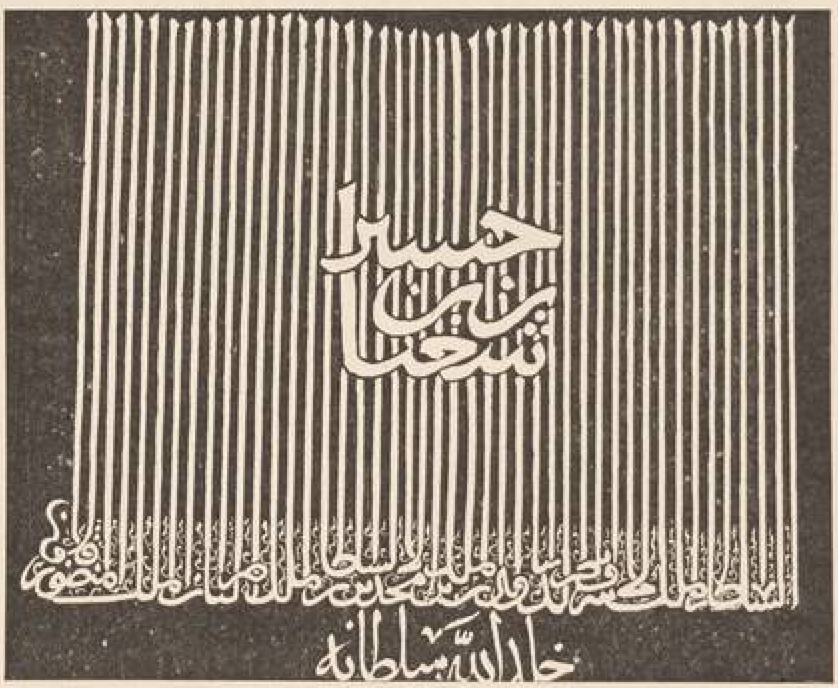
✢

وهـذه نسخةُ طُغْرىْ منشـور أيضًا بألقاب السلطان الملكِ الأشرف شعبانَ بن حُسَين بن الناصر محمد بن قلاوون، مضمونها .

« السلطانُ الملك الاشرفُ ناصرُ الدنيا والدين آبن الملكِ الأمجد آبن السلطان الملك الناصر آبن الملِك المنصور قلاوون » .

وعدد منتصباتها من الألِفات وما فى معناها خمسةٌ وأربعون منتصبًا، بقَلم جليل الثُّلُث، بين كلّ مُنْتصبيْنِ قدْرُ منتصبٍ مرّتين بياضًا، وطولُها ثلثُ ذراع وربعُ ذراع بالذراع المقدّم ذكره، وعرضُها كذلك، واسمُ السلطان بأعاليها بقلَم الطُّومار بالحبر قاطع ومقطوع كما أشار إليه فى التعريف .

مثاله : شعبان بن حسين ـ الشين والعين والباء والألف سَطْر، والنون من شعبان وابن سَطْر مركب فوق الشين والعين، وحُسَين سَطْر مركبٌ فوق ذلك؛ وطُولُ ألف شعبان تقدير سُدُس ذراع، وقد قطعت النون الألفَ وخرجت عنها بقدْرٍ يسير، وأوّلُ الاسم بعد المنتصب السادسِ عشر من المنتصبات، وآخرُ النون من حسين البارزة عن ألف شعبان إلى جهة اليسار بعدها أحدَ عشَر منتصبا من جهة اليسار، وهى هكذا :



الجملة الخامسة

(فى ذكر طرَف من نُسَخ المناشير التى تُكتَب فى الإقطاعات فى زماننا)

قد تقدّم الكلامُ فى الجملة الثالثة علىٰ صُورة ما يُكتَب فى المناشير وما تُفْتَتَح [به] وذكر تَرْتيبها ، وٱختلافِ حالِها باختلاف حال مراتب أصحابها صُعودًا وهُبوطا ، فأغنىٰ عن ذِكْر إعادته هنا .

وٱعلم أن الأحسن بالمناشير أن تكونَ مبتكَرَةَ الإنشاء، ليُرَاعىٰ فيها حالُ المكتوبِ له فى بَرَاعةِ الاستهلال وغيرِها من المناسبات والمُطابَقات . فإن تعذّر ذٰلك فالأحسَنُ أن تكونَ براعةُ الاستهلال منقولة فى الاسم والكُنْية واللّقب ونحوها ليكون ذٰلك أقربَ إلىٰ الغَرَض المطلوب . فإن تعذّر ذٰلك فينبغى أن تكون براعةُ الاستهلال قاصرةً علىٰ معنىٰ الإقطاع وما يَنجرّ إليه من ذكر كَرَم السلطان ومَنّه وإحسانه إلىٰ أخصّائه، وما يَنْخرِط فى هذا السِّلك .

ثم نُسَخ المناشير علىٰ ثلاثة أنواع :

النوع الأوّل

(ما يفتتَح بـ«الحمدُ لله» ، وهو علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(مناشيرُ أولاد المُلوك)

وهذه نسخ مناشِيرَ من ذٰلك :

نُسخة منشورٍ، كُتِب به عن الملك المنصور قلاوونَ لابنه الناصر محمد فى سلطنة أبيه المذكور، من إنشاء القاضى مُحْيِي الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى زيّن سماءَ المُلك بأنورِ كوكبٍ بزغ، وأعزّ مَلِكٍ نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلىٰ ما بلغَ ذوو الأكتهال من آختيار شرفِ الخلال وما بلغ .

نحمدُه حمدًا تزيدُ به النعماءُ وتنمى، وتهمل به الآلاءُ وتهمى؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً خالصةً من كلّ ريْب، واقصةً كلَّ عيْب؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ تعالىٰ بمكارِمِ الأخلاق، ومُعاداة ذوى النّفاق، وساوىٰ بين الصّغيرِ والكبيرِ من أُولى الآستحقاق، فى الإرفاد والإرفاق . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه مارقّ نسيمٌ وراق، وما خُصفتْ أوْراق .

وبعدُ، فإن الهَواتِف أبينُ ما تشدُو، إذا حفّت الرياضُ بها من كلّ جانب، والسماءَ أحسنُ ماتبدُو، إذا تزيّنتْ بالكواكب السيّارةِ والشُّهبِ الثّواقِب، والسعادةَ أحمدُ ما تحدُو، إذا خُصّصت بمَنْ إليه، وإلّا ماتُشدّ الركائب، وعليه، وإلا ماتُثنى الحقائبُ والحَقائب؛ ومَنْ هو للمَلِكِ فِلذة كَبِده، ونورُ مُقْلته وساعِدُ يَدِه؛ ومَنْ تتيمّن السلطنةُ بملاحظة جبينِه الوَضى، وتستنيرُ بالأنور المُضى، ومَنْ تغضَبُ الدنيا لغَضَبِه وتَزْهىٰ إذا رَضى؛ ومن نشأ فى روْض المُلك من خيرِ أصْلٍ زكىّ، وفاحتْ أزاهرُه بأعطرِ أرَجٍ وأطيبِ نَشْرٍ ذكىّ، وطلَع فى سماء السّلْطنة نجمًا ما للنيّريْن ما له من الإضاءه، ويزيدُ عليهما بحُسْنِ الوَضَاءه؛ ومن تشوّفَ النصْرُله من مَهْدِه، وتشوّقَ الظَّفَر إلىٰ أنه يكونُ من جُنْده؛ وآستبشرتِ السلطنةُ بأنْ صارلها منه فرعٌ باسِق، وعِقْد متناسِق؛ وزَنْدٌ وارٍ وجَناحٌ وارِف، وفَخَار تَليدٌ وعزٌّ طارف، وطَرَفان مُعْلَمان تُنْشَر فيهما المَطَارف .

ولهذه المحاسِنِ التى تشرَئبُّ إلىٰ قصْدها آمالُ الخلائق المنتجعة ـ آقتضىٰ حسْنُ البِرّ الوَصُول، وشرفُ الإقبال والقَبُول، أن خرجَ الأمرُ العالى ـ لابرِحتْ مَراسمُه

مترينةً زينةَ السماء بكواكبها، ومُزاحِمةً سَمْكَ السِّماك بمَناكبها – أن يجرى فى ديوان الجناب العالى المَوْلَوِىّ، المَلَكىّ، الناصرىّ ... ...

قلت : كما أنّ هذا المَنْشُورَ منشورُ سلطان فهو فى البلاغة لحُسْن إنشائه سلطانُ المَنَاشير .

الضرب الثانى

(من نسخ المناشير المفتتَحة بالحمدِ مناشيرُ الأمراء مقدّمى الألوف)

وهذه نسخ مناشيرَ منها .

نُسخةُ منشور، كُتِب به للأمير بَدْر الدين بيدرا استادار المَلِك المنصور قلاوون، من إنشاء القاضى مُحْيِى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل بَدْر الدين تمامًا على الّذى أحسَن، وإمامًا تَقتَدِى النجومُ منه بالضِّياء الأبْين والنُّور الأزْيَن، ونظامًا يجمعُ من شَمْل الدُّرى ما يغدُو به حماه الأحمَىٰ وجنابُه الأَصْوَن .

نحمدُه حمدَ مَن أعلىٰ صوْتَه وصِيتَه أعْلَن، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحْدَه لاشريكَ له شهادةً تغْدُو وتبدُو عند الذّبِّ وفى القلب مكانُها الأمكَن، ونشهدُ أنّ محمدا عبدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أوْهَى الله به بِناءَ الشِّرك وأوْهَن . صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبه ورضِىَ عمَّن آمن به وعَمَّن أمَّن .

وبعدُ، فإنّ خيرَ النَّعماء ماأُتِىَ به على التّدرِيج، وأتىٰ كما يأتى الغيثُ بالقَطْر والقَطْر لإنباتِ كل زَوْجٍ بهيج، وأقبل كما تُقْبِل الزيادةُ بعد الزيادة فبيْنَا يُقال : هذا خليجٌ

يَمُدّه البَحْر إذ يقال : هـذا بحرٌ يَسْتَمِدُّ منه كلُّ خَليج ، وبينا يُقال : هذا الأمير، إذ يُقال : هذا المُمير، وبَيْنا يُقال : هذا الهلال، إذ يقال : هذا هو البَدْر المُنِير .

ولَمّا كان فلانٌ من هـذه الدَّوْلة بموضع الغُرّة من الجَبِين ، ومكانِ الرّاحة من اليَمين ؛ وله سوابقُ خِدْمة لا يزاحِمـه أحدٌ فى طُرُق طُروقها، ولا تُستكثَر له زيادةٌ بالنسبة إلىٰ مُوجبَات حقوقها ؛ وهو من التَّقْوىٰ بالمحلّ الأسْمىٰ ، علىٰ غيره من الطُّرّاق، والمكانِ الأحْمى ، الذى مكانُه منه ـ وإن كان أميرَ مجلس ـ صَدْرُ الرُّواق ؛ وله الكرامات التى ترىٰ الخُدودُ لهـا صُعْر ، وكم سَقَتْ من سُم العُدَاة دَافَةَ الذُّعْر ؛ وكم قابلَ نُورُه ناراً فصارتْ بَرْدا وسـلاما ، وكم تكلّم علىٰ خاطر فشاهدَ الناسُ منه شـيْخا من حيثُ الشيبية أجلَّ الله قدْرَه غُلاما ؛ فهو المجاهد للكُفّار ، وهو المتهجِّد فى الأسْحار ، وهو حاكمُ الفُقراء وإن كان سلطانُه جعَله أُسْتاد الدّار ؛ وهو صاحبُ العصا التى أصبح بحمْلها مضافةً إلىٰ السَّـيْف يتشرّف، ومُعْجِزها لايُستكثَر له أنها لكلّ حيّـة تتلقّف ؛ وهو الذى تحمَدُ الكُشوفُ والسُّـيوفُ فُتوحَه وفَتْحَه ، والذى يشْكُر يدَه عِنانُ كلّ سابح وزِمامُ كلّ سُبْحه ؛ وكم أسال بيدَيْه من دِماء الأعداء ماءً جَرىٰ، وعُمِل بين يديْه للفقراء ما جرىٰ، وكَمْ ولىٍّ لله خَفِىَ شخصُه فأظهر مخصَـه فقال الولى : وما أدرى دَرَا لولا بَيْـدَرا ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يحمِّل إحسانُ الدولة القاهرة له عَملا ، وأن يُحْسِن له عَلّا ونَهَـلا ، وأن يختار له إذ هو صاحبُ العصا كما اختار مُوسىٰ قوْمه سبعين رَجُلا .

وخرج الأمر العـالى ـ لا زال ظلُّه ظليلا ، بامتداد الفىء بعـد الفىْء، وعطاؤه جزيلا ، بتنويل الشىْء بعد الشىْء ـ وهو ذُو الكَرم والكرامات ، وصـاحبُ العصا بالأستادارية ولا يُستكثَرُ لصاحبها سحْرُ الحيّات .

وهذه نسخة مَنْشور من ذلك لمن لقبُه سيفُ الدِّين، من إنشاء المَقرّ الشّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جرَّد فى دَوْلتنا القاهرةِ سَيْفا مَاضيا ، ووفّق من جعل فِعلَه لمزيد النِّعَم متقاضِيا ، وأسعدَ بإقبالنا الشريفِ مَنْ أصبح به سلطانُه مُرْضِيا وعيْشُه راضِيا .

نحمدُه على نِعَمه التى تَسُرُّ مُواليا وتسُوءُ مُعادِيا، وتُقدّم من أوليائنا من يقوم مَقامَنا إذا سَمِع منادِيا ؛ ونشهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً كم أرْوَتْ فى مَوارِدِ الوَرِيد من الرِّماح صادِيا ، وأوْرَتْ هادِيا ، ورفعتْ من أعيان الأعلامِ هادِيًا ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أُنزِل القُرآنُ بِصفاته حالِيا ، وأحلّنا ببركة المشاركة فى آسْمِه المحمّدىّ مكانًا عالِيًا . صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا يبرَح كُلُّ لِسانٍ لها تالِيًا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فانَّ صدَقاتِنا الشريفةَ لم تَزَلْ تُجَدِّد إنعاما ، وتزِيدُ إكراما ، وتُضاعف لكلِّ من أضحى ناصِرَنا بحقيقةِ وَلائه إجلالًا وإعظاما ؛ ليترقّى إلى أعلى الدَّرَج ، ويَعْلَمَ أنه قد وردَ البَحْرَ فيُحدِّثُ عن كَرَمه ولا حَرَج ؛ ومَنْ رأى التقربَ إلى الله تعالى بمراضينا الشريفة فتقرَّب إليها ؛ وأقبل بقَلْبٍ مُخْلِص عليها ، وأشبَه البُدورَ فى مَواقفه توسُّما ، وحكَى السَّيفَ بارقُ ثغره لمَّا أومض فى حَوْمة الحرب متَقسِّما ، وأقدَمَ حين لم يجد بُدًا أن يكونَ مُقدَّما ، ووُصفت الطَّعَنات التى أطلعتْ أسِنَّتُها الكواكبَ بها دُرِّيّة ، والحَمَلاتُ التى تُقِرّ العِدَا لفَعَلاتها أنها بَهادِرِيّة ؛ كَمْ له من محاسن ، وكم عُرِفَت له من مَكامِن ؛ وكم له من صِفاتٍ كالعُقُود يَصْدُق بها من قال : الرجالُ معادنُ ؛

كم له من هِمَّة ترقّ به إلى المعالى، كم له من عَزْمة يُرْوَى حديثُها المسنَدُ عن العوالى، كم به أمورٌ تُناط، وكم جُمْهورٌ يُحاط، كم له من احتفاء واحتفال، وكم له من قَبول وإقبال، وكم له من وَثبات وثَبات، وكم له من صفاتٍ وصِفات، وكم له إماتةُ كماة، كم له من مناقبَ تُصْبِح وتُمْسى، وكم له من معارفَ لمَّا علم بها مَالِكه - خلَّد الله مُلكه - قال الملكُ: آئتونى به أستَخْلِصه لنَفْسى.

فلذلك لاتزال آراؤُنا العاليةُ تَعْقِد له فى كلِّ وقتٍ رايَه، وتسعَى به إلى أبْعدِ غايَه، وتُتْبِع له عنايةً بعد عنايه، حتى لا تخلوَ دولتُنا الشريفةُ من سَيْف مَشْهور، وعلمٍ منْشُور، وبَطَل لا يُرَدُّ عن الصَّمِيم تصميما، ولا تَعُدُّ أكابرالأمراء إلا ويكونُ على العساكر مقدَّما وعلى الجيوش زعيما: ليعلَمَ كلُّ مأمور وأمير، وكلُّ مُماثِل ونظير، أنَّ حُسنَ نظرنا الشريف يضاعفُ لمَنْ تقرَّب إلينا بالطاعة إحسانًا، ويُوجب على مَنْ وجدَ الميْسورَ بهذا المنشُور آمتِنانا: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

ولمَّا كان فلان هو المَعْنِيَّ بهذه المقاصد، والمخصوصَ بهذه الممادح والمحامد، والواحدَ الذى ما قُدِّم على الألف إلَّا وكالألف ذلك الواحد.

فلذلك خرج الأمرُ الشريف - لا زالت أيَّامه موصُولةَ الخُلُود، موسومةً بمزايا الجُود - أن يُجرَى فى إقطاعه ....

* * *

وهذه نُسخةُ مَنْشور من ذلك لمن لقبُه «شمس الدين» كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى:

الحمدُ لله الذى جعل دولتنا القاهرةَ مَطْلَع كلِّ قمرٍ مُنير، ومجمَع كلِّ مأمور وأمير، وموْقِع كلِّ سَحابٍ يظْهَر به البرقُ فى وجه السَّحاب المَطير؛ الذى شرَّف بنا الأقدار، وزاد الاقتدار، وجعل ممالِكنا الشريفةَ سماءً تُشرق فيها الشُّموسُ والأقمار.

نحمَدُه على نِعَمه التى تختالُ أولياؤُنا بها فى مَلابِسها، وتختصُّ بنفائسها؛ ونشهدُ أن لا إلَهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تجرِّدُ سيفَ الدِّين لإقامتها، وتُحافِظُ بوقائعه فى الحرب على إدامتها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى خَصَّه بمزيَّة التقريب، وشرفه على الأنبياءِ بالمكان القَرِيب؛ صلَّى الله عليه وعلى آله الذين عَظَّمهم بقُرْبه، وكَرَّمهم بحُبِّه، وقدَّمهم فى السَّلف الصَّالح إذا جاء كلُّ مَلِكٍ بأتباعِه وكلُّ مَلِكٍ بصَحْبِه، وسلم.

وبعدُ، فإن أَوْلى الأولياء أن تشمَلَه صدقاتُنا الشريفةُ بحسن نظرِنا الشريف، وبرِفْعةِ قَدْره المُنيف؛ ليتمَّ له إحسانُها، ويَزِيدَ إمكانُها؛ حتَّى ينتقلَ هلالُه إلى أكمل مراتب البُدُور، ويمتدَّ بحِضْنه المستظِلُّ به كثيرٌ من الجمهور؛ ويتقدَّم فى أيَّامنا الشريفة إلى الغايةِ التى يرجُوها، ويقدِّمَ قَدَمه إلى مكانةِ أمثاله التى حَلُّوها، وتتكمَّلَ بنا نعمةُ الله: ﴿وإنْ تعُدُّوا نِعمةَ الله لاتُحْصُوها﴾ - الناصرىُّ بحقيقةِ ولائه، البَهادرىَّ شجاعةً فى لِقائه؛ مَن تكفَّلتْ صدقاتُنا العميمةُ له بما لم يكُنْ فى أمَلِه، وجمَّلتْ حمايتُنا الشريفةُ مَعاطِفَه بأبهى مما يَنْسِجه الربيعُ من حُلَلِه، وتوسَّمنا فيه من معرفة تُقرِّبُ إلى مراضينا الشريفة بها دَرِيًّا، وهمَّةٍ جرَّدنا بهامنه سيفًا بها دريًّا، وطَلعةٍ أطلعتْ منه بالبَهاء كوكبًا دُرِّيًّا؛ مع ماتخوّل فيه من نِعَمنا الشريفه، وقامَ به فى أبوابنا العالية من أحسَن القيام فى كلِّ وَظيفه.

ولما كان فلانٌ هو الذى أشرْنا إليه، ونبَّهنا مُقَل النجُوم عليه . فاقتضَتْ آراؤنا الشريفةُ أن نبلِّغه أقصىٰ رُتَب السعاده ، ونُعجِّل له بحظِّ الذين أحسنُوا الحُسنىٰ وزيادَه؛ ليُعدَ فى أكابر أمراء دَوْلتِنا الشريفةِ إذا ذُكِرُوا، والمُقَدَّمِين علىٰ جيوشنا المنصورة إذا بادَرُوا إلىٰ مُهِمٍّ شريفٍ أو ٱبتَدَرُوا؛ ليعلَمَ كلُّ أحدٍ كيْف يُجازىٰ كلَّ شَكُور، وكيف يتحلّىٰ بنعمنا الشريفةِ كلُّ سَيْفٍ مشهور ، وكَيْف نذكُرُ واحدا منهم فيغْدُو فى زعماء العساكر المؤيَّدة وهو مذكُور؛ ليبذُلُوا فى خدمة أبوابنا الشريفة جُهْدَهم ، ويتوكَّلُوا على الله تعالىٰ ثم علىٰ صدَقاتِنا العميمة التى تُحقِّق قصْدَهم .

فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ ... ...

وهذه نُسخةُ منشورٍ من ذلك ، كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لقبُهُ «بدرُ الدين» وهى :

الحمدُ لله الذى زَيَّن أُفُق هذه الدَّولة القاهرة بِبَدْرِها ، وسَيَّره فى دَرَج أَوْجِها ونَصْرِها، ونَقَّله فى بروج إشراقها ومنازلِ فَخْرِها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه المُنْهَلَّةِ ببِرِّها ، المتهلِّلة بِبِشْرِها ، المتزايِدةِ كُلَّما زِدْنا فى حمدها وشُكْرِها ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطق بها القلوبُ فى سرِّها وجَهْرِها ؛ ونشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلى الأمم بأَسْرِها . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تملأُ الوجُودَ بأجْرِها ، وتضْمَن لأُمَّتِها النَّجاةَ يوم حَشْرِها .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ من تنعَّمت النُّعمىٰ بتواليها عليه ومَرِّها، وخيرَ من ٱستقرت الخيراتُ عنده فى مستقرِّها، وأعلىٰ مَنْ عمَّمته أَلْسنةُ الأقلام ببدائع نَظْمها ونثْرِها،

وخصّصته بمحامدَ لتأرّج المناشيرُ بنَشْرها ـ من كان للدولة القاهرة يشْرَح صدرَها، بتيسير أمرِها، ويَشُدّ أزْرَها، بحَمْل وِزْرِها، ويتكفّل بأداء فرائض إتمامها ونَصْرِها، ويُوصِّل حمْلَ ما يَفتحُه من الحصون الضَّيِّقة إلى مصْرِها .

ولما كان فلان هو بدْرَ هذه السماء ومُنيرَ زُهْرِها، ونَيِّرَ نجوم هذه المقاصد ومُبْتدأَ فخْرِها، وفريدةَ عِقْد هذه القلائد ويتيمةَ دُرِّها، وصاحبَ هذه الألغاز ومفتاحَ سِرِّها ـ اقتضت الآراءُ الشريفةُ أن تُزَفّ إليه عرائسُ العوارف، ما بين عَوانها وبِكْرها، وتَرِفّ عليه نفائسُ اللَّطائف، ما بين شَفْعها ووَتْرِها، وتتهادَى إليه الهدايا ما بين صُفْرها وحُمْرها، وتتوالى عليه الآلاءُ ما بين ثَمرها وزَهْرها، وأن تزاد عِدّتُه المباركةُ فى كَمِّيّتها وقَدْرها، وأن تُكَمّل عشراتُه التِّسع بعَشْرها، ليُعْلَم أنه لا يبْرَح فى خَلَدها وسِرِّها، وأنها لا تُخْليه ساعةً من سعيد فكْرِها .

فلذلك خرج الأمرُ العالى ـ لا زالت الأقدارُ تخُصّ دولتَه القاهرةَ بإطابة ذِكْرها، وإطالةِ عُمْرها، ولا برِحتِ الأملاكُ كفيلةً بنَصْرها، بمَضاء بِيضها وإعمال سُمْرِها ـ أن يجرى ... ...

✢

وهذه نُسخةُ منشور من ذلك كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لَقَبُه «صلاحُ الدين» وهى :

الحمدُ لله الذى أتْحف المَمالكَ الشريفةَ من سَعِيد تدبيرنا، بصَلاحها، وصَرف حميدَ تأثيرنا، بإنجاب الأَوْلياء وإنجاحها، وأسعَف طَوامحَ أمانيِّهم : من اقترابهم من خواطرنا الشريفة فى بُعْدهم وتَدانِيهم باجابة سُؤالها وإصابة اقتراحها .

نحمَدُه على أن جعل نَصْرَ دولتنا الشريفة قريبا من نُصَّاحها، ونشكُره على أن وصل أراجيهم بإرْباحها، ونشهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُحسن

المآلَ والعاقبةَ لذوى الإخلاص كما أحسنَتْ فى ٱبتدائها وٱفتتاحها، ويُؤْذِنُ حسن ٱعتنائها لأحوال أولى الٱختصاص بإصلاحها؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى عمَّت مَواهبُه، بإبراق سَمائها وإغداق سَماحها، وسَمتْ مناقبُه، بٱئتلاق غُررها وإشراقِ أوضاحها، وأمَّت مواكبُه، ديارَ العدا فشدَّتْ عليهم مَشْهورَ قِراعها ومنصورَ كِفاحها . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أصابتْ أكُفُّهم فى السِّلْم بمسْعِفات أقلامها وصالَتْ أيْديهم فى الحرْب بمُرْهَفاتِ رِماحها، ما جرتِ الأقدارُ بمُتاحها، وسَرتِ المبارُّ لمُتاحها، وظهرتْ آثارُ الإقبال التامّ علىٰ من له بخِدْمتنا ٱهتمامٌ وٱحتفالٌ فَلاح علىٰ مقاصده معهودُ فَلاحِها . وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلى مَنْ لَحَه نظرنا الشريفُ حيثُ كان، ورجَّحه فِكرُنا الحَسَنُ الجميلُ فمنحه الإجمالَ والإحسان؛ من لم يزل شُكْرُه أرِجًا بكلِّ مكان، وذِكْرُه بهجًا تَسْرى به الركائبُ وتَسيرُ به الرُّكبان، وصدْرُه الرحيبُ مستوْدَعَ الأسرار فلا تُصابُ إذ كانتْ فيه تُصان، وقدْرُه عندنا المحفوظَ المكانة، فإنْ بَعُد فهو قريبٌ دان، وأمْرُه منّا الملْحوظَ بالإعانة، فلا نزالُ نُوليه البِرَّ ونُعْلى له الشّان .

ولما كان فلان ... ...

وهذه نُسخةُ منشورٍ، كُتب به للأمير سعد الدين مسْعود بن الخَطيرى، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء، وهو :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى زادتْ سُعودا، وضاعَفتْ صُعودا، وكَرُمت فى أيّامنا مَنْ لاحاجبَ له عَن أن نَمْنَحه من إنعامنا مَزيدا، وقدَّمت بين أيدينا الشريفة من أوليائنا مَنْ غدا قدْرُه عندنا خَطيرًا وحَظُّه لدينا مسْعُودا .

نحمَدُه علىٰ أنْ أنجز لأصفيائنا من وَفائنا وُعُودا ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَحْمَدُ لمُخْلِصها صُدُورا ووُرُودا ، وتَلْقىٰ مُؤمنَها بالبِشْر إذا جمع المَوْقفُ وُفُودا ، ونَشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرَّف بإنجاده مطرودًا ، وأَرْدَف بالملائكة جُنُودا ، وأَوْصَل به حقوقا وأقامَ حُدُودا ، وحَجب ببركاته وفَتكاته الأسواءَ فغَدا العدلُ موجودا ، وأضْحَى الحكمُ مقْصُودا . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَنْ كان بالمؤمنين رحيمًا وعلى المشْرِكين شديدا .

أما بعدُ ، فنِعَمنا إذا أَوْلت وليًّا ، مَنْحَها والَتْ ، وإذا قَدَّمَتْ صفيًّا ، وهَبَتْه مَزيدَها وأنالَتْ ، وإذا أقبلَتْ بوجهِ إقبالها علىٰ مُخْلِص تتابعتْ إليه المَسَرَّات وٱنْثالَتْ ، لا سيَّما من أطابت الألسنةُ الثناءَ عليه وأطالَتْ ، وجُبِلت سَجاياه على العَدْل والمعرفة فما حافَتْ ولا مالَتْ ، وأوصلَتْ رأفَتُه منَّا المستضعَفِين وعلى المجرمين سَطْوتُه صالَتْ ؛ فبِيُمْن مقاصِده هانَتِ الخطوبُ وإن كانت فَتكاتُه فى الحروب كَمْ هالَتْ ، وهِمَمُه فى السِّلم قد جَلَّت ويَوْمَ الرَّوْع كم جالَتْ ، وعزائمُه كم غارَتْ فأغارَتْ وللمعتدِين كَمْ غالَتْ ، وكم سبَقَ إلىٰ خدمتِنا صاحبُ الشمس وكيف لا وهو البَدْرُ ولكنه لم يَزُل وإنْ هى زالَتْ .

وكان فلان هو الذى نَقَّلناه فى دَرَجات التَّقْديم حتّى كَمَل بدرُه ، ووقَّلناه فى مراتب التَّكْريم حتّى أصبَح وهو المسعُود حظُّه المحمودُ ذِكْرُه ، وخوَّلْناه مواهِبَ جُودِنا العميمةَ فاستَدَّ باعُه وٱشتَدَّ أَزْرُه .

فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ - لا بَرِح إنعامُه يَجِلُّ عن الحَصْر ، ودولتُه يخدُمُها العِزُّ والنَّصر ، وإكرامُه يقضِى بمَسَرَّات الأولياء بالجمع ويُفضِى إلىٰ أعمار الأعداء بالقَصْر - ... ...

⁂

وهذه نُسخةُ مَنْشور، كُتِب به لعلاء الدين إيدغمش أمير اخور الناصرىّ [كُتِب به فى الدولة الناصرية] محمد بن قلاوون، من إنشاء الشريف، وهو :

الحمد لله الذى زادَ عَلاءَ دَوْلتنا الشريفه، وأفادَ النَّعماء التامّةَ مَنْ قام بين أيدينا أتمّ قيامٍ فى أتمّ وَظيفه، وأجاد الآلاءَ المتواليةَ بمَنْ أعِنّةُ الجيادِ بإشارته مُصَرَّفَةٌ ومِنّةُ الجود بسِفارته مَصْرُوفه، وأرادَ الاصطفاءَ لأعزّ هُمام : فى قلوب الأولياء له محبّةٌ وفى قُلُوب الأعداء منه خِيفَـه ، وأبادَ أولى العِناد بفَتَكاتِه التى بها الغوائلُ مكفيّةٌ والطّوائلُ مكْفُوفه، وشادَ المُلْكَ الأعزّ بإرفاد وَلِىّ له الشجاعةُ المشكورةُ والطاعةُ المعرُوفه .

نَحمَدُه على أنْ جعلَ اختياراتِنا بالتّسْـديد محفُوظةً وبالتأييد محفُوفه ، ونشهدُ أنْ لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شـهادةً السّرائرُ لإخلاصها ألُوفَـه ، والضّمائرُ على اختصاصِها معْطُوفه، ونشهدُ أنّ سـيدَنا محمّدا عبدُه ورسولُه الذى نَسَـلَه من النَّبْعةِ المُنِيفَه، وأرسَـلَه بالشّرْعة الحَنِيفَه، وفَضّله بالرِّفعة على ظَهر البُراق إلى السَّبْع الطّباق وجُنودُ الأملاكِ به مُطِيفه. صلّى الله عليه وعلى آله ذَوِى الهمم العاليّة والشّيَم العَفِيفه، ورضِىَ الله عن أصحابه الذين لو أنفَق أحدٌ مثـلَ أُحُدٍ ذهَبًـا ما بَلَغ مُدّ أحَدهم ولا نَصِيفَه، صلاةً تُبِيّضُ بالأجُورِ الصَّحِيفه، وتَعوّض بالوُفور من مَبَرّاتنا الجليلة بفِكْرتنا الجميلةِ اللطِيفه، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ ، فكرَمُنا يُسْبِغُ المواهبَ والمَنَائِح ، ونِعمُنا تُبلِّغُ المآربَ والمَناجِح ؛ فلا تَبْرَح تَنْقُل فى درجات الصُّعود مَن هو فى خِدْمتنا لا يُبارِح ، ويتكَفَّلُ صالحُ نظرنا الشريفِ صَلاحَ حال مَن أجْمَلَ النصائحَ وأثّلَ المصالح، فكَمْ راضَ لنا من جامح ، وخاض بَحْرَ الوغَى على ظهرِ سابِح ، وحَمَى رُواقَ الإسـلام من رُعْبـه بذَبّ ورمى

أعناق الكُفَّار من عَضْبِه بذابح ، وأصْمى المَقاتِل بكل نابِل يسْتَجنُّ فى الجَوانح ، وآنتمىٰ إلىٰ سعادة سُلطاننا الناصر الفاتح، وسَما عَزْمُ إعلائه بتقريبه وإدنائه إلى السِّماك الرامح . طالمَا مَسَّ الكفَّارَ الضُّرُّ إذ مَسَّاهم بالعاديات الضَّوابح ، وأَحسَّ كلٌّ منهم بالدَّمار لما ظَنَّ أنه لحَرْبه يُكابِد ولحِزْبه يُكافح ، وصَبَّحهم بإغاراته على المُوريات قَدْحًا فأغرىٰ بهم الخُطُوب الفوادِح ، وطَرَحهم بالفتكات إلى الهَلَكات فصافَحت [رِقابَهم] رِقابَ الصَّفائح، وأَخلىٰ من أهل الشِّرك المَسارِبَ والمَسارِح، وأجْلى أهلَ الإفْك عن المَطارد والمَطارِح .

ولمـَّا كان فلان هو الذى آستنار إليه شَأْنَ هذه المَدَائح، وسار بذِكْره وشُكْره كلُّ غادٍ ورائح .

خرج الأمر الشريفُ ـ لا بَرِح سبيلُ هُداه الواضح، وجزيلُ نَدَاه يَغْدُو كالغَوادى بالعائِد والبادِى من فَضْله وهو الناصح، ... ...

✦
✦ ✦

وهـذه نُسخةُ مَنْشورٍ، كُتِب به للأمير شمسِ الدين سنقر البكتوتى الشهير بالمَسَّاح، وهى :

الحمـدُ لله الذى أجزَلَ المَواهِب ، وجَدَّد من النِّعم ما لا تَزالُ الألْسنـةُ تُحدِّثُ عن بَحْرِها بالعجائب ، وأطْلَع فى أُفُقِ الدولة الشريفـة شمْسا تستَمِدُّ من أنوارها الكواكِب .

نحمدُه علىٰ نِعَم يتوالَى دَرُّها توالِىَ السحائب، ويُغالَى دُرُّها عن أن تُطوِّق(١) به الأذْنَان والتَّرائب، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شـهادةً تختَصُّ قائلَهـا من

(١) المراد بالتطويق هنا مطلق التحلية وكان الأولى «أن تقرط به الأذنان وتطوق به الأعناق وتحلى به الترائب» .

درجات القَبول والإقبال بأسمى الدّرجات وأسْنَى المراتب ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبده ورسوله الذى آصطفاه من لُؤَىّ بن غالب ، وصان بِعْثَته الشريفة رِداءَ النُّسْك عن كلّ جاذب ، وخصّه بأشرف المَواهب ، وصيَّر الإيمانَ بنُور هدايته واضح السُّبُل والمَذاهب . صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا يَمْضى جُزْءٌ من الدَّهر إلا ووُجُودُها فيه وجُودُ الفَرْض الرَّاتب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أحقَّ من حُلِّىَ من النَّعماء بأفضلِ العُقُود ، وخُصّ بأضْفى ملابِس الإقبال وأصْفى مَناهل الإفضال : فاستعْذَبَ من هذه الوُرُود ، وآختالَ من هذه فى أجمل البُرُود ، ومُنح من الإقبال بكلّ غادية تُخْجِل السحابَ إذ يجُود ، وإن رقَمتْ بها الأقلامُ سطورا فى طُرُوس أزْرَتْ بالزَّهَر اليانِع والرَّوض المَجُود ، ونُقِل قَدْرُه من منزل عزٍّ إلى منزل أعزَّ فكان كالشَّمْس تتنقّل فى منازل الشَّرَف والسُّعود — مَن ظهرتْ مكارمُ سِماته ، وآشتهرتْ محاسنُ صِفاته ، وطلعتْ فى سماء العَجاج نُجومُ خُرْصانه ولمعتْ فى دُجى النَّقْع بُروق ظُباته ، وقُدّم على الجُيوش والجَحافل فظهرتْ نتائجُ التأييدِ والتَّسْديدِ من تَقَدُّمه وتَقْدِماته ، وهَزَم جيوشَ الأعداء ، فى مواقف الهَيْجاء ، بثَبات أقْدامه فى إقدامه وثَباته ، وتجرّد فى المُهِمّات والمُلِمّات تجرّد الماضيَيْنِ : من سُيُوفه وعَزَماته .

ولما كان فلانٌ هو الموصُوفَ بهذه الأوصاف الجَليله ، والمنْعوتَ بهذه المَحاسن الجميله ، والمشارَ إليه بهذه المحامِد والمَمادح التى تَزْهُو على زُهْر الكواكب ، وتسمُو بما لَهُ من جميل المآثر والمناقب — أوجَبَ له الآختيارُ المَزِيد ، وقضى له الآمتنانُ بتَخْويلِه نِعمًا وتَنْوِيلِه مِننًا : تُضْحِى هذه عِقْدا فى كلّ جِيد ، وتُمْسى هذه مُقَرِّبةً له من

الآمال كلَّ بعيد — واقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يُمنح بهذا المنشور : ليُخَصَّ من الأولياء بالسعد الجديد والجَدِّ السعيد .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ... ...

⁂

وهذه نسخة منشور، كُتِب به للأمير خاص تُرْك فى الرَّوك الناصرى، وهى :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى سَرَت إلىٰ الأولياء ركائبُها ، وهَمَتْ علىٰ رِياض الأصفياءِ سحائبُها، وتوالَتْ إلى مَنْ أخلص فى الطاعة بغرائبِ الاحسان رغائبُها، وتكفَّلتْ لمن خُصَّ بأسنى رُتَب البِرِّ الحِسانِ مكارمُها العميمةُ ومواهبُها، وغمرتْ بحارُ كَرَمها الزاخرةُ من يُحَدَّث عن شجاعتِه ولا حرجَ كما يُحدَّث عن البُحور التى لا تفنَى عجائبُها .

نحمُده علىٰ نِعَمه التى إذا أغبَّتْنا سحائبُ النَّدىٰ أعقبَتْ سحائب، وخَصَّت الخواصَّ من دَرج الامتنان بمراتبَ تُزاحِمُها الكواكبُ علىٰ نَهْر المجرَّة بالمَناكب ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا يَزال الجهادُ يرفَع ألوِيتَها، والجلادُ يَعمُر بوفُود الإخلاص أنديتَها، والإيمانُ يُشَيِّد فى الآفاق أركانَها الموطَّدةَ وأبنِيتَها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه و رسولُه الذى أيده الله بنَصْره ، وخصَّــه بمزيَّة التَّقدُّم على الأنبياء مع تأخُّر عَصْره ، وآتاه من المعْجِزات ما تَكِلُّ ألْســنةُ الأقلام عن إحصائِه وحَصْره . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حاطُوا دِينَه بالمحافظة علىٰ جهادِ أعدائِه ، وأيَّدُوا ملَّته بإعادة حُكْم الجلاد فى سبيل الله وإبْدائه ؛ صلاةً لايزالُ الإيمـانُ يُقيم فرضَها، والإيقانُ يملأُ بها طُولَ البسيطة وعَرْضَها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن أَوْلَى من ضُوعِفتْ له النِّعم، ووُطِّدت له الرُّتَبُ التى لاتُدْرَك غاياتُها إلا بسوابِق الخِـدَم ، وأشرقَتْ به مطالـعُ السُّعود ، وحُقِّقت له مطالبُ الأعتلاء

والصُّعود، ورفَعتْه مواقعُ الإحسانِ إلىٰ أسنى المراتب التى هو مَلِيٌّ بارتقائها، ونولَتْ له هَوامِعُ البِرِّ والآمتنان آنتقاءَ فرائد النِّعم التى هو حقيقٌ باختيارها وآنتقائها، وبلّغته العِنايةُ بأجلِّ مما مضىٰ قَدْرا، وآستقبلته الرعايةُ من أُفُق الإقبال بما إذا حُقِّق التأمُّل وُجد هلالُه بَدْرا - مَنْ رُبِّيَ فى ظِلِّ خِدْمتِنا التى هى مَنْشأ الآساد، ومَرْبَى فُرْسان الجهاد، وعرينُ لُيوث الوغَىٰ التى آجامُها عَوالِى الصِّعاد، وبراثِنُها مَواضِى السُّيوف الحِدَاد، وفرائسُها كُماةُ أهل الكُفْر وحُماةُ أرباب العِناد، فكَمْ له فى الجهاد من مواقِفَ أعزَّتِ الدِّين، وأذلَّت المُعْتَدِين، وزلزَلَت أقدامَ الأبطال، وزَحْزحتْ ذَوى الإقدام عن مواقِفِ المَجال، وحكَّمتْ صَفَاتَه فى القِمَم، وأنبتَتْ صِفَاحَه فى مَنابت الهِمَم، وفرَّقت ما لأهل الكفر من صُفُوف، وأرتْهم كيف تُعَدُّ أُلُوفُ الرجال بالآحاد وآحادُها بالأُلُوف .

ولما كان فلان هو الذى أُشيرَ إلىٰ مناقبه، ونُبِّه علىٰ شهرة إقدامِه فى كل موقِف يُمْنُ عواقبه، وأُومِئَ إلىٰ خصائص أوصافه التى ما زال النصرُ يلحَظُها فى مَشاهِد الجهاد بعَيْنِ مُلاحِظه ومُراقِبه - آقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُجدِّد آعتلاءَ مَجْده، ونَزيدَ فى أُفُق الآرتقاء إضاءةَ إقباله وإنارةَ سعْده .

فلذلك خرج الأمر الشريف لا زال ... ... :

✢

وهذه نسخةُ منشورٍ كُتب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون لجمال الدِّين أقوش الأشْرَفى، المعروفِ بنائب الكَرَك عند خروجه من الجُبِّ، وهى :

الحمدُ لله مفرّح القلوب، ومُفرّج الكُروب ، ومُبْهِج النفوس بذَهاب غيَاهب الخُطُوب، ومُبلّغ مَنْ تقادَم عَهْدُه فى حفظ ولائنا نِهايةَ المرغُوب، وغايةَ المطْلُوب ؛ الذى أعاد إلى المخْلصين فى طاعتنا النعمةَ بعد شُرودِها، وعوّضهم عن تقطيب الأيّام بابتسامها وعن خُمُولها بسُعُودها ، وألقىٰ على الأُوَل منهم جَمَالا لا يَسَع الأذهانَ أن تتّصف بإنكار حقُوقِه وجُحودِها .

نَحمَدُه علىٰ ما وَهَبنا من الأنَاة والحِلْم ، وخصّ به دولتَنا من المَهابة التى تُخْشىٰ يوم الحرب والمواهِب التى تُرْجىٰ يوم السِّلْم ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكفَّلَتْ بالنجاة لقائِلِها ، وأغنَتْ مَنْ حافظ عليها عن ضَرَاعات النُّفُوس ووسائِلِها ؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ برِعاية الذِّمم ، والمنعوتُ بحُسْن الرأفة التى هى شِعارُ أهل الوفاء والكَرَم ، [صلى الله عليه] وعلىٰ آله وصحبه ما تلافَتِ الأقدارُ نفوسا من العَدم ، وتوافَتِ الأمانىُّ والمَناجِحُ فاظفَرَتْ من أخلص نيّتَه الجميلةَ بردّ ضالّة النِّعَم ، صلاة تُضْفِى على الأولياءِ حُلَل القبُول والرضا ، وتُصْفِى من الأكدار مَناهِلَ سُرورِهم فكأنّ الخَطْبَ أبرق وأوْمَض فمضىٰ ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أوْلىٰ من ٱنتظمَتْ بعد الشَّتَات عقُودُ مَسَارّه ، وٱبتسمَتْ بعد القُطُوب ثُغورُ مَبارّه ، وٱشتمَلَتْ عواطفُنا عليه فجَلَبَتْ أسبابَ منافعه وسلبَتْ جِلْبابَ مَضارّه ، وٱحتفلَتْ عوارِفُنا بالملاحظة لعهْده الوثيقِ العُرا ، والمحافظة علىٰ سالف خدمته التى ما كان صِدْقُ ولائها حديثًا يُفْتَرىٰ ؛ وسبَقَ له من الآختصاص فى الإخلاص ما يرفَعُه من خاطرنا مكانةً عاليةَ الذُّرا ـ من أضحىٰ من السابقين الأوّلِينَ فى الطاعه ، والباذِلين فى أداء الخِدْمة والنّصيحة لدولتنا جُهْدَ الآستطاعه ، والسالكين للماليك بحُسْن الخَلّة وجميل الآعتزام ؛ والمحافظين علىٰ تشييد قواعد المُلْك

بآرائه ورايأته التى لا تُسامىٰ ولا تُسام ، وأمسىٰ هو الولىَّ الذى لا يُشاركه أحدٌ فى إخلاص الضمير فى موالاتنا وصفاء النيَّه ، ولا يُساهمه وَلِىٌّ فيما آشتمل عليه من صِدْق التعبُّد وجميل الطَّوِيَّه ، والمُخْلِصَ الذى انفرد بخصائص الحُقوق السابقة والآنفه ، وآمتازَ بمُوجَبات خِدَمٍ لا تُجْحَدُ محافظتُها التالدةُ والطارِفَه ، وطلعتْ شمسُ سعادته فى سماء مملكتنا فلم يَشِنْها الغُروب ، وأضاء بدْرُه فى أُفُق عزِّه فكان سِرارُه مُذْهِبا لأعْيُن الخطوب .

ولما كان فلان ... ...

الضرب الثالث — مما يفتتح بالحمد مناشيرُ أمراء الطبلخاناه .

وقد تقدّم أنها كمناشير مقدَّمى الأُلوف فى الترتيب إلا أنها أخصَرُ منها .

وهذه نسخ مناشيرَ من ذلك :

نسخة منشور كُتِب به لبعض الأمراء ، وهى :

الحمدُ لله رافعِ الأقدار ، ومُجْزِل المَبَارّ ، وجاعل يمينِ كرمنا مبْسوطةً باليَسَار .

نحمده علىٰ غيثِ فضلِه الدَّارّ ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً سَرَّت الأسْرار ، وأذهب نُورُها ما كان للشرك من سِرَار ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنجدَ له فى نَصْر الحق وأغار ، وأرْهَفَ من سيف النَّصر الغِرَار . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن كان ثانِىَ اثنين فى الغار ، ومنهم مَنْ سبقَتْ له دعوةُ سيد المرْسَلين من سالف الأقدار ، ومنهم من كَرَّم الله وجْهَه فكان له من أعظم الأنْصار .

وبعـدُ، فإنَّ العطايا أيسرُ ما يكونُ تنويلُها، وأسرُّ ما يُلفىٰ تخويلُها، إذا وَجدتْ مَنْ هو لرايتها متلَقِّيا، وفى ذُرَا الطاعة مترقِّيا، ومَنْ إذا صدَحتْ حمائمُ التأييد كانتْ رِماحُه الأغصان، وألوِيتُـه الأفنان ، ومَنْ تردّىٰ ثيابَ الموت حُمْرا فما يأتى لها الليلُ إلا وهى بالشهادة مُخْضَرَّة من سُنْدُس الجنان، وإذا شَهر عَضْبه، أرضىٰ ربَّه، وإذا هزَّ رُمحَه، حمىٰ سَرْحه؛ وإذا أطلق سَهْما، قتل شَهْما؛ وإذا جرّد حُساما، كان حَسّاما؛ وإذا سافرتْ عزائمُه لتَطْلُب نَصْرا، حلَّت سُيوفَه فجاءتْ بالأوْجال جمعا وبالآجال قَصْرا .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى جَمَع هذه المناقبَ الجمَّه، وآمتاز بالصَّرامة وعُلو الهِمَّه، آستَحقَّ أن يُنظَر إليـه بعينِ العِنايه، وأن يُجعلَ آبتداؤه فى الإمْرة دالًّا علىٰ أسـعد نِهـايه .

فلذٰلك خرج الأمر الشريفُ ـ لا زال يرفَع الأقدار، ويُجزِل المَبارّ، أن يُجرىٰ فى إقطاع ... ...

✥

وهذه نسخة منشور لمن لَقَبه زَينُ الدين ، وهى :

الحمدُ لله الذى وَهب هذه الدولةَ من أوليائها أحسَنَ زَيْن، ومنَحها منهم من يَشْكُر السيفُ والعِنانُ منه اليدَيْن ، ومَنْ يملأُ وَلاؤُه القلبَ وثناؤه السَّمْع وبهاؤُه العين .

نحمده علىٰ نِعمه التى نفَتْ عن نُور المُلْك كلَّ شىء من شَيْن، وأبقَتْ له من كُماته وحُماته مَنْ لا فى إخلاصه رَيْبٌ ولا فى محافظتِه مَيْن؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ متبرِّئٍ من اتخاذ إلهَـيْن اثنين ؛ ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه شهادةَ متمسِّكٍ من هذِهِ وهذِهِ بعُروتَيْن . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِهِ وصَحْبـه صلاةً دائمة

ما جمع المسافرُ من الصلوات بينَ الأُخْتين ، وما جلس خطيبٌ بين خُطْبتين، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ خير من رَقى خطيبه إلى أرفع رُتَبه، وأَنجح في تخويل النّعم على كل طَلِبةٍ ورَغبه، لا بل أُهْديت إليه عرائسُ النّعْماء وقد ٱبتدأتْ هى بالخطْبه ، وكُثِّر له فى معروفٍ أصبح ببَذْله معرُوفا ، وأُعِينَ على جُودٍ أمسىٰ به موْصُوفا ، وذُلِّلت له قُطوفُ إحسانٍ كم ذَلَّل الأولياءُ [من أجله] فى مَراضى الدولة ومحابها قطُوفًا فقطُوفا ـ مَنْ خَلَف الملِك أحسنَ الخلَف ، ومَنْ له بفعل الخير أعظمُ كَلَف ؛ ومَنْ يَشْهد له بالشَّجاعة الخَيْلُ واللّيْل والبَيْدَاء، والسيفُ والرمحُ والأعداء، فلا غَزْوةَ إلا له فيها تأثيرٌ وأثَر، ولا نَدْوةَ إلا وبها من وَصْفه بالذكر الجميل سَمَر، تتشوّفُ إلى ملاحظة غُرَّته كلُّ عين ويتبيَّن لحياطتِه فى الوجود كلُّ أثَر، ما أنارَ وجْهُه فى نَهار سلم إلا وقيل الشمسُ ولا بَدَا فى ليلِ خَطْبٍ إلّا وقيل القمَر .

ولما كان فلان هو بدْرَ هذه الهاله ، وجَلّ هذه الجَلاله ، ونُورَ هذه المُقله ، ولابِسَ هذه الحُلّه ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريفِ أن تُكثَّر لديه النّعم وأن يجْرى بتَنْمية الإحسانِ هذا القلم .

فلذلك خرج الأمر الشريف ـ لا بَرِح يجُود، وبالخيرات يعُود ـ أن يجْرى فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيّد دولتَنا القاهرةَ بكل رايةٍ تُعْقَد ، وأميرٍ يُؤمَّر وجنودٍ تُجنَّد ، وكلِّ بطَلٍ إذا جرَّد عَزْمَه سُلِّم إليه المهنَّد، وٱشتَبه الرمحُ بمعاطفه فلم يُدْرَ أيُّهما تأوَّد .

نحمَدُه كما يجبُ أن يُحمَد ، ونمدَحه بما لا يُماثِلُه الدُّرُّ المنضَّد، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له أفضلَ مابه تَشَهَّد، ونصلى علىٰ نبيِّه وعبده سيدنا محمد . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبه فى كل مَقالٍ يتجَدَّد، صلاةً فيها الأقلامُ لا تتردَّد فيما تَرَدَّد ، ورضى الله عن أصحابه وسَلَّم وكَرَّم ومجَّد، ما غَرَب فَرْقَدٌ وطلعتْ شمسٌ ثم ما غربَتْ شمسٌ وطلَع فرقد .

وبعدُ ، فإنَّ لآرائنا العاليةِ المَزِيدَ فى كل ما تقتضيه ، وفى كل مَنْ ترتضيه، من جميع أوليائها، بجميل آلائها ، ممن فاق أبناءَ جنْسه ، وكان فى أمثاله وحيدًا لأنه لا يُوجدُ له نظيرٌ وهو كثيرٌ بنَفْسه ، وتسابقت الخيلُ إلى آرتقائه علىٰ صَهَواتها ، والتطَمَتْ بحارُ الوغىٰ لما ألقىٰ له كلُّ سابحٍ فى غمراتها ، وآفتخرتِ القِسِيّ بمدّه الذى لا تخرج به الأقمارُ عن هالاتها، والسيوفُ لأنه إذا آشتركتْ معه فى لَقَب كان أسْمىٰ مسمَّياتها ، والرماحُ لأنه كَمْ له عليها من مِنّة لما أطْلَقَها فى الحروب من آعتقالِ راياتها؛ وتجدّدتِ الأسنَّة فيمايتلُوه من سُورات الفُرْسان لأنه أكبرُ آياتها، وهو الذى آنتظمَتْ به المَعالى والعَوالِى قَصْدَها الذى به يَرى غمراتِ الموت ثم يَزُورُها علىٰ ما هى عليه من إهالاتها (١) ، مع ماله فى خدمتنا الشريفة من سوابِقَ لا تُجارىٰ فى سبيل ، ولا يَلْحَق لها شأْوًا أشهبُ الصبح ولا أدْهَمُ الليل ولا أشقرُ البرق ولا أصْفرُ الأَصيل . فاقتضت صدقاتُنا الشريفةُ له الإحسان ، وتقاضَتْ عوارِفُنا الحِسان، فرفعَتْ له رتبةً لا يبلُغها كثيرٌ من الناس إلا باللسان ، وكان فلانٌ هو الذى حَسُن وصفا، وشكَرت مساعيه سَجاياه وهو أوْفَرُ وأوفىٰ .

فلذٰلك خرج الأمر الشريف ... ...

---

(١) يريد من هوطها ولكن السجع آضطره إلى أن يجارى العوام فى لغتهم .

⁂

وهذه نسخة منشور، وهى :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى أسْنتِ المَواهِب ، وأغنَتِ الأولياءَ بآلائها عن دَوْم الدِّيَم وسَحِّ السحائب .

نحمده علىٰ غَرائب الرَّغائب ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تتكفَّل لقـائلها ببُلُوغ المآرب ، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى آفتخرتْ باسمه المَناقِب ، وآنتصرتْ بعَزْمه المَقانِب ، وقَهرَ بباســه كلَّ جانٍ وعَمّرَ بناسه كُلَّ جانِب ، وكشفَ اللهُ ببركته اللَّأْواء ، وغلَب بفَتَكاته الأعداء ، وكيف لا وهو سيِّدُ لُؤَىِّ بن غالب . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أذلَّ بجهادهم المُحارِب ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من أعذَبْنـا نَهَلَه ، وأنجحْنا أَمَلَه ، وأجزَلْنا [له] من هِبات جُودِنا [وأغدقنا عليه من مِنَن عطائنا ورِفْدنا ـ من نازل الأعداء يوم الوغىٰ فراح](١) إلىٰ أعلامهم فنكَّسها و إلىٰ أعناقِهم فوَقَصها(٢) ، وحكَّم سيفَه فى أشلائِهم وأرواحِهم : فهذه آقتناها وهذه آقتنَصَها ، ما فَوَّق يومَ الرَّوْع سَهْمَه إلا أصابَ المَقاتل ، ولا شَهَر سيْفَه إلا قَهَر بِبأْسِه كلَّ باسِل ، ولا سارَتْ عِقْبانُ راياتِه إلىٰ معْتَرك الحرب ضُحًى إلا ظُلِّل بعِقْبان طَيْرٍ فى الدماء نَواهِل .

ولـما كان فلانٌ هو الذى يُشِير إليه بَنَانُ هذا المَدْح ، ويَسِير إليـه إحسانُ هذا المَنْح .

(١) زدنا هذه الكلمات لاحتياج المقام اليها .

(٢) فى الأصل "فنكصها" وهو لا يفيد ما يريد .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت ظلالُ كرمه وارِفه، وسَحائبُ نِعَمه واكفه ـ أن يُجْرى فى إقطاعه ... ...

⁂

وهذه نسخة منشور تصلُح لمن مات أبوه، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل سَماءَ كرمِنا، على الأولياء هامِيةَ السَّحاب، وعوارِفَ نعمِنا، جميلةَ العُقْبىٰ للأعقاب، وعواطِفَ أيامنا الشريفةِ تُجْزل العطاء وتَجْبُر المُصاب .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى ما سَخُنت العيونُ إلا أقرَّتها، ولا آكتأبَتِ النُّفوس بمُلمَّة إلا سَرَّتها، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا يزالُ رَبْعُ الأُنس بها معمُورا، وصَدْعُ النَّفس بها مجْبُورا، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أصبح شَعَثُ الإيمان به ملْمُوما، وحِزْبُ الطُّغْيان به مهْزوما، وداءُ البهتان بحُسامه محْسُوما. صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين كان [هو] بَدْرَ السيادة وكانوا نُجوما ، صلاةً لا يَبْرح ذكرها فى صحائف القَبُول مرْقُوما، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من دَرَّت أخلافُ جُودِنا لخَلَفه، ورعىٰ كَرَمُنا خِدَم سلَفه، ونَقَّلنا هلاله من تقريبنا إلىٰ منازل شَرَفه، وأجراه إحسانُنا علىٰ جميل عوائده، وسوّغه نوالُنا أعذَبَ موارِده، وجمع له إنعامُنا بين طارِفه وتالِده، مَن آستمسك من سَبَب إخلاصنا بآكده، وحَذَا فى ولائنا أحسَنَ حذْو ولاغَرْوَ أن يحذُوَ الفتىٰ حَذْوَ والده، وآشتهر بالشَّهامة التى أغنَتْ بمفْردها عن الألوف ، وعُرِف بالإقدام الذى طالما فَرَّق الجموع وآخترقَ الصُّفوف، مادَنَا من الأعداء إلا دنَتْ منهم الحُتُوف، ولا أظلم لَيْلُ النقع إلا جلَتْه أنجُم الصِّعاد وأهِلَّة السُّيوف .

ولما كان فلان هو الممدُوحَ بجميل هذه الشِّيَم، والممنوحَ جزيلَ هذه النِّعم، والشبيهَ في موالاتنا بأبيه ومَنْ أشْبَهَ أباه فما ظَلَمَ .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت سُحُبُ كرمه هاطِلةَ الأنواء، شامِلةَ الآباء والأبناء ـ أن يُجرى في إقطاعه ... ...

النـــوع الثـانى

(من المناشِيرِ مايفتتح بـ«أما بعدُ» ويختصّ بأمراء العَشَرات ومَنْ في معناهم : كأُمَراء العِشْرينات ونحوهم ممَّن لم يبلُغ شأوَ الطَّبْلخانات)

وهى علىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(فى مناشير العَشَرات كائنًا ذٰلك الأميرُ مَنْ كان)

وهذه نسخُ مناشِيرَ من ذٰلك :

نسخة منشور من ذٰلك، وهى :

أما بَعْـدَ حمـدِ الله علىٰ نِعَمِه التى يُبْدِيها ويُعِيدها ، ويُفِيئُها ويُفِيدُها ، ويُديمها علىٰ مَنْ شكر ويَزِيدُها ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى نزلَتْ لنَصْره ملائكةُ السماء وجنودُها ، وأُخِذتْ على الإقرار بنُبوّته مواثيقُ الأملاك وعُهودُها ، وعلىٰ آله وصحبه الذين هم أُمَناء هذه الأمّة وشُهُودُها ـ فإنَّ أحقَّ من تقلَّب فى إنعامنا، وتقدّم فى أيّامنا، وتوالَتْ اليـه آلاؤُنا تترىٰ ، وتكرَّرت عليه نَعْماؤنا مَرّة بعـدَ أُخرىٰ، مَن ظهرَتْ آثارُ خدمتِـه ، وصحّت أخبارُ نَجْدته ، وشُكِرت مَساعيه الجليله ، وحُمِدتْ

دَواعِيه الجميله، وكان له من صِفاتِه الحُسْنَى، ما يُنيله من الدَّرجات الأعْلىٰ ومن المطالب الأَسْنىٰ .

ولما كان فلانٌ ممّن زانَتْه طاعتُه، وقدَّمه إقدامُه وشجاعتُه، وشهِدَتْ له مواقِفُ الحُروب، أنه مُجْلِي الكُروب، وأَقرَّ له يومَ الوغىٰ، بإبادة مَنْ بغىٰ، وكان له مع الشهامة الرأْيُ الثاقِب، والسَّهم الصائِب، يُصِيب ولايُصاب، جَذَعُ القريحه، رابطُ الجأش عنـد تغيُّر الأذهانِ الصحيحه ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن تُرفَعَ درجتُه، وتُعلىٰ رتبتُه، ويُنْظَم فى عقود الأمراء، ويُسْلَك به جادَّةَ الكبراء، لتُرقِّيه فى دَرَج السعاده، وتَبْلُغَ به رُتْبةَ السياده .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت هاميةً غَوادِى آلائه، سابغةً ملابِسُ نَعْمائه ـ أن يُجْرىٰ فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور من ذلك، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى فسَّحتْ فى كَرَمها مجالَ المَطالِب، وفَتَحت لخَدَمها أبوابَ نُجْح المآرِب، وحَقَّقت فى عوارِفها آمالَ من تقرّب اليها من الخِدْمة والطاعة بأنجح ماتقرَّب الراغب إلى الرغائب، والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى زَوَى اللهُ له [الأرض] ليَرىٰ ماتنتهى اليه الكواكب، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آستَسْهلوا فى جهاد أعدائه المَصاعب، ورَمَى الله مَنْ ألْحَدَ فى دينه من سَطَواتهم بعـذابٍ واصب، فإنَّ أَوْلىٰ من تلقَّتـه وجُوه النِّعم السوافر، واستقبلَتْه نِعَم العَوارف التى هى من غير الأكْفاء نَوافِر، وأتَتْه السُّعود المقبله، ووافَتْه الآلاء المُقيمةُ والمستقْبَله، مَنْ صَحَّت شجاعتُه فى مواقف الجهاد المُدْلَهِمَّه، وسَمَحت شهامتُه فى الوغىٰ بمجال السُّيوف المُرْهَفة

لدفع الخطوب المُلِمّه، وأقرّت له أقرانُه بأنه فارسُ هَيْجائها الذى كم كَشَف بأسنّته عن قلوب العِدا للمؤمنين غَمّ غُمّه .

ولما كان فلان هو المشهودَ له بهذه المواقف، المشهورَ بالوُقوف فى المواطن التى يَثْبُت بها وما بالحَتْف شكٌّ لواقف ــ ٱقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف ... ...

✥

وهذه نسخة منشور من ذلك، وهى :

أما بعد حمد الله علىٰ جُيوش كَثَّرها، وجُيُوبٍ للعِدا بالأسِنّة زَرَّرها، وجُنُوب بالنوم علىٰ فُرُش الأمنِ الوثيرةِ آثَرها، والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أيّد اللهُ به الأمة وظَفَّرها، وثبّت مواقِفَه ونصَّرها . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تستمدُّ الأيّامُ والأنامُ من رُقِيّها آصالَها وبُكَرها ــ فإنّ من ورَد البحرَ أغناه بمدّه، ومَنْ تعرّضَ لسُقْيا السَّحاب جادَله برِفْده، ومن جاوَرَ كوكبَ السعد فاضَ عليه من سَعْده، ومن تَيَمّم نادىَ النّدىٰ كان أدنى إلىٰ نيل قَصْده، ومن يَمُتُّ بخدمة كان من حقّه رعايةُ عهْده .

ولما كان فلان هو الذى قَدّم خِدَما شهِدت بها غُرَر الأيّام، ولسانُ كلّ ذابل وحُسَام، وكلّ كَمِىّ لَوَتْ إلىٰ فُؤاده من يده طُيورُ سهام، وجَرَّبناه فحَمِدناه بالتجريب، ودرّبناه حتّى تأهل للتأمير بالتّدْريب، وٱستحقّ المكافأةَ علىٰ ما آثَرَه، وكانتْ له خدمةٌ عندنا كالحسنة له عنها عشَرَه .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ــ لا زال يُمِدّ أولياءَه ويُسعِدهم، ويقرّب أخصّاءَه ولا يُبعِدُهم، أن يُجرىٰ فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور من ذلك، وهى :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعم مَنَحها، وأبوابِ فضلٍ فتَحها، وآمالٍ للأولياء أنجَحها، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى هدَى الله به الأمةَ الإسلامية وأصلَحها — فإن أَوْلىٰ من همَتْ عليه سحائبُ الإحسان، وافتتحَتْه أيامُنا الشريفة بمقـدِّمة كرم تميِّزه بينَ الأقْران — من جعـل الولاءَ له خيرَ ذخيره، وأجمل فيما أسرَّه وأبداه من حُسْن السِّيرة والسَّريره؛ وكانتْ له الطاعةُ التى يُحْسِن فيها الاعتقاد، والشجاعةُ التى ظهرَتْ فى مواقف الحُروب والجهاد، والخـدمةُ التى لم يزَلْ فيها مشْكورَ المساعى، والموالاةُ التى لم يبْرَح عليها مُوَفَّر الدَّواعى .

ولمـا كان فلان ممن له الخـدْمة التى تقضِى بالتقـديم، وتُوجب له علىٰ إحسان دولتنا الشريفةِ رِفعةَ القدر ومَزِيدَ التكريم — اقتضىٰ حسن الرأى الشريف أن نُحِلَّه مراتبَ ذَوى الأمر والإمْره، وننْظِمه فى سلك مَنْ سَرَّه بإنعامه ورَفَع قَدْره .

فلذلك خرج الأمر الشريف لا برِح ... ...

الضـــرب الثـانى

(فى مناشير أولاد الأمراء، وهى كالتى قبلها إلا أنه يَقع التعرُّض فيها إلىٰ الإشادة بآبائهم، وربمـا أُطيل فيها مُراعاةً لهم)

وهذه نسخ مناشير من ذلك :

وهذه نسخة منشور، وهى :

أما بعـدَ حمدِ الله الذى جعل سيْفَ دولتنا للدين المحمَّدىِّ ناصرا، وجمعَ شَمْل أعزِّ الأولياء والأبنـاءِ فى خدمتِنا علىٰ إنعامنا الذى أضحىٰ بينَ الأنام مَثَـلا سائرا،

وأقرّ الأعيُنَ من دَرارِىِّ أصفيائنا بما يفُوق الدَّرارِىَّ التى غدا نُورها فى أُفُقها زاهيًا زاهِرا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أيّده اللهُ من أوليائه بعَشيرته الأقربين، وشدّ أزْرَه من أصحابه بالأبناء والبَنِين، وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا نَزالُ بها فى دَرَج النصر مُرتقين، ولا يَبْرح لنا بها حُسْنُ العاقبة بالظَّفَر على الأعداء والعاقبةُ للمتّقين — فإنّ أنمى الغُروس من كان أصلُه فى دَرْج الوَلاءِ ثابِتًا، وأزهى الثّمرِ ما كان فى أغصان الوفاء نابِتًا؛ وأبهى الأهلّة ما بَزَغ فى سماء الإخلاص، وطلَع آمِنًا من السِّرار والانْتِقاص؛ وأعزّ الأولياءِ مَنْ نشأ فى ظلّ القُرْب والاختِصاص؛ وتلقّى وَلاءَنا عن أبوّةٍ كريمة جمعَتْ له من العَلْياء شَمْل طارفه وتالِده، وحذَا فى عُبوديّتنا حَذْوَ والده، ولا غَرْوَ أن يَحْذُو الفتى حَذْوَ والِده؛ وتحلّى بطريقته المُثْلى فى المُوالاة التى عُدِم له فيها المُضاهى والمُماثِل، ولاحَتْ على أعطافه مخايِلُ الإخلاص فيُعرَف فيه من تلك المَخايِل .

ولما كان فلان هو جوهرَ ذلك السيفِ المشكورِ بالمضاء، عند الانتضاء، ونُورَ ذلك البدْر المشهورِ فى أُفُق العلياء، بالغَناء والسَّناء، كَمْ لأبيه فى خِدْمتنا عند تَزَلْزُل الأقدام من مَواقِف، وكم أسْلَف فى طاعتنا من مُخالَصةٍ عند الاختلاف وهو عليها عاكِف؛ ماتقدّمَ فى كتيبة الإقدام إلا والنّصرُ له معاضِد، ولا جَرّد فى مُهِمٍّ إلا أغنى عما سواه واستَحقّ أن يُنْشد « ولكنّ سيفَ الدّولة اليوْمَ واحِد » .

اقتضى حسْنُ الرأى الشريف أن نُنَضِّد لسعادتهما عِقْدا منضَّدا، وأن نخُصّ كلا منهما بإمرةٍ حتى يَغْدُوَ لنا من هذا والِدًا من أعزّ الأنصار ومن هذا وَلَدًا .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف — لا برِح يَفِرُ لأوليائه، من الإحسان المَدَد، ويُكثّر لأصفيائه، من الأعوان على الطاعة العَدَد، ويشْمل بِرُّه ومعروفُه الوالدَ والولَدَ — .

✦✦✦

وهذه نسخة منشور، وهى :

أما بعدَ حمد الله الذى زَيَّن سمـاءَ دولتنا من دَرَارِىِّ أوليائنا بمَنْ يفوق الدَّرارِىَّ إشْراقا، وأنار مطالِـعَ مَواكِبنا المنصورةِ من كواكب أصْفيائنا بمَنْ يَبْهر العيونَ آئتلاقًا واتِّساقا، وجمع شَمْلَ السعادة لأهـل بيت اتَّسقَتْ عقُودُ وَلائِهم فى طاعتنا فحسُنَت فى جِيد الدَّهرِ انتِظامًا وانْتِساقا، جاعلِ سُـيوف دولتِنا فى مَراضِينا مُرْهَفةَ الغِرَار، مُرْتقِبَةَ الأعداء فما جُرِّدتْ عليهم إلا أرَتْهم مَصارِعَ الآغترار، والشهادةِ له بالوحْدانية التى نَطَق بهـا لسانُ التوحيـد والإقْرار، وجُعِلت وسـيلةً إلى الخلود بدار القَرار؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى أنجده اللهُ من خاصَّته بالأعْوان والأنْصار، ورَفَع لواءَ نُبُوَّته حتّى صار منشُورَ الأعلام فى الأمْصار، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين مَيَّزهم اللهُ بشرف قُرْبه، وجعل للآباء منهم فَضْلَ المَزِيَّة من قَلْبه، ورَفَع أقدارَهم بأن جعل منهم حِبَّـه وٱبنَ حِبِّه — فإن أَوْلىٰ من جُمِـع شمْـلُ السعادة فى إزارِه، ورُفِعت رايةُ الإمارة لفَخَاره، [من نشأ علىٰ إخلاص الولاء] الذى أشبَهَ فيه أباه، [ولمعَتْ] بروق أسِنَّته التى [كم أغمدها فى رقاب عِداه]، كم جَرَّد النصرُ لنا من أبيه سيفًا فى مواقِف التأييـد وأمْضاه، كم زَكَا فرْعُه السامى فى رِياض الإخلاص، وأبْدَر هلالُه المشرقُ فى مطالع الآختصاص.

ولمـا كان فلان هو الذى نَشأ فى خِدْمتنا وَلِيدا، وغُذِّى بلِبان طاعتِنا فأمسىٰ حظُّه سعيدا، وأضحى رأيُه حَمِيدا، ولم يزَلْ لأبيه أعزَّه الله حقوقُ ولاءٍ تأكَّدت أسبابها، ومُدَّتْ فى ساحة الآعتـدادِ أطنابُها، وحَسُن فى وصف محافظتِها إسهابُ الألْسِـنة

(١) زدنا هذه الكلمات لاحتياج الكلام إليها .

وإطنابُها ــ آقتضى حسْنُ الرأى الشريف أن نُرَقِّى هلالَه إلى منازل البُدُور، وأن نُطْلِعَه فى سماءِ عزٍّ باديةِ الإنارة واضحةِ السُّفُور ، وأن نُعْلِىَ من ذٰلك قدْرَه إلى محلّ الإماره، وأن نُتَوِّجه منها بما يكون أعظمَ دليل على إقبالنا وأظهرَ أماره .

فلذٰلك خرج الأمر الشريفُ لازالَ ....

✥

وهذه نسخة منشور، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله على آلائه التى أقرَّت عيونَ أصفيائنا بما خَصَّتْ به آباءَهم من عموم النِّعم، وسرَّت قلوبَنا بما جدَّدتْ لذرارِيِّهم من حُسْن الترقِّى إلى ماينَاسبهم من شريف الخِدَم، وأنشأتْ فى دولتنا الشريفةِ من أولاد خواصِّنا كلَّ شِبلٍ له من الظَّفَر ظُفُر ومن مُسْبَل الذوائب أجم ، وإذا شاهدت الأسودُ الكواسرُ شِدَّةَ وثَباته وثَباته، شهدتْ بأنه أشبهَ فى آفتراس الفَوارس أباه ومن أشبهَ أباه فما ظَلَمَ؛ والصلاة والسلام على سيدِنا محمدٍ الذى ما زال دينُ الله بمجاهدة أعدائه مرفوعَ العَلَم، ونَصْرُ الله باقيا فى أُمَّته يتناقَلُه من الأبناء من كان ثابتَ القَدم من القِدَم، وعلى آله الذين جلَوا بأسِنَّتهم وسُنَّتهم غياهِبَ الظُّلَم ــ فإن أولى من [وُ] طِّدت له درَجُ السعود ليَتوقَّل فى هِضَبِها، ويتنقَّل فى رُتَبِها، ويتَلقَّ بوادِرَ إقبالها، ويترقَّى إلى أسْنَى منازل السعد منها وأيامُ شَبِيبته فى اقتبالها ، ويرفُل فى حُلَل جِدَّتها المُعْلَمَة المَلابس ، ويرتادَ فى رياض يُمْنها الناميةِ المنابتِ الزاكيةِ المَغارِس ــ مَنْ نشأ فى ظلِّ آلائنا ، وغُذِّى بلبان وَلائنا، ولُقِّنَ فُروضَ طاعتنا ناشئا فهو يتعبَّد بحفْظها ، ويَدين بالمحافظة على معناها ولفْظها، وينْقُل عن أبيه قواعِدها وأحكامَها فهو الشِّبلُ آبنُ الليث، والنَّدى الصادرُ عن الغيث ، والفرِنْد المنتسب إلى مَعْدن ولائنا عُنْصرُه، والهلالُ الذى سيُضِىء بإشراق جُودنا عليه نَيِّرُه .

ولما كان فلان هو الذى تَوشَّح عِقدَ هذا الثناء بتَمِينه ، ورُشّح لتناوُل راية الإمارة بيمينه ، وقابل إقبالَ طلْعتنا فأكسبه اشراقُنا إنارةَ جبينه ـ اقتضىٰ حسْنُ الرأى الشريف أن نُنَضِّد عقُود الإحسان بتحلية نَحْره ، وأن نُضْفِى عليه ملابَس جُودنا وبِرّه .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف لا بَرِح ... ...

⁂

وهذه نسخة منشور ، وهى :

أمَّا بعدَ حمد الله منوِّر الأهِلَّة فى آفاقِها ، ومُنَوِّل عوارفه بإرْفاقِها ، ومكمِّل عطاياه بإطْلاقها ، ومنشِئِ ذرَارِىِّ الأوليـاء كالدَّرارِىِّ فى إشْراقها ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى جمع القُلُوبَ بعد افْتراقِها ، وشَفَع فى الخليقة إلىٰ خَلاَّقِها ، وعلىٰ آله وصَحْبه البحُور فى اندفاقِها ، والبُدُور فى ائتلاقِها ؛ فإن أبناء الأولياء أشبالُ الأُسُود ، وعليهم عاطفَتُنا تجُود ، قد أنشأت نِعمُنا آباءهم فأصبحُوا للدولة أنصارا ، وألحقْناهم بهم فى التقديم فأقَرُّوا أبْصارا ، وكان ممَّن ترَعْرَع ناشيا ، وغدَا فرْعا زاكيا ، وتدرَّبَ على الصَّهوات يمتَطيها ، وتأهَّل لحلُول النعم بِرضا مُقْضِيها ، ودلَّت حركاتُه علىٰ أنَّ الشجاعة سجيَّةُ طِبَاعه ، وأنه ترَوَّىٰ بلبان الطاعة من وقْت رَضاعِه ، وأنَّ أباه ، أجلَّه اللهُ أحسنَ مَرْباه ، فأشبهه بجميل اتِّباعه ، وهو فلانٌ المنتخَب فى الدولة الناضره ، المُشْبِهُ فى الاضاءة النجومَ السافِره .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ... ...

النـــوع الثـالث

(من المناشـير مايفتتح بخرج الأمرُ الشريف)

وحكمُها حكمُ أواخر المناشير المفتتحة بالحمدُ لله، وبأما بعـدَ حمد الله، يُقْتصر فيها علىٰ هذا الافتتاح الذى هو آخر المناشير، ويُدْعىٰ له بمـا يناسب .

وهذه نسخة منشور يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

خرج الأمرُ الشريف العالى، المَوْلوىُّ، السلطانى، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانى، (بلقب السـلطنة واللقب الخاص) أعلاه الله تعـالىٰ وشَرَّفه ، وأنفَـذَه فى الآفاق وصَرَّفه، أن يُقْطع باسم فلان، ثم يذكر ما آشتملت عليه المرَبَّعة الجيشية .

قلت : وقد تقـدّم أن مناشـيرَ العُرْبان منها مايفتتح بالحمـدُ لله، ومنها مايفتتح بأما بعدَ حمدِ الله، ومنها مايفتَتح بخرج الأمرُ الشريف ، ومناشير التُّرْكمان والأكراد منها ما يفتتح بأما بعد حمد الله، ومنها ما يفتتح بخرج الأمر الشريف علىٰ ما تقـدّم بيانه؛ ولا يخفىٰ أنَّ الترتيب فى مناشيرهم علىٰ ما تقدّم ذكره فى جميع المراتب إلا أنه قد تمتاز هذه الطوائفُ بألفاظ تخُصُّهم ، لاسِيَّما مناشيرُ العرب فانهم يمتازُون بألفاظ وألقاب تخُصُّهم .

✥

وهذه نسخة منشورٍ لأميرِ عرب مفتتحة بالحمد لله يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

الحمدُ لله الذى أرسـلَ دِيَم كرمنا دائمةَ الإمداد ، وشَمِل بجُودنا كلَّ حاضرٍ وباد، وجعل أيَّامنا الشريفة تخُصُّ بطَوْلها كلَّ طيِّب النِّجار طويلِ النِّجاد .

نحمدُه حمدًا بحِلاه يُزْدان ومن جَداه يُزاد، ونشهد أنْلاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تمَهِّـد لقائلها خيرَ مهاد ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه و رسولُه الكريمُ الأجدَاد

الرحيبُ الناد ، أرسَلَه لإصْـلاح الفَساد ، وإرباح الكَساد ، وكَشْف العناء وإزالة العِناد ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله الذين أرْهَفُوا فى جهاد أعداء الله البِيضَ الحِدَاد ، وأرعَفُوا السُّمْر الصِّعاد ، وعلىٰ أصحابه الذين كانُوا يومَ الفَخَار الساداتِ ويوم النِّزال الآساد ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فانَّ أولىٰ من عمرنا بكرمنا مَرْبَعه ونادِيَه ، وأمطَرْنا ثَرىٰ أمله بغادِيَةٍ مُغادِيَه ، وسَـفَر له وجهُ إحساننا عن واضح أسِرَّته ، وقابله إقبالُه فقدّمه علىٰ قبيلته ومَيَّزه علىٰ أُسْرَته ، مَنْ أخلص فى طاعتنا ضميرا ، واتَّبع جادَّة مُوالاتِـنا فأصبح بتجـديد نِعَمِنا جديرا ، وحَذَا فى خدمتنا أحسَنَ حَذْو ، وعُرِف بجميل المخالَصة فى الحَضَر والبَدْو ، وآشتهر بالشَّجاعة التى طالمَـا فَرَّقتْ جمُوعا ، وأقفَرت من الأعداء رُبُوعا ، وآتصَف بالإقدام الذى ماألِف عن محاربٍ رُجوعا ، كَمْ أنهَل مثقَّفاتِه فى دماء النُّحور ، وأشرَع صِعادَه فأوْرَدَها الأوردةَ وأصدَرها فى الصُّـدور ، ورَفَع من أسنتها فى ليل النَّقْع نارًا قِراها لحُومُ العِدا وأضيافُها الآسادُ والنُّسور .

ولمـا كان فلان هو المَمْنوحَ هـذا الإنعام الغَمْر ، والممـدُوحَ فى مواقف الحروب بإقدام عَمْرو .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لابرِحت شاملةً مواهبه ،هاملةً سحائبُه ـ أن يجرىٰ فى إقطاع ... ...

أما الزياداتُ والتعويضاتُ فإنهـا ان آفتُتِحت بأما بعـد فعلىٰ ماتقدّم فى أُمَراء العشرات إلا أنه يقـال «أن يُجرىٰ فى اقطاعاتِ» على الجمع ، وإن آفتتحتْ بمَخرَج الأمر الشريفُ ، فعلىٰ ما تقـدّم فى إقطاعات الأجناد إلا أنه يقال « أن يجرىٰ » ولا يقال أن يُقْطَع .

المقالة الثامنة

[فى الأيمان]، وفيها بابان

الباب الأول

فى أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض فى الأيمان، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما يقع به القسم، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فى الأقسام التى أقسم بها الله تعالى فى كتابه العزيز)

إعلم أنه قد ورد فى القرءان الكريم أقسام أقسم الله تعالى بها إقامة للحجة على المخالف بزيادة التأكيد بالقسم، وهى على ضربين:

الضرب الأول — ماأقسم الله تعالى فيه بذاته أوصفاته والمقصود منه مجرد التأكيد.

وقد ورد ذلك فى مواضع يسيرة من القرءان:

منها قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾. وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾. وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

ومنها قوله تعالىٰ : ﴿ يسٓ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴾ . وقوله : ﴿ صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ ﴾ . وقوله : ﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ . وقوله : ﴿ حمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾.

الضرب الثانى — ما أقسم الله تعالىٰ فيه بشَىْءٍ من مخلوقاته ومَصْنُوعاته . والمقصود منه مع التأكيد التَّنْبِيهُ علىٰ عَظِيمِ قُدْرته وجلالة عظمته، من حَيْثُ إبداعُها، تعظيماً له لا لها .

وقد ورد ذلك فى مواضعَ كثيرةٍ من القُرءان ، لاسيَّما فى أوائل السُّوَر : فأقسم تعالىٰ بالسَّماء والأرض ، والشَّمس والقمَر ، والنُّجوم والرِّياح ، والجبال والبِحار ، والثِّمار واللَّيل والنهار، وما تفرّع عنهما من الأوقات المخصوصة، وبالملائكة الكِرام المُسَخَّرين فى تَدْبير خَلْقه، إلىٰ غير ذلك من الحيوان والثِّمار وغيرها . وقيل المراد فى القَسَم بها وقت كذا .

فأمَّا مافى أوائل السُّوَر فقال تعالىٰ : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ . وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ . وقال جلَّتْ عَظَمتُه : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾. وقال: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾. وقال : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ . وقال : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ . وقال : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ . وقال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ . وقال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ . وقال : ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ ﴾ . وقال : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهارِ إذا تَجَلَّىٰ وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى ﴾ . وقال : ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إذا سَجَىٰ﴾ . وقال : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وهذا البَلَدِ الأَمِينِ ﴾ . وقال : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .

وأقسمَ بالملائكة القائمين في عبادته ، والمُسَخَّرِينَ في تدبير مخلوقاته في قوله : ﴿والصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِراتِ زَجْرًا﴾ . قيلَ المراد بالصَّافَّات : الصَّافُّون صُفُوفا ، و بالزَّاجرات الملائكةُ التي تَزْجُرُ السَّحاب . وفي قوله : ﴿فالمُقَسِّماتِ أَمْرًا﴾ . قيل : المراد الملائكةُ التي تُقَسِّم الأرزاقَ على الخلق . وفي قوله : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ . قيل : النازعاتُ الملائكة تَنْزِع رُوحَ الكافر عند المَوْت ، والناشطاتُ تَنْشِطُ رُوحَ المؤمنِ كما يُنْشَطُ العِقالُ من يَدِ البَعير . وقوله تعالى : ﴿والمُرْسَلاتِ عُرْفًا فالعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِراتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إذا يَسْرِ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَما وَلَدَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ والشَّمْسِ وَضُحَاهَا والقَمَرِ إذا تَلاهَا والنَّهارِ إذا جَلَّاها واللَّيْلِ إذا يَغْشَاها والسَّماءِ وَما بَنَاها والأَرْضِ وما طَحَاهَا وَنَفْسٍ وما سَوَّاها ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ والتِّينِ والزَّيْتونِ وطُورِ سِينِينَ وهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ والعَادِيَاتِ ضَبْحًا فالمُورِيَاتِ قَدْحًا فالمُغِيراتِ صُبْحًا﴾ . وقوله تعالى : ﴿والعَصْرِ إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (١) . أقسم بالعصر وهو الدهر .

وأما في أثناء السور فمنه قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ . وقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ والمَغَارِبِ﴾ . وقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ واللَّيلِ وما وَسَقَ والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ ﴾ .

(١) من أوّل قوله تعالى : والفجر الى قوله تعالى : والعصر إن الانسان لفي خسر ليس من القسم بالملائكة ، وقد تقدّم بعضه قبل أسطر ، فاعادته هنا سهو .

الطـــــرف الثانى
(فى الأقسامِ التى تُقسِم بها الخَلْق ، وهى على ضربين)

الضَّــرب الأوّل
(ما كان يُقْسَمُ به فى الجاهليَّــة)

اِعلم أنَّ مَبْنَى الأَيْمانِ على الحلَف بما يُعظِّمُه الحالِفُ ويتحرَّز من الحِنْثِ عند الحلِف به . فأهلُ كلِّ مِلَّة يحلِفُون بما هو عظيمٌ لَدَيْهم فى حكم دياناتهم . ولا خَفاءَ فى أنَّ كلَّ معترِف لله تعالى بالرُّبوبيَّة من أهْلِ الديانات يَحلِفُ به ، سواء كان من أهْلِ الكِتاب أو مُشْرِكًا، ضرورة اعترافهم بأُلوهيَّته تعالى ، والانقيادِ إلى رُبُوبيَّته .

وقد حكى اللهُ تعالى عن الكُفَّار فى القرءان الكريم رعايةَ القَسَم بالله فقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها ﴾ . وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ إِيمَانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُم نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ ﴾ . وقال جلَّ من قائلٍ : ﴿ وأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانهم لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوت ﴾ .

ثم اليهود يحلفون بالتَّوراة ، والنَّصارى يحلِفُون بالإنجيل ، وعَبَدةُ الأوْثان من العَرَب كانوا يحلفون بأوْثانِهم ؛ وكان أكثرُ حَلِف عَرَب الحجاز باللّاتِ والعُزَّى . وربما جَنَحُوا عن صورة القَسَم إلى ضَرْبٍ من التعليق . مثل أن يقولَ : إن فعلتُ كذا فعليّ كذا ، أو فأنا كذا ، أو فأكونُ مخالفًا لكذا أو خارجًا عن كذا أو داخلًا فى كذا ، وما أشبه ذلك .

وقد كانت العرب تأتى فى نَظْمها ونَثْرها [عند] حَلِفها بالتَّعليق بإضافة المكروه إلىٰ مواقعة مايَحذَرُونَه : من هلاك الأنفُسِ والأموالِ، وفَسَادِ الأحوال، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك .

قال الجاحظ : قال الهيثم : يَمِينٌ لا يحلِفُ بها أَعرابىٌّ أبدا ، وهى أن يقولَ : لا أَوْرَدَ اللهُ لك صَافيا ، ولا أَصْدَر(١) لَكَ وَارِدا ، ولا حَطَطتَ رَحْلَك ، ولا خَلَعْتَ نَعْلَك ، يعنى إن فعلت كذا .

وقال النَّابغةُ الذُّبْيانِىُّ :

مَا إنْ أَتَيْتُ بِشَىْءٍ أنتَ تَكرَهُه * إذًا فلا رَفَعَتْ سَوْطى إلىَّ يَدى

وقال الأشتَرُ النَّخَعِىُّ :

بَقَّيْتُ وفْرِى وٱنْحرفْتُ عن العُلَى ، * ولَقِيتُ أضْيَافِى بوَجْهِ عَبُوسِ !

إنْ لم أَشُنَّ على ٱبْنِ حَرْبٍ غَارةً * لم تَخْلُ يومًا من نِهابِ نُفُوسِ !

وقال معد[ان](٢) بن جَوَّاس الكِنْدِىّ :

إن كان مَا بُلِّغتَ عَنِّى ، فَلَامَنى * صَدِيقِى وشَلَّتْ من يَدَىَّ الأَنَامِلُ !

وكَفَّنْتُ وَحْدِى مُنْذِرًا بِرِدَائِه * وصَادَفَ حَوْطا من أَعادِىَّ قَاتِلُ !

وقال عَدِىُّ بنُ زَيْد :

فإن لم تَهْلِكُوا فثَكِلْتُ عَمْرا * وجانَبْتُ المُرَوَّقَ والسَّمَاعا !

ولا مَلَكَتْ يَدَاىَ عِنَانَ طِرْفٍ * ولا أبصرتُ من شَمْسٍ شُعاعا !

---

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب «صادرا» كما يقتضيه المقام .

(٢) زيادة الألف والنون من ديوان الحماسة .

ولا وَضَعَتْ إلىّ علىٰ خَلاءٍ * حَصَانٌ يومَ خَلوتِها قِنَاعا!

وقال عمرو بن قَمِيئة :

فإن كان حَقًّا كما خَبَّروا * فلا وَصَلَتْ لى يَمِينٌ شِمالا

وقال العلوىّ البصرىّ :

ويقولُ للطَّرْفِ اصْطَبِر لشَبَا القنا * فهَدَمتُ رُكْنَ المَجْدِ إن لم تُعْقَر!

وإذا تأمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ طارِقًا * متَسَرْبِلًا سِرْبالَ لَيْلٍ أغْبَرَ!

أَوْمَا إلىٰ الكَوْماءِ هذا طارِقٌ * عَزَّتْنِىَ الأعداءُ إن لم تُنْحرِى!

وقال محمد بن الحصين الأنبارىّ :

ثَكِلَتْنِى التى تُؤَمِّلُ إدْرَا * كَ المُنَىٰ بِى وعاجَلَتْنِى المَنُونُ!

إنْ تَوَلَّى بظُلْمِنا عَبْدُ عَمْرٍو * ثم لم تلفِظِ السُّيوفَ الجُفُونُ!

الضرب الثانى

(الأقسام الشرعية)

والمرجوع فيه إلىٰ صيغة الحَلِف وما يُحلَف به .

فأما صِيغةُ الحَلِفِ ففيه صَرِيحٌ وكِنَاية : فالصريح يكون مع الإتيان بلفظ الحَلِفِ، كقوله : أحلفُ بالله لأفعلَنَّ كذا، وأُقسِم بالله لأفعلَنَّ كذا، [و]مع الإتيان بحرف من حروف القَسَم : وهى الواوُ كقوله : والله، والباءُ الموحدة كقوله : بالله لأفعلَنَّ كذا، والتاءُ المثناة فوقُ كقوله : تالله لأفعلنَّ كذا . وقد ورد القَسَم فى القرءان الكريم بالواو، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لم تَكُنْ فِتْنَتُهم إلَّا أنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ .

وبالتاء المثناة : كما فى قوله تعالىٰ حكايةً عن الخليل عليه السلام : ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ . وقوله حكايةً عن إخوة يوسف عليه السلام خطاباً لأبيهم : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ . وقوله حكايةً عنهم فى خطاب يوسف عليه السلام : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ . فإذا أتىٰ باليمين بصيغة من هذه الصِّيَغ آنعقدت يمينُه نوى اليمينَ أو لم ينْوِ .

والكِنايةُ كقوله بِلَّا ، بحرف القَسَم وبِاللّه ، ولعمرُ اللهِ ، وآيم اللهِ ، وأشْهدُ بالله ، وأعزم بالله . فإذا أتىٰ بصيغة من هــذه الصِّيَغ ونوى اليمينَ آنعــقدت وإلا فلا . وفى معنىٰ ذلك تعليقُ آلتزام فعْلٍ أو تركه ، بشَرْط أن يكونَ ذلك قُرْبةً ، كقوله : إن فعلت كذا فعلىّ نَذْرُ كذا ، أو يكونَ كفّارةَ يمينٍ ، مثل أن يقولَ : إن فعلتُ كذا فعلىّ كفّارةُ يمينٍ .

وأما ما يُحْلَفُ به فهو علىٰ أربعة أصناف :

الصنف الأوّل — آسمُ الله تعالىٰ الذى لايُشارِكه فيه غيره ، وهو اللهُ والرَّحمٰن . ولا نزاع فى آنعقاد اليمين به بكلّ حالٍ إذ لا ينصرِفُ بالنّية إلىٰ غيره ، قال تعـالىٰ : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ : أى هل تعلم أحدًا تسمّى اللهَ غيرَه . وقال جلّ وعزّ : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ . فجعل آسمَه الرحمنَ قرينًا لآسمه اللهِ . ولا عِبرةَ بتَسْمية مُسَيْلِمةَ الكذّاب ـ لعنه الله ـ نَفْسَه رَحْمٰنَ اليمامة تجهُّرمًا ، إذ لم يَتَسمَّ به إلا مقيَّدًا بإضافته إلىٰ اليمامة . وكذلك الأَزَلُ[1] الذى ليس قبله شىءٌ .

(١) لعل الأولى "الأزلى" .

الصنف الثانى — اسم الله تعالى الذى يسمَّى به غيرُه على سبيل المجاز، وعند الإطلاقِ ينصرفُ إلى الله تعالى: كالرَّحيم، والعَليم، والحَليم، والحَكيم، والخالِق، والرَّازِق، والجَبَّار، والحَقّ، والرَّبّ. فإن قُصِد به الله تعالى انعقدت اليمينُ، وإن قُصِدَ به غيره فلا تنعقِد، ويُدَيَّن الحالِفُ.

الصنف الثالث — مايستعملُ فى أسماء الله تعالى مع مُشاركة غيره له فيه: كالمَوْجود، والحَىّ، والنَّاطِق، ولا تنعقد به اليمين، قصد الله تعالى أو لم يقصد: لأن اليمينَ إنَّما تنعقدُ بحُرْمة الاسم، وإنما يكون ذلك فى الخاصّ دون المُشْتَرك.

الصنف الرابع — صفات الله تعالى. فإن كانت الصِّفَة المحلوفُ بها صفةً لذاته كقوله: وعَظَمةِ الله، وجَلالِ الله، وقُدْرةِ الله، وعِزَّةِ الله، وكِبْرِياءِ الله، وعِلْمِ الله، ومَشيئةِ الله، انعقدت اليمين وإلّا فلا. ولو قال: وحَقِّ اللهِ، انعقدت اليمين عند الشافعىّ ومالك وأحمدَ رحمهم الله. وذهب أبو حنيفة إلى أنها لاتنعقدُ: لأنَّ حقوقَ الله تعالى هى الطاعات، وهى مخلوقة، فلا يكون الحلف بها يمينا. ولو قال: والقُرءان انعقدت اليمينُ عند الشافعىّ رضى الله عنه خلافًا لأبى حنيفة.

وقد كان أكثرُ حَلِفِ النّبىّ صلى الله عليه وسلم بقوْله: «والذى نَفْسى بِيَدِه» وأيمانُ الصحابة فى الغالب: ورَبِّ محمدٍ، ورَبِّ إبراهيم. وعن ابن عمرَ رضى الله عنهما أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كثيرا مايحلفُ: «لا ومُقَلِّب القُلُوب».

ثم اليمينُ الشَّرعية التى يحلِّفُ بها الحُكّام: إن كان مُسْلِمًا أحْلِف بالله الذى لا إله إلا هُوَ، عالم الغَيْب والشَّهادة، الذى أنزلَ القُرءانَ على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. وإن كان يَهُودِياً أحْلِف بالله الذى أنزلَ التّوراةَ على مُوسى ونجّاه من الغَرَق. وإن كان نَصْرانيا أحْلِف بالله الذى أنزل الإنْجيلَ على عِيسَى بنِ مَرْيَم.

الفصـــل الثانى

من البـاب الأوّل من المقـالة الثـامنة

(فى بيان معنى اليمين الغَمُوس، ولَغوِ اليمين، والتَّحذيرِ من الحِنْثِ والوقوعِ فى اليمين الغَمُوس، وفيه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فى بيان معنَى اليمين الغَمُوس، ولَغْوِ اليمين)

أما معناها[1]، فقال الشافِعىّ رضى الله عنه : هى أن يكونَ الحالِفُ فى خَبَره كاذبا . وقال غيره : هى أن يحلِفَ علىٰ مَاضٍ[2] وإن لم يكُنْ، وهما متقاربان . وإنما سُمِّيَتِ الغَمُوسَ لأنّها تَغمِسُ صاحِبَها فى الإثم .

وقد آختلِف فى وجوب الكَفَّارة فيها : فذهبَ الشافِعىُّ رضى الله عنـه إلىٰ وجوب الكَفَّارة فيها تغليظا على الحالف، كما أوجب الكفارة فى قتْل العَمْد، وهو مـذهب عَطَاءٍ والزُّهْرِىّ وآبنِ عُيَيْنَـة وغيرهم . وذهب أبو حنيفـة ومالكٌ وأحمدُ رضى الله عنهم إلىٰ أنه لا كَفَّارةَ فيها، آحتجاجا بأنها أعظمُ من أن تُكَفَّر : لأنهـا من الكبائر العِظام، وهو مَـذْهبُ الثَّوْرِىّ واللَّيْثِ وإسْحاقَ، وحُكِىَ عن سَعيد بن المُسَيَّب .

وأما لَغْوُ اليمين فقد آختُلِف فيـه أيضا : فذهب الشافعىّ إلىٰ أنه ما وقع من غير قَصْدٍ : ماضِيًا كان أو مُسْتقبلًا كقوله : لا واللهِ، وبَلىٰ واللهِ، وهو إحدىٰ الروايتين

---

(١) أى اليمين الغموس .

(٢) عبارة الخطيب الشربينى فى تفسيره «على أمر ماض أنه كان ولم يكن» وهى أوضح .

عن أحمد . وذهب أبو حنيفة إلى أنه الحَلِف على الماضى من غير قَصْدِ الكَذِب فى يمينه، مثل أن يَظُنَّ شيئا فيحْلِفَ عليه ؛ وهو الرواية الثانية عن أحمد ، وحُكى عن مالكٍ أن هذه هى اليمين الغَمُوس .

الطــرف الثـانى

(فى التّحذيرِ من الوُقوع فى اليمين الغَمُوس)

أما اليمين الغَمُوس فإنّها من أعظم الكبائر، وناهيكَ أنها تَغْمِسُ صاحبَها فى الإثم . وقد قال تعالى : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُمْ وَلكِنْ يُؤَاخِذُكُم بما عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ ﴾ . وقال جلّ وعزّ : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وفى الحديث أن النبىَّ صلَّى الله عليه وسلم قال : « مَن حَلَفَ على يَمِينٍ وهو فيها فاجِر ليقتَطِعَ بها مالَ امرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِىَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو عليه غَضْبانُ » . وقد قيل إن التوحيد (وهو : الذى لا إله إلا هو) إنما أُوصِلَ فى اليمين رِفْقًا بالحالف كَىْ لا يَهْلِكَ لوَقْته ، فقد رُوِىَ عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « إذا حَلَفَ الحالِفُ بالله الذى لا إله إلا هو ، لم يُعاجَلْ لأنه قد وحد الله تعالى » .

ويُروى أن جَعْفرَ بنَ محمد عليه السلام : آدّعى عليه مُدَّعٍ عند قاضٍ ، فأحْلَفَه جعفرٌ بالله ، لم يزِد على ذلك ، فهلَكَ ذلك الحالِفُ لوقْته ، فقال القاضى ومَن حضر : ماهذا ؟ فقال : إن يَمِينَه بما فيه ثَناءٌ على الله ومَدْحٌ يؤخِّر العقوبةَ كَرَمًا منه عزَّ وجلَّ وتَفَضُّلا . وقال أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « أَحْلِفُوا الظّالِمَ إذا أردتُم يَمِينَه بأنه بَرِىءٌ من حَوْلِ الله وقُوّته ، فإنه إذا حَلَف بها كاذبًا عُوجِلَ » .

ومن غريب ما يُحكىٰ فى ذلك أن عَبْـد الله بن مُصْعَب الزُّبَيْرِىّ سعىٰ بيَحْيىٰ بن عبد الله بن الحسن إلى الرشيد، بعد قيام يحيىٰ بطلب الخلافة، فجمعَ بينهما وتواقفا، ونَسَبَ يحيىٰ إلى الزُّبَيْرىّ شِعرًا يقول منه :

قُومُوا بِبَيْعَتِكم نَنْهَضْ بطاعتها * إنَّ الخِلافة فيكم يا بَنِى حَسَن

فأنكر الزبيرىّ الشِّعر، فأحلفه يحيىٰ، فقال : قل قد بَرِئْتُ من حَوْلِ اللهِ وقُوَّته، وآعْتَصَمْتُ بحَوْلِى وقُوّتى، وَتَقَلَّدتُ الحَوْلَ والقُوّة من دُون الله آستكبارًا على الله، وآسْتِغناءً عنـه، وآسْتِعلاءً عليه، فآمْتَنَع . فغضِب الرشـيد وقال : إن كان صادقًا فلْيحلِفْ، وكان للفَضْل بن الربيع فيه هَوًى، فرفَسَه بِرِجْلِه، وقال: وَيْحَكَ احلِفْ! فحلَفَ ووَجْهُه متَغيِّر وهو يَرعُد، فما بَرِحَ من موضعه حتّى أصابه الجُـذَامُ فتقطّع ومات بعـد ثلاثة أيام؛ ولمـا حُمِل إلىٰ قبرِه لِيُوضَعَ فيه آنخسف به حتّى غاب عن أعْيُن الناس، وخرجتْ منه غَبَرَةٌ عظيمة، وجعلوا كلّما هالُوا عليه التُّرابَ آنْخَسف، فسقَّفُوه وآنصرفوا .

الباب الثانى
من المقالة الثامنة
(فى نُسَخ الأَيْمانِ المُلُوكِيَّة، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى نُسَخ الأَيْمانِ المتعلِّقةِ بالخُلَفاءِ، وهى على نوعين

النوع الأوّل
(فى الأَيْمان التى يُحَلَّفُ بها على بيعة الخليفة عند مبايعته، وهى الأصل فى الأيمان الملوكية بأَسْرها)

وأَوّلُ من رَتَّبها الحَجّاجُ بنُ يُوسفَ حين أَخَذه البَيْعةَ لعبد المَلِك بن مَرْوانَ على أهل العِراق، ثم زِيدَ فيها بعد ذلك، وتنقَّحت فى الدولة العبّاسية وتنضدت. وكان عادتُهم فيها أن يجرى القَوْل فيها بكافِ الخطاب، كما فى مكاتباتهم يَوْمئذ، وربَّما أُتِى فيها بلَفْظ المتكلم.

وهذه نُسخةُ يَمينٍ أوردها أبو الحُسَين الصّابِى فى كتابه "غُرَر البلاغة" وهى:

تُبايعُ عبدَ الله أمير المؤمنين فلانًا: بَيْعةَ طَوعٍ وٱختيار، وتبَرُّعٍ وإيثار، وإعْلان وإسرار، وإظْهارٍ وإضمار، وصِحَّةٍ من غير نَغَل، وسَلامةٍ من غير دَغَل، وثَباتٍ من غير تَبْديل، ووَفاءٍ من غير تأْويل، وٱعترافٍ بما فيها من ٱجتماع الشَّمل، وٱتِّصال الحَبْل، وٱنتظام الأمور، وصلاح الجُمْهور، وحَقْنِ الدِّماء، وسُكونِ الدَّهْماء، وسَعادة الخاصّة والعامّه، وحُسْنِ العائدة على أهل المِلّة والذِّمّه — على أن عبدَالله فلانًا

أميرَ المؤمنين عبدُ الله الذى آصطفاه ، وأمينُه الذى آرتضاه، وخليفتُه الذى جعل طاعتَه جاريةً بالحقّ، ومُوجَبةً على الخلق، ومُوردةً لهم مَوْرِدَ الأمْن ، وعاقدةً لهم مَعاقدَ اليُمْن، وولايتَه مُؤذِنةً بجميل الصُّنع ، ومؤدِّيةً لهم إلى جَزيل النَّفع ، وإمامتَه التى اقترن بها الخيرُ والبَرَكه ، والمصلحةُ العامّةُ المُشْتَركه، وأُمِّلَ فيها قمعُ المُلحِد الجاحد، وردُّ الجائر الحائد ، وقمْعُ العاصى الخالع ، وعَطْفُ الغاوى المُنازِع . وعلى أنك وَلِىُّ أوليائه، وعدوّ أعدائه : من كلّ داخلٍ فى الجُمله ، وخارجٍ عن المِلّه ، وعائذٍ بالحَوْزه، وحائدٍ عن الدَّعْوه، ومتمسِّكٌ بما بذلته عن إخلاص من رَأيك، وحقيقةٍ من وَفائك، لاتَنقُضُ ولا تَنكُث، ولا تُخْلِفُ ولا تُوارِى ولا تُخادِع ، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل؛ عَلانِيَتُكَ مِثلُ نِيَّتِك، وقولُك مثل طَوِيَّتِك . وعلى أن لا تَرجِعَ عن شىءٍ من حقوق هذه البَيْعة وشرائطها على ممرّ الأيام وتطاوُلِها ، وتغيُّر الأحوال وتنقُّلها، وآختلاف الأوقات وتَقلُّبها . وعلى أنك فى كلّ ذلك من أهل المِلّة الإسلامية ودُعاتها، وأعوانِ المملكة العباسيّة ورُعاتها، لا يتداخَلُ قولَك مواربةٌ ولا مُداهنه، ولا يعترِضُه مغالطةٌ ولا يتعقّبُه مخالفه، ولا تُخْبَس به أمانه ، ولا تقلُّه خيانه؛ حتّى تلقَى اللهَ تعالى مُقيما على أمرك، ووَفيًّا بعهدك ، إذ كان مُبايِعو وُلاةِ الأمر وخُلفاءِ الله فى الأرض ﴿إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

عليك بهذه البَيْعةِ التى أعطيْتَ بها صَفْقَةَ يَدِك ، وأصْفَيتَ فيها سَرِيرةَ قَلْبِك ؛ والتزمت القيامَ بها ما طال عُمْرُك، وآمتدّ أجَلُك ـ عَهْدُ الله إنّ عَهْدَ الله كان مَسْئُولا، وما اخذَه على أنبيائه ورُسُلِه، وملائكته وحَملة عرشه : من أَيمانٍ مغلَّظة وعهود مؤكَّده، ومَواثيقَ مشدَّده؛ على أنك تسمع وتُصْغى، وتُطيعُ ولا تَعْصى؛ وتعتدِلُ

ولا تَميد، وتَستقيمُ ولا تَميل، وتَفِي ولا تَغْدر، وتَثْبُت ولا تتغيَّر، فمتى زُلْتَ عن هذه المَحجّة خافِرًا لأمانَتِك، ورافعًا لديانَتِك، فجحدتَ الله تعالى رُبُوبيَّته، وأنكرتَ وَحْدانيَّته، وقطعتَ عِصْمَةَ محمد صلى الله عليه وسلم منكَ وجَذَذْتَها، ورَمَيْتَ طاعتَه وراءَ ظَهْرِك ونبذْتَها، ولقيتَ الله يوم الحَشْرِ إليه، والعَرْضِ عليه، مخالفًا لأمره، وناقضًا لعهْدِه، ومقيما على الإنكارِ له، ومُصرًّا على الإشراكِ به؛ وكلُّ ما حلَّله اللهُ لك محرَّمٌ عليك، وكلُّ ما تملِكه يومَ رجُوعِك عن بَذْلِك، وٱرتجاعك ما أعطيتَه فى قوْلِك: من مالٍ مَوجُودٍ ومَدْخور، ومَصْنوعٍ ومَضْروب، وسارِحٍ ومربوط، وسَائِمٍ ومَعْقول؛ وأرضٍ وضَيْعة، وعقار وعُقْدة، ومملوك وأمة، صَدَقةٌ على المساكين، محرَّمةٌ على مَرِّ السنين؛ وكلُّ ٱمرأةٍ لك تَمْلِكُ شَعْرَها وبَشَرَها، وأخرىٰ تتزوّجها من بعدها طالقٌ ثلاثًا بتاتًا، طلاق الحرج والسنة، لا رَجْعةَ فيها ولا مَثْنويَّة؛ وعليك الحجُّ إلى بَيْت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين دَفْعةً حاسِرًا حافيًا، وراجلًا ماشيا، نَذْرًا لازما، ووَعْدا صادقا؛ لا يُبْرِئُك منها إلا القضاءُ لها، والوفاءُ بها؛ ولا قَبِلَ منك تَوْبةً ولا رَجْعه، ولا أقالك عَثْرةً ولا صَرْعَه؛ وخَذَلك يوم الٱستنصار بحَوْله، وأسْلمك عند الٱعتصام بحَبْله؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قولًا فصيحا، وسَرَدْتَها سَرْدا صَريحا؛ وأخلصتَ فيها سِرَّك إخلاصا مُبينا، وصَدَقْتَ بها عَزْمك صِدْقًا يقينا؛ والنِّيَّة فيها نِيَّة فلان أميرِ المؤمنين دُون نِيَّتِك، والطَّويَّة دون طَوِيَّتك؛ وأشهدتَ اللهَ على نَفْسك بذلك ﴿ وكَفَىٰ باللهِ شَهِيدًا ﴾ يوم تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقيبا .

⁂

وهذه نُسخةُ يَمينِ بَيْعةٍ أوردها ٱبنُ حَمْدونَ فى ”تَذْكِرَته“ وأبو الحسن بن سعد فى ”تَرَسُّله“ تواردت مع البَيْعة السابقة وأيمانها فى بعض الألفاظ، وخالفت فى أكثرها، وهى :

تُبايع الإمامَ أميرَ المؤمنين بَيْعةَ طَوْعٍ وإيثار، ورضًا وٱختيار، وٱعتقادٍ وإضمار، وإعلانٍ وإسرار، وإخلاصٍ من طَوِيَّتك، وصِدْقٍ من نِيَّتك، وٱنشراحِ صَدْرِك وصِحَّةِ عَزِيمَتك، طائعا غيرَ مُكْرَه، ومُنقادًا غيرَ مُجْبَر، مُقِرًّا بفَضْلها، مُذْعِنا بحقِّها، مُعْتَرِفا بِبَرَكتها، ومُعْتدًّا بحُسْن عائِدتها، وعالمًا بما فيها وفى تَوْكِيدها من صَلاح الكافَّة، وٱجتماعِ الكَلِمة الخاصَّة والعامَّة، ولَمِّ الشَّعَث، وأمْنِ العواقب، وسكون الدَّهْماء، وعِزِّ الأولياء، وقَمْعِ الأعداء - علىٰ أن فلانًا عبدُ الله وخَليفتُه، والمفترَضُ عليك طاعتُه، والواجب على الأمة إقامته وولايته، اللّازم لهم القيامُ بحقِّه، والوفاءُ بعَهْده، لا تَشُكُّ فيه، ولا ترتابُ به، ولا تُداهِن فى أمره ولا تميل؛ وأنك وَلِيُّ وليِّه، وعَدُوُّ عدوِّه: من خاصٍّ وعام، وقريبٍ وبَعيد، وحاضرٍ وغائب، مُتَمَسِّكٌ فى بَيْعته بوفاء العَهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سَرِيرتُك مثلُ عَلانِيَتك، وظاهِرُك فيه مثلُ باطنك، وباطِنُك فيه وَفْقُ ظاهِرِك . علىٰ أنَّ إعطاءَك اللهَ هذه البَيْعةَ من نَفْسك، وتَوْكيدَك إيَّاها فى عُنُقك، لفلان أمير المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك، وٱستقامةٍ من عَزْمك، وٱستمرارٍ من هواك ورأيك . علىٰ أن لا تتأوَّلَ عليه فيها؛ ولا تَسْعىٰ فى نَقْض شىءٍ منها، ولا تَقْعُدَ عن نُصْرته فى الرَّخاء والشِّدَّة، ولا تَدَعَ النُّصحَ له فى كلِّ حالٍ راهِنةٍ وحادِثةٍ، حتَّى تَلْقَى اللهَ تعالىٰ مُوفِيًا بها، مُؤدِّيًا للأمانة فيها إذ كان الذين يبايعون وُلاةَ الأمر وخُلَفاءَ الله فى الأرض ﴿إنَّما يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه﴾ .

عليك بهذه البَيْعة التى طوَّقْتَها عُنُقَك، وبسطتَ لها يَدَك، وأعْطيتَ بها صَفْقَتَك، وما شُرِط فيها من وَفاءٍ ومُوالاة، ونُصْحٍ ومُشايَعة، وطاعةٍ ومُوافَقة، واجتهاد ومبالغة - عهدُ الله إنَّ عَهْدَ اللهِ كان مَسْئُولا، وما أخذَ اللهُ علىٰ أنبيائه ورسُلِه عليهم

السلام ؛ وأخذ على عباده من وكيدات مواثيقه ، ومحكمات عهوده ؛ وعلىٰ أن تمسك بها ولا تبدل ، وتستقيم ولا تميل .

وإن نكثت هذه البيعة ، أو بدلت شرطا من شروطها ، أو عفيت رسما من رسومها ، أو غيرت حكما من أحكامها ، معلنا أو مسرا ، أو محتالا أو متأولا ، أو زغت عن السبيل التى يسلكها من لايخفر الأمانه ، ولا يستحل الغدر والخيانه ؛ ولا يستجيز حل العقود ـ فكل ماتملكه من عين أو ورق أو آنية أو عقار أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقده(١) ، والأمور المدخره ، صدقة على المساكين ، محرمة عليك أن ترجع من ذلك ، إلىٰ شىء من مالك ، بحيلة من الحيل ، علىٰ وجه من الوجوه وسبب من الأسباب ، أو مخرج من مخارج الأيمان ؛ وكل ما تفيده فى بقية عمرك : من مال يقل خطره أو يجل ، فتلك سبيله إلىٰ أن تتوفاك منيتك ، ويأتيك أجلك . وكل مملوك لك اليوم أو تملكه إلىٰ آخر أيامك أحرار سائبون لوجه الله تعالىٰ ، ونساؤك يوم يلزمك الحنث ، ومن تتزوج بعدهن مدة بقائك طوالق ثلاثا بتاتا ، طلاق الحرج والسنة ، لا مثنوية فيها ولا رجعة ، وعليك المشى إلىٰ بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافيا حاسرا راجلا ، لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها ، ولا يقبل الله منك صرفا ولا عدلا ، وخذلك يوم تحتاج إليه ، وبرأك الله من حوله وقوته ، وألجأك إلىٰ حولك وقوتك ، والله تعالىٰ بذلك شهيد ﴿ وكفىٰ بالله شهيدا ﴾ .

---

(١) أى التى اعتقدها صاحبها ملكا ، انظر القاموس .

الضــــرب الثانى

(الأيمان التى يُحَلَّفُ بها الخلفــاء)

وقلَّ من تعرَّضَ لها لقلَّة وقوعها ، إذ الخليفة قلَّما يُحَلَّف : لعلو رتبته ، وآرتفاع محله . ومَدَار تحْلِيف الخلفاء بعد القَسَم بالله على التَّعليق بوقوع المحذور عليهم ، ولزومه لهم ، مثل البراءة من الخلافة والانخلاع منها ، وما يجرى مجرىٰ ذلك . ولم أقف علىٰ ذلك إلا فى ترسل الصَّابِى ، وذلك حين كان الأمر مَعْدُوقا بالخلفاء .

الفصــــل الثانى

من البـاب الثـانى من المقـالة الثـامنة

(فى نُسَخ الأَيْمان المتعلقــة بالملوك ، وفيه خمســة مَهَايِع)

المهيـــع الأوّل

(فى بيان الأَيمـان التى يُحَلَّف بها المسلمون ، وهى علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(من الأيمـان التى يُحَلَّف بها المسلمون أيمانُ أهْلِ السُّنَّة)

وهى اليَمِين العـامَّةُ التى يُحَلَّف بها أهلُ الدولة : من الأمراء والوزراء والنوّاب ، ومن يجرى مجراهم .

وهذه نُسْخَةُ يَمِين أوردها فى "التعريف" وهى :

أقولُ وأنا فلان : واللهِ واللهِ واللهِ ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ ، والله العظيم الذى لا إلٰهَ إلا هُوَ ، البـارِئُ الرحمنُ الرحيم ، عالمُ الغَيْب والشهادة ، والسرّ

والعلانية، وما تخفى الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازى لها بما عملت . وحق جلال الله، وقدرة الله، وعظمة الله، وكبرياء الله، وسائر أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا إننى من وقتى هذا، وما مد الله فى عمرى، قد أخلصت نيتى، ولا أزال مجتهدًا فى إخلاصها، وأصفيت طويتى، ولا أزال مجتهدا فى إصفائها، فى طاعة مولانا السلطان فلان الفلانى ـ خلد الله ملكه ـ وخدمته ومحبته، وامتثال مراسيمه، والعمل بأوامره . وإنى والله العظيم [حرب لمن حاربه، سلم لمن سالمه، عدو لمن عاداه، ولى لمن والاه من سائر الناس أجمعين . وإنى والله العظيم] (١) لا أضمر لمولانا السلطان فلان سوءًا ولا غدرا، ولا خديعة ولا مكرا، ولا خيانة فى نفس ولا مال، ولا سلطنة، ولا قلاع ولا حصون، [ولا بلاد ولا غير ذلك] (٢) ولا أسعى فى تفريق كلمة أحد من أمرائه، ولا مماليكه، ولا عساكره، ولا أجناده، ولا عربانه ولا تركمانه ولا أكراده، ولا آستمالة طائفة منهم لغيره، ولا أوافق على ذلك بقول ولا فعل ولا نية ولا بمكاتبة [ولا مراسلة] (١)، ولا إشارة ولا رمز، ولا كناية ولا تصريح . وإن جاءنى كتاب من أحد من خلق الله تعالى بما فيه مضرة على مولانا السلطان أو أهل دولته لا أعمل به، ولا أصغى إليه، وأحمل الكتاب إلى ما بين يديه الشريفتين هو ومن أحضره إن قدرت على إمساكه .

وإنى والله العظيم أفى لمولانا السلطان بهذه اليمين من أولها إلى آخرها، لا أنقضها ولا شيئًا منها، ولا أستثنى فيها ولا فى شىء منها، ولا أخالف شرطًا من شروطها؛ ومتى خالفتها أو شيئا منها، أو نقضتها أو شيئًا منها، أو آستثنيت فيها أو فى شىء منها طلبًا لنقضها، فكل ما أملكه : من صامت وناطق صدقة على الفقراء والمساكين،

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

وكلُّ زَوْجةٍ فى عَقْد نكاحه أو يَتزوَّجُها فى المستقبل فهى طالق [ثلاثا بتاتا على سائر المذاهب][1]، وكلُّ عبيدى وإمائى أحرارٌ لوَجْه الله ، وعليه الحجُّ إلى بَيْت الله الحرام بمكّةَ المعظَّمة ، والوقوفُ بعرفةَ ثلاثين حجَّةً متواليات متتابعات كوامل ، حافيًا ماشيًا ؛ وعليه صَوْمُ الدَّهر كلِّه إلا المَنْهِىَّ عنه ، وعليه أن يفُكَّ ألفَ رقَبةٍ مؤمنةٍ من أَسْر الكُفّار ، ويكونُ بَريئًا من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن دِين الإسلام إن خالفتُ هذه اليمينَ أو شَرْطًا من شروطها .

وهذه اليمينُ يَمِينى وأنا فلان ، والنِّيَّة فيها بأسْرِها نيَّةُ مولانا السلطان فلانٍ ، ونيَّة مُسْتَحْلِفِىَّ له بها ، لا نيَّةَ لى فى بَاطِنى وظاهرى [سواها] ، أُشْهِدُ اللهَ علىَّ بذلك ، وكَفَى بالله شهيدا ، واللهُ على ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : عجيبٌ من المقرّ الشِّهابىّ رحمه الله ما أتى به فى نُسْخة هذه اليمين ، فإنه أتى بها بلَفْظ التكلم إلى قوله : « وكلُّ زوجةٍ » فعدَلَ عن التكلم إلى الغَيْبة ، وقال فى نكاحه ، وكذلك ما بعده إلى قوله « من أَسْر الكفار ويكونُ بريئًا من الله ومن رسوله صلى الله عليه وسلم إن خالفتُ هذه اليمينَ » وأتى بصيغة التكلم إلى آخر الكلام . فإن كانَ فرّ فى قوله : وكل زوجة فى نكاحه خَوْفًا من أن يقولَ فى نكاحى فتطْلُقَ زوجتُه هو، فلا وَجْهَ له : لأن الحاكِىَ لا يقع عليه الطَّلاق ، وكذا ما بعده من العِتْق وغيره .

وأعجب من ذلك كلِّه قولُه : ويكونُ بريئًا من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن دِينِ الإسلام إن خالفتُ ؛ فجمَعَ بين الغَيْبة والتكلُّم فى حالة واحدة ! ! . على أن ما ذكره بلفظ الغَيْبة إنما هو فيما سَطَّره فى النُّسْخة . أما إذا كُتبت اليمينُ

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

التى يُحَلَّف بهـا ، فإنها لا تكونُ فى الجميع إلا بلَفْظ التكلُّم ، فمـا المعنىٰ فى أنَّه خاف من الوقُوع فى المحذورِ عنـد حكاية القوْل ، ولم يخَفْ مثـل ذلك فيما يكتبه فى نَفْس ايمين؟ .

وقد ذكر صاحبُ "التثقيف" جميع ذلك بلفْظ التكلم ، مع المخالفـة فى بعض الألفاظ وزيادةٍ ونَقْصٍ فيها .

وهذه نسختها، وهى :

أقولُ وأنا فلانُ بن فلان : واللّهِ واللّهِ واللّهِ، و باللّهِ وباللّهِ و باللّهِ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ، واللّهِ الذى لا إله إلا هو ، البـارِئُ الرحمنُ الرحيمُ ، عالِمُ الغَيْب والشّـهادة ، والسِّر والعلانية ، وما تُخْفِى الصُّدور ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بمـا كَسَبَتْ ، والمجُازِى لهـا بمـا اكْتَسَبَتْ . وحقِّ جلال الله ، وعظمةِ الله ، وقُدرةِ الله ، وكِبْرِياءِ الله ، وسائِر أسماء الله الحُسْنىٰ ، وصِفاته العُلْيا ، وحقِّ هذا القرءَان الكريم ومَن أنزلَه ، ومن أُنزِلَ عليـه ـ إننى مِن وَقْتى هذا ، ومن ساعَتِى هذه ، وما مدَّ اللهُ فى عُمْرى قد أخْلَصْتُ نِيَّتِى ، ولا أزال مجتهدًا فى إخْلاصها ، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى ، ولا أزالُ مجتهدًا فى إصْفائِهـا فى طاعة السُّـلْطانِ الملِكِ الفلانىّ ، فلانِ الدنيـا والدِّين فلان ـ خلَّد اللهُ مُلْكه ـ وفى خِدْمته ومحبَّته ونُصْحه ، وأ كونُ وَلِيًّا لمن والاه ، عدُوًّا لمن عاداه ، سِلْمًـا لمن سالمه ، حَرْبًا لمن حاربه : مِن سائر الناس أجمعين ، لا أُضمِرُ لَه سُوءًا ولا مكرًا ، ولا خَديعةً ولا خِيانةً فى نَفْسٍ ، ولا مالٍ ، ولا مُلْكٍ ، ولا سَلْطنةٍ ، ولا عسـاكرَ ، ولا أجنادٍ ، ولا عُربان ، ولا تُرْكُمان ، ولا أكراد ، ولا غير ذلك ، ولا أسعىٰ فى تفْريق كلمة أحدٍ منهـم عن طاعته الشريفة . وإنَّنى واللّهِ العظيمِ أبْذُل جُهْـدِى وطاقتِى فى طاعة مولانا السلطان الملِك الفُلانىّ ، فلان الدنيا والدين المشار إليه . و إن كاتبَنى أحدٌ من سائر النـاس أجمعين بمـا فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مُلْكه لا أوافِقُ علىٰ ذلك بقولٍ

ولا فعْـلٍ ولا نيَّـةٍ ؛ وإن قدرتُ على إمْساكِ الذى جاءنى بالكِتَاب أمْسكْتُه ، وأحْضَرتُه لمولانا السـلطان الملك الفلانىّ المشار إليـه ، أو النـائبِ القَريبِ منّى .

وإنّى واللهِ العظيمِ أَفِى لمولانا السُّلطان المشارِ إليه بهذه اليمينِ من أوّلها إلى آخِرها ، لا أستثْنِى فيها ولا فى شَىْءٍ منها ، ولا أستَفْتِى فيها ولا فى شَىْءٍ منها . وإن خالفتُها أو شيئًا منها ، أو آستثنيتُ منها ، أو آسـتفتيتُ طلبًا لنَقْضِها أو نَقْضِ شىءٍ منها ، فيكون كلُّ ما أمْلِكه من صَامِتٍ ونَاطِقٍ صَدَقةً على الفُقَراء والمساكينِ من المسلمين ؛ وتكونُ كلُّ زَوْجةٍ فى عَقْدِ نِكاحِى أو أتزوَّجُها فى المُستقبلِ طالقا ثلاثًا بتاتًا على سائر المذاهِب ، وتكونُ كلُّ أمةٍ أو مَمْلوكٍ فى مِلْكِى الآنَ أو أَمْلِكُه فى المستقبلِ أحْرارًا لوَجْه الله تعـالى ؛ ويَلْزَمُنى ثلاثون حَجّةً متوالياتٍ متتابعات ، حافيًا حاسرًا ؛ وعلىّ صَوْمُ الدَّهْرِ بجُمْلَتِه إلا الأيامَ المَنْهِىَّ عن صَوْمِها .

وهـذه اليمينُ يَمينِى ، وأنا فلانُ بنُ فلانٍ ، والنِّيّةُ فى هذه اليمين بأسرها نيّةُ مولانا السـلطانِ الملكِ الفلانىِّ المشارِ إليه ، ونيّةُ مُسْتَحْلِفِى له بهـا ، لا نيّةَ لى فى غيرها ، ولا قَصْدَ لى فى بَاطِنى وظَاهِرى سِوَاها . أُشْهِدُ الله علىّ بذلك ، وكَفَى باللهِ شهيدًا ، واللهُ على ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : وربّمـا كان للسلطان ولىُّ عَهْدٍ بالسَّلْطنةِ فيَقَعُ التَّحليفُ للسُّلطان ولولده جميعًا ، وهى على نَحْوِ ما تقدّم ، لا يتغير فيها إلا نَقْلُ الضمير من الإفراد إلى التَّثْنِية .

✣

وهذه نُسخةُ يمينٍ حُلِّف عليها العساكرُ للسلطان الملك المنصور "قلاوون" فى سنة ثمان وسبعين وستمائة له ولولده ولىّ عهده الملك الصالح علاء الدين "علىّ" أوردها آبن المُكَرَّم فى تَذْكِرته ، وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ ، واللهِ العظيم الذى لا إله إلا هو، الرحمنُ الرحيم، الطَّالِبُ الغالِبُ، المُدرِكُ المُهلِكُ، الضارّ النافع، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادة، والسِّرِّ والعلانيةِ وما تُخفِى الصدور، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بما كَسبتْ، والمُجازِى لها بما ٱكْتَسَبتْ . وحقِّ جلالِ اللهِ، وعِزَّةِ اللهِ، وعظَمَةِ اللهِ، وسائرِ أسماء الله الحسنىٰ، وصفاتِه العُلْيا ـ إنَّنى من وَقْتِى هٰذا ، ومن ساعتِى هٰذه ، وما مدّ الله فى عُمْرى قد أخلصتُ النِّيَّة ، ولا أزال مُجتهِدًا فى إخلاصها ، وأصْفَيتُ طَوِيَّتى ولا أزالُ مُجتهدًا فى إصفائها، فى طاعة السُّلطانِ فلان، وطاعة ولَدِه وَلِىِّ عَهْدِه فلان، وخِدْمتِهما ومُوالاتِهما ، وٱمْتِثالِ مراسيمهما ، والعَمَلِ بأوامرِهما . وإنَّنى واللهِ العظيم حَرْبٌ لمن حارَبهما، سِلْمٌ لمن سالَمهما ، عَدُوٌّ لمن عاداهما، وَلِىٌّ لمن والاهما . وإنَّنى واللهِ العظيم لا أسْعىٰ فى أمرٍ فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مولانا السلطان، ولا فى مَضَرَّةِ وَلَدِه، فى نفسٍ ولا سَلْطنةٍ ، ولا ٱسْتِمالَةِ لغيرهما ، ولا أُوافِقُ أحدًا علىٰ ذلك بقَوْلٍ ولا فِعْلٍ، ولا مُكاتَبةٍ ولا مُشافَهةٍ ، ولا مُراسَلَة، ولا تَصْريحٍ . وإنَّنى واللهِ العظيم لا أدَّخِرُ عن السُّلطانِ ولا عن ولده نَصِيحةً فى أمرٍ من أمور مُلكِهما الشريف ، ولا أُخْفيها عن أحَدِهما ، وأنْ أُعْلِمَه بها فى أقْرَبِ وقتٍ يُمكِنُنى الإعلامُ له بها ، أو أُعْلِمَ من يُعلِمُه بها، وأن الخ[1] ... ...

---

(١) كذا فى الأصل ولعله ترك الباقى اتكالا على ما سبق فى الأيمان قبله .

النـــــوع الثـانى
(من الأيمانِ التى يُحلَف بها المسلمون أيمانُ أهـل البِدَع .
والذين منهم بهذه المملكةِ ثلاثُ طوائف)

الطائفـــة الأولى
(الخـــوارِجُ)

وهُم قومٌ ممن كانوا مع أمير المؤمنين عَلِىّ بنِ أبى طَالِب رضى الله عنه ، حَمَلُوه على أنْ رَضِىَ بالتَّحْكِيم بينه وبين مُعاوِيَةَ، وأشارُوا بإقامة أبى مُوسَى الأشْعَرِىّ حَكَماً عن عَلِىّ، وإقامةِ عَمْرو بن العَاصِ حَكَماً عن مُعاوِيةَ ، فخَدَع عَمْرٌو أبا مُوسَى : بأن آتَّفق معه على أن يَخْلَعا عَلِيًّا ومعاويةَ جميعا ، ويُقِيمَ المسلمون لهم خَلِيفةً يختارونه، فتقَـدَّم أبو مُوسَى وأشهدَ مَن حَضَر أنه خَلَعَهُما ، فوافق عمرٌو على خَلْعِ عَلِىّ، ولم يَخْلَعْ معاويةَ، وبَقِىَ الأمْرُ لمعاوية . فأنكروا ذلك حينئذ، ورَفَضُوا التَّحْكيم، ومنعوا حُكْمَه، وكَفَّروا عليًّا ومعاويةَ ومَن كان معهما بصِفِّينَ، وقالوا: لا حُكْمَ إلا للهِ ورسوله ، وخرجُوا على عَلِىٍّ ، فسُمُّوا الخوارج ، ثم فارقوه وذهبوا إلى النَّهْرَوانِ فأقامُوا هُناك، وكانوا أربعةَ آلافٍ غَوْغَاءَ لا رَأْسَ لهم ، فذهب إليهـم عَلِىٌّ رضى الله عنـه فقاتلهم ، فلم يُفْلِتْ سِوَى تسـعةِ أنفسٍ : ذهب منهم آثنان إلى عُمَان ، وآثنان إلى كَرْمان، وآثنان إلى سِجِسْتانَ ، وآثنان إلى الجَزِيرة ، وواحدٌ إلى اليَمَن، فظهرتْ بِدْعتُهـم بتلك البـلاد وبَقِيتْ بهـا .

ثم من مَذْهبِهم مَنْعُ التَّحْكيم على ما تقدّم، وتَخْطِئةُ عَلِىٍّ وأصحابه، ومُعاويةَ وأصحابِه بصِفِّينَ فى آعتقادهم إيَّاه ، بل تكفيرُهم على ما تقدّم ، ومنها آمتناع ذلك عن رِضَـا أصـلا (؟) وأنهم يمنعون التأويل فى كِتَاب الله تعالى . ومنهم من يقولُ : إن سُورَة

يُوسُفَ عليه السلام ليستْ من القُرءان، وإنما هى قِصَّةٌ من القِصَص، ومن أدخلها فى القُرءان فقد زاد فيه ما ليس منه، علىٰ ما سيأتى ذكره. ويقولون: إن إمارة بنى أُمَيَّة كانت ظُلْمًا، وإنَّ قضاءَهُم الذى رتَّبوه على التحكيم باطِلٌ. ويذهبون إلىٰ تَخْطِئة عمرو بن العاص وأبى مُوسى الأشْعَرىّ فيما ٱتفقا عليه عند تحكيمهما، ويُشَنِّعون علىٰ معاويةَ وأصحابه، ويقولون: ٱستباحُوا القُرُوجَ والأموالَ بغير حَقٍّ.

ثم منهم من يُكَفِّر بالكبائر، ومنهم من يُكَفِّر بالإصْرار على الصَّغائر بخلاف الكبائر من غير إصْرارٍ علىٰ ما يأتى ذكره. ويصَوِّبون فَعْلة عبد الرحمن بن مُلْجَم فى قتله عليًّا رضى الله عنه، ويُنْكِرون علىٰ من يُنْكِر ذٰلك عليه، لا سيَّما من ذهب من الشِّيعة إلىٰ أن ذلك كُفْرٌ. وفى ذلك يقول شاعِرُهم:

يا ضَرْبةً من وَلِىٍّ[1] ما أرادَ بها * إلا لِيَبْلُغَ من ذِى العَرْش رِضْوانا

إنِّى لأذْكُرُه يَوْمًا فأحْسَبُه * أَوْفَى الخليقةِ عندَ الله ميزانا

وكذلك يصوِّبون فِعْل عمرو بن بكر الخارجىّ فى قَتْل خارِجَةَ بن أبى حَبِيبة[2] صاحب شُرْطة عمرو بن العاص بمِصْر، حين قتلَه علىٰ ظَنِّ أنه عَمْرو بن العاص، لما لهم عنده من الإحَنِ والضَّغائِن. وأنهم يصوِّبون فعلَ قَطَامِ زوجِ عبد الرحمن بن مُلْجَم فى ... ...[3]، وأنهم يَسْتعظِمُون خَلْعَ طاعةِ رُءُوسهم، وأنهم يُجَوِّزون كَوْنَ الإمام غير

(١) فى الملل ص ٦٩ "من منيب" وفى كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٧١ «من شقىّ».

(٢) فى الأصل حنيفة وهو تصحيف والتصحيح من كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٧٠.

(٣) بياض بالأصول ولعله «فى اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل علىّ» أنظر كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٨ و ١٦٩.

قُرَشِيًّا، بل هم يجوّزون إمامة الحُرِّ والعَبْد جميعا، ويَنْسُبونَ من خالفهم إلى الخطإ، ويستبيحون دِماءَهم بمقتضَى ذلك .

واعلم أن ما تقدّم ذِكْرُه من معتقَدات الخوارج هو مُقْتضَى ما رتّبه من يمينهم فى "التعريف" على ماسيأتى ذكره . على أن بعضَ هذه المعتقداتِ يختصُّ بها بعض فرَقِ الخوارج دون بَعْضٍ على ما سيأتى بيانُه ، ولكلٍّ منهم معتقداتٌ أخرى تَزِيدُ على ماتقدّم ذكره .

وهأنا أذكر بعضَ فِرَقِهم، وبَعْضَ ما آختصَّتْ [به] كلُّ فِرْقةٍ منهم، ليَبْنِيَ على ذلك مَن أراد ترتيبَ يَمِينٍ لفِرْقةٍ منهم :

فمنهم المُحَكِّمَةُ — وهم الذين يمنعون التَّحْكيم .

ومنهم الأزارِقةُ — وهم أتباعُ نَافِع بن الأزْرَق، وهم الذين خرجُوا بفارِسَ وكَرْمانَ أيّام آبنِ الزُّبَير، وقاتلهم المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَة، وهم الذين يكَفِّرون عَلِيًّا مع جَمْعٍ من الصحابة، ويُصَوِّبون فِعْل آبن مُلْجَم، ويكَفِّرون القَعَدَة عن القتال مع الإمامِ وإن قاتل أهْلَ دِينِه ، ويُبِيحُون قَتْلَ أطفالِ المخالفين ونِسَائهم ، ويُسْقِطون الرَّجْمَ عن الزّانى المُحْصَن، وحَدَّ القَذْفِ عن قاذف الرَّجل المُحْصَن دون قاذف المرأة المُحْصَنة ، ويُخْرِجون أصحاب الكبائرعن الإسلام، ويقولون : التَّقِيَّة غيرُ جائزةٍ .

ومنهم النَّجَداتُ — وهم أصحاب نَجْدَةَ بن عامِر ، يكَفِّرون بالإصرار على الصغائر دون فعل الكبائر من غير إصرار، ويستَحِلّون دماءَ أهلِ العَهْدِ والذِّمّة وأموالَهم فى دار التَّقِيَّة، ويتبرَّءون ممن حَرَّمها .

ومنهم البَيْهَسِيَّة – وهم أصحاب أَبى بَيْهَس بن خالد(١)، يَرَوْنَ أنه لاحرامَ إلا ماوقَع عليه النَّصُّ بقوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية . ويكفِّرون الرَّعِيَّة بكُفْر الإمام .

ومنهم العَجارِدَة – وهم الذين يُنْكِرون كَوْنَ سورةِ يُوسُفَ من القُرءان ، ويقولون : إنما هى قِصَّةٌ من القِصَص، ويُوجِبُون التَّبَرِّىَ من الطِّفْل فإذا بلغ دُعِىَ إلى الإسلام .

ومنهم المَيْمونية – وهم فِرْقَةٌ يقولون : إن الله تعالى يريد الخَيْر دون الشَّر ، ويجوِّزون نِكاحَ بناتِ البَناتِ وبَناتِ أَوْلادِ الإخْوَةِ والأخوات .

ومنهم الإباضِيَّة – يَرَوْنَ أنَّ مُرتكِب الكَبِيرة كافرٌ للنعمة لامُشرِكٌ ، ويَرَوْنَ أنَّ دار مخالفيهم من المسلمين دارُ تَوْحيد، ودَارَ السلطانِ منهم دارُ بَغْىٍ .

ومنهم الثَّعالبة – يَرَوْنَ وِلايَةَ الطِّفْل حتَّى يظهرَ عليه إنْكارُ الحَقِّ فيتبرءُون منه .

ومنهم الصُّفْرِيَّة – يَرَوْنَ أنَّ ما كان من الكبائر فيه حَدٌّ كالزِّنا لا يُكفَّر به، وما كان منها ليس فيه حَدٌّ : كتَرْكِ الصَّلاة يُكَفَّر به .

وكأن الذى أورده فى "التعريف" مُتَّفقٌ عليه عندهم ، أو هو قولُ أكثرِهم فاكتفى به .

وقد رتب فى "التعريف" تحليفَهم على مُقتضى ما ذكره من اعتقادهم فقال :

وأَيمانُهم أَيْمانُ أهل السُّنَّة ، ويزاد فيها : وإلا أجَزْتُ التَّحكِيمَ، وصَوَّبْتُ قول الفَرِيقَين فى صِفِّينَ، وأَطَعْتُ بالرِّضا منِّى حكمَ أهْلِ الجَوْر، وقلتُ فى كتاب الله

(١) كذا بالأصول ، والذى فى "القاموس" و "الملل والنحل" للشهرستانى أن أبا بيهس اسمه "الهيصم ابن جابر" ولعل ما فى الأصول تصحيف .

بالتأويل : وأدخلتَ فى القرءان ماليس منه . وقلت : إن إمارة بنى أُمَيَّة عَدْلٌ ، وإن قَضاءَهم حَقٌّ ، وإن عَمْرو بنَ العَاص أصاب ، وإنَّ أبا مُوسَى ما أخطأ ، وٱسْتَبَحْتُ الأموال والفروجَ بغير حقٍّ ، وٱجترحْتُ الكبَائِر والصَّغائِر ، ولقِيتُ الله مُثْقَلا بالأوزار ، وقلتُ : إن فَعْلَة عبد الرحمن بن مُلْجَم كُفْر ، [وإن قاتلَ خارجة آثم ، وبرئت من فَعْلة قطامٍ ،] (١) وخلعتُ طاعة الرُّءُوس ، وأنكرتُ أن تكونَ الخلافَةُ إلّا فى قُرَيْش ، وإلّا فلا رَوَّيْت سَيْفِى ورُمْحِى من دماء المُخْطئينَ .

الطائفة الثانية

(الشِّيعَةُ)

وهم الذين شايَعُوا أَميرَ المؤمنين علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقالُوا بإمامته وخلافته : نَصًّا ووصَايةً : [إمَّا] جليًّا أو خَفيًّا ، وإن الامامةَ لاتخرج عنه وعن بَنِيه إلا بظُلْمٍ من غير ذلك الإمام ، (٢) أو بتَقِيَّةٍ منه لغيره .

قال الشَّهْرَسْتانىُّ فى " النِّحَل والمِلَل " : ويجمعُهم القول بوجوب التَّعيينِ للامام والتنصيص عليه ممَّن قبْلَه ، وثُبوتِ عِصْمةِ الأَئمة وجوبًا عن الكبائر والصغائر ، والقَولُ بالتَّوَلِّى للأَئمَّة والتَّبَرِّى من غيرهم .

وقال فى " التعريف " يجمعُهم حُبُّ علِىٍّ رضى الله عنه ، وتختلفُ فِرَقُهم فيمَن سواه .

فأما مع إجماعهم علىٰ حُبِّه فهم مختَلِفون فى ٱعتقادهم فيه ، فمنهم أَهْلُ غُلُوٍّ مُفْرِط وعُتُوٍّ زائد : ففيهم من أدّىٰ به الغُلُوُّ إلىٰ أن ٱتخذ عَلِيًّا إلهًا وهم النُّصَيْرِيَّة ـ قال : ومنهم

---

(١) الزيادة من " التعريف " ص ١٦٢ .

(٢) عبارة الشهرستانى « بظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده » وهى أوضح .

من قال : إنه النبيّ المُرْسَل وإنّ جبْرِيلَ غَلِط . ومنهم من قال : إنه شريكٌ فى النُّبوّة والرسالة . ومنهم من قال : إنه وَصِىُّ النُّبوّة بالنَّصّ الجَلِىّ ، ثم تخالفوا فى الإمامة بعده وأجمعوا بعده على الحَسَنِ ثم الحُسَين . وقالتْ فرقة منهم : وبعدهما محمد بن الحَنَفيّة .

ثم قد ذكر فى "التعريف" أن الموجود من الشيعة فى هذه المملكة خَمْسُ فِرَق :

الفرقة الأولىٰ

(الزَّيْدِيّة)

وهم القائلون بإمامة زَيْد بن علىّ بن الحُسَين السِّبْط ، ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو الذى رأْسُه مدفونٌ بالمَشْهِد الذى بين كِيمانِ مِصْر ، جَنُوبِىّ الجامع الطُّولُونىّ ، المعروفِ بمَشْهد الرَّأْس ، فيما ذكره القاضى مُحْيى الدِّين ابن عبد الظاهر فى خِطَط القاهرة . قال فى "التعريف" : وهم أقربُ القَوْم إلىٰ القَصْد الأَمَم . قال : ولهم إمَامٌ باقٍ باليَمَن إلى الآنَ ، وصَنْعاءُ دارُه ، وأُمراءُ مكّة المُعظَّمة منهم . ثم قال : وحدّثنى مُبارَكُ بن عُطَيْفَةَ بن أَبِى نُمَىّ : أنهم لا يَدِينون إلا بطاعة ذلك الإمام ، ولا يَرَوْنَ إلا أنّهم نُوّابُه ، وإنما يتّقون صاحِبَ مِصْر لخوفهم منه وللإقْطاع ، وصاحِبَ اليَمَن لمُداراته لواصِلِ الكارم ورُسُوم الأنعام . ومن ثَمَّ عدَّهُم فى جملة مَن بهذه المملكة من طوائف البِدَع .

وكان من مَذْهبِ زَيْدٍ هذا جوازُ إمامة المفضول مع قيام الأفْضَل ، ويقول : إنَّ عليًّا رضى الله عنه كان أفضلَ الصَّحابة رضوانُ الله عليهم ، إلا أنَّ الإمامةَ فُوِّضتْ إلىٰ أبى بَكْرٍ وعُمَر رضى الله عنهما لمَصْلَحةٍ رَأَوْها ، وقاعِدَةٍ دِينيّةٍ راعَوْها : من تَسْكين نائرة الفتْنة ، وتَطْيِيبِ قُلوب العامّة ، مع تَفْضيل علىّ على الشَّيْخَيْن عندهم فى أوانهم .

وأتباعُه يعتقدون أنّ هـذا هو المعتقَدُ الحقُّ، ومن خالَفَه خرج عن طريق الحقّ، وضل عن سَواءِ السَّبِيل .

وهم يقولون : إن نَصّ الأذَانِ بَدَل الحَيْعَلَتَينِ : «حَيَّ علىٰ خَيْرِ العَمَلِ» يقولونها فى أذانِهم مرَّتين بدل الحَيْعلتَيْنِ، وربّما قالوا قبلَ ذلك : «محمدٌ وعَلِيٌّ خير البَشَر، وعِتْرتُهما خير العِتَر» ومن رأىٰ أن هذا بِدْعةٌ فقد حاد عن الجَادَّة .

وهم يسوقون الإمامةَ فى أوْلاد عَلِيّ كَرَّم الله وَجْهَه من فاطمة رضى الله عنها، ولا يُجَوِّزونَ ثُبوتَ الإمامة فى غير بنيهما، إلا أنَّهـم جَوَّزُوا أن يكونَ كُلُّ فاطميٍّ عالِمٍ زَاهِدٍ شُجاعٍ خَرج لطَلَب الإمامة إمامًا مَعْصومًا واجِبَ الطاعة، سواء كان من ولد الحَسَنِ أو الحُسَينِ عليهما السلام، ومن خلع طاعتَه فقد ضَلَّ . وهم يَرَوْن أن الإمام المَهْدِىَّ المُنتَظَر من وَلَد الحُسَين رضى الله عنه دون وَلَد الحسَن، ومن خالف فى ذلك فقد أخْطَأ . ومن قال : إنَّ الشيخينِ أبا بَكْرٍ وعُمَر رضى الله عنهما أفضلُ من عَلِيٍّ وبَنِيه فقد أخْطأ عنـدهم وخالَفَ زيدًا فى مُعْتَقدِه . ويقولون : إن تَسْلِيم الحَسَنِ الأمْرَ لمعَاوية كان لمَصْلَحةٍ اقتضاها الحال، وإن كان الحَقُّ له .

قال فى "التعريف" : وأَيْمـانُهم أَيْمـانُ أهْلِ السُّنَّة، يعنى فيحلِّفون كما تقدّم، ويزاد فيها : وإلَّا بَرِئْتُ من مُعْتَقَد زَيْدِ بن عَلِيّ، ورأيتُ أنَّ قَوْلِى فى الاذان: "حَيَّ علىٰ خَيْرِ العَمَل" بِدْعةٌ، وخَلَعتُ طاعة الإمام المعصوم الواجِبِ الطَّاعة، وادَّعَيْتُ أن المَهْدِىَّ المنتَظَر ليس من وَلَد الحُسَـينِ بن علىّ، وقلتُ : بتَفْضِيل الشيخين على أمير المؤمنين عَلِيٍّ وبَنِيه، وطعَنتُ فى رَأْى ابنِه الحسن لما اقتضته المَصْلَحةُ، وطعَنتُ عليه فيه .

الفرقة الثانية

(من الشيعة الإمامية)

وهم القائلون بإمامة اثنى عشر إماما : أوّلهم أميرُ المؤمنين علىٌّ المرتضى، ثم ابنه الحَسَنُ المُجْتَبَى، ثم أخوه الحُسَيْنُ شهيدُ كَرْبَلاء، ثم ابنه علىّ السَّجّاد زَيْنُ العابِدِين، ثم ابنه محمد الباقِر، ثم ابنه جعْفر الصّادِق، ثم ابنه مُوسَى الكاظِم، ثم ابنه، علِىّ الرِّضَا وهو الذى عَهِد إليه المأْمونُ بالخلافة ومات قبلَ أن يموتَ المأمونُ، ثم ابنه محمد التقىّ، ثم ابنه علِىٌّ النقىّ، ثم ابنه الحَسَن الزَّكىّ المعروفُ بالعَسْكَرِىّ، ثم ابنُه محمدٌ الحُجَّة، وهو المَهْدِىّ المنتظَر عندهم، يقولون إنه دخل مع أمّه صَغيرا سِرْدابًا بالحِلّة على القُرْب من بَغْدادَ فُفقد ولم يَعُدْ، فهم ينتظرُونه إلى الآنَ، ويقال : إنهم فى كلِّ ليلةٍ يقِفُون عند باب السِّرْداب ببَغْلة مَشْدُودةٍ ملجمة من الغروب إلى مَغِيبِ الشَّفَق ينادُون : أيُّها الإمامُ! قد كَثُر الظُّلْمُ! وظهر الجَوْر فاخْرُج إلينا! ثم يرجعون إلى اللّيلة الأُخرى، وتُلَقَّب هذه الفِرْقة بالاثْنَى عَشْرِيَّة أيضا، لقولهم بإمامة اثْنَىْ عشَرَ إماما، وبالمُوسَوِيَّة لقولهم بانتقال الخلافة بعد جَعْفَر الصادق إلى ابنه مُوسَى الكاظم المقدّم ذكره دون أخيه إسمعيلَ إمامِ الإسْماعِيلِيَّة الآتى ذكره، وبالقَطْعِيَّة لقولهم بموت إسمعيلَ المذكور فى حياة أبيه الصادقِ والقَطْعِ بانتقال الإمامة إلى مُوسى.

قال فى "التعريف" : وهم مُسْلمون، إلا أنهم أهلُ بِدْعةٍ كبيرة سَبَّابة.

وهم يقولون : بإمامة علِىٍّ رضى الله عنه نصًّا ظاهِرًا، وتعيينًا صادقا، احتجاجا بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : «من يُبايِعُنى علَى مَاله، فبايَعه جماعةٌ، ثم قال :

من يُبايِعُنى علىٰ رُوحه وهو وَصِيِّى ووَلِىُّ هـذا الأمرِ من بَعْدى ، فلم يُبايِعْـه أحدٌ، حتّى مدّ أمير المؤمنين عَلِىٌّ عليه السلام يَدَه إليه فبايَعَه علىٰ رُوحه ووَفىٰ بذلك» .

قال فى "العبر" : وهذه الوَصِيَّة لا تُعرَفُ عن أحَدٍ من أهل الأثَر، بل هى من موضوعاتهم ؛ ويَخُصُّونه بوِرَاثة علم النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم غَديرِخُمّ : «مَن كنتُ مَوْلاه فعَلِىٌّ مَوْلاه، اللهُمَّ وَالِ مَن وَالَاه ، وعَادِ مَن عَاداه ، وأدِرِ الحقَّ علىٰ لِسانه كَيفَما دَار» ويرَوْن أنّ بَيْعةَ الصِّـدِّيق رضى الله عنه يوم السَّقيفة غيرُ صحيحة : حين آجتمع الأنصارُ بعد مَوْت النبىّ صلى الله عليه وسـلم علىٰ سَعْد بن عُبَادة فى سَقِيفَة بنى سَاعِدة ليُبايعوه ، وذهب إليهم أبو بكرٍ رضى الله عنه ومعه عمرُ بنُ الخطاب وأبو عبيدة ، وروىٰ لهم أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : «لا يَصْلُح هذا الأمْرُ إلّا لهذا الحَىّ من قُرَيْش» فرجعُوا إلىٰ قوله وبايعَه عُمرُ، ثم بايعه النـاسُ علىٰ ما تقـدّم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ مبايعاتِ الخُلَفاء فى المقالة الخامسة ، وأنّ القائمَ فيها مجترمٌ لا سيَّـما أوّلُ بادٍ بذلك .
ويقولون: إن الحقّ كان فى ذلك لعَلِىٍّ بالوَصِيَّة . ويقولون: إن القيامَ على أمير المؤمنين عثمانَ بنِ عَفّانَ رضى الله عنه وحَصْرَه فى الدار كان واجبًا لآعتقادهم عدمَ صحّة خلافته مع وجود عَلِىٍّ رضى الله عنـه ، وإن المتأخِّرعن حَصْرِه كان مُخطِئًا . ويرَوْنَ جوازَ التَّقِيَّة خوفًا على النَّفس، وأنّ عليًّا رضى الله عنه إنمـا تأخّرعن طلَب الإمامة عنـد قيامِ من [كان] قبْله بها تَقِيَّةً علىٰ نَفْسه . ويرَوْنَ أنّ مَن أعان أميرَ المؤمنين عُمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنـه على الخلافة كان مُخْطِئًا : لبُطلان خِلافته بترتُّبها علىٰ خلافة أبى بكرٍ ووُجودِ عَلِىٍّ الذى هو أحَقّ بها . ويزعُمون أنّ الصِّدِّيق رضى الله عنه مَنَع فاطمةَ رضى الله عنها حَقَّها من إرْثِها من رسول الله صلّى الله عليه وسلم تَعَدِّيًا، وأنّ

مَن ساعد فى تَقْديم تَيْم بخلافة أبى بكر ، أو تقديم عَدِىٍّ بخلافة عمر ، أو تقديم أُمَيَّةَ بخلافة عثمان كان مُخْطِئًا . ويزعمون أنَّ عمر رضى الله عنه لم يُصِبْ فى جَعْل الأمرِ شُورى بين بَقِيَّة العَشَرةِ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لاستحقاق تَقَدُّم علىٍّ على الجميع .

ويصَوِّبُون قولَ حسان بن ثابت رضى الله عنه فيما كان من موافقته فى حديث الإفْكِ فى حَقِّ عائِشَةَ رضى الله عنها ، ولا يَرَوْنَ تَكْذيبَه فى ذلك . ويَرَوْنَ أنَّ عائشة أمَّ المؤمنين رضى الله عنها كانت مُخْطِئةً فى قيامها علىٰ علىٍّ يوم الجمل ، وأنَّ مَن قام معها كان مُخْطِئًا للموافقة على الخَطَإ .

ويقولون إنَّ من قام مع معاوية علىٰ علىٍّ بِصِفِّينَ وشَهَر السَّيْفَ معه عليه فقد ارتكب محظورا . وينكرون ما وقع من زِيَادِ بن أبيه من الدَّعوى الباطلة . وذلك أنه بعد قَتْل الحُسَين عليه السلام جهَّز جَيْشًا إلى المدينة النبوية مع مُسْلم بن عبد الله فقتلُوا وسَبَوْا وبايعُوا من تَبِعهم علىٰ أنهم خَوَلٌ ليَزيدَ .

ويقولون : ببُطلان حُكْم ابن مَرْجانَةَ . ويعُدُّون من العظائم قِيامَ عُمَر بن سعد فى قتال الحُسَينِ ، وحَقِيقٌ أن يُنْكِروا عليه ذلك ويَسْتعظِمُوه ! فقد قِيلَ : إنه بعد قَتْله أمَر جماعةً فوطِئُوا صَدْر الحُسَيْنِ وظَهْرَه بالخَيْل ، وكان يَزِيدُ قاتله الله قد أمره بذٰلك .

ويَرَوْن أن الأمْر صار بعد الحَسَنِ عليه السلام إلىٰ أخيه الحُسَيْنِ ، ويقولون : إنَّ الإمامة عند الحَسَنِ مُسْتَوْدَعَةٌ لامُسْتقِرَّةٌ ، ولذلك لم تَثْبُتْ فى بَنِيه . ويعُدّون من العظائم فِعْلَ شَمِر بن [ذى] الجَوْشن : وهو الذى احْتَزَّ رأْسَ الحُسَينِ، وأنَّ مَن ساعده علىٰ ذلك مُرتَكِبُ أعظَمَ محظوراتٍ بأشَدِّ بَلِيَّة ، وحَقِيقٌ ذلك أن يستعظموه! فأىُّ جَرِيمَةٍ أعظَمُ من قَتْل سِبْط رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

وقد ذكر صاحبُ "نَظْم السِّمْط فى خَبَر السِّبْط" : أنه وُجِد فى حَجَرٍ مكْتُوب قبل البِعْثة بألفِ سَنَةٍ ما صُورَتُه :

أترجُو أمّةٌ قتلَتْ حُسَيناً ٭ شفاعةَ جَدِّه يومَ الحِسابِ؟

ويُقال : إنّ الذى ٱحْتَزّ رأسَ الحُسَينِ إنما هو سِنانُ بن أَنَس النَّخَعِىّ . ويعُدُّون من العظائم أيضا سَبْىَ مُعاوِيَةَ أهْلَ البَيْت عند غَلَبَة علِىٍّ رضى الله عنه بصِفِّينَ وسَوْقَهُم معه إلىٰ دِمَشْقَ سَوْقًا بالعِصِىّ . ويرَوْن أنّ خِلافةَ يَزِيدَ بنِ مُعاوِيةَ كانت من أعْظَم البلايا ، وأن المُغِيرَةَ بنَ شُعْبة أخطأ حيثُ أشار علىٰ معاوية بها . ويقولون بالتّبَرّى من عَمْرو بن العاص رضى الله عنه لانْتِمائه إلىٰ معاوية ، وخَدِيعَته أبا مُوسى الأشْعرىّ يوم الحَكَمَيْنِ حتى خَلَع عَلِيًّا ، وإنّ من ظَاهَره أو عَاضَده كان مُخْطِئا .

وكذلك يتبرّءُون من بُسْر بن [أبى] أرطاة : لأنّ معاوية بعثه إلىٰ الحِجاز فى عَسْكَرٍ فدخل المدينةَ وسفَكَ بها الدِّماء ، وٱستكره الناسَ علىٰ البَيْعة لمعاوية ، وتوجه إلىٰ اليَمَن بعد ذلك فوجد صَبِيَّيْنِ لعبيد الله بن عَبّاس عامِلَيْنِ[1] علىٰ اليَمَن فقتلهما .

ويرَوْن تَخْطِئةَ عُقْبَةَ بن عبد الله المزى ، ويَقْدحُون فى رَأْيِ الخوارج : وهم الذين خَرجُوا علىٰ علىّ رضى الله عنه بعد حَرْبِ صِفِّينَ ، علىٰ ما تقدم ذكره [فى الكلام علىٰ أَيْمانِ الخوارج : وهو مُفارقَتُهم عَلِيًّا رضى الله عنه ، وتَخْطِئتُهم له فى الغنائم .

ويقولون : إنّ الامامة ٱنتقلت بعد الحُسَينِ السِّبْط عليه السلام فى أبنائه إلىٰ تَمامِ الاثْنَى عَشَر . فٱنتقلت بعد الحُسَينِ إلى ٱبنه زَيْنِ العَابِدِين ، ثم إلىٰ ٱبنه محمد

(١) صوابه "عامل علىّ على اليمن" والصبيان هما قثم وعبد الرحمن ٱبنا عبيد الله انظرج ٣ ص ١٦٦ من الكامل لابن الأثير .

البَاقِر، ثم إلىٰ ٱبنه جَعْفَر الصَّادِق، ثم إلى ٱبنه مُوسى الكاظم، ثم إلىٰ ٱبنِه علىّ الرِّضا، ثم إلىٰ ٱبنه محمد التَّقِىّ، ثم إلىٰ ٱبنه على النَّقِى، ثم إلىٰ ٱبنه الحَسَن الزَّكىّ، ثم إلىٰ ٱبنه محمد الحُجَّة، وهو المَهدِىُّ المنتَظَر عندهم، علىٰ ما تقدّم ذكره فى أوّل الكلام علىٰ هذه الفِرْقَة، وإنَّ من خالَفَ ذلك فقد خالف الصَّواب .

ويستعظمون دَلالةَ من دَلَّ بَنِى أُمَيَّةَ وبنى العَبَّاس علىٰ مَقَاتل أَهْلِ البَيْت . أما دَلالةُ بَنِى أُمَيَّة، فبعد غَلَبة مُعاوِية بِصِفِّينَ . وأما دَلالةُ بَنِى العَبَّاس، فعند تَنازُع بَنِى العَبَّاس وأهْلِ البَيْت فى طَلَب الخلافة، زمنَ أبى جَعْفر المنصور وما بعده .

ويقولون : ببقاء حُكْم المُتْعة : وهى النكاح المُؤَقَّتُ الذى كان فى صَدْر الإسلام . ويُشَنِّعون علىٰ نَجْدة بن عامر الحَنَفى الخارِجىّ حيث زاد فى حَدِّ الخَمْر، وغلَّظ فيه تَغْليظًا شديدا، كما حكاه الشَّهْرَسْتَانىُّ عنهم .

ويستعظِمُون البراءة من شِيعَةِ أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه، وٱتِّبَاعَ أَهْوِيَة أَهْل الشام من مُتَابِعى بنى أُمَيَّة والغَوْغاء القائمين بالنَّهْروان : وهُم الخوارجُ الذين خالَفُوا عَلِيًّا بعد قَضِيَّة التحكيم بِصِفِّينَ، وأقاموا بالنَّهروان من العراق لقتال علىّ، ورئيسُهم يومئذ عبدُ الله بنُ وَهب، فسار اليهم علىٌّ وكانوا أربعةَ آلافٍ فقُتِلوا عن آخرهم[(١)]، ولم يُقْتَل من أصحاب علىّ سِوىٰ سبعة أنْفُس .

ويرون أن أبا موسى الأشْعَرِىَّ رضى الله عنه أخطأ فى مُوافقته عَمْرو بن العَاص رضى الله عنه : حيثُ حكم بخَلْع علىّ ولم يَخْلَع عمرُو معاوية .

ويعتمدون فى القُرءان الكريم علىٰ مُصْحَف عَبْد الله بن مسعود رضى الله عنه، دون المُصْحَف الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم، فلا يُثْبِتُونَ مالم يَثْبُتْ فيه قُرءانا .

(١) أى ولم يبق منهم سوى تسعة تفرّقوا فى الجهات كما تقدّم .

ويتبرءون من فعل ابن مُلْجَم فى قتله أميرَ المؤمنين رضى الله عنه، وحقٌّ لهم التّبرّى من ذلك .

ويرون أنّ موالاةَ ابن مُلْجَم وإسعافَه فى صَداقِ زَوْجته قَطامِ جَريرةٌ .

ويرون محبة قبيلة هَمْدَانَ من المَحْبوبِ المطلوب : لمشايعتهم عليًّا رضى الله عنه ومحبّتهم أهْلَ البَيْتِ كما هو المشهور عنهم ؛ حَتّى يُحكَىٰ أنّ أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه صَعِدَ يومًا المِنْبَر وقال : ألَا لا يُنْكِحَنَّ أحَدٌ منكم الحسَنَ بنَ علىٍّ فإنه مطْلَاقٌ ، فنَهضَ رَجلٌ من هَمْدَانَ وقال : والله لنُنْكِحَنَّهُ ثم لَنُنْكِحَنَّهُ ! إنْ أَمْهَر أمْهر كَثيفًا ، وإنْ أَوْلَدَ أَوْلَدَ شَرِيفا ! . فقال علىٌّ رضى الله عنه حينئذ :

أو كُنتُ بَوّابًا على باب جَنَّةٍ * لقُلْتُ لهَمْدانَ ادْخُلى بسَلَامِ!

ويقولون باشتراط العِصْمَةِ فى الأئمّة ، فلا يكونُ من ليس بمعْصوم عندهم إماما .

وقد رَتَّب فى "التعريف" يمينَهم علىٰ هذه العقائد ، فقال : وهؤلاء يمينُهم هى :

إنّنى والله والله العظيم ، الرَّبِّ الواحدِ الأحَدِ ، الفَرْدِ الصَّمَد ، وما أعتقِدُه من صِدْق محمدٍ صلى الله عليه وسلم ونَصِّه علىٰ إمامة ابن عَمّه ووارِثِ عِلْمه علىِّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه يوم غَديرِ خُمّ ، وقولِه : « مَنْ كنتُ مولاه فعلىٌّ مولاه اللّهمَّ والِ مَنْ والاه! وعادِ مَنْ عاداه! وأدِرِ الحَقَّ علىٰ لِسانه كيفما دار! » . وإلّا كنتُ مع أوّل قائم يوم السَّقيفَة ، وآخرِ متأخّرٍ يوم الدَّار ، ولم أقُلْ بجواز التَّقيَّة خوفًا على النَّفْس ، وأعَنتُ ابْنَ الخطّاب ، واضطهدتُ فاطمة ، ومنعتُها حقَّها من الإرْث ، وساعدتُ فى تَقْديم تَيْمٍ وعَدِىٍّ وأُميّة ، ورضيتُ بحُكْم الشُّورَىٰ ، وكذّبتُ حسّانَ بنَ

ثابت يوم عائشة، وقمتُ معها يومَ الجمل، وشهرتُ السيفَ مع معاوية يوم صِفّين، وصدّقتُ دَعْوى زياد، ونزلتُ على حُكم ابن مَرْجانة، وكُنتُ مع عُمَر بن سعد فى قتال الحُسَين، وقلتُ: إنّ الأمر لم يَصِر بعد الحسن إلى الحُسَين، وساعدتُ شَمِر ابن [ذى] الجَوْشن على فعل تلك البليّة، وسَبَيْتُ أهلَ البيت وسُقتُهم بالعِصىّ إلى دمشق، ورَضِيتُ بإمارة يَزيد، وأطعتُ المُغيرة بن شُعْبة، وكنتُ ظهيرا لعمرو بن العاص، ثم لبُسْر بن [أبى] أرطاة، وفعلتُ فِعْل عُقْبة بن عبدالله [المزى][1] وصدّقتُ رأى الخوارج، وقلتُ: إن الأمر لم ينتقل بعد الحُسَين بن علىّ فى أبنائه إلى تمام الأئمة، إلى الإمام المَهْدىّ المنتظر، ودللتُ على مَقاتل أهل البيت بنى أُميّة وبنى العبّاس، وأبطلتُ حُكم التمتّع، وزدتُ فى حدّ الخمر مالم يكن، وحرّمتُ بيعَ أمّهات الأولاد، وقلتُ: برأيى فى الدّين، وبرئتُ من شيعة أمير المؤمنين، وكنتُ مع هوى أهل الشام والغَوْغاء القائمة بالنَّهْروان، واتّبعتُ خطأ أبى موسى، وأدخلتُ فى القرءان مالم يُثبته ابنُ مسعود، وشركتُ ابن مُلْجَم وأسعدته فى صَداق قَطام، وبرئتُ من محبّة هَمْدان، ولم أقُل باشتراط العِصْمة فى الإمام، ودخلتُ مع أهل النصب الظُّلّام.

قلتُ: قد ذكر فى "التعريف" فِرْقة الإمامية هذه من الشّيعة الذين بهذه المملكة، ولم أعلم أين مكانُهم منها.

الفِرْقة الثالثة
(من الشّيعة الإسماعيلية)

وهم القائلون بإمامة إسماعيلَ بن جعفر الصّادق، وأنّ الأمامةَ انتقلتْ إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم المقدّم ذكره فى الكلام على فِرْقة الإماميّة. وهم

(١) الزيادة من "التعريف" (ص ١٥٩).

يوافقون الإماميَّةَ المقدَّمَ ذِكْرُهم فى سَوْقِ الامامة من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلى جعْفر الصَّادِق، ثم يَعْدِلُون بها عن مُوسَى الكَاظِم الذى هو الامام عند الإماميَّة إلى إسْماعِيلَ هـذا، ثم يَسُوقونها فى بَنِيه، فيقولون : إنَّ الإمامة آنتقلَتْ بعد أمير المؤمنين علىٍّ رضى الله عنه إلى آبنه الحَسَن، ثم إلى أخيه الحُسَيْن، ثم إلى آبنه علىٍّ زَيْنِ العَابِدِينَ، ثم إلى آبنه محمد البَاقِر، ثم إلى آبنه جعْفر الصَّادِق، ثم إلى آبنه إسماعيلَ ـ الذى تُنْسَبُ إليه هذه الفِرْقَةُ ـ بالنَّصِّ من أبيه . فمن قائل: إن أباه مات قبله، وآنتقلت الإمامةُ إليه بمَوْته . ومن قائلٍ : إنه مات قبل أبيه . وفائدة النَّصّ ثُبوتُها فى بَنِيه بَعْدَه . ثم يقولون : إنها آنتقلت من إسماعيلَ المذكورِ إلى آبنِه محمد المَكْتُوم، ثم إلى آبنه جعْفر الصدق[1]، ثم إلى آبنه محمد الحبيب، ثم إلى آبنه عُبَيدالله المَهْدِىّ أوّل خلفاء الفاطميين ببلاد المَغْرب، وهو جدّ الخُلَفاءِ الفاطِمِيِّينَ بمِصْر، ثم إلى آبنه القائم بأمْرِ الله أبى القاسم محمد : ثانى خُلَفاءِ الفاطميِّين ببلاد المَغْرِب، ثم إلى آبنه المنصور بالله أبى الطاهر إسماعيل : ثالث خلفاء الفاطِمِيِّين ببلاد المغرب، ثم إلى آبنه المُعِزّ لدين الله أبى تَمِيم مَعَدّ : أوّلِ خلفاء الفاطِمِيِّينَ بمِصْر بعد قيامه ببلاد المَغْرب (وهو بانِى القَاهِرَة)، ثم إلى آبنه العزيز بالله أبى المنصور نِزَار : ثانى خلفائهم بمصر، ثم إلى آبنه الحاكم بأمْرِ الله أبى علىٍّ المنصور : ثالثِ خُلَفائِهم بمصر، ثم إلى آبنه الظاهر لإعزازِ دينِ الله أبى الحَسَن علىٍّ : رابع خلفائهم بمصر، ثم إلى آبنه المُسْتَنْصِر بالله أبى تَمِيم مَعَدّ : خامس خلفائهم بمصر .

ثم من هَاهُنا آفترقتِ الإسماعيليةُ إلى فِرْقَتَيْنِ : مُسْتَعْلَوِيَّة ونِزَارِيَّة .

فأمّا المُسْتَعْلَوِيَّة فيقولون : إن الإمامةَ آنتقلتْ بعد المُسْتَنْصر بالله المقدّمِ ذِكْره إلى آبنه المُسْتَعْلِي بالله، أبى القاسِم أحمد : سادس خلفائهم بمصر، ثم إلى آبنه الآمِرِ

(١) كذا فى الأصول ووقع فى العبر «الصادق» .

بأحكامِ الله أبي عَليٍّ المنصور : سابع خُلَفائهم بمِصْر؛ ثم إلىٰ ٱبنــه[1] الحافظ لدين الله أبي المَيْمُون عَبـدِ المَجِيد بن أبي‌القاسم : ثامن خلفائهم بمِصْر؛ ثم إلىٰ ٱبنــه الظافِر بأمْرِ الله أبي المَنْصور إسْمـاعِيلَ ، تاسع خلفائهم بمصر؛ ثم إلىٰ ٱبنه الفَائِز بنَصْرِ الله أبي القاسم عِيسَى بن الظَّافِر : عاشر خُلَفائهم بمِصْر؛ ثم إلى العاضِـدِ لدين الله أبي مُحمد عَبْـد الله بن يُوسَف بنِ الحَافِظ : حادِي عَشَر خُلَفائهـم بمِصْر، وهو آخرهم حتَّى مات .

وأما النِّزارِيَّة فإنهم يقولون : إن الإمامةَ ٱنتقلتْ بعد المُسْتَنْصِر إلىٰ ٱبنه نِزَارٍ بالنَّصِّ من أبيه دونَ ٱبنِه المُسْتَعلِي ، ويستَنِدُون فى ذلك إلىٰ أنَّ الحَسَن بن الصَّبَّاح كان من تَلامِذَة أحمَد بن غطاش صاحِبِ قَلْعةِ أصْبهان وألموت، وكان شَهْمًا عالمـًا بالتَّعاليم والنُّجوم والسِّـحْر ، فٱتَّهمه ٱبن غطاش بالدَّعوة للفاطِمِيِّين خُلَفـاءِ مِصْر، فخاف وهَرَب منه إلىٰ مِصْر فى خلافة المُسْتَنصِر المقدَّمِ ذِكْرُه، فأكرمه وأمَرَه بدعاية النـاس إلىٰ إمامَتِه ، فقال له ٱبن الصَّباح : من الإمام بعـدك ؟ فقال له : ٱبني نِزَار، فعاد ٱبنُ الصَّباح من مِصْر إلى الشَّامِ والجَزِيرةِ وديار بَكْرٍ وبلاد الرُّوم، ودخل خُراسَانَ ، وعبر إلىٰ ما وراء النَّهر، وهو يدعو إلىٰ إمامةِ المستنصر وٱبنه نِزَار بعده . قال الشَّهرَسْتانىُّ فى "النِّحَلِ والمِلَل" : وصَعِد قَلْعةَ ألموت فى شَعْبان سـنة ثلاثٍ وثمـانين وأرْبَعِمائة وٱستَظْهر وتحصَّن .

ثم النِّزارِيَّة يزعُمون أنَّ نِزَارًا المذكورَ خرج من الإسكندرية حَمْلًا فى بَطْن جارِيَة، تَقِيَّةً علىٰ نَفْسِــه ، وخاضَ بِلادَ الأعداء حتَّى صار إلىٰ ألموت . ورأيتُ فى المُغرب

(١) الصواب «ثم الى الحافظ» وفى المقريزى ج ١ ص ٣٥٧ «ومن بعده الحافظ .... ٱبن الأمير أبي القاسم محمد» ووقع فى ج ٣ ص ٤٣١ من هـذا المطبوع «ثم ولى بعده ٱبن عمه الحافظ .... عبد الحميد بن الآمر أبي القاسم محمد الخ» وفيه بعض التصحيف فتنبه .

لأبن سَعيد أنه إنّما صار من عَقِبه مَن وَصل إلىٰ تِلْك البلاد ، وصارت الإمامةُ في بَنِيه هُنَاك .

والمستعلوية يُنْكِرون ذلك إنكارا ، ويقولون : إنه قُتِل[(١)] بالإسكندرية : سار إليه الأفْضلُ بنُ أمير الجُيوش وَزِيرُ المسْتَعلِي وحاصره بالإسكندرية ، ثم ظفر به وأتىٰ به إلىٰ المستعلى ، فبنىٰ عليه حائطين فمات ، ثم فرَّ بعضُ بَنِي نِزَار[(٢)] إلىٰ بلاد المشارق وأقام بالمَغْرِب ، والقائمُون بها الآنَ من وَلَدِه ، وهو الذى تَشهدُ به كُتبُ التواريخ : كمُغْرِب ٱبن سَعيد وغيره .

ثم الإسماعيليّةُ فى الجملة : من المُسْتَعْلويّة والنِّزاريّة يسمُّون أنفُسَهم أصحابَ الدَّعوة الهَادِيَة ، تبعًا لإمامهم إسْماعِيلَ المذكور ، فإنه كان يسمَّى صاحبَ الدَّعوة الهادِيَة .

قال فى "التعريف" : وهم وإن أظهرُوا الإسلامَ وقالوا بقَوْل الإمامية ، ثم خالفُوهم فى مُوسى الكاظم وقالوا : إنَّ الامامة لم تَصِرْ إلا إلىٰ أخِيه إسْماعِيلَ ، فإنَّهم طائفةٌ كافِرةٌ يعتقدُون التَّناسُخَ والحُلُول .

وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن مُلَخَّصَ مُعتَقَدِهم التَّناسُخُ . ثم قال : ولقد سألتُ المقدَّمَ عليهم والمُشارَ إليه فيهم : (وهو مُبارَك بن عُلْوان) عن مُعتَقَدِهم وجاذَبْتُه الحديثَ فى ذلك مِرارًا ، فظهر لى منه أنَّهم يرَوْنَ أنَّ الأرواحَ مَسْجونةٌ فى هذه الأجسام المكلَّفةِ بطاعة الإمام المطَهَّر علىٰ زَعْمِهم . فإذا ٱنتقلتْ على الطاعة

---

(١) لعل الصواب «فر الى الاسكندرية» ليستقيم الكلام بعد وقد ذكر المقريزى خبره ج ١ ص ٤٢٣ على وجه الصحة فتنبه .

(٢) كذا بالأصل ولعل مراده بلاد مشارق أفريقية كما سيأتى .

كانتْ قد تخلّصتْ وآنتقلت للأنوار العُلْوِيّة ، وإن آنتقلتْ على العِصْيانِ هَوَتْ فى الظُّلُماتِ السُّفْلِية .

وذكر فى "العبر" : أنّ منهم مَن يدّعى أُلُوهيَّةَ الإمامِ بنَوْع الحُلُول ، ومنهم من يدّعى رَجْعةَ من مات منَ الأئمّة بنَوْع التناسخ والرَّجْعة ، ومنهم من ينْتظِر مجىءَ من يُقْطَع بمَوْته ، ومنهم من ينتظر عَوْدَ الأمرِ إلىٰ أهْلِ البَيْت .

ثم المستَعْلِوِيَّة والنِّزارِيَّة يتّفِقون فى بَعْض المعتَقَدات ويخْتلِفُون فى بَعْضها .

فأمّا مايتفقون عليه من الآعتقاد، فهم يتّفِقُون علىٰ أنه لا بدّ من إمامٍ معصومٍ : ظاهرٍ أو مَسْتُور . فالأئمّة الظاهِرُون هم الذين يُظْهِرُون أنفُسَهم ويدْعُون الناس إلىٰ إمامتهم ، والمَسْتُورونَ هم الذين يَسْتَتِرُون ويُظهِرُون دُعاتَهم . وآخِرُ الظّاهِرين عندهم إسماعيلُ الذى يُنْسَبون إليه، وأوّلُ المستورين آبْنُه المكتوم . ومن مُعْتقَدِهم أنّ مَن مات ولم يعرِفْ إمامَ زَمانه أو لم يكن فى عُنُقه بَيْعةُ إمامٍ، مات مِيتةً جاهلِيّةً . ويرَوْن أن العِلْمَ لا يكون إلا بالتعليم من الأئمّة خاصّةً ، وأنّ الأئمّة هم هُداةُ الناس . ويقولون : إن للأئمّة أدْواراً فى كلّ دَوْرٍ منها سبعةُ أئمّة : ظاهرين أو مستورين . فإن كان أهلُ الدَّوْرِ ظاهرينَ يسمَّىٰ ذلك الدَّوْرُ دَوْرَ الكَشْف ، وإن كانوا مستورين يسمَّىٰ دَوْرَ السَّتْر . ويقولون بوجوب موالاة أهْلِ البَيْت ، ويتبرءُون ممّن خالفهم ، وينْسُبُونهم إلى الأَخْذ بالباطل ، والوُقُوع فى الضَّلال ، لا سيّما النَّواصِب ، وهم الطائفة المعروفة بالناصِبيّة أتْباعُ (١) ، ويرمُونَهم بالعظائم ، وينْسُبونهم إلى آعتِمادِ المُحال والأخْذ به . ومن خرج عندهم عن القَوْل بانتقال الإمامة بعد الحَسَن

(١) بياض فى الأصول .

السِّبْط عليه السلام ، ثم أخيه الحُسَيْن ، ثم فى أَئِمّتهم المتقدّمِ ذِكْرُهم ، إلى إمامهم إسماعيلَ الذى يُنْسَبون إليه بالنَّصّ الجَلِيّ ، فقد حادَ عن الحَقّ . وهم يعظمون (١) ويستعظمون القَدْح فيه ، وأن من وقع فى ذلك فقد آرتكب خَطأً كبيرا .

ولدُعاة الأَئمّة المستورين عندهم من المَكانة وعُلُوّ الرُّتْبة الرُّتْبةُ العُظْمىٰ ، لا سيّما الداعى القائمُ بذلك أوّلا : وهو الداعى إلىٰ محمد المكتوم أوّلِ أَئِمّتهم المستورين علىٰ ما تقدّم ذكره ، فإن له من الرُّتْبة عندهم فوقَ ما لغيره من الدُّعاة القائمين بعده .

وممّا آشتهر من أمْرِ الدُّعاةِ لأَئمّتهم المستورين أنه كان ممّن يُنْسَب إلى التَّشيُّع رجُلٌ آسمه رَمضان ، ويقال : انه صاحب كتاب "الميزان" فى نُصْرة الزندقة ، فوُلِد له وَلَدٌ يقال له : مَيْمونٌ ، نشأ علىٰ أُهْبَةٍ فى التَّشيع والعِلْم بأسرار الدُّعاء لأهْلِ البيت ، ثم نَشَأ لميمونٍ وَلَدٌ يقال له : عبدُالله ، وكان يعالج العيونَ ويَقْدحُها ، فسُمّىَ القَدّاح ، وآطَّلع علىٰ أسرار الدَّعْوة من أبيه ، وسار من نواحى كَرْخٍ وأَصْبهانَ إلى الأهواز والبَصْرةِ وسَلَمْيَةَ من أرْض الشام يدعُو الناسَ إلىٰ أهْلِ البَيْت ، ثم مات ونشأ له وَلَدٌ يسمَّى أحمد فقام مقام أبيه عبدِ الله القَدّاح فى الدَّعْوة ، وصَحِبه رجلٌ يقال له رستم آبن الحُسَيْنِ بن حَوْشب النَّجّارِ من أهل الكُوفَة ، فأرسله أحمدُ إلى اليَمَنِ ، فدعا الشِّيعةَ باليَمن إلىٰ عبد الله المَهْدىّ فأجابوه ، وكان أبو عبد الله الشِّيعىُّ من أهل صَنْعاءَ من اليَمن ، وقيل من أهْلِ الكُوفة ، يَصْحَبُ آبنَ حَوْشب ، فحَظِى عنده وبعثه إلى المغرب . ومن نسب أحدًا من هذه الدعاة إلىٰ آرتكابِ مَحْظُورٍ أو آحتقاب إثم فقد ضلَّ وخرج عن جادّة الصواب عندهم . ويَرَوْن تَخْطِئةَ من مالَأَ على الإمام عُبيدالله المَهْدىّ : أوّلِ أئمتهم القائمين ببلاد الغَرْب علىٰ ما تقدّم ، وآرتكابَه المحظورَ وضَلالَه عن

---

(١) بياض فى الأصول ولعله «امامهم إسماعيل» .

طريق الحقّ؛ وكذلك من خَذَل الناسَ عن آتّباع القائم بأمر الله بن عُبَيد الله المهدىّ ثانِى خلفائهم ببلاد المَغْرب، أو نقض الدولة علىٰ المُعِزّ لدين الله : أوّلِ خُلَفائهم بمصر؛ ويَرَوْنَ ذلك من أعظم العظائم، وأكبرِ الكبائر.

ومن أعيادهم العظيمةِ الخَطَرِ عندهم يومُ غَدِيرِخُمٍّ (بفتح الغَيْنِ المعجمة وكَسْر الدال المهملة وسكونِ المُثنّاة تحتُ وراءٍ مُهمَلةٍ فى الآخر، ثم خاء معجمة مضمومةٍ بعدها ميمٌ): وهو غَيْضَة بين مكّة والمدينةِ علىٰ ثلاثة أيام من الجُحْفَة. وسَبَبُ جَعْلهم له عِيدًا أنهم يذكرون أنّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لعَلِىٍّ رضى الله عنه: «اللّهُمّ من كنتُ مولاه فعَلِىٌّ مولاه، اللّهمّ وَالِ من وَالاه، وعَادِ من عَادَاه، وآنْصُرْ من نَصَره، وآخْذُل من خَذَله، وأَدِرِ الحقّ معه حَيْثُ دَار» علىٰ ما تقدّم نَحْوُه فى الكلام علىٰ يَمِينِ الإمامية.

وقد كان للخلفاء الفاطِمِيّينَ بمصر بهذا العيد آهتمامٌ عظيمٌ، ويكتُبون بالبِشَارة به إلىٰ أعمالهم، كما يكتُبون بالبِشارة بعيدِ الفِطْر وعِيدِ النَّحْر ونحوهما. ويَعتقدون فى أئمّتهم أنهم يعلمون ما يكون من الأمور الحادثة.

وقد ذكر المؤرِّخون عن عُبيد الله المهدىّ جَدّ الخلفاء الفاطِمِيِّين بمصر أنه حين بَنَى المَهْدِيّة بمشارق أفْرِيقِية من بلاد المَغْرِب طلَع علىٰ سُورِها ورَمَىٰ بسَهْم وقال إلىٰ حَدّ هذه الرمية يَنْتَهِى صاحبُ الحِمار، فخرج بالمَغْرب خارِجىٌّ يُعرَف بأبى يَزِيدَ صاحبِ الحِمَار، وقصد المَهْدِيّةَ حتّى آنتهىٰ إلىٰ حَدّ تلك الرمية؛ فرجع ولم يَصِلِ المَهْدِيّةَ.

وكان الحاكمُ بأمر الله أَحَدُ خُلَفاءِ مِصْرَ من عَقِب المهدىّ المذكور يدَّعى عِلْمَ الغَيْب علىٰ المِنْبر بالجامع المعروف به على القُرب من باب الفُتوح بالقاهرة، فكتبوا له بِطَاقَةً فيها :

بالظُّلمِ والجورِ قد رَضِينا * وليس بالكُفْرِ والحماقه

إن كنتَ أُوتيتَ علمَ غيب * بيِّنْ لنا كاتبَ البِطاقه

فترك ما كان يقوله ولم يَعُدْ إليه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ .

وهم يَقْدحون فى عَيَّاش[1] بن أبى الفُتوح الصِّنْهاجىّ وزيرِ الظَّافر : أحَدِ الخلفاء الفاطميِّين بمصر . وذلك أنَّه كان له وَلَدٌ حسَنُ الصُّورة آسمه نَصْر ، فأحبَّه الظافرُ المذكورُ حتَّى كان يأتى إليه لَيْلًا إلىٰ بَيْته ، فرَمَىٰ عيَّاشٌ الظافرَ بآبْنه ، وأمره أن يَسْتدعِيَه فاستدعاه ، فأتى إليه ليلةً على العادة ، فاجْتمع عيَّاشُ بن السلار[2] هو وآبنُه نَصْرٌ على الظافر وقتَلاه ، وهربا إلى الشام ، فأسرهما[3] الفرنج ، ثم فُدِى آبنُه وصُلِبَ علىٰ باب زويلة .

وهم يقدحون فى عيَّاشٍ المذكورِ ويَرْمُونه بالنِّفاق بسَبَبِ ما وقع منه فى حَقِّ الظافر من رَمْيِه بابنه وقتله إياه .

قلتُ : وعيَّاشٌ هذا هو الذى أشار إليه فى "التعريف" فى صُورَة يَمِينِ الإسماعيلية بابْنِ السلار . وهو وَهَمٌ منه ، إذ ليس عياشٌ بآبن السلار ، وإنما آبنُ السلار هو زَوْج أمّ عيَّاشٍ المذكور ، وكان قد وَزَرَ للظَّافرِ المذكورِ قبل رَبِيبه عيَّاش وتلقَّبَ بالعادل ، وآستولَىٰ على الأمْر حتَّى لم يَكُنْ للظافر معه كلامٌ ، ثم دَسَّ عليه رَبِيبَه

---

(١) كذا فى الأصول بالمثناة التحتية والشين المعجمة ووقع فى آبن الأثير والمقريزىّ بالموحدة والسين المهملة .

(٢) سيأتى بعد أسطر التنبيه على هذه النسبة .

(٣) عبارة آبن الأثير (ج ١١ ص ٧٩) باختصار : فقتل عباسا الفرنج وأسروا آبنه ثم فداه الملك الصالح طلائع بن رزيك منهم وصلبه على باب زويلة .

عَيَّاشُ مَنْ قَتَلَه ، ووُزِّر للظّافِر بعــده . فابنُ السلار هو العادلُ وَزِيرُ الظافر أوَّلًا لا عَيَّاشُ رَبِيبُه .

ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يُرمَىٰ أحَدٌ من آلِ بَيْتِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم لا سيَّما الأَئمَّةُ بكبيرة ، أو ينْسُبها [أحد] إليهم ، أو يُوالى لهم عَدُوًّا أو يُعادِى وَلِيًّا .

⁂

وأما مايختص به المُسْتعلَوية ، فانهم يُنكِرون إمامة نِزَارِ بن المُسْتَنْصِر المقدمِ ذِكْرُه ، ويكذِّبون النِّزارِيَّة فى قولهم : إن نِزارًا خرجَ حَمْلًا فى بَطْنِ جاريةٍ حتّى صار إلىٰ بلاد الشَّرق . ويقولون : إنه مات بالإسكندرية مِيتَةً ظاهرة . ويقولون : إنه نازع الحقَّ أهْلَه وجاذب [1] من حيث إن الحقَّ فى الإمامَةِ والخلافةِ كان لإمامهم المُسْتعْلِى بالله فادَّعاه لنَفْسه . ويقولون : إن شِيعَتَه على الباطل ، وموافَقَتَهم فى اعتقادهم إمامَتَه خَطأٌ . ويرَوْنَ من الضَّلال اتباعَ الحسَن بنِ الصَّبَّاح داعِيةِ نِزَارٍ والنّاقِلِ عن المُسْتَنْصِر النَّصَّ علىٰ إمامته ، ويرَوْنَ الكَوْنَ فى جُملةِ النِّزارِيَّة من أعظم الأضَالِيل ، لا سيَّما مَن كان فيهم آخِرَ أدْوار الأَئمَّة التى هى فى كلِّ دَوْرٍ سبعةُ أئمَّة ، علىٰ ما تقدم ذِكْرُه فى صَدْر الكلام علىٰ أصْلِ معْتقَد هذه الفِرْقة .

ثم هم يعظِّمُون راشِدالدين سِنَان : وهو رَجلٌ كان بقِلاعِ الدَّعْوة بأعمال طَرَابُلُس من البلاد الشامية فى زَمَنِ السلطان صَلاحِ الدِّين يوسُف بن أيُّوب ، انتهت رِياسَتُهم إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : وكان رَجُلًا صاحِبَ سِيميا ، فأراهُم بها ما أضَلَّ به عُقولَهم : من تَخْيِيل أشْخاصِ مَن مات منهم علىٰ طاعة أئمتهم فى جَنَّاتِ النعيم ، وأشْخاصِ مَن مات منهم علىٰ عِصْيانِ أئمَّتهم فى النار والجحيم ، فثَبَت ذلك

(١) بياض بالأصول ولعله : الخلافة ربَّها ، كما سيأتى نقلا عن التعريف .

عندهم وٱعتقدوه حَقًّا . ومن قدح فى ذلك فقد دَخَل فى أهْلِ الضلال . ويَقْدَحُون فى ٱبن السلار المقدَّمِ ذكْرُه ويسَفِّهون(١) رأْيَه فيما كان منه : من إزالَةِ الخُطْبَةِ للفاطِميِّين وحَطِّ رَايتِهم الصَّفراء والخُطْبةِ لبَنِى العَبَّاس ورَفْعِ رَايتِهم السَّوْداء ، وما كان منه من الفَعْلة التى ٱستولىٰ بها علىٰ قَصْر الفاطِميِّين ومَن فيه ، وأخْذِ أموالهم بعد مَوْتِ العاضد .

✤

وأما ما يختص به النِّزارِيَّة ، فانهم يقولون : إنَّ الأمْرَ صار إلىٰ نِزَارٍ بعد أبيه المُسْتَنْصِر علىٰ ما تقدّم ذكره ، وإن مَن جَحَد إمامتَه فقد أخْطَأ ، ويزعمون أنه خرج من الإسكَنْدِريَّة حَمْلًا فى بَطْنِ أَمَةٍ وخاضَ بلادَ أعْدائه الذين هم المُسْتَعلِويَّة بمِصْر حتَّى صار إلىٰ بلاد الشرق . ويقولون : إن الآسم يغير الصورة بمعنًى ؛ ويرَوْن أن الطَّعْنَ على الحَسَن بن الصَّباح المقدّم ذكْرُه فيما نَقَله عن المُسْتَنْصِر من قوله : الإمَامَة بَعْدى فى وَلَدِى نِزَارٍ من أعْظم الآثام ، ويعظِّمُون عَلاء الدِّين صاحِبَ قَلْعة ألموت ؛ وهى قَلْعةٌ بالطَّالقَان بناها السلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقِىّ . وذلك أنه أرسل عُقَابًا فَبَرَز فى مَكانها ؛ فلمَّا وَافَى مكانَها بنَىٰ فيه هذه القَلْعَةَ وسمّاها ألموت ، ومعناه تَعْلِيم العُقَاب .

وعَلاءُ الدِّين هذا هو ٱبن جلال الدِّين الحَسَن الملقَّب بإلكِيَا ، وهو من عَقِب الحَسَن بن الصَّبَّاح المقدّمِ ذكْرُه ، وكان أبوه جلالُ الدِّين قد أظهر شعائرَ الإسلام ، وكَتَب بذلك إلىٰ سائر بلاد الإسْماعِيلِيَّة بالعَجَم والشَّام فأُقِيمَتْ فيها ، ثم تُوفِّى بقلعة ألموت المذكورة فى سنة ثمان عشرةَ وستمائة ، فٱستولَى ٱبنُه علاءُ الدِّين هذا علىٰ قَلْعة

(١) لعل الصواب « ويسفهون رأى صلاح الدين يوسف بن أيوب » فانه هو الذى عمل ذلك العمل كما يشير إلىٰ ذلك فى اليمين الآتى والا فابن السلار قتل فى زمن الظافر .

ألموت المذكورة، وخالف رأى أبيه المذكور إلى مذهب النزارية، وصار رأسًا من رءوسهم، والتبرى منه عندهم من أشد الخطإ .

وأعلم أن أصل هذه الفرقة كانت بالبحرين فى المائة الثانية وما بعدها، ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ، نسبة إلى رجل منهم آسمه قرمط، خرج فيهم وآدعى النبوة وأنه أنزل عليه كتاب ، ثم ظهروا بالمشرق "بأصبهان" : فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى ، وآشتهروا هناك بالباطنية : لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون ، وبالملاحدة : لأن مذهبهم كله إلحاد ؛ ثم صاروا إلى الشام ، ونزلوا فيما حول طرابلس ، وأظهروا دعوتهم هناك ، وإليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة ، فيما حول طرابلس ، كمصياف ، والخوابى ، والقدموس ، وغـيرها .

ولما آفترقوا إلى مستعلوية ونزارية كما تقدم، أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية، عملًا بدعوة آبن الصباح المقدم ذكره ، وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين بمصر، وآشتهروا بآسم الفداوية، ووثبوا على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالشام مرات وهو راكب ليقتلوه فلم يتمكنوا منه . ثم صالحهم بعد ذلك على قلاعهم بأعمال طرابلس فى سنة آثنتين وسبعين وخمسمائة ؛ ثم آنتموا إلى ملوك مصر فى أيام الظاهر بيبرس، وآشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" نقلًا عن مقدمهم : مبارك بن علوان : أن كل من ملك مصر كان مظهرًا لهم . ولذلك يرون إتلاف نفوسهم فى طاعته : لما ينتقلون إليـه من النعيم الأكبر فى زعمهم . ورأيت نحو ذلك فى "أساس السياسة" لآبن ظافر ، وذكر أنهم يرون أن ملوك مصر كالنواب لأئمتهم : لقيامهم مقامهم .

أما أَيْمَانُهم التى يُحَلَّفون بها فقد قال فى "التعريف" جريًا على مُعْتَقَدِهم المتقدِّم : إن اليَمِينَ الجامعةَ لهم أن يقولَ : إنّنى وَاللهِ واللهِ الواحدِ الأحد ، الفَرْدِ الصَّمَد ، القَادِرِ القَاهِرِ ، الذى لاإلهَ إلا هُوَ ، وحَقِّ أَئمّةِ الحَقّ ، وهُداةِ الخَلْق ، عَلِيٍّ وَبنِيه أَئمّة الظُّهورِ والخَفاءِ ، وإلّا بَرِئْتُ من صحيحِ الوَلَاء ، وصَدَّقْتُ أَهْلَ الأباطيل ، وقُمْتُ مع فِرْقَةِ الضَّلال ، وآنتصبتُ مع النَّواصِبِ فى تقريرِ المُحال ، ولم أَقُلْ بانتقالِ الإمامة إلى السَّيد الحُسَينِ ، ثم إلى بَنِيهِ بالنَّصِّ الجَلِيِّ ، موصُولةً إلى جعفرٍ الصادق ، ثم إلى آبنه إسماعيلَ صاحِبِ الدَّعْوةِ الهَادِية ، والأَثَرةِ الباقية ، وإلّا قَدحتُ فى القَدّاح ، وأَثّمتُ الدَّاعِىَ الأوّل ، وسَعَيتُ فى آختلافِ الناس عليه ، ومالَأْتُ على السَّيِّد المَهْدِىّ ، وخذَلْتُ الناسَ عن القائم ، ونَقَضتُ الدَّولة على المُعِزّ ، وأنكرتُ أن يومَ غَدِيرِ خُمٍّ لايُعَدُّ فى الأعياد ، وقلتُ : أن لاعِلْمَ للأئمّةِ بما يكون ، وخالفتُ من آدّعَى لهم العلم بالحِدْثان ، ورميتُ آلَ بَيْتِ محمدٍ بالعظائم ، وقلتُ فيهم بالكبائر ، وواليتُ أعداءَهم ، وعاديتُ أولياءَهم .

قال : ثم من هنا تُزادُ النِّزارِيَّة : وإلّا جَحَدتُ أن يكونَ الأمرُ صار إلى نِزَارٍ ، وأنه أتى حَمْلًا فى بَطْنِ جاريةٍ لخَوْفِهِ خَوْضَ بلادِ الأعداء ، وأن الآسم لم يُغَيِّر الصورة . وإلا طَعَنتُ على الحَسَنِ بن الصَّبَّاح ، وبَرِئْتُ من المَوْلَى علاءِ الدِّين صاحب الأَلَمُوت ، ومن ناصِرِ الدين سِنَانٍ المُلَقَّبِ براشِد الدين ، وكنتُ أوّلَ المُعْتَدِين ، وقلتُ : إنَّ مارَوَوْه كان من الأباطيل ، ودخلتُ فى أهلِ الفِرْيةِ والأضاليل .

قال : وأمّا مَن سِواهم من الإسماعيلية المُنكِرِين لإمامة نِزَارٍ ، فيقال لهم عِوَضَ هذا : وإلا قُلْتُ : إن الأمرَ صار إلى نِزَارٍ ، وصدَّقْتُ القائلين أنه خرج حَمْلًا فى بطن

جارية، وأنكرتُ مِيتته الظاهرةَ بالإسكندرية، وآدّعيتُ أنه لم يُنازِع الحقَّ أهلَه، ويجاذِب الخلافةَ ربَّها، ووافقتُ شِيعتَه، وتبِعتُ الحسَن بن صبَّاح، وكنتُ فى التِّزارِيَّة آخِرَ الأدوار.

قال: ثم يجمعهم آخرَ اليمين أن يُقال: وإلَّا قلتُ مقالةَ آبن السَّلار فى النِّفاق وسدَّدتُ رأىَ آبن أيُّوبَ، وألقيتُ بيَدِى الرّايةَ الصَّفراءَ، ورفَعتُ السَّوداءَ، وفعلتُ فى أهْلِ القصْرِ تلك الفِعالَ، وتمحَّلتُ مثل ذلك المُحَال.

قلتُ: ما ذكره فى "التعريف" فيما تُزادُه التِّزارية: «ومِنْ ناصر الدِّينِ سِنَان المُلقَّبِ براشد الدِّين» وَهَمٌ: فانَّ سنانا المذكورَ إنَّما هو من إسماعيلية الشَّام الذين هم شِيعَة المُستعلويَّة لامن الإسماعيلية التِّزارِيَّة الذين هم ببلاد المَشْرق، علىٰ ما تقدّم بيانه. فكان من حقِّه أن يُلحِقَ ذلك بيَمِينِ مَن سواهم من الإسماعيلية الذين هم المستعلوية. وكذلك قوله: ثم يجمعهم آخرَ اليمين أن يقال: «وإلَّا قلتُ مقالة آبن السَّلار فى النِّفاق، وسدَّدتُ رأىَ آبن أيُّوب» إلىٰ آخره، فإنَّ ذلك ممّا يختص بالمُستعْلويَّة، لأن آبن السَّلار كان وزيرَ الظافر كما تقدّم، والظافرُ من جُمْلة الخلفاء القائمين بمِصْر بعد المُستعلي، الذين خالفتِ التِّزارِيَّةُ فى إمامتهم. وكذلك قَضِيَّةُ آبن أيُّوبَ إنما كانت مع العاضد آخرِ خُلَفائهم بمصر، وكلُّ ذلك مختصٌّ باسماعيلية الشَّام الذين هم شِيعَةُ المستعلوية دون التِّزارِيَّة، وحينئذٍ فكان من حقِّه أن يقتصِرَ فى زيادة يمين التزارية علىٰ آخر «وبرِئتُ من المَوْلىٰ علاءِ الدِّين صاحِبِ ألموت» ويزيدَ فى يمين مَن سواهم من الإسماعيلية بعد قوله آخر الأدوار: «وإلَّا برِئتُ من ناصر الدِّين سنان الملَقَّبِ براشِد الدِّين، وكنتُ أوّلَ المُعتَدِينَ، وقلتُ: إنَّ ماراه كان من الأباطيل، ودخلتُ فى أهْلِ الفِرْيَةِ والأضاليل» ثم يقول بعد ذلك: «وإلَّا قلتُ

مَقالةَ ٱبنِ السَّلار فى النِّفاق ، وسدَّدْتُ رَأْىَ ٱبن أيُّوبَ ، وألقيْتُ بيَدِى الرَّاية الصَّفْراءَ ، ورَفَعْت السَّوْداء ، وفعلتُ فى أهل القَصْر تلك الفعال ، وتمحَّلْتُ مثل ذلك المُحَال » .

الفِرْقة الرابعة
(من الشِّيعةِ الدُّرْزِيَّة)

قال فى "التعريف" : وهم أتباعُ أبى محمدٍ الدُّرْزِىّ . قال فى "التعريف" : وكان من أهْلِ مُوالاةِ الحاكم أبى عَلِىٍّ المنصورِ بن العزيزِ خليفةِ مصر . قال : وكانوا أوّلًا من الإسماعِيليَّة ، ثم خرجوا عن كلّ ما تَحَلَّوْه ، وهَدَموا كلَّ ما أثَّلُوه ، وهم يقولون برَجْعةِ الحاكم ، وأن الألوهية ٱنتهتْ إليه وتديرت ناسُوتَه ، وهو يَغيبُ ويظْهر بهَيْئته ويقتُلُ أعْداءَه قتْل إبادةٍ لامَعادَ بعده ، بل ينكرون المَعادَ من حيثُ هو، ويقولون نَحْو قولِ الطبائعية : إن الطبائع هى المُوَلِّدة، والموتَ بفَناء الحرارة الغريزية ، كانْطفاءِ السراج بفَنَاء الزَّيْت إلا من ٱعتُبِط ، ويقولون : دَهْرٌ دائم ، وعالَمٌ قائم ، أرحامٌ تدفع ، وأرضٌ تَبْلع ، بعد أن ذكر أنهم يستبيحون فُروجَ المحارم وسائرَ الفروج المحرَّمة، وأنهم أشدّ كُفْرا ونِفاقًا من النُّصَيرِيَّة الآتِى ذِكْرُهم ، وأبعدُ من كلِّ خَيْرٍ وأقْربُ إلى كلِّ شَرٍّ .

ثم قال : وأصلُ هذه الطائفة هم الذين زادوا فى البَسْملة أيامَ الحاكم ، فكتبوا : بٱسم الحاكمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ، فلما أُنكِر عليهم كتبوا : بٱسم اللهِ الحاكم الرحمنِ الرحيم ، فجعلوا فى الأول اللهَ صِفَةً للحاكم ، وفى الثانى العكس . وذكر أن منهم أهل كَسْرَوان ومَنْ جاوَرَهم . ثم قال : وكان شَيخُنا ٱبن تَيْمِيَة رحمه الله تعالى يَرى

أنّ قتالهم وقتالَ النُّصَيْرِيّة أولى من قتال الأرْمَن : لأنهم عَدُوٌّ فى دار الإسلام وشرّ بقائهم أضرّ .

وقد رتّب على هذا المعتقد أيمانهم فى "التعريف" فقال : وهؤلاء أيمانهم .

إنّنى والله وحقّ الحاكم ، وما أعتقده فى مَوْلاىَ الحاكم ، وما اعتقده أبو محمد الدرزىّ الحجةُ الواضحه ، ورآه الدُّرْزىّ مثل الشّمس اللّائحه ، وإلا قلتُ : إن مَوْلاى الحاكِمَ مات وبَلِى ، وتفرّقت أوْصاله وفَنِى ، واعتقدتُ تبديلَ الأرض والسماء ، وعَوْدَ الرِّمَم بعد الفَناء ، وتبعتُ كلَّ جاهل ، وحظَرْتُ على نَفْسى ماأُبيح لى ، وعملتُ بيَدى على ما فيه فَسادُ بدنى ، وكفرتُ بالبَيْعة المأخوذه ، وألقيتُها ورائى منبوذه .

الفِــرْقة الخامســة

(من الشّيعة النُّصَيْرِيّة بضم النون وفتح الصاد المهملة)

قال فى "إرشاد القاصد" : وهم أتباع نُصَير غُلام أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم يدّعون ألوهية علىٍّ رضى الله عنه مُغالاةً فيه . قال الشَّهْرَسْتانىّ : [ولهم جماعةٌ ينصرون مَذْهَبهم ويَذُبّون عن أصحاب مقالاتهم] (١) قال : و بينهم خلافٌ فى كَيْفية إطلاقِ الأُلوهيَّة على الأئمة [من أهل البيت] (١) واختلافهم راجع (٢)

---

(١) الزيادة من «الملل والنحل» للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) بياض فى الأصول مقدار ثلاثة أسطر .

ويزعمون أن مَسْكن علىّ السَّحاب ، وإذا مرّ بهم السَّحابُ قالوا : السلامُ عليك يا أبا الحَسَن ، ويقولون : إن الرَّعدَ صَوْتُه ، والبرقَ ضحكُه ، وهم من أجلِ ذلك يعظِّمُون السَّحابَ ، ويقولون : إن سَلْمَانَ الفارِسىّ رَسُولُه ، وإن كَشْفَ الحِجابِ عمَّا يقولُه من أىّ كتابٍ بغيرِ إذْنٍ ضلالٌ ، ويُحبُّون آبنَ مُلْجَم قاتِلَ علىٍّ رضى الله عنه ، ويقولون : إنه خَلَّص اللّاهُوتَ من النَّاسُوت ، ويُخَطِّئُونَ من يلعنه .

قال فى "التعريف" : ولهم خطابٌ بينهم ، مَنْ خاطبوه به لا يَعودُ يرجع عنهم ولا يُذيعه ولو ضُرِب عُنُقُه . قال : وقد جُرِّب هذا كثيرا ، وهم ينكرون إنكاره .

قال فى "إرشاد القاصد" : وهم يُخفون مقالتَهم ، ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم ، ويرَوْن أنهم على الحقِّ ، وأنّ مقالتَهم مقالةُ أهل التَّحقِيق ، ومن أنكر ذلك فقد أخطأ .

قال فى "التعريف" : ولهم [آعتقاد] فى تعظيم الخَمْر ، ويَرَوْن أنها من النُّور . ولَزِمهم من ذلك أن عظَّمُوا شَجرة العِنَبِ التى هى أَصْلُ الخَمْرِ حتّى آستعظَمُوا قَلْعَها . ويزعمون أن الصِّدِّيق وأمير المؤمنين عُمَر وأميرَ المؤمنين عُثمانَ رضى الله عنهم تعدَّوْا عليه ومنعُوه حقَّه(١) من الخلافة ، كما تعدَّىٰ قابِيلُ بن آدمَ عليه السلام علىٰ أخيه هابِيل ، وكما آعتدىٰ النُّمرود على الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كلُّ فِرْعَوْن من الفراعنة علىٰ نَبِىٍّ من الأنبياء عليهم السلام .

قال فى "التعريف" : وهى طائفةٌ ملعونةٌ مَرْذُولة مجوسيَّةُ المعْتَقَد ، لا تُحرِّم البناتِ ولا الأَخَواتِ ولا الأُمَّهاتِ . قال : ويُحكَىٰ عنهم فى هذا حكايات .

وقد رتَّب فى "التعريف" حَلِفَهم علىٰ مقتضىٰ هذا المعْتَقَد ، فقال : وأَيْمانُهم : إنّنى وحقِّ العلىّ الأعلىٰ ، وما أعتقدُه فى المَظْهرِ الأسنىٰ ، وحقِّ النُّورِ وما نشأ منه ،

(١) الضمير راجع الى "على بن أبى طالب" وان لم يذكر .

والسَّحابِ وساكِنِه . وإلّا برِئتُ من مولاى علىٍّ العلىِّ العظيم، ووَلَائِى له، ومظاهرِ الحقِّ، وكشفتُ حِجابَ سَلْمانَ بغير إذْن، وبرِئْتُ من دَعْوة الحجّة نُصَيْر، وخُضتُ مع الخائضين فى لَعْنةِ ابن مُلْجَم، وكفرتُ بالخطاب، وأذعتُ السِّرَّ المصُونَ، وأنكرتُ دعوىٰ أهْل التَّحقيق، وإلّا قلعتُ أصْل شجرة العِنَبِ من الأرْض بيدِى حتّى أجتثَّ أصُولَهَا وأمنع سَبِيلَها، وكنتُ مع قابيلَ علىٰ هابيلَ، ومع النُّمرودِ علىٰ إبراهيم، وهكذا مع كل فِرْعَوْن قام علىٰ صاحبه، إلىٰ أن ألقَى العَلِيَّ العظيمَ وهو علىَّ ساخِطٌ، وأبرأُ من قَوْل قَنْبَر، وأقول : إنه بالنار ما تَطَهَّر .

الطائفة الثالثة
(من أهل البِدَع القَدَرِيَّة)

وهم القائلون بأن لا قَدَرَ سابِقٌ، وأن الأمرَ أُنُفٌ : يعنى مُسْتأنَفًا، ولكنهم لما سمعوا قولَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم «القَدَرِيَّة مَجُوسُ هذه الأمَّة» قَلَبُوا الدليل وقالوا بمُوجَب الحديث، وقالوا : القَدَرِيَّة آسمٌ لمن يقول بسَبْقِ القَدَر. ثم غلَب عليهم آسم المُعْتزِلة بواسطة أن وَاصِلَ بنَ عَطاءٍ أحَدَ أئمَّتِهم كان يقرأ علىٰ الحَسَن البَصْرىِّ فاعْتزله بمسْألة خالفَه فيها . وهم يُسَمُّون أنفسهم أهْلَ التَّوحِيد [وأهلَ العَدْل] ويَعْنُون بالتوحيد نَفْىَ الصفات القديمة عن الله تعالىٰ : كالحياة والعِلْم والإرادة والقُدْرة، وأنه تعالىٰ حَىٌّ بذاته، [عالم بذاته] مُريدٌ بذاته، قادرٌ بذاته، لا بحَياةٍ وعِلْمٍ وإرادةٍ وقُدْرةٍ، ويَعْنون بالعَدْلِ أنّهم يقولون : إنَّ العبدَ إنما يستحقُّ الثَّوابَ والعِقابَ بفِعْله الطاعةَ والعِصْيانَ، باعتبار أنّه الخالقُ لأفعال نَفْسه دُونَ الله تعالىٰ، تنزيهًا له تعالىٰ عن أن يضاف إليه خَلْقُ الشَّرِّ : من كُفْرٍ ومَعْصِية . وإذا كان العبدُ هو الخالقَ لأفعال نَفْسه المُوجِدَ لها فليس قَدَرٌ سابِق .

ولهم أئمةٌ كثيرةٌ، لهم مُصنَّفات فى الأصول والفروع : منهم واصِلُ بنُ عطاء، وأبو الهُذَيل العَلّافُ، وإبراهيم النَّظّام، وبِشْرُ بنُ المُعتمِر، ومَعْمَر بن عَبّاد، وأبو عُثمان الجاحظ، [وأبو علىٍّ الجُبّائى](١) وابنُه أبو هاشم، وغيرُهم. وعندهم أنه لا قَدَر سابقٌ بل الأمر أُنُف، وأن الله تعالىٰ إنما يخلق الأفعال والمشيئة، وأن العبدَ هو المُكتسِبُ لأفعاله كما تقدّم.

وممّن عَلَتْ رتبتُه فيهم الجَعْدُ بن دِرْهَم، ٱجتمع علىٰ مَرْوانَ بنِ محمّد آخرِ خُلَفاء بنى أُمَيّة، وأخذ عنه مَرْوانُ مذهبَه فى القَوْل بالقَدَر وخَلْقِ القرءان، وعَلَتْ رُتبتُه عنده، وبه سُمّى مَرْوانُ المذكورُ الجَعْدىَّ. وكانت له واقعةٌ مع هشام بن عبد الملك ٱبن مَرْوانَ. ويستعظمون الإيمانَ بالقَدَر: خيرِه وشرِّه، ويتبرءون منه، وينكرون القول بأنَّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليُخْطِئَه وما أخطأه لم يكن ليُصيبَه. ويقولون: إذا كان أمرٌ مفروغٌ منه ففيم يُسدِّدُ الإنسانُ ويُقارِب؟. ويطعنون فى رُواة حديث: «ٱعْمَلوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له». ويتأوّلون قولَه تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾. ويَستعظِمون البراءةَ من ٱعتقادهم، ولِقاءَ الله تعالىٰ على القَوْل بأن الأمْرَ غيرُ أُنُف.

وقد رتَّب فى "التعريف" أَيْمانَهم علىٰ هذا المُعتقَد، فقال:

ويمينُهم: والله والله والله العظيم ذى الأَمْرِ الأُنُف، خالقِ الأفعالِ والمَشيئة. وإلّا قلتُ: بأن العبدَ غيرُ مُكتسِب، وأنَّ الجَعْدَ بنَ دِرْهَم مُحتقَبٌ، وقلتُ: إن هشامَ بنَ عبدِ الملك أصاب دمًا حلالاً منه، وإن مَرْوانَ بنَ محمد كان ضالّاً فى ٱتّباعه، وآمنتُ بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه، وقلتُ: إن ما أصابنى لم يكن ليُخْطِئَنى

(١) الزيادة عن «خطط المقريزى» ج ٢ ص ٣٤٨.

وما أخطأنى لم يكن ليصيبنى ، ولم أقل : إنه إذا كان أمرٌ قد فُرِغ منه ففيم أُسدِّد وأقارِبُ ، ولم أطعَنْ فى رُواةِ حديث « آعمَلوا فكُلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له » ولم أتأوَّلْ معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ . وبرِئتُ مما أعتقد ، ولَقِيتُ اللهَ وأنا أقول : إنَّ الأمرَ غيرُ أُنُف . وبالله التوفيق والعِصْمة .

المهيع الثانى

(فى الأيمان التى يُحلَّف بها أهلُ الكُفْرِ ممَّن قد يُحتاج إلىٰ تحليفه ، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مَن زعم منهم التَّمسُّكَ بشريعة نبىٍّ من الأنبياء عليهم السلام ، وهم أصحاب ثلاث ملَل)

الملّة الأولىٰ

(اليهود)

وآشتقاقُها من قولهم : هادَ إذا رجَع . ولزِمها هذا الآسْمُ من قَوْلِ مُوسَىٰ عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى رجَعْنا وتضرَّعْنا . ومُنتحِلُها اليهودُ المتمسّكون بشريعة مُوسَى عليه السلام . قال السلطان عِمادُ الدِّين صاحِبُ حماةَ فى تاريخه : وهم أعَمُّ من بنى إسرائيل : لأن كثيراً من أجناس العَرب والرُّوم وغيرهم قد دخلوا فى اليَهُودِيَّة وليسُوا من بنى إسرائيل . وكتابهم الذى يتمسكون به "التَّوراة" وهو الكتاب الذى أُنْزل علىٰ مُوسَى عليه السلام .

قال أبو جعفر النَّحَّاس، فى "صناعة الكُتَّاب" : وهى مُشْتَقَّةٌ من قولهم : وَرَتْ نَارِى ووَرِيَتْ، وأورَيْتُها إذا ٱسْتخرجْتَ ضَوْءَها : لأنه قد ٱستخرج بها أحكام شِرْعة موسىٰ عليه السلام، وكان النَّحَّاسُ يجنح إلىٰ أن لفظ التَّوراة عَرَبِىّ، والذى يظهر أنه عِبْرانىٌّ مُعَرَّب : لأن لغة مُوسَى عليه السلام كانت العِبْرانية، فناسب أن تكون من لُغَته التى يفهمُها قَوْمُه، قال الشَّهْرَسْتَانِىُّ فى "النِّحل والمِلَل" : وهى أوَل مُنَزَّلٍ علىٰ بنى إسرائيل سُمِّى كِتَابا، إذْ ماقبلها من المُنَزَّل إنما كان مَوَاعِظَ ونحوها . قال صاحِبُ حماة : وليس فيها ذِكْر القيامة ولا الدَّارِ الآخِرةِ ولا بَعْثٍ ولا جَنَّةٍ ولا نَارٍ، وكلُّ وَعِيدٍ يقع فيها إنمـا هو بمجازاة دُنْيوِيَّة، فيُوعَدُون علىٰ مجازاة الطَّاعة بالنَّصر علىٰ الأعداء، وطُولِ العُمْر، وسَعَةِ الرِّزق ونحو ذلك؛ ويوعدُون علىٰ الكُفْرِ والمعْصِيَةِ بالموت ومَنْع القَطْر والحُمَّيـات والحَرْب، وأن يَنْزِلَ عليهـم بدل المَطرِ الغُبَارُ والظُّلْمة ونحو ذلك، يشهدُ لما قاله قوله تعالىٰ : ﴿ فبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ . الآية، بجعـل الظُّلْم سببًا للتحريم . قال : وليس فيها أيضًا ذمُّ الدنيا، ولا طَلَبُ الزُّهْد فيها، ولا وظيفةُ صَلَواتٍ معلومة، بل فى التوراة الموجودة بأيديهم الآنَ نسبةُ أمورٍ إلى الأنبياء عليهم السلام من الأسباط وغيرهم لا تَحِلُّ حكايَتُها .

وٱعلم أنَّ التَّوراةَ علىٰ خَمْسةِ أسفار :

أوّلُـها — يشتملُ علىٰ بَدْءِ الخليقة والتاريخ من آدمَ إلىٰ يُوسُفَ عليه السلام .

وثانيها — فيه ٱستخدامُ المِصْرِيِّين بنى إسْرائيل، وظهورُ موسى عليـه السلام عليهم، وهَـلاكُ فِرْعَونَ، ونَصْبُ قُبَّة الزمان وهى قُبَّة [كان ينزل علىٰ مُوسَى فيهـا الوَحْى](١) وأحوالُ التِّيه، وإمامةُ هٰرُونَ عليه السلام؛ ونزولُ العَشْر كلمات فى الألواح

(١) بياض فى الأصل والتصحيح مما سيأتى قريبا . انظر ص ٢٥٨ من هذا الجزء .

علىٰ موسى عليه السلام ، وهى شبه مختصرٍ ممَّا فى التوراة يشتمل علىٰ أوامرَ ونواهٍ وسماعُ القَوْم كلامَ الله تعالىٰ . وقد أخبر الله تعالىٰ عنها بقوله : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ﴾ . قال مجاهد : وكانت الألواح من زُمُرُّذَةٍ خضراء، وقال ٱبن جُبَيرٍ : من ياقوتة حمراء، وقال أبو العالِيَة : من زَبَرْجَدٍ، وقال الحَسَن : من خَشَبٍ نزلتْ من السماء، ويقال : إنها كانت لَوْحَينِ . وإنما جاءت بلفظ الجَمْع : لأن الجمع قد يقع علىٰ الاثنين، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ والمراد ٱثنان .

وثالثها — فيه كيفية تَقْرِيب القَرَابِين علىٰ سبيل الإجمال .

ورابعها — فيه عَددُ القَوْمِ، وتَقْسِيمُ الأَرض بينهم، وأحوالُ الرُّسُل الذين بعثهم مُوسَى عليه السلام من الشام، وأخبارُ المَنِّ والسَّلْوىٰ والغَمام .

وخامسها — فيه أحكامُ التَّوْراةِ بتفصيل المُجْمل، وذِكْرُ وفاةِ هٰرُونَ ثم مُوسَى عليهما السلام، وخِلافةُ يُوشَعَ بن نون عليه السلام بعدهما .

ثم قد ذكر الشَّهْرَسْتانِىُّ وغيره أن فى التَّوراة البِشارَةَ بالمَسِيح عليه السلام، ثم بنَبِيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، إذ قد وردَ ذِكْرُ المَشِيحَا فى غيرِ مَوْضِع ، وأنه يخرج واحدٌ فى آخر الزمان ، هو الكَوْكَبُ المُضِيءُ الذى تُشْرِق الأرض بنُورِه . وغير خافٍ علىٰ ذى لُبٍّ أنَّ المرادَ بالمَشِيحَا المَسِيحُ عليه السلام، وأنَّ المرادَ بالذى يَخرجُ فى آخر الزمان نَبِيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ؛ بل ربَّما وقعتِ البِشَارة بهما جميعًا فى موضع واحدٍ، كما فى قوله : إن الله تعالىٰ جاءَ من طُورِسِيناء وظهر(١) من سَاعِير وعلن بفَارَان .

(١) كذا فى الشهرستانى أيضا وفى معجم البلدان لياقوت : وأشرق من ساعير واستعلن الخ .

وساعير هي جبال بيت المقدس حيث مظهر المسيح عليه السلام، وفاران جبال مكة حيث ظهر النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشهرستاني : ولما كانت الأسرار الإلهية ، والأنوار الربانية ، في الوحي والتنزيل ، [والمناجاة والتأويل](١) على ثلاث مراتب : مبدإ ووسط وكمال ، وكان المجيء أشبه شيء بالمبدإ ، والظهور أشبه بالوسط ، والعلن أشبه بالكمال ، عبر في التوراة عن ظهور صبح الشريعة [والتنزيل](١) بالمجيء [على طورسيناء](١) ، وعن طلوع شمسها بالظهور [على ساعير](١) ، وعن بلوغ درجة الكمال [والاستواء](١) بالعلن [على فاران](١) ، وقد عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه في التوراة حق المعرفة : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ . وقد ذكر المفسرون عن ابن عباس رضى الله عنه أن موسى عليه السلام لما ألقى الألواح عند رجوعه إلى قومه ، تكسرت فلم يبق منها إلا سدسها . ويروى أن التوراة كانت سبعين وسق بعير (٢) وأنها رفع منها ستة أسباعها وبقي السبع ، ففى الذى بقى الهدى والرحمة ، وفى الذى رفع تفصيل كل شيء .

وليعلم أن اليهود قد افترقوا على طوائف كثيرة ، المشهور منها طائفتان :

الطائفة الأولى

(المتفق على يهوديتهم ، وهم القراءون)

وهم وإن كانوا فرقتين(٣) ، فإنهم كالفرقة الواحدة ، إذ توراتهم واحدة ، ولا خلاف في أصل اليهودية بينهم . وقد اتفق الجميع على استخراج ستمائة وثلاث عشرة

(١) الزيادة عن «الملل والنحل» للشهرستانى (ص ١٢٥) .

(٢) بياض بأصله .

(٣) أى قرائين وربانيين بدليل ما يأتى .

فَرِيضةً من التَّوراة يتعبَّدُون بها . ثم كلُّهم متفقُونَ علىٰ نُبُوَّةِ مُوسَىٰ وهَرُونَ ويُوشَعَ عليهم السلام، وعلىٰ نُبُوَّةِ إبراهيم وإسْحٰق ويَعْقوب : وهو إسْرائيل ، والأسْباطِ : وهم بَنُوهُ الاثنا عشر الآتى ذكرهم آخرا (١) . وهم يَنْفرِدُون عن الطائفة الثانيـة الآتى ذكرها : وهى السَّامرة بنُبُوَّةِ أنبياءَ غيرِ مُوسَىٰ وهٰرُون ويُوشـع عليهم السـلام ، وينقلون عن يُوشَعَ تسعةَ عَشَرَ كتاباً زيادةً على التَّوراةِ يعبِّرون عنها بالنُّبُوَّات تعرفُ بالأُوَل .

ثم الرَّبَّانيُّون ينفرِدُون عن القَرَّائِين بشُرُوحٍ موضوعةٍ لفرائِضِ التَّوراة المتقـدِّمة الذِّكر، وضَعَها أحْبارُهم، وتَفْريعاتٍ على التَّوراة ينقلُونها عن مُوسَى عليه السلام .

ويَتَّفِقُ الرَّبَّانيُّون والقَرَّاءُون علىٰ أنَّهم يستقبلون صَخْرةَ بَيْتِ المَقْدس فى صَلاتهم، ويوجِّهُون لهـا مَوْتاهم، وعلىٰ أن الله تعالىٰ كلَّم مُوسَىٰ عليه السلام علىٰ طُورِسيناءَ : وهو جَبَلٌ فى رأس بَحْرِ القُلْزُم فى جهة الشَّمال علىٰ رَأْسِ جَزِيرةٍ فى آخره ، داخلٌ بين ذراعين يكْتنِفانه .

وهم مختلفون فى أمرين :

أحدهما ــ القولُ بالظَّاهِر والجُنُوح إلى التأويل . فالقَرَّاءُون يقفُون مع ظواهر نُصوص التَّوراةِ ، فيَحْملُون ما وقع فيها منسوباً إلى الله تعالىٰ : من ذِكْرِ الصُّورَة ، والتكلُّم ، والاسْتِواءِ على العَرْش، والنُّزُولِ علىٰ طُورِسيناءَ، ونحو ذلك علىٰ ظواهره، كما تقوله الظاهرية من المسـلمين، ويَنْجرُّونَ من ذلك إلى القَوْل بالتَّشْبِيه، والقَوْلِ بالجِهَـةِ . والرَّبَّانيُّون يذهبون إلىٰ تأويلِ ماوقع فى التَّوراة من ذلك كلِّه، كما تفعـل الأشْعَرِيَّة من المسلمين .

(١) أى فى ص ٢٦٤ من هذا الجزء .

الثانى — القَوْلُ بالقَدَر . فالرَّبَّانيُّون يقولون بأن لا قَدَرَ سابِق وأن الأمْرَ أُنُفٌ كما تقوله القَدَرِيَّة من المسلمين . والقرَّاءُون يقولون بسابق القَدَر كما تقوله الأشْعَرِيَّة . أما ماعَدا ذلك فكِلا الفَرِيقين يقولون : إن الله تعالىٰ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ واحِدٌ قادِرٌ ، وإنه تعالىٰ بعث مُوسَى بالحقّ ، وشَدّ أَزْرَهُ بأخيه هٰرُون . ويعظِّمُون التوراةَ التى هى كتابهم أتَمَّ التعظيم ، حتَّى إنهم يُقْسِمون بها كما يُقْسِم المسلمون بالقُرءان ، وكذلك العَشْر كلمات التى أُنْزِلَتْ علىٰ مُوسى عليه السلام فى الألواح الجَوْهر ؛ وقد تقدّم أنها مُخْتَصَرُ ما فى التوراة ، مشتملةٌ علىٰ أوامِرَ ونَوَاهٍ وسَماعِ كلامِ الله تعالىٰ ، وهم يحْلِفُون بها كما يحلِفون بالتَّوراة ، ويعظِّمونَ قُبَّة الزَّمان وما حَوَتْه : وهى القبةُ التى كان ينزِلُ علىٰ مُوسى فيها الوَحْيُ .

ومن أعظم أنواع الكُفْر عندهم تَعَبُّدُ فِرْعونَ وهامانَ لعنهما الله . (وكان آسمُ فِرْعونِ مُوسى فيما ذكره المفسرون الوَلِيدَ بنَ مُصْعَب ، وقيل : مُصْعَبُ بن الرَّيَّان . وآختلف فيه : فقيل كان من العمالقة . وقيل من النَّبط . وقال مجاهد : كان فارِسيًّا وهامانُ وَزِيره) والتَّبرِّى من إسرائيلَ (وهو يعقوبُ عليه السلام) ومَعْنَى إسرائيلَ فيما ذكره المفسرون «عبد الله» كأَنَّ « إِسْرا» عبد ، و« إيل » آسم الله تعالىٰ بالعِبرانية . وقيل : إسرا من السِّرِّ(1) ، وكأَنَّ إسرائيلَ هو الذى شدّده الله وأتْقَنَ خَلْقَه .

ومن أعْظَمِ العظائم عندهم الأَخْذُ بدينِ النَّصْرانية ، وتَصْدِيقُ مَرْيَمَ عليها السلام فى دعواها أنها حمَلَتْ من غير أن يَمَسَّها بَشَرٌ ، ويَرْمُونها بأنها حمَلتْ من يُوسُفَ النَّجَّار ، وهو رجلٌ من أقاربها كان يخْدُم البَيْتَ المقَدَّس معها ، ويرَوْنَ تبرِئَتها من ذلك جَرِيرةً تُقْتَرَف .

ويستعظمون الوُقُوعَ فى أمورٍ :

---

(1) لعله من الأسر كما يفيده ما بعده .

منها ـ القَوْلُ بإنكار خِطَابِ الله تعالىٰ لمُوسَى عليه السلام وسماعه له .

ومنها ـ تعمُّدُ طُورِسَيْنَاءَ الذى كَلَّمَ اللهُ تعالىٰ مُوسَى عليه بالقاذُورَات، ورَمْىُ صَخْرةِ بَيْتِ المَقْدِس التى هى قِبْلَتُهـم بالنَّجاسة، ومُشارَكةُ بُخْتُنَصَّرَ فى هَـدْمِ بيْتِ المَقْدِس وقَتْلِ بَنِى إسرائيلَ، و إلْقَاءُ العَذِرة علىٰ مَظَانِّ أسفار التَّوراة .

ومنها ـ الشُّربُ من النَّهرِ الذى آبْتُلِىَ به قَومُ طالُوتَ مَلِكِ بنى إسرائيل، والمَيْلُ إلىٰ جَالُوتَ مَلِكِ الكَنْعانِيِّين: وهو الذى قتله داودُ عليه السلام، ومُفارَقةُ شِيعَةِ طَالُوتَ الذين قاموا معه علىٰ جَالُوت. وذلك أنَّه لمَّا رُفِعت التَّوراةُ وتَسَلَّط علىٰ بنى إسرائيل عَدُوُّهم من الكَنْعانيِّين الذين مَلِكُهم جَالُوتُ ، كانت النُّبوَّةُ حينئذٍ فيهم فى شَمْعُونَ، وقيلَ فى شَمْوِيلَ، وقيل فى يُوشَعَ بن نُون، فقالوا له : إن كُنتَ صادقًا فابعث لنا مَلِكًا نُقاتِلْ فى سَبِيل الله ، فقال لهم ما أخبر اللهُ تعالىٰ به : ﴿ إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ولم يكن من سِبْطِ المُلْكِ، إذ كان المَلِك من سِبْطٍ مَعْروفٍ عندهم، فقيل : كان سَقَّاءً ، وقيـل : كان دَبَّاغًا، فأنكروا مُلْكَه عليهم، وقالوا كما أخبر الله تعالىٰ : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ الآية، فلمـا فَصَلَ طَالُوتُ بالجُنُود أراد الله تعالىٰ أن يُرِيَه مَن يُطِيعُـه فى القتال ممَّن يَعْصِيه، فسلَّط عليهم العَطَشَ وآبْتلاهم بنَهرٍ من حَوْلِهم، قيل : هو نَهر فِلَسْطِينَ ، وقيل : نَهْر بين الأُرْدُنِّ وفِلَسْطِينَ، فقال لهم طَالوتُ : ﴿ إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بنَهرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنَّه مِنِّى ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ .

ومنها ـ إنكارُ الأنبياء الذين بَعَثَهم اللهُ تعالىٰ إليهم : وهم مُوسَى وهٰرُونُ و يُوشَعُ ومَن بعدهم : من أنبيائهم عليهم السلام، ومَن قَبْلَهم : من إبراهِيمَ و إسْحٰق و يَعْقُوبَ صـلواتُ الله عليهم ، والأَسْـباطِ الاَثْنى عشر الآتى ذِكْرُهم ، والدَّلالَةُ علىٰ دَانيالَ

النبىّ عليه السلام حتّى قُتِل ، وإخبارُ فِرْعونِ مِصْرَ بمكان إرْمِياء النبىّ عليه السلام عند آختفائه بها ، والقيامُ مع البغى والفواجِر يوم يَحْيىٰ بن زَكَرِيّا عليهما السلام فى المُساعَدَة عليه .

ومنها ـ القولُ بأنّ النارَ التى أضاءَتْ لموسى عليه السلام من شَجَرة العَوْسَج بالطّريق عند مَسيره من مَدْيَنَ حتّى قصدها وكانَتْ وَسيلةً إلىٰ كلام الله تعالىٰ له نارُ إفْكٍ لا وُجودَ لها ، وكذلك أخْذُ الطُّرُق علىٰ مُوسىٰ عليه السلام عند توجُّهِه إلىٰ مَدْيَنَ فارًّا من فِرْعَونَ ، والقَوْلُ فى بَنات شُعَيْبٍ اللاتى سَقَى لهُنَّ مُوسىٰ عليه السلام بالعظائم ورَمْيُهنَّ بالقَبيح .

ومنها ـ الإجلابُ مع سَحَرة فِرْعونَ علىٰ مُوسَى عليه السلام والقيامُ معهم فى غَلَبته ، والتبرّى ممن آمَنَ منهم بمُوسَىٰ عليه السلام .

ومنها ـ قولُ مَن قال من آل فرعون : اَلْحاقَ اَلْحاقَ : لنُدْرِكَ من فَرَّ : من مُوسى وقَوْمِه عند خُرُوجهم ، كما أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ .

ومنها ـ الإشارةُ بتَخْليف تابُوتِ يُوسُفَ عليه السلام بمِصْرَ حين أراد مُوسىٰ عليه السلام نَقْلَه إلى الشّام ليَدْفِنَه عند آبائه : إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ : وذلك أنّهم جعلوا تابُوتَه فى أحَدِ شِقَّى النِّيل فأخْصَبَ وأجْدَبَ الجانبُ الآخَر ، فحوّلوه إلى الجانب الآخَر فأخْصَبَ ذلك الجانبُ وأجْدَبَ الجانبُ الأوّلُ ، فجعلوه وَسَط النِّيل فأخصبَ جانباهُ جميعا ، إلىٰ أن كان زَمَنُ مُوسىٰ عليه السلام وضَرَبَ النِّيلَ بعَصاه فآنفلَق عن التّابُوتِ . فأخذ فى نَقْله إلى الشام ليدفنه عند آبائه كما تقدّم . فأشار بعضُهم ببَقائه بمِصْر فوقَع فى مَحْظُورِ لمخالَفَة مُوسىٰ عليه السلام فيما يُرِيدُه .

ومنها ـ التَّسْلِيمُ للسَّامِرِىّ وتَصْـدِيقُه على الحوادث التى أحدثها فى اليَهُودِيَّة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام على السَّامرة فى الطائفة الثانية من اليَهُود .

ومنها ـ نُزولُ أَرِيحَا : مَدِينَةِ الجبَّارِينَ من بلاد فِلَسْطِينَ .

ومنها ـ الرِّضا بِفِعْل سَكَنَةِ سَدُومَ من بلاد فِلَسْطِينَ أيضا وهم قوم لُوط .

ومنها ـ مخالفةُ أحكامِ التَّوْراةِ التى ورد [الحَثُّ] فيها عليها .

ومنها ـ ٱسْتِباحَةُ السَّبْتِ بالعَمَلِ فيـه والعَدْوِ فيه : إذ ٱستباحَتُه عندهم تُوجِبُ هَـدْرَ دمِ مُسْتَبِيحه من حَيْثُ إنه مُسِخَ مَن مُسِخَ بٱسْتِباحَتِه قِرَدَةً وخَنازِيرَ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

ومنها ـ إنكارعيد المَظَلَّة وهو [سبعة أيام أولها الخامس عشر من تشرى](١) وعيد الحنكة وهو [ثمانية أيام يوقدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا وفى الليلة الثانية سراجين وهكذا حتى يكون فى الليلة الثامنة ثمانية سرج](١) وهما من أعظم أعيادهم .

ومنها ـ القَوْلُ بالبَداءِ على الله فى الأحكام، وهو أن يَخْطُرَ له غيرُ الخاطر الأول، وهو تعـالىٰ مُنَزَّهٌ عن ذٰلك، ورتَّبُوا عليـه مَنْعَ نَسْخِ الشرائع، ويزعُمُون أن النَّسْخَ يستلزم البَدَاء، وهو ممـا ٱتفق كافَّةُ اليَهُودِ علىٰ مَنْعه، علىٰ ما تقدّم أوّلا .

ومنها ـ ٱعتقادُ أنّ المسيحَ عليه السلام هو الموعُودُ به علىٰ لسان مُوسَى عليه السلام، المذكور بلَفْظ المَشِيحَا وغير ذلك، علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه .

ومنها ـ الٱنتِقالُ(٢) من دِينِ اليَهُودية إلىٰ ماسواها من الأديان، إذْ عندهم أنّ شريعةَ مُوسَى عليه السلام هى التى وقَعَ بها الٱبتداءُ، وبها وقع الٱختتامُ .

---

(١) بياض بالأصول والتصحيح من ج ٢ ص ٤٢٦ و ٤٢٨ من هذا المطبوع

(٢) هو عين ما بعده فى المعنى .

ومنها ـ الانتقالُ من اليهوديّة إلى ما عداها من الأديان : كالإسلامِ والنّصرانية وغيرِهما، فإنه يكون بمثابة المُرتدّ عند المسلمين .

ومنها ـ استباحةُ لحمِ الجمَل : فإنه محرَّمٌ عندهم ، ومن استباحه فقد ارتكب محظوراً عظيما عندهم ، وقد دخل ذلك فى عموم قوله تعالى إخباراً بما حرّم عليهم : ﴿ وعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ . يعنى ما ليس بمُنفرِج الأصابع كالإبل وما فى معناها .

ومنها ـ استباحةُ أكلِ الشَّحمِ خلا شحمَ الظَّهْر ، وهو ماعلا فإنه مُباحٌ لهم ؛ وعن ذلك أخبر اللهُ تعالى بقوله : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ والْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا مَاحَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ .

ومنها ـ استباحةُ أكلِ الحوَايا . قال ابن عباس وغيره : هى المَبَاعِرُ . وقال أبو عُبَيْدَةَ : هى ماتَحَوّىٰ من البَطْنِ أى استدار، والمراد شَحم الثَّرْبِ. وكذلك استباحةُ مااختلَطَ من الشَّحْمِ بعظْمٍ وهو شحمُ الألْيَةِ ، وعنه أخبر تعالى بقوله : ﴿ أوِ الحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ عطفًا على الشُّحومِ المحرَّمةِ . علىٰ أن بعض المفسّرين قد عطف قولَه تعالىٰ : ﴿ أَوِ الحَوَايَا أَوْ مَا اخْتلط بعظْمٍ ﴾ على المستثنى فى قوله : ﴿ إلّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما ﴾ . فحمله علىٰ الاستباحة، والموافقُ لما يدّعُونه الأوّلُ ، و يرَوْنَ أن سبَبَ نزولِ هذه الآية أنّ اليهودَ قالوا لم يحرِّمْ علينا شىءٌ إنما حرَّم إسرائيلُ علىٰ نفسه الثَّرْبَ وشحمَ الألْيَة فنحْنُ نُحرِّمه، فنزلت . علىٰ أنّ اليهودَ القرّائين والرَّبّانيّين يَحْمِلُونها فيبيعونها و يأكلون ثمنها، و يتأوَّلون أن آكِلَ ثمنِها غيرُ آكِلٍ منها، و إلىٰ ذلك الإشارةُ بقوله صلى الله عليه وسلم : «قاتَلَ اللهُ اليهودَ! حُرِّمَتْ عليهم الشُّحُومُ فباعوها وأكلوا ثمنَها» والسامرة مخالفون فى ذلك ، و يقولون بتحريم الثَّمَنِ أيضًا، علىٰ ماسيأتى ذكره.

وليُعْلم أن القَرَّائِين والرَّبَّانِيِّينَ يُحَرِّمُون من الذَّبيحة كلَّ ما كانت رِئَتُه ملتصقةً بقلبه أو بِضِلَعه ، والسَّامرة لايُحرِّمون ذلك .

ومنها ـ مقالة أهل بابِلَ فى إبراهيم عليه السلام ، وهى قولهم (١) ... ...

ومنها ـ أن يُحَرِّم الأحْبارُ الذين هم عُلماؤُهم على الواحد منهم ، بمعنى أنهم يمنعونه من مُباحَاتِهم فى المآكِلِ والمشارِبِ والنِّكاح وغير ذلك حُرمةً يُجْمِعُون عليها ، ونتأكَّد بقَلْبِ حُصُرِ الكئاس عليها ، إذْ مِن عادتهم أنهم إذا حَرَّموا على شخص وأرادُوا التَّشْديد عليه قلبُوا حُصُر الكئاس عند ذلك التَّحْريم تَغْليظًا على المحرَّم عليه .

ومنها ـ الرُّجوعُ إلى التِّيه بعد الخروج منه ، فإنهم إنما خَرجُوا إليه عند سُخْط الله تعالى عليهم بمخالفة مُوسى عليه السلام عند آمتناعهم عما أُمِرُوا به من قتال الجَبَّارين ، كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ قَالَ فإنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال المفسِّرون : وكان تِيهُهُم سِتَّة فراسخَ فى أربعة فَراسخَ ، يمشُون كلَّ يوم ويبيتُون حيثُ يُصْبِحُون ، فأمر الله تعالى مُوسَى عليه السلام فضربَ الحجَر بعَصاهُ فانفجرَتْ منه آثنتا عشْرةَ عَيْنًا ، وكانوا آثنَيْ عشر سِبْطًا لكُلِّ سِبْطٍ عَيْنٌ ، فإذا أخذُوا حاجتَهم من الماء آحتبس وحَملُوا الحَجر معهم ، وكانت ثِيابُهم فيما يُرْوَى لا تُخَرَّق ولا تَتَدنَّس ، وتَطُولُ كلما طالَ الصِّبْيانُ .

ومنها ـ تحْريمُ المَنِّ والسَّلْوَى الذى آمتَنَّ الله تعالى عليهم به كما أخبر بذلك بقوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ والسَّلْوَى ﴾ ويقال إنه التَّرَنْجَبِينُ . وقال آبن عَبَّاس : والمراد بالمَنِّ الذى يسقُط على الشَّجر وهو معروف . قال قتادة : كان المَنُّ يسقُطُ عليهم من طلوع الفَجْر إلى طلوع الشَّمْس كسُقوط الثَّلج ، فيأخذ

(١) بياض بالأصول ولعله «انه لمن الظالمين فى تكسير أصنامهم» .

الرجلُ منهم ما يكفيه ليومه، فان أخذ أكثر من ذلك فسد . وأما السَّلوَىٰ، فقيل: هي طائرٌ كالسُّمانَى، وقال الضَّحَّاك : هي السُّمانَى نفسُها، وقال قتادةُ : هو طائرٌ إلى الحُمرة كانت تحشُره عليهم الجَنوب .

ومنها ـ التبرُّؤ من الأسباط : وهم أولادُ يعقوبَ عليهم السلام، وعددهُم اثنا عشر سِبْطًا : وهم يُوسُف، وبِنْيامِينُ، ونَفْتالِي(١)، ورُوبِيلُ، ويَهُوذَا، وشَمْعُونُ، ولَاوِي، ودَان ، وزَبْلُونُ(٢)، ويشجر، وجاد، وأشر؛ ومنهم تفرَّع جميعُ بَني إسرائيلَ ولَدَ كلٌّ منهم أُمَّةً من الناس . وسُمُّوا أسباطا أخذًا من السَّبْط وهو التابع، إذْ هُمْ جماعةٌ متتابعون . وقيل : من السَّبَط وهو الشَّجَرُ، فالسَّبْطُ الجماعة الراجعون إلىٰ أصْلٍ وَاحِدٍ .

ومنها ـ القعودُ عن حَرْبِ الجَبَّارين مع القُدْرة علىٰ حَرْبِهم : وذلك أنهم أُمِرُوا بدخول الأرض المقَدَّسة : وهي بَيْتُ المَقْدِس فيما قاله ابن عباس والسُّدِّي وغيرهما، والشامُ فيما قاله قَتادَةُ، ودِمَشْقُ وفِلَسْطِين وبَعضُ الأُرْدُنِّ فيما قاله الزَّجَّاج، وأرضُ الطُّورِ فيما قاله مُجاهِدٌ، وكان فيها قومٌ جبَّارُون من العَمالِقَة كما أخبر الله تعالىٰ، والجَبَّار هو المتعَظِّم الممتَنِعُ من الذُّلِّ والقَهْر أخذًا من الإجْبار : وهو الإكراه كأنَّه يجبرُ غيره علىٰ ما يُريدُه .

قال ابن عبَّاس : لما بَعَث مُوسَىٰ عليه السلام من قومه اثْنَيْ عَشر نَقيبًا ليُخْبِروه خَبَرهم، رآهم رَجُلٌ من الجبَّارِينَ فأخذَهُم في كُمِّه مع فاكِهَةٍ كان قد حَمَلها من بُسْتانه وجاء بهم إلى المَلِك فنثَرهم بين يَدَيْه، وقال : إن هٰؤُلاءِ يُريدون قِتالَنا ، وكان من أمْرِهم ما قصَّه الله تعالىٰ في كتابه بقوله : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه يا قَوْمِ ادْخُلُوا

(١) كذا في الكشاف للزمخشري (ج ١ ص ٣٨٠) وفي الأصل «نفتاى» .
(٢) في الأصل : ربولى، والتصحيح من الخطيب الشربيني (ج ٢ ص ٩١) .

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . فكان فى قعودهم عن حَرْب الجبارين مع القُدرَة والنَّشاط مخالَفةٌ لما أُمِرُوا به .

وقد رتَّب فى "التعريف" أَيْمانَ اليَهُود علىٰ هذا المقتضىٰ، فقال : وَيمِينُهم .

إننى واللهِ واللهِ واللهِ العَظيم ، القَديمِ الأَزَلِىِّ الفَرْدِ الصَّمَدِ الوَاحِدِ الأَحَدِ المُدرِكِ المُهلِكِ، باعِثِ مُوسىٰ بالحَقّ ، وشادِّ أَزْرِه بأخيه هٰرُونَ ، وحقِّ التوراة المكرَّمة وما فيها وما تضمَّنَتْه ، وحقِّ العَشرِ كَلِماتِ التى أُنزلَتْ علىٰ مُوسى فى الصُّحُف الجَوْهَر ، وما حَوَتْه قُبَّةُ الزَّمان ، وإلّا تعبّدتُ فِرْعونَ وهَامَان ، وبَرِئْتُ من بَنِى إسْرائيلَ ، ودِنْتُ بدِينِ النَّصرانية ، وصدَّقْتُ مَرْيَمَ فى دعواها ، وبَرَّأْتُ يُوسُفَ النَّجّار ، وأنكرتُ الخطاب ، وتعمدتُ الطُّورَ بالقاذُورات ، ورَمَيتُ الصَّخْرة بالنَّجاسَة ، وشَرِكْتُ بُخْتَنَصَّرَ فى هَدْم بيتِ المَقْدِس وقَتْل بنى إسرائيل ، وألقيتُ العَذِرة علىٰ مَظَانِّ الأسفار ، وكنتُ ممَّن شَرِب من النَّهَر ومال إلىٰ جَالُوتَ ، وفارقتُ شِيعةَ طَالُوتَ ، وأنكرتُ الأنبياء ، ودَلَلْتُ علىٰ دَانيالَ ، وأعلمتُ جَبَّارَ مِصر بمكان إرْمِياءَ ، وكنتُ مع البَغِىّ والفَواجِر يومَ يَحْيىَ ، وقلتُ : إن النَّارَ المُضيئة من شجرة العَوْسج نارُ إفْكٍ ، وأخذتُ الطُّرُقَ علىٰ مَدْيَنَ ، وقلتُ بالعَظائم فى بناتِ شُعَيْب ، وأجلبْتُ مع السَّحَرة علىٰ مُوسىٰ ، ثم بَرِئْتُ ممن آمن منهم ، وكنتُ مع من قال : الْمُحَاقَ الْمُحَاقَ

لتُدرِكَ من فَرّ، وأشرتُ بتخليف تابوت يوسف فى مصر، وسلّمت إلى السّامرىّ، ونزلتُ أريحا مدينةَ الجبّارين، ورضيتُ بفعل سَكَنة سَدُوم، وخالفتُ أحكامَ التّوراة، واستبحتُ السَّبْتَ وعَدَوتُ فيه، وقلتُ إن المَظَلّة ضَلال، وإن الحنكة مُحال، وقلتُ بالبَداء على الله تعالى فى الأحكام، وأجزتُ نَسْخَ الشرائع، واعتقدتُ أنّ عيسى بن مريمَ المَسيحُ الموْعُودُ به على لسان موسى بن عِمْرانَ، وانتقلتُ عن اليهودية إلى سِوَاهَا من الأديان، واستبحتُ لحمَ الجَمَلِ والشَّحْمَ والحَوَايَا أو ما اختلط بعظم، وتأوّلتُ أنّ آكِلَ ثَمَنِه غيرُ آكِلِه، وقلتُ مقالةَ أهلِ بابلَ فى إبراهيم، وإلّا أكونُ مُحَرَّمًا حُرمةً تُجْمِع عليها الأحْبار، وتُقْلَبُ عليها حُصُر الكنائس، ورُدِدتُ إلى التّيه، وحُرِمْتُ المنّ والسَّلْوى، وبرِئتُ من كلّ الأسباط، وقعدتُ عن حَرْبِ الجبّارِينَ مع القُدرة والنّشاط .

قلتُ : قوله فى هذه اليمين فى حُرْمة الشَّحْم وما فى معناه : وتأوّلتُ أنّ آكِلَ ثمنه غيرُ آكِلِه، بمعنى أنه يستعظم الوقوع فى تأوُّلِ ذلك، وهو خلاف مُعْتَقَدِهم : لأنهم يتأوّلون أن آكل ثَمَنِه غيرُ آكله كما تقدّم عنهم، وإنما تَمنع ذلك السّامرةُ، فكان من حقّه أن يُورِد ذلك فى يمينِ السّامرة وأن يقولَ هنا : ولم أتأوّلْ أن آكلَ ثَمنه غيرُ آكِلِه فتنبه لذلك .

واعْلم أنّ أوّلَ ما استُحْدِثتْ هذه الأيْمانُ لأهْلِ دِين اليهوديّة فيما ذكره محمدُ بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القلم والدّواة" فى زمن الفَضْلِ بن الرَّبيع وَزِيرِ الرَّشِيد، أحدثها كاتبٌ له قال له : كيف تُحلّف اليهودىَّ قال : أقول له : وإلّا برِئتَ من إلهكَ الذى لا تعبدُ غيرَه ولا تَدينُ إلّا له، ورَغِبْتَ عن دِينك الذى ارتضيته، وجحدتَ التّوراةَ وقلتَ : إنّ حمارَ العُزَيْرِ راكبُ جملِ موسى، ولعنكَ ثمانمائة

حَبْرٍ على لسان دَاوُدَ وعيسى بنِ مَرْيَم ، ومسخَك الله كما مَسَخ أصحاب السَّبْت ، فجعل منهم القِرَدَة والخَنازِيرَ ، وخالفت ما دوّنه دانيالُ وأشلوما ويُوحَنَّا ، ولقيتَ الله بدمِ يحيى بن زكريا ، وهدمتَ الطُّورَ صَخْرةً صَخْرةً ، وضربتَ بالنَّاقوس فى بَيْت المَقْدِس ، وتبرأ منكَ الأسباطُ وآباؤُهم : إسرائيلُ ، وإسحقُ ، وإبراهيمُ ، وغمستَ لحيةَ الجاثَلِيق فى مَعْمودِيَّة النَّصارىٰ ، وٱنقلبتَ عن السَّبْت إلى الأحد ، وإلَّا قدَّر اللهُ لكَ أن تلقَى الذى يخرج من الماء لَيْلَةَ السَّبْتِ ، وصيَّر اللهُ طعامَكَ لَحْمَ الخِنْزِير وكُروشَ الجِمالِ ومِعَدَ الخنازير ، وسلَّط اللهُ عليك وعلى أهلك بُخْتَنَصَّر ثانيةً يقتُلُ المقاتِلَةَ ويَسْبِي الذُّرِّيَّةَ ويُخرِّبُ المَدائِنَ ، وأراكَ اللهُ الأيدى التى تنالُ الرُّكَب من قبيل الأسباط ، وآخذكَ اللهُ بكلِّ لسانٍ جحدتَه وبكلِّ آيةٍ حرَّفتَها ، وقلتَ فى مُوسَى الزُّورَ ، وإنَّه فى محلِّ ثُبُورٍ ، وفى دارِ غُرُورٍ ، وجحدت إهْيا أشْرَاهْيا[1] أصبئوت آل شدّاء . وهذه اليمينُ لازمةٌ لكَ ولبَنِيكَ إلى يوم القيامة .

قلتُ : هذه اليمينُ فى غاية الإتقانِ والتَّشديد ، إلا أنَّ قولَه : وآخذكَ اللهُ بكلِّ لسانٍ جحدتَه وبكلِّ آيةٍ حرَّفتَها غير مناسب لتحليفهم : لأنهم يَرَوْن أن لا إثمَ عليهم فى الجَحْد ولا يعترفون بالتَّحريف بل يُنْكِرونه . على أن أكثرها غيرُ متوارِدٍ على اليمينِ التى أوردها فى "التعريف" : فلو ألحقها بها مُلحِقٌ فى آخرها على صيغة اليمين الأولى من إيرادها بصيغة التكلم ، مثل أن يقولَ : وإلا بَرِئْتُ من إلهى الذى لا أعْبُدُ غيرَه ولا أدِينُ إلَّا له ، وإلا رَغِبْتُ عن دِينى الذى ٱرتضيتُه ، وعلى ذلك فى الباقى ، لكان حَسَنًا .

---

(١) هكذا ضبطها فى القاموس ، ثم قال : ويقولون اهيا شراهيا وهو خطأ ، على ما زعمه أحبار اليهود .

الطائفـــــة الثـانية

(من اليَهُود السَّامِرَةُ)

وهم أتْباعُ السَّامِرىِّ الذى أخبر اللهُ تعـالىٰ عنه بقَوْله فى سُـورَة الأعْراف : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ . قال بعض المفَسّرِينَ : وآسمه مُوسَى بن ظفرٍ، وكان أصله من قَوْمٍ يعبدُون البَقر فرأىٰ جبريلَ عليه السلام مَرَّةً وقد جاء إلىٰ مُوسىٰ راكبًا علىٰ فَرَسِ الحَيَـاةِ ، فأخذ قَبْضَـةً من ترابٍ من تحتِ حافرِ فَرَسِه . وكان بَنُو إسرائيلَ قد خَرجُوا معهم حُلِيٌّ [اسـتعارُوه] من القِبْطِ ، فأمرهم هٰرُونُ أن يحفِروا حُفْرَةً ويُلقُوا فيهـا ذلك الحُلِيَّ حتَّى يأتىَ مُوسىٰ فيرىٰ فيـه رَأْيَه ، فجمعوا ذٰلك الحُلِيَّ كلَّه وألقَوْه فى تلك الحُفْرة، فجاء السَّامِرىُّ فألقىٰ ذلك الترابَ عليه، وقال له : كن عِجْلا جَسَـدًا له خُوَارٌ، فصار كذٰلك . قال الحَسَن : صار حَيَوانًا لحمًـا ودمًا . وقيل : بل صار يخُور ولم تَنْقلب عَيْنُـه . فقال لهم السَّامِرىُّ : هـذا إلهكم وإلٰهُ مُوسَىٰ، فعكَفوا علىٰ عبادته ، ونهاهُم هٰرُونُ فلم ينتهُوا (١) وحَرَّق العِجْلَ وذرّاه فى اليَمِّ كما أخبر الله تعـالىٰ عنـه بقوْله : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْـهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ . فأُمِروا بقَتْل أنفسهم كما أخبر تعـالىٰ بقوله : ﴿ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ الآية . فقُتِلَ منهـم سبعُون ألفا ثم رُفِع عنهم القَتْلُ بعد ذلك .

وقد آختُلِف فى السَّامِرَة : هل هم من اليَهُود أم لا؟ والقَرَّاءُون والرَّبَّانيُّون يُنْكِرون كون السَّامِرَة من اليَهُود . وقد قال أصحابنا الشافعية رحمهم الله : إنهم إن وافقت أصُولُهم أصُولَ اليهود فهم منهم حتَّى يُقَرُّوا بالجِزْيَة و إلا فلا .

(١) بياض بالأصل ولعله "فجاء موسىٰ وحرق الخ" .

ثم السَّامرة لهم توراةٌ تختصُّهم غيرُ التوراة التى بيد القرّائين والرَّبّانيين ، والتّوراة التى بيد النّصارى ؛ وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار نُبوّة مَن بعدَ مُوسَى ما عدا هَرُونَ ويُوشَع عليهما السلام ، ويخالفونهم أيضا فى آستقبال صَخْرة بَيْت المَقْدس ، ويستقبلون طُورَ نَابُلُس ويوجّهون إليه مَوْتاهُم ، زاعمين أنّه الذى كلّم الله تعالىٰ مُوسىٰ عليه ، ويزعمون أنّ الله تعالىٰ أمر داودَ عليه السلام ببناء بَيْت المَقْدس عليه ، فخالف وبناهُ بالقُدْس : قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وهم قائلون أيضا : إن الله تعالىٰ هو خَالِقُ الخَلْق البارئُ لهم ، وإنه قادرٌ قاهرٌ قديم أزَليٌّ . ويوافقون علىٰ نُبوّة مُوسَى وهَرُون عليهما السلام ، وأن الله تعالىٰ أنزل عليه التَّوْراة ، إلا أنّ لهم توراةً تخصُّهم تُخالِفُ تَوْراةَ القرّائين والرَّبانيين المتقدمة الذِّكْر ، وأنه أنزل عليه أيضًا الألْواحَ الجَوْهرِ المتضمِّنَةَ للعَشْر كلمات المتقدّمة الذِّكْر ، ويقرّون أنّ الله تعالىٰ هو الذى أنقذَ بَنِى إسرائيل من فِرْعَونَ ونَجّاهم من الغرَق ، ويقولون : إنه نَصَب طُورَ نَابُلُس المقدَّمَ ذِكْرُه قِبْلَةً للتعبُّد .

ويستعظمون الكُفْر بالتّوراة التى هم يعترفون بها ، والتَّبَرِّى من مُوسَى عليه السلام دون غيره من بَنِى إسرائيل ، ويعظّمون طُورَهُم طُورَ نَابُلُس المقدَّم ذِكْرُه ، ويستعظمون دَكَّه وقَلْعَ آثار البَيْت الذى عُمِر به ؛ ويستعظمون آستباحَةَ السَّبْت كغيرهم من اليهود ؛ ويوافقون القرّائين فى الوقوف مع ظَواهِر نصوص التَّوْراة ؛ ويمنعون القَوْل بالتأويل الذاهبِ إليه الرَّبانيُّون من اليَهُود ؛ وينكرون صِحّةَ توراة القرّائين والرَّبانيِّين ، ويجعلون الاَعتماد علىٰ تَوْراتِهم ؛ ويقولون : لا مِسَاسَ : بمعنى أنه لا يَمَسُّ أحدًا ولا يمسُّه . قال فى "الكشاف" : كان إذا مَسّ أحدًا أو مَسّهُ أحدٌ حصلت الحُمَّى للماسّ والممسُوس . وقد أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله تعالىٰ حكايةً عن مُوسى عليه السلام للسَّامِرِىّ ﴿ آذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

ويُحَرِّمون من الذَّبائح (١) ، ويحرِّمون أَكْلَ اللحمِ مختلطًا بلَبَنٍ ، زاعمين أنّ فى تَوْراتِهِم النَّهْىَ عن أَكْلِ لَحْمِ الجَدْىِ بلَبَنِ أُمّه ؛ ويستعظِمُون السَّعْىَ إلى الخروج إلى الأرض التى حُرِّم عليهم سُكْناها وهى مدينة أَرِيحَا .

ومن أكبرِ الكبائرِ عندهم وَطْءُ المَرْأةِ الحائض، والنَّوْمُ معها فى مَضْجَعٍ واحدٍ، لا سيما إذا فَعَل ذلك مُسْتَبِيحًا له . ومن أعْظَمِ العظائم عندهم إنكارُ خلافةِ هَرُون عليه السلام، والأَنَفَةُ من كَوْنِها .

وقد رتَّب فى "التعريف" : يمينَهم على مقتضى ذلك، فذكر أنّ يمينَهم :

إننى واللهِ واللهِ واللهِ العظيمِ ، البَارِئ، القادِرِ، القاهِرِ، القَديم ، الأزَلِىّ ، رَبِّ مُوسَى وهرونَ، مُنَزِّلِ التوراةِ والألواحِ الجَوْهر، مُنْقِذِ بنى اسرائيلَ، وناصِبِ الطُّورِ قِبْلَةً للمتعبِّدينَ . وإلّا كفرتُ بما فى التوراة، وبَرِئْتُ من نُبُوَّةِ مُوسَى، وقلتُ : إنّ الإمامة فى غَيْرِ بنى هَرُون ، ودكَّيتُ الطُّورَ ، وقلعتُ بيدى أثرَ البَيْتِ المَعْمور، وآستبحْتُ حُرمَةَ السَّبْت، وقلتُ بالتأويلِ فى الدِّين، وأقررتُ بصحَّةِ تَوْراةِ اليَهُود، وأنكرتُ القول بأن لا مِساسَ، ولم أتجنَّبْ شيئًا من الذَّبائح ، وأكلتُ الجَدْىَ بلبَنِ أُمّه، وسَعَيْتُ فى الخروج إلى الأرض المَحْظُورِ على سَكَنِها، وأتيتُ النِّساءَ الحُيَّضَ زمانَ الطَّمْثِ مُسْتبِيحًا لهنّ ، وبِتُّ معهنّ فى المَضَاجع ، وكُنتُ أوّلَ كافرٍ بخلافة هَرُون، وأنِفتُ منها أن تكون .

---

(١) بياض بالأصل .

الفِــرْقة الثالثــة
(ممَّن تدعُو الضرورةُ إلىٰ تحْلِيفه ـ النَّصْرانيَّة)

وقد آختُلِف فى آشتقاقها، فقيل : أخْذًا من قَوْلِ المَسِيح للحَوارِيِّين : ﴿مَن أنْصَارِى إلَى الله﴾ وقَوْلِ الحَوارِيِّين : ﴿نَحْنُ أنْصَارُ الله﴾ . وقيل : من نُزُوله هُو وأمّه ـ بعدَ عَوْدِها به من مِصْر ـ بالنَّاصِرَة : وهى قَرْيَةٌ من بلاد فِلَسْطِينَ من الشام : وقيل غير ذلك .

والنَّصارَىٰ — هم أمَّةُ عِيسَى عليه السلام ، وكتَابهم الإنْجِيلُ . وقد آختُلِف فى آشتقاقه علىٰ ثلاثة مذاهِبَ حكاها أبو جَعْفر النَّحَّاس فى "صِناعة الكُتَّاب" :

أحدها — أنه مأخوذٌ من قَوْلهم : نجلتُ الشَّيْءَ إذا أخْرجْتَه، بمعنىٰ أنه خرج به دَارِسٌ من الحَقِّ .

والثانى — أنه مأخوذٌ من قولهم : تَناجَلَ القومُ إذا تنازَعُوا ، لأنه لم يَقَعْ فى كِتَابٍ من الكُتُب المنَزَّلة [مِثْلُ] التنازع الواقع فيه . قاله أبو عمرو الشَّيْبانِىّ .

والثالث — أنه مأخوذٌ من النَّجْلِ بمعنَى الأصْلِ : لأنه أصْلُ العِلْم الذى أطْلَع الله تعالىٰ فيه خَلِيقَتَه عليه، ومنه قيل للوالد نَجْلٌ : لانه أصل لولده .

ثم ذِكْرُ هذه الآشتقاقاتِ جُنُوحٌ من قائلها إلىٰ أن لَفْظ الإنْجِيلِ عَرَبِىٌّ ، والذى يظهر أنه عِبْرانِىٌّ : لأنَّ لُغَةَ عِيسَى عليه السلام كانت العِبْرانيَّة ، وقد قال صاحب "إرشاد القاصد" : إنَّ معنَى الإنجيلِ عندهم البِشَارَة .

وآعلم أنَّ النَّصارَىٰ بجُمْلَتِهم مُجْمِعُونَ علىٰ أن مَريَمَ حَمَلَتْ بالمَسِيح عليه السلام ، وولَدتْه ببَيْتِ لَحْمٍ من بلاد القُدْسِ من الشَّام ، وتكلَّمَ فى المَهْدِ، وأنَّ اليَهُودَ حين

أنكروا على مَرْيَمَ عليها السلام ذلك فَرّتْ بالمسيح عليه السلام إلى مِصْر، ثم عادتْ به إلى الشام، وعمرُه آثنتا عشرةَ سنة، فنزلت به القَرْيةَ المسمّاةَ ناصرةَ المقدّم ذِكْرُها، وأنه فى آخر أمْرِه قَبَضَ عليه اليهودُ وسَعَوْا به إلى عامِل قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ على الشام، فَقَتله وصَلَبه يوم الجمعة، وأقامَ على الخَشَبةِ ثلاثَ ساعات، ثم آستوهبه رجلٌ من أقارب مَرْيَم آسمُه يوسفُ النجّار من عامل قَيْصَر، ودفَنه فى قَبْرٍ كان أعدّه لنفسه فى مكان الكنيسة المَعْروفةِ الآن بالقُمَامَةِ بالقُدْس، وأنّه مكثَ فى قَبْرِه ليلةَ السَّبْت ونَهارَ السَّبْت وليلةَ الأحَدِ، ثم قام من صَبِيحة يوم الأحَدِ، ثم رآه بُطْرس الحَوَارِىُّ وأوصَى إليه، وأنّ أمّه جمعت له الحَوَارِيِّين فبعثهم رُسُلًا إلى الأقطار للدّعاية إلى دِينِه، وهم فى الأصل آثنا عَشَرَ حَوارِيًّا: بُطْرس ويقال له: سَمْعان، وشَمْعُون الصَّفا أيضا. وأندراوس وهو أخو بطرس المقدّمِ ذِكْرُه، ويُعْقوبُ بن زيدى، ويُوحَنَّا الإنجيليُّ، وهو أخو[(1)] أندراوس، وفيلبس، وبرتلوماوس، وتوما: ويُعرف بتوما الرسول، ومَتَّى ويعرف بمَتَّى العَشّار، ويعقوبُ بن حلفا، وسمعانُ القنانى ويقال له شمون أيضا، وبولس ويقال له تداوس، وكان آسمه فى اليَهُودية شاول، ويَهُوذَا الاسخريوطى (وهو الذى دَلَّ يَهُودَ على المَسِيح حتّى قبضوا عليه بزَعْمهم) وقام مقامَه بنْيامينُ، ويقولون: إنه بعد أن بعث مَن بَعَثَ من الحوارِيِّين صَعِد إلى السَّماء. وهم متّفقون على أن أربعةً من الحوارِيِّين تَصَدَّوْا لكتابة الإنجيل: وهم بطرس، ومتَّى، ولُوقا[(2)]، ويُوحَنّا. فكتبوا فيه سِيرَةَ المَسِيح من حينِ وِلادَته إلى حينِ رَفْعه، وكتب كلٌّ منهم نُسخةً على ترتيب خاصّ بلُغَةٍ من اللُّغات.

---

(١) سيأتى قريبا كما فى "العبر" (ج ٢ ص ١٤٧) أن يوحنا الإنجيلى أخو يعقوب بن زيدى وكذلك فى "المقريزى" ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) كذا فى "الملل والنحل" أيضا ولكن لم يرد فى الحواريين المذكورين قبل هذا الاسم.

فكتب بطرس إنجيلَه باللُّغة الرُّوميَّة فى مدينة رُومِيَةَ قاعدةِ بلادِ الرُّوم، ونسبه إلىٰ تِلْميذه مُرقسَ أوّلِ بطاركة الإسكندرية، ولذلك يعرَف بمُرقُس الإنجيلىّ، وقيل: إن الذى كتبه مُرقُسُ نَفْسُه . وكتب متّىٰ إنجيلَه بالعبْرانيَّة فى بيْتِ المقْدس، ونقلَه بعد ذلك يُوحَنَّا بن زبدى إلى اللُّغة الرومية . وكتب لوقا إنجيله بالرُّومية وبعث به إلىٰ بعْض أكابر الرُّوم، وقيل: بل كتبه باليُونانيَّة بمدينة الإسكندرية . وكتب يُوحَنَّا إنجيله باليونانية بمدينة أفْسُس، وقيل مدينة رُومِيَة .

قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : وخاتمةُ إنجيل متّى : « إنى أُرْسلُكُم إلى الأُمَم كما أرْسَلنى أَبِى إليكم فاذْهبوا وادْعُوا الأُمَمَ بآسم الأب والابن ورُوح القُدُس» ثم آجتمع برُومِيَةَ من توجَّه اليها من الحَوارِيِّينَ ودوَّنُوا قوانينَ دِينِ النصرانية علىٰ يد أقليمش[1] تِلْميذِ بطرس الحَوارِىّ، وكتبوا عدد الكُتُب التى يجب قبولها والعمَلُ بمقتضاها، وهى عِدَّةُ كتبٍ: منها الأناجيلُ الأربعةُ المتقدمةُ الذِّكْرِ، والتَّوراةُ التى بأيديهم، وجملةُ كُتُبٍ من كُتُب الأنبياء الذين قبْلَ المَسِيح عليه السلام، كيُوشَع بن نُون، وأيُّوبَ، وداوُدَ، وسُليمانَ عليهم السلام، وغيرهم .

ثم لما مات الحواريُّون أقام النَّصارىٰ لهم خلَائفَ، عُبِّرعنهم بالبَطارِكَة جمعُ بَطْرِكٍ، وهى كلمة يونانية مُرَكَّبةٌ من لفظين، أحدهما بَطْر ومعناه [2]، والثانية يَرْك ومعناه [2]، ورأيتُ فى ترَسُّلِ العَلاء بن مُوصَلايَا : كاتبِ القائم بأمر الله العبَّاسىّ "فَطْرَكَ" بابدال الباء فاء، والعامة يقولون: "بَتْرَك" بابدال الطاء تاء، وهو عندهم خليفة المَسِيح، والقائم بالدِّين فيهم .

---

(١) فى المقريزى ص ٤٨٣ ج ٢ "قليموس" وفى العبر ج ٢ ص ١٤٨ "اقليمنطس" .

(٢) بياض بالأصول، وكذلك بيض له فيا تقدّم عند الكلام على ألقاب وظائف النصارى انظر (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع .

وقد كان لبطارِكَتِهم فى القديم خَمْسَةُ[١] كَرَاسِىَّ، لكُلِّ كُرسِىٍّ منها بَطْرَكٌ . الأول منها بمدينة رُومِيَة، والقائم به خَلِيفَةُ بطرس الحَوَارِىّ المتوجهِ إليها بالبِشَارَة . والثانى بمدينة الإسْكَنْدرِيّة . والقائم به خَلِيفةُ مرقس تِلْميذُ بطرس الحَوارِىّ المقدم ذكره وخليفته بها . والثالث بمدينة بِزَنْطِيَة : وهى القُسْطَنْطِينِيّةُ . والرابع بمدينة أَنْطاكِيَة من العواصم التى هى فى مُقَابَلة حَلَبَ الآن . والخامس بالقُدْس . وكان أكبرُ هذه الكَرَاسِىِّ الخمسةِ كُرْسِىّ رُومِيَةَ لكَوْنِهِ محلَّ خلافة بُطْرس الحَوارِىّ، ثم كُرسِىّ الإسكندرية، لكونه كُرْسِىَّ مرقس خَلِيفَتِه .

ثم آصطلحوا بعد ذٰلك علىٰ أسماءٍ وضعوها علىٰ أرباب وظائف دياناتهم، فعبروا عن صاحب المَذْهَبِ بالبِطْرِيقِ ، وعن نائِبِ البَطْرَك بالأُسْقُفّ ، وقيل الأُسْقُفُّ عندهم بمنزلة المُفْتِى، وعن القاضى بالمَطْرَانِ، وعن القارِئِ بالقِسِّيس، وعن صاحِبِ الصلاة وهو الإمامُ بالجَاثَلِيق ، وعن قَيِّمِ الكنيسة بالشَّمَّاسِ، وعن المنقطع إلى المَوْلى للعِبَادَة بالرَّاهِب .

وكانت الأساقِفَةُ يُسَمُّون البَطْرَكَ أبًا، والقُسُوسُ يسمُّون الأُسْقُفَّ أبًا، فوقع الاشْتِراكُ عندهم فى آسْمِ الأَبِ، فوقع اللَّبْس عليهم ، فاخترعوا لبَطْرَكِ الإسكندرية آسم البَابِ، ويقال فيه البَابَا بزيادة ألف، والبابه بإبدال الألف هاء، ومعناه عندهم أبو الآباء : لتمييزِ البَطْرِك عن الأُسْقُفّ، فاشتهر بهذا الاسم ، ثم نقل آسمُ البَابِ إلىٰ بَطْرَكِ رُوميَةَ لكَونه خليفةَ بطرس الحَوَارِىّ ؛ وبقى آسم البَطْرَكِ علىٰ بَطْرَك الإسكندرية وغيره من أصحاب الكَرَاسِىّ .

---

(١) تقدّم فى (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع أنها أربعة ولم يذكر كرسىّ بزنطية .

وآعلم أن النّصارىٰ مُجمِعُون علىٰ أن الله تعالىٰ واحدٌ بالجَوْهَر ثلاثةٌ بالأُقْنُومِيَّة؛ ويُفَسِّرُون الجَوْهر بالذّاتِ والأُقنُوميَّةَ بالصّفاتِ : كالوُجودِ والعِلْمِ والحَياة؛ ويعبرون عن الذّاتِ مع الوُجودِ بالأَبِ ، وعن الذّاتِ مع العِلْم بالآبْنِ؛ ويعبرون عن الذّاتِ مع الحَياةِ بِرُوح القُدُس؛ ويعبّرون عن الإله باللّاهُوت، وعن الإنسان بالنّاسُوت؛ ويُطْلقون العِلْم على الكلمة التى أُلقيت إلىٰ مَرْيَم عليها السلام فحَمَلَتْ منها بالمَسِيح عليه السلام؛ ويَخُصُّونَه بالآتّحاد دون غيره من الأقانيم .

وآجتمع منهم ثلثمائة وثمانيةَ عَشَر، وقيل وسبعةَ عَشَر[1] أُسْقُفًّا من أساقِفَتِهم بمدينة نِيقِيَةَ من بلاد الرُّوم بحضرة قُسْطَنطِينَ مَلِكِ الرُّوم عند ظهور أَرْيوش الأُسْقُف وقولِه : إن المَسِيح مخلوقٌ ، وإنّ القَدِيمَ هو الله تعالىٰ ، وألّفُوا عقيدةً آستخرجُوها من أناجيلِهم لقَّبوها بالأمانة ، من خَرَج عنها خرج عن دِينِ النَّصْرانية؛ ونَصُّها علىٰ ماذكره الشَّهْرَسْتَانِىّ فى "النِّحَلِ والمِلَل" وآبنُ العَميد مُؤَرِّخُ النَّصارىٰ فى تاريخه ما صُورتُه .

نُؤمنُ باللهِ الواحِدِ الأَبِ، مالكِ كُلّ شَىْء، وصَانِعِ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ، وبالآبْنِ الواحِدِ أيشوعَ المَسِيح آبنِ اللهِ، بِكْرِ الخلائق كُلِّها، وليس بمَصْنُوع؛ إلٰهٍ حَقٍّ من [إلٰهٍ حق من][2] جَوْهَرِ أبِيهِ الذى بيَدِه أُتقِنَتِ العوالِمُ وكلُّ شَىْء، الذى من أجْلِنا و[من][2] أجْلِ خَلاصِنا نَزَل من السَّماء ، وتجسَّد بِرُوح القُدُس، ووُلِدَ من مَرْيَمَ البَتُولِ ، وصُلِبَ أيام فيلاطوس ، ودُفِنَ ثم قام فى اليَوْم الثالث وصَعِدَ إلىٰ السَّماء ، وجلسَ عن يَمِينِ أبيه، وهو مُسْتَعِدٌّ للمجىء تارَةً أخرىٰ للقَضاء بين الأَمْواتِ

(١) الذى فى "الملل والنحل" للشهرستانى (ص ١٣٢) وثلثمائة وثلاثة عشر رجلا . وفى "العبر" ج ٢ ص ١٥٠ أنهم كانوا ألفين وأربعين اسقفا واتفقوا منهم على ثلثمائة وثمانية عشر .

(٢) الزيادة من العبر (ج ٢ ص ١٥٠) .

والأحْياء . ونُؤْمنُ برُوح القُـدُس الواحِد الحَىّ الذى يخرجُ من أبِيه ، و بمَعْمُودِيَّة واحدةٍ لغُفْران الخَطايا ، و بجماعة [واحدة] قُدْسِيَّةٍ مَسِيحِيَّةٍ جاثَلِيقِيَّةٍ ، وبقيامِ أبْدانِنا، وبالحياة الدَّائِمَة أبد الآبِدين .

ووضَعوا معها قوانين لشرائعهم سَمَّوْها الهيمانوت (١) . ثم آجتمع منهم جَمْعٌ بقُسْطَنْطِينِيَّةَ عند دَعْوىٰ مقدونيوس المعروف بعدُوِّ رُوح القدس، وقوله : إن رُوحَ القُدُس مخلوقٌ، وزادوا فى الأمانة المتقدِّمةِ الذِّكْرِ مانصه : "ونُؤْمنُ برُوح القُدُس المُحيِي المُنْبَثِق من الأب" ولعنوا مَن يَزِيدُ بعد ذلك علىٰ كلام الأمانة أو ينقص منها .

وآفترق النَّصارىٰ بعد ذلك إلىٰ فِرَقٍ كثيرة، المشهور منها ثلاثُ فِرق :

الفِـرْقة الأولىٰ
(المَلْكَانِيَّــة)

قال الشَّهْرَسْتانِيُّ : وهم أتباع مَلْكَانَ الذى ظهر ببلاد الرُّوم؛ ومقتضَىٰ ذلك أنَّهم منسوبون إلىٰ مَلْكَانَ صاحب مَذْهَبِهم . ورأيتُ فى بعض المصَنَّفات أنَّهم منسوبون إلىٰ مَرْكَان قَيْصر أحَدِ قياصرَة الرُّوم، من حيثُ إنَّه كان يقومُ بنُصْرةِ مذهبهم، فقيل لهم مَرْكانِيَّة، ثم عُرِّب مَلْكَانِيَّة؛ ومُعْتَقَدُهم أن جُزْءًا من اللَّاهُوت حلَّ فى النَّاسُوت، ذاهبين إلىٰ أن الكلمةَ وهى أُقْنُوم العِلْمِ عندهم آتَّحدَتْ بجَسَد المَسِيح وتدرَّعَتْ بناسُوتِه ومازَجَتْه مُمازَجةَ الخَمْر [اللبن] أو المَاءِ اللَّبَنَ ؛ ولا يسمُّون العِلْمَ قبل تَدَرُّعه آبنًا، بل المَسِيحُ وما تَدَرَّع به هو الآبْنُ؛ ويقولون : إن الجَوْهَرَ غير الأقانيم كما فى المَوْصوف والصِّفة، مصرِّحينَ بالتثليث، قائلينَ بأن كُلًّا من الأَب والآبنِ ورُوحِ القُدُس إلٰهٌ، واليهم وقَعت الإشارةُ بقوله تعالىٰ : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ .

(١) فى "العبر" : الهيابون .

وهم يقولون : إن المَسِيح قديمٌ أزَلِيٌّ من قَدِيمٍ أزَلِيّ، وإن مَرْيَمَ ولدتْ إلهًا أزَليًّا، فيطلقون الأبوَّة والبُنُوَّة على الله تعالىٰ وعلى المَسِيح حقيقةً، متمسِّكِينَ بظاهر ما يزعمون أنه وقع فى الإنجيل من ذِكْرِ الأَبِ والابن : ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ﴾ .

ثم هم يقولون : إن المَسِيحَ ناسُوتٌ كُلِّيٌّ لا جُزْئِيٌّ، وإن القتلَ والصَّلْبَ وقعا على الناسُوتِ واللَّاهُوتِ معا كما نقله الشَّهْرَسْتَانِيُّ فى « النِّحل والمِلَل » وإن كان الشيخُ شَمْسُ الدِّين بن الأكفانى فى كتابه "إرشاد القاصد" قد وَهِم فنَقَل عنهم القولَ بأن الصَّلْبَ وقع على النَّاسُوت دونَ اللَّاهُوت .

ومن مُعْتَقدِهم أيضا أنَّ المَعادَ والحَشْر يكون بالأبدان والأرواح جميعا، كما تضمَّنَتْه الأمانةُ المتقدِّمةُ، وأنَّ فى الآخرة التَّلذُّذاتِ الجُسمانيَّةَ بالأكْلِ والشُّرب والنِّكاح وغير ذلك كما يقوله المُسْلِمُون .

ومن فُروعهم أنهم لا يختَتِنُون، وربَّما أكَلَ بعضُهم المَيْتَة . وممَّن تَمَذْهَبَ بمذْهَبِ المَلْكَانِيَّة الرُّومُ والفَرَنْجةُ ومَن وَالاهُم .

والمَلْكَانية يَدِينون بطاعة البـاب : وهو بَطْرَك رُومِيَةَ المقـدَّمُ ذِكْرُه ، قال فى "الروض المِعْطار" : من قاعدة الباب أنه إذا آجتمع به مَلِكٌ من ملوك النَّصارىٰ ينبطح علىٰ بَطْنِه بين يَدَيْه، ولا يزال يُقَبِّلُ رِجْلَيْه حتَّى يكون هو الذى يأمُرُه بالقيام .

الفِـــرْقة الثـانية
(اليَعْقُوبيَّـــة)

وهم أتباعُ دِيسَقْرس بَطْرَكِ الإسكَنْدريَّة فى القَـديم : وهو الثامنُ من بطارِكتِها من حين بَطْرَكيَّةِ مُرْقُس الإنجيلىّ نائبِ بُطْرس الحَوارِىّ بهـا . قال آبن العَميـد فى تاريخه : وسُمّىَ أهلُ مَذْهَبِـه يعقوبية : لأن آسمه كان فى الغِلْمـانية يَعْقوب . وقيل : بل كان له تِلْميذٌ آسمُه يعقوبُ فنُسِبوا إليه . وقيل : بل كان شَاوِيرُش بَطْرَكُ أنطاكية علىٰ رأى دِيسَقْرس، وكان له غلامٌ آسمُه يعقوبُ فكان يبعثُه إلىٰ أصحابه : أن آثبُتُوا علىٰ أمَانة ديسَقْرس فنُسِبوا إليه . وقيل : بل نُسِبوا إلىٰ يَعْقوب البردغانى تِلْميذ سو يرس بَطْرَكِ أنْطاكِيَةَ، وكان رَاهِبًا بالقُسْطَنْطِينِيَّةِ فكان يطوفُ فى البـلاد ويَدْعو إلىٰ مَذْهب ديسَقْرس . قال آبن العميد : وليس كذلك فإنَّ اليعاقِبةَ يُنْسَبُون إلىٰ دِيسَقْرَس قبل ذلك بكثير، ومُعتَقَدُهم أن الكَلِمة آنقلبتْ لحمًا ودمًا فصار الإلٰهُ هو المَسِيحَ .

ثم منهم من قال إن المَسِيحَ هُو الله تعالىٰ . قال المؤيَّد صاحب حماة : ويقولون مع ذلك إنه قُتِل وصُلِب ومَاتَ وبَقِيَ العالَمُ ثلاثةَ أيّامٍ بلا مُدَبِّرٍ . ومنهم من يقول: ظَهَر اللّاهُوتُ بالنّاسُوتِ ، فصار نَاسُوتُ المَسِـيح مَظْهَر الحَقّ لا علىٰ طريق حُلول جُزْءٍ فيه، ولا علىٰ سَبِيل آتّحاد الكَلِمة التى هى فى حُكْم الصِّفَة، بل صار هو هو، كما يقال : ظَهَرَ المَلَكُ بصُورَةِ إنْسانٍ، وظهر الشَّيْطانُ بصُورةِ حَيَوانٍ، وكما أخبر التَّنْزِيلُ عن جِبْريل عليه السلام بقوله تعالىٰ : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَـا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ .

وأكثرهم يقولُ : إن المَسِيحَ جَوْهَرٌ واحدٌ إلا أنّه من جَوْهَرينِ، وربّما قالوا : طبيعةٌ واحدةٌ من طبيعتين . فجَوْهَرُ الإلٰهِ القَدِيم وجَوْهَرُ الإنسان المُحْدَث تَرَكّبا تَرَكُّبَ

النَّفس والبَدَن فصارا جوهرًا واحدا أقنومًا واحدًا وهو إنسانٌ كلُّه وإلٰهٌ كلُّه، فيقال : الإنسانُ صار إلهًا ولا ينعكس ، فلا يقال : الإلٰهُ صار إنسانًا ، كالفَحْمة تُطرَح فى النار فيقال : صارت الفَحْمةُ نارا ، ولا يقال : صارت النارُ فَحْمةً ، وهى فى الحقيقة لا نارٌ مطلقة ولا فَحْمةٌ مطلقة ، بل هى جمرة .

ويقولون : إنَّ الكلمة اتّحدَتْ بالإنسان الجزئىّ لا الكلّىّ ، وربَّما عبَّروا عن الاتّحاد بالامتزاج والادِّراع والحُلُول ، كحلول صورة الإنسان فى المرآة .

ومنهم من يقول : إن الكلمة لم تأخُذْ من مَرْيَمَ شيئا لكنَّها مرَّت بها كمُرُورِ الماءِ بالميزابِ ، وإنَّ ما ظهر من شَخْص المَسِيح عليه السلام فى الأعْيُنِ هو كالخيال والصُّورةِ فى المرآة ، وإن القَتْل والصَّلْبَ إنما وقعا على الخيال .

وزعم آخرون منهم أنَّ الكلمة كانتْ تُداخِلُ جَسَد المَسِيح أحيانا فتصدُرُ عنه الآيات : من إحياء المَوْتَى ، وإبْراءِ الأكْمَهِ والأبْرصِ ، وتُفارِقُه فى بعض الأوقات فتَرِدُ عليه الآلامُ والأوجاعُ . ثم هم يقولون : إن المَعَاد إنما هو رُوحانىٌّ فيه لَذَّةٌ وراحةٌ وسُرورٌ ، ولا أكْلَ ولا شُرْبَ ولا نِكاحَ .

ومن فروعهم أنهم يختَتِنُون ، ولا يأكلون الحَيَوانَ إلا بعد التَّذْكِيَة . وقد حكَى ابنُ العميد مؤرِّخُ النَّصارَىٰ أن دِيسَقْرس صاحِبَ مَذْهَبِ اليعقوبية حينَ ذهبَ إلىٰ ما ذهب : من مَذْهبه المقدم ذِكْرُه ، رُفِع أمره إلىٰ مَرْكانَ قَيْصَرَ مَلِكِ الروم يومئذ ، فطلَبه إلىٰ مَدينة خَلْقَدُونية[1] من بلاد الرُّوم ، وجمعَ له سِتَّمائةٍ وأربعةً وثلاثين أُسْقُفًا ، وناظروه بحَضْرة المَلِك فسَقَط فى المُناظرة ، فكلمتْه زوجةُ المِلك فأساء الرَّدَّ فلطمتْه بيدها ، وتناوله الحاضرون بالضرب ، وأُمِرَ بإخراجه ؛ فسار إلىٰ القُدْس ،

(١) كذا فى "العبر" أيضا بإثبات مثناة تحتية بعد النون والذى فى معجم ياقوت بحذفها .

فأقام به واتبعه أهل القُدْس وفِلَسْطين ومصر والإسكندرية ، وقد اتّبعه على ذلك أيضا النُّوبَةُ والحَبَشَةُ ، وهم على ذلك إلى الآن .

الفِــرْقة الثـالثة
(النُّسْـطُورِيَّة)

ومقتضى كلام ابن العميد أنهم أتباعُ نُسْطوريوس بَطْرك القُسْطَنْطِينِيَّة . ويُحكَى عنه أن من مَذْهبِه أن مَرْيَمَ عليها السلام لم تَلِدْ إلهًا ، وإنما وَلَدتْ إنسانا ، وإنّما اتَّحد فى المَشِيئَة لا فى الذّات ، وأنه ليس إلهًا حقيقةً بل بالمَوْهبة والكرامة . ويقولون بجَوْهرَيْنِ وأُقْنومَيْنِ ، وإن كِرلس[1] بَطْرَكَ الإسكندرية وبَطْرَكَ رُومِيَةَ خالفاه فى ذلك ، فجمع لهم مائتى أُسْقُفّ بمدينة أَفْسس وأبطلوا مقالة نُسْطوريوس وصَرَّحوا بكُفْره ، فنفى إلى إخميم من صعيد مِصْر ومات بها ، فظهر مَذْهبُـه فى نصارى المَشْرق : من الجزيرة الفُراتيَّة والمَوْصِل والعِراق وفارِس .

والذى ذكره الشَّهْرَسْتانِىُّ فى "النِّحل والمِلَل" أنهم مَنْسوبون إلى نُسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون ، وتصرَّف فى الأناجيل بحُكْم رأْيِه ، وقال : إن الله تعالى واحدٌ ذو أقانيم ثلاثة : الوُجودِ والعِلْمِ والحَيَاة ، وإن هذه الأَقانِيمَ ليستْ بزائدة على الذَّاتِ ولا هى هى ، وإنَّ الكلمةَ اتّحدتْ بجَسَد المسيح عليه السـلام لا على طريق الامتزاج ، كما ذهبتْ إليــه المَلْكانِيَّة ، ولا على طريق الظُّهور كما قالته اليَعْقوبيّة ،

---

(١) عبارة ابن خلدون فى العبر (ج٢ ص١٥٢) وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كِرلس بطرك الاسكندرية ، فكتب إلى بطرك رومية وهو اكليمس ، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكيـة ، وإلى يونالوس أسقف بيت المقدس ، فكتبوا الى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرتجع ولم يلتفت الى قولهم ، فاجتمعوا فى مدينة افسيس فى مائتين أسقفا الخ .

ولكن كاشراق الشَّمسِ فى كُوَّة ، أوكظهور النَّقْش فى الخاتَم : قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : ويعنى بقوله إنه واحدٌ بالجَوهر أنه ليس مركّبًا من جِنْس بل هو بَسِيطٌ واحد . ويعنى بالحياة والعلم أُقْنومَيْن جوهرين أى أصلين مبدأَيْن للعالَم . قال : ومنهم من يثبت لله تعالىٰ صفاتٍ زائدةً على الوجود والحياة والعِلم : كالقدرة والإرادة ونحوهما . ومنهم من يطلق القول بأن كلَّ واحدٍ من الأقانيم الثلاثة حَىٌّ ناطِقٌ إلٰهٌ . ومنهم من يقول : إن الاله واحد، وإن المسيح ٱبتدأ من مَرْيمَ عليها السلام، وإنه عبدٌ صالح مخلوق، خلقه الله تعالىٰ وسماه ٱبنًا على التَّبَنِّى لا على الوِلادَةِ والاتِّحاد . ثم هم يخالفون فى القتل والصَّلْب مذهَبَ المَلْكانية واليَعْقوبية جميعا ، فيقولون : القَتْل والصَّلْب وقعا على المسيح من جهة ناسُوته لامن جهة لَاهُوته : لأن الإلٰهَ لا تَحُله الآلام . قال صاحب حَمَاةَ : وهم عند النصارىٰ كالمعتزلة عندنا .

ولْيُعلَمْ أن للنَّصارىٰ أشياءَ يعظِّمُونها و [أشياء] يستعظِمُون الوقوع فيها .

فأما التى يُعظِّمونها فإنهم يعظمون المَسِيح عليه السلام حتَّى ٱنتَهوْا فيه إلىٰ ما ٱنتَهَوْا : من دعوى الأُلوهيَّةِ والبنوة لله سبحانه ، تعالىٰ الله عما يشركون ، وٱسْمُه عندهم أيشوع فعُرِّب عيسى . وإنَّما سُمى المسيحَ لكَوْنه مَمسوحَ القَدَمَين لا أَخْمَصَ له .

ويعظِّمون مَريمَ عليها السلام لولادتها المَسِيحَ عليه السلام ، ويعبِّرون عنها بالسَّيِّدة، وبالبَتُول، وبالعَذْراء .

ويعظمون مَرْيُحَنَّا المعمدان ، وهو عندهم يَحْيَى بنُ زكَريَّا عليه السلام ، ومعنى مَرْ السَّيِّد ، ويُحَنَّا يعنى يَحْيىٰ ، ويسمُّونه المعمدان لأنهم يزعُمون أنَّ مريم عليها السلام حين عَوْدِها من مِصْر إلى الشام ومعها السَّيدُ المَسِيحُ تلقَّاه يَحْيىٰ عليه السلام فعمَّده فى نَهر الأُرْدُنّ من بلاد فِلَسْطينَ ، يعنى غَمَسه فيه ، ويجعلون ذلك أصلا

لِلعَمُودِيَّة : وهو الماء الذي يَغْمَسُون فيه عند تَنَصُّرهم ، ويقولون : إنه لا يصح تَنَصُّر نَصْرانىّ دون تعمُّد . ولماءِ المعمودية بذلك عندهم من التَّعظيم مالا فوقه . وبعضُهم يقول : إن المرادَ بِمَرْيحَنَّا المعمدان غيرُ يحيىٰ بن زَكَرِيَّا عليهما السلام .

ويعظمون الحَوَارِيِّين : وهم أصحاب المَسِيح عليه السلام . وقد تقدّم أن عِدَّتهم آثنا عشر حَوارِيًّا ، ومعنى الحَوَارِىّ الخاصّ ، ومنه قيل للدَّقيق النَّاصع البَيَاض دَقِيقٌ حُوَّارَىٰ ، سُمُّوا بذلك لأن المَسِيح عليه السلام آستخلصهم لنَفْسِه .

ويعظِّمُون البَطَارِكَةَ لأنهم خُلَفاء الدِّين عندهم ، ويَرَوْن لهم من الحُرْمَة مالِدين النَّصْرانية عندهم من الحُرْمة ، بل يجعلون أمْرَ التَّحْليل والتَّحْريم مَنُوطًا بهم ، حتَّى لو حَرَّم البَطْرَكُ علىٰ أحدهم زَوْجَتَه لم يقربْها حتَّى يُحِلَّها له . وسيأتي[1] ما للبَطْرك اليعقوبية عند صاحب الحَبَشةِ من الحُرْمة عند ذكر المكاتبة إليه فيما بعدُ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وكذلك يعظِّمُون أربابَ الوظائف الدِّينية عندهم : من البِطْرِيق ، والأُسْقُف ، والمِطْران ، والقِسِّيس ، والشَّمَّاس ، والراهب ، وقد تقدّم تَفْسِيرُهم فيما مرّ .

ويعظِّمُون يُوسفَ النَّجَّار : وهو قريبٌ لمريمَ عليها السلام ، يقالُ : إنه آبنُ عَمِّها ، كان معها فى خِدْمةِ بَيْت المَقْدس ، وهو الذى آستوهبَ المَسِيحَ بعد الصَّلْب بزَعْمِهم حتَّى دفَنَه . واليَهُودُ يَرمُون مريمَ عليها السلام معه بالفُجُور علىٰ ما تقدّم .

ويعظِّمُون مَرْيم المَجْدَلانِيَّة المقدم ذِكْرُها ، ويزعمون أنها[2] أخرج منها سبعة شياطين ، وأنها أوّلُ من رَأَى المَسِيحَ حين قام من قَبْره .

---

(١) سبق الكلام على المكاتبة اليه فى ج ٨ ص ٣٩ فهذا الوعد سهو عما سبق .

(٢) بياض بالأصول .

ومن عادتهم أنه إذا مات منهم أحدٌ ممن يعتقدون صلاحه صوَّروا صورته في حيطانِ كنائسهم ودياراتهم يتبركون بها .

ويعظِّمون قُسْطَنْطِينَ بنَ قُسْطَنطِينَ ملكِ الرُّوم ، وذلك أنَّه أوّلُ من أخذ بدينِ النصرانيــة من الملوك وحَمَل علىٰ الأخْذ به . وقد ٱخْتُلِفَ في سَبَبِ ذلك فقيــل : إنه كان يُحارِب أمَّةَ البُرْجان بِجوارِه وقد أعجزه أمْرُهم ، فرأىٰ في المنام كأنَّ ملائكةً نزلتْ من السماء ومعها أعلامٌ عليها صُلْبان ، فعَمِل أعلامًا علىٰ مثالهـا وحارَبهـم بها فظهر عليهم . وقيل : بل رأىٰ صُورةَ صَليبٍ في السماء . وقيل : بل حملته أمُّه هيلاني علىٰ ذلك .

ويعظمون هيــلاني أم قُسْطَنْطِينَ المقــدَّمِ ذكْرُه ، ويقولون : إنهـا رحلَتْ من قُسْطَنْطِينِيَّةَ إلىٰ القُــدْس ، وأتت إلىٰ محلّ الصَّلْبِ بزعمهم ، فوقَفَتْ وبَكَتْ ، ثم سألت عن خَشَــبة الصَّلْب ، فأُخْبِرَتْ أن اليهودَ دفنوها وجَعَلوا فوقهـا القُماماتِ والنَّجاساتِ ، فاستعظمتْ ذلك ، وٱستخرجتها وغسلتها وطَيَّبتها وغَشَّتْها بالذَّهب ، وألبستْها الحرِيرَ ، وحملتها معها إلى القُسْطَنْطِينِيَّة للتَّبرُّك ، وبنَتْ مكانها كنيسةً ، وهي المسمَّاة الآنَ بالقُمامة ، أخذا من ٱسْم القُمامَةِ التي كانت موضوعةً هناك .

ويعظِّمون من الأمْكنة بيْتَ لَحْم حيثُ مولِدُ المَسِيح عليه السلام ، وكَنِيسةَ قُمامَةَ حيثُ قَبرُه ، وموضعُ خَشَبةِ الصَّلْب التي ٱستخرجتها هيلاني أم قُسْطَنطِين بزعمهم .

وكذلك يعظِّمُون سائر الكنائس : وهي أمكنة عباداتهم كالمساجد للمسلمين . وأصْلُها في اللُّغة مأخوذٌ من قولهم : كِنَاسُ الظَّبْي : وهو المكانُ الذي يَسْتَتِرُ فيه ، سُمِّيتْ بذلك لٱسْتِتارهم فيها حالَ عبادتهم عن أعْيُنِ النــاس . وكذلك يعظِّمون الدِّيارات : وهي أمكنة التَّخلِّي والاعْتزال كالزَّوايا للمسلمين .

ويعظّمون المَذْبَح : وهو مكانٌ يكون فى الكَنِيسَة يقرّبون عنده القرابين ويَذْبحون الذَّبائح، ويعتقدون أنّ كلّ ماذُبِحَ عليه من القُرْبان صار لَحْمُه ودَمُه هو لَحم المَسِيح ودمَه حقيقة .

ويعظمون من الأزمِنَة أعْيادَهم الآتى ذِكْرُها عند ذكر أعْيادِ الأمم : كعِيد الغِطَاس من أعيادهم الكِبَار، ومَوْقِعُه فى الحادى عَشَر من طُوبه من شُهور القِبْط . وعِيد السَّيدة من أعيادهم الصِّغار . ومَوْقِعُه فى الحادى والعشرين من بَشُونة منها . وعيد الصَّلِيب . وموقعه عندهم فى السابعَ عَشَر من تُوت، إلىٰ غير ذلك من الأعياد الآتى ذِكْرُها(١) مع أعياد الأمم، فى الكلام على الأزمنة من هذه المقالة، إن شاء الله تعالىٰ .

وأما الأشياءُ التى [يتعبَّدُون] بها، فإنهم يُصَلُّون سبْع صلوات فى اليَوْم واللَّيلة، وهى : الفَجْر، والضُّحَىٰ، والظُّهْر، والعَصْر، والمَغْرب، والعِشَاءُ، ونِصْفُ اللَّيل؛ ويقرءون فى صَلاتِهم بمزامير دَاوُدَ عليه السلام كما تفعل اليَهُود . والسُّجود فى صلاتهم غيرُ محْدودِ العَدَد، بل قد يَسْجُدون فى الرَّكعة الواحدة خمسين سَجْدة . وهم لايتوضَّئُون للصلاة، ولا يغتسلون من الجَنَابَة، وينكرون الطُّهْر للصَّلاة على المسلمين وعلى اليهود، ويقولون : الأَصْلُ طَهَارة القَلْب . وإذا أرادوا الصَّلاة ضَرَبُوا بالنَّاقُوس، وهو خَشَبةٌ مستطيلة نحْو الذراع يُضْرب عليها بخَشَبةٍ لَطِيفَةٍ فيجتمعون . وهُمْ يستقبلون فى صَلاتِهم المَشْرِق، وكذلك يُوجِّهون إليه مَوْتاهُم . قال الزَّمَخْشَرِىُّ : ولعلّ ذَهابَهم إلىٰ ذلك لأَخْذ مَرْيم عليها السلام عنهم مكانًا شَرْقِيًّا كما أخبر تعالىٰ بقوله : ﴿ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ .

(١) لم يذكر شيئا من الأعياد فى هذه المقالة وقد سبق ذكر ذلك فى الفصل الثالث من المقالة الأولى فما هنا سهو .

ولهم صِيامَاتٌ فى أوقات مُتفرِّقة .

منها ــ صَوْمُهم الكَبِير : وهو سِتُّون يوما أوّلها يوم الاثنين . وموقع أوّله فى شباط أو أذار من شُهور السُّريان، بحسَبِ مايقتضيه حِسابُهم، يُفْطِرون فى خِلالها يوم الأحَدِ، تبْقَ مدّة صيامهم منها تسعةٌ وأربعون يَوما .

ومنها ــ [صَوْمُهم الصَّغير] : وهو سِتّة وأربعون يَوماً يصُومُونها بعد الفصح الكبير بخمسين يوما، أوّلها يوم الاثنين أيضا، وعندهم فيه خِلافٌ .

ومنها ــ صَوْمُ العَذَارَىٰ : وهو ثلاثة أيام، أوّلُها يوم الاثنين الكائن بعد كَانُون الثانى، فى صيامات أخرىٰ يطول ذِكْرُها، ولكثرة صِيامهم قِيل : إذا حُدِّثْتَ أن نَصْرانياً مات من الجُوع فصَدِّقْ .

وأمّا ما يحرِّمُونه ، فإنهم يقولون بتحريم لَحْم الجَمَل ولَبَنِه كما يقُولُه اليهود ، ويقولون : بحِلِّ لَحْمِ الخِنْزِيرِ خلافًا لليهود ، وهو مما يُنْكِره اليهود عليهم من مخالفة أحكام التوراة .

ويحرِّمون صَوْمَ يوم الفِصْح الأكْبر، وهو يومُ فِطْرِهم من صَوْمِهم الأكبر .

ويحرِّمون على الرجل أن يتزوج آمرأتين فى قَرْنٍ واحِدٍ .

ويحرِّمون طلاقَ الزوجةِ بل إذا تزوّج أحدُهم آمرأةً لا يكون له منها فِراقٌ إلا بالموت .

وأما الأشياء التى يستعظمون الوُقُوع فيها :

فمنها ــ جحود كَوْن المَسِيح هو المُبَشَّرَ به علىٰ لسان مُوسَى عليه السلام .

ومنها ــ إنكارُ قَتْل المَسِيح عليه السلام وصَلْبِه ، فإنهم يعتقدون أن ذلك كان سَبَبًا لخلاص اللّاهُوت من النّاسُوت، فمن أنكر عندهم وُقُوعَ القَتْل والصَّلْب على المَسِيح

خرج عن دِينِ النصرانية، بل إنكارُ رُؤْيَتهِ مَصْلُوباً عندهم ٱرتكابُ مَحْظور. على أنهم يُنْكِرون على اليَهود ٱرتكابهم ذلك، ويستَعْظِمُون مُشارَكَتهم فى ذلك، فيالها من عُقُولٍ أضلَّها بارئُها! .

ومنها ــ كَسْر صَلِيب الصَّلَبُوت، وهو الخَشَبة التى يزعمون أن المَسِيح عليه السلام صُلِب عليها . وقد تقدّم أن هيلانى أمّ قُسْطَنْطِينَ ٱستخرجتها من القُمامة وغَسَلتها وطيَّبتها وغَشَّتْها بالذَّهب وألبسَتْها الحرِيرَ وحَمَلَتْها معها للتَّبرك .

ومنها ــ الرُّجوع عن متابعة الحَوارِيِّين الذين هم أصحابُ المَسِيح عليه السلام .

ومنها ــ الخروج عن دِينِ النَّصرانيـة أو التَّبرى منـه ، والقولُ بدِين التوحيـد أو دين اليهودية .

ومنها ــ الوقوعُ فى حَقّ قُسْطنطينَ وأمّه هيلانى : لقيامهما فى إقامة دِينِ النَّصْرانية أوّلا على ماتقدّم ذكره . وكذلك الاَسْتِهانَةُ بالبطاركة أو أحدٍ من أرباب الديانات عندهم : كالأساقِفَة ونحوهم ممن تقدّم ذِكْرُه .

ومنها ــ القُعودُ عن أهْلِ الشَّعانِين : وهم أهل التَّسْبيح الذين كانوا حَوْل المَسِيح عليه السلام حين رَكِبَ الحِمارَ بالقُدْس ودخل صِهْيَوْن يأمُر بالمَعْروف ويَنْهَى عن المُنْكَر وهم حوله يسبِّحُون الله تعالىٰ ويُقَدِّسُونه .

ومنهـا ــ صَوْم يوم الفِصْح الأكبر ، وصَرْفُ الوَجْه فى الصـلاة عن الشَّرْق ، وٱستقبالُ صَخْرة بيْت المَقْدِس موافقةً لليهود .

ومنها ــ هَدْمُ كَنِيسة قُمامَة : لكونها عندهم فى مَحَلّ القبر بزعمهم . وكذلك غيرُها من الكنائس والدِّيَرة .

ومنها ــ تكْذيبُ أحَدٍ من نَقَلَةِ الإنْجيلِ الأربعة الذين كتبوه كَمَتَّى وغيره ، أو تكذيبُ أحَدٍ من القُسُوس: وهم الذين يقرءون الإنْجيلَ والمَزاميرَ، وتكذيبُ مَرْيم المجدلانية فيما أخبرتْ به عن المَسيح من قِيامِه من قَبْرِه الذى كان دُفِنَ فيه بزَعْمِهم، فإنهم يزْعُمونَ أنَّها أول من رآه عند قِيامه .

ومنها ــ القولُ بنجاسة ماء المَعْمُودِية : وهو الماءُ الذى يَنْغَمِسُون فيه عند تَنَصُّرِهم .

ومنها ــ عَدَمُ اعتقاد أن القُرْبانَ الذى يُذْبَح فى المَذْبَح لا يصير لَحْمُهُ ودَمُهُ هو لَحْمَ المَسِيح ودَمَه، ولعَمْرِى إن هذه لَمَقُولٌ ذَاهِبَة .

ومنها ــ اسْتِباحةُ دِماء أهْلِ الديارات ، والمشاركةُ فى قَتْلِ الشَّمامسة الذين هم خُدّامُ الكائس .

ومنها ــ خِيانةُ المَسيح فى وَديعتِه . وذلك أنَّهم يزعمون أن كلَّ ماخَالَفَتْ فيه فِرْقَةٌ من الفِرَقِ الثلاث الفِرْقةَ الأُخْرىٰ كقول المَلْكانية بأنَّ المَعادَ جُسْمانِىٌّ ، وقَول اليعقوبية : إن المعاد رُوحَانِىٌّ، فإنَّ الفِرْقة الأُخْرىٰ يستعظمون الوقوع فيما ذهب إليه مُخالِفُها، وكذلك كلُّ ماجرىٰ هذا المجرىٰ .

وقد رتَّب الكُتَّابُ أيْمانَ النَّصارىٰ علىٰ هذه المعتقدات . قال محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القَلَم والدَّواة" : وقد يذهَبُ علىٰ كثير من الكُتّاب ما يُسْتَحْلَفُ به اليَهود والنصارىٰ عند الحاجَة إلىٰ ذلك منهم، فيُسْتَحلَفُون بأيْمانِ الإسلام وهم مُسْتَحِلُّون للحرام ، ومُجْتَرِئُون علىٰ الآثام ، ويتأثَّمون من أيْمانِهم ، والاسْتِقْسام بأدْيانِهم . ثم أشار إلىٰ أنَّ أوّلَ ما رُتِّبت الأيْمانُ التى يُحَلَّفُ بها النصارىٰ علىٰ هذه الطريقة فى زَمَنِ الفَضْلِ بنِ الرَّبيع ، فحَكَى عن بَعْض كُتَّاب العِراق أنه قال : أراد الفَضْلُ

آبنُ الربيع : يعنى وَزِيرَ الرَّشيد أن يَسْتَحْلِفَ كاتبه "عَوْنا النصرانى" فلم يَدْرِ كيف يَسْتَحْلِفُه ، فقلت : وَلِّنى آستحلافَه ، قال : دُونك ، فقلتُ له : إحلف بالمِلك الذى لا تعبد غيره ، ولا تَدِينُ إلّا له ، وإلا انخلَعْتَ النصرانيَّة ، وبَرِئْتَ من المَعْمُودية ، وطرحْتَ على المَذْبَح خِرْقَةَ حِيضَةٍ يهوديَّة ، وقُلتَ فى المسيح ما يقوله المسلمون ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . وإلا فلَعنكَ البطريكُ الأكْبَر، والمَطَارنة، والشَّمامِسَة، والقَمامسة، والدَّيْرانيُّون ، وأصحابُ الصوامع عند مجتمع الخنازير وتَقْرِيبِ القُرْبان، وبما آستغاثَتْ به النَّصارىٰ لِيَسُوع، وإلّا فعليكَ جُرْمُ ثلثمائة وثمانية عَشَر أُسْقُفًا الذين خرجوا من نِيقِيَةَ حتى أقاموا عَمُود النصرانية، وإلا فشَقَقْتَ الناقُوسَ وطبخْتَ به لَحْمَ جَمَلٍ وأكلته يوم الآثنين مَدْخَلَ الصَّوم وآمحمت من كل بركه يوما (؟) ورَمَيْتَ الشاهِدَ بعشرين حَجَرًا جاحِدًا بها، وهَدَمْتَ كنيسة لُدٍّ، وبنيْت بها كنيسة اليهود، وخَرقتَ غِفارَةَ مريمَ وكهنونة داود، وأنتَ حَنِيفٌ مسلم ؛ وهذه اليمينُ لازمةٌ لك ولعَقِبك من بَعْدِك . قال فقال عَوْنٌ : أنا لا أستَحِلُّ أن أسمعَ هذه فكيف أقولها ! وخرج من جميع ماطالبه به الفَضْلُ ، فأمر بها الفَضْلُ فكُتِبَتْ نُسَخًا وفُرِّقَتْ على الكُتَّاب وأمرهم بحِفْظِها وتَحْلِيف النصارىٰ [بها] .

قلتُ : وقد أكثر الناسُ من تَرْتِيبِ نُسَخِ الأيْمانِ لتَحْليفِ النَّصارىٰ ، فمن مُطْنِبٍ ومن مُوجِزٍ ، على آختلاف مَقاصِدهم فيما يقع به التَّحليفُ و يوافق آراءهم فيه . وقد رتَّب المقرُّ الشِّهابىُّ آبن فَضْلِ الله فى "التعريف" لهم أيمانًا علىٰ مقتضى آراءِ فِرَقهم الثَّلاثِ المتقدّمة الذِّكْرِ : من المَلْكانيَّة، واليعقوبية، والنَّساطرة .

فأما المَلْكانيَّة، فقال : إنَّ يمينَهم : واللهِ واللهِ واللهِ العظيم، وحقِّ المَسيح عِيسَى ٱبن مريم، وأمّه السَّيدة مَرْيمَ، وما أعتقدُه من دِينِ النَّصرانيَّة، والمِلَّة المَسيحية . وإلَّا أَبْرَأُ من المَعْمودية، وأقولُ : إن ماءها نجس، وإن القَرابِينَ رِجْسٌ، وبَرِئْتُ من مَرْيُحَنَّا المعمدان والأناجيل الأربعة، وقلتُ : إن متَّى كَذُوب، وإن مريم المَجْدَلانيَّةَ باطِلةُ الدَّعوىٰ في إخبارها عن السَّيد اليَسُوع المَسيح، وقلتُ في السيدة مَريمَ قولَ اليَهُود، ودِنْتُ بدِينهم في الجُحُود، وأنكرتُ ٱتِّحادَ اللَّاهُوت بالنَّاسُوت، وبَرِئْتُ من الأبِ والأبن ورُوح القُدُس، وكَذَّبتُ القُسوس، وشاركتُ في ذَبْح الشَّمامِس، وهدمتُ الدياراتِ والكنائس، وكنتُ ممَّن مال علىٰ قُسطنطينَ بن هيلاني، وتعمَّدَ أمَّه بالعظائم، وخالفتُ المَجامعَ التي أجمعت الأساقفةُ برُومِيَة والقُسْطَنطِينيَّة، ووافقتُ البرذَعانيَّ بأنطاكِيَة، وجحدتُ مَذهبَ المَلْكانيَّة، وسفَّهتُ رَأْيَ الرُّهبان، وأنكرتُ وقوعَ الصَّلْب على السَّيد اليَسُوع، وكنتُ مع اليهود حين صَلَبُوه، وحِدْتُ عن الحَوارِيِّين، وٱستبحتُ دِماءَ الدَّيْرانيِّين، وجذبتُ رِداءَ الكِبْرياء عن البطرِيك، وخرجتُ عن طاعة البَاب، وصُمْتُ يوم الفِصْح الأكبر، وقعَدْتُ عن أهْلِ الشَّعانين، وأبَيْتُ عِيدَ الصَّلِيب والغِطاس، ولم أَحْفِلْ بعِيد السَّيدة، وأكلتُ لَحمَ الجَمَل، ودِنْتُ بدِين اليَهُود، وأبحتُ حُرْمة الطَّلاق، وخُنْتُ المَسيح في وَديعَته، وتزوجتُ في قَرَنٍ بامرأتين، وهدمْتُ بيدي كنيسةَ قُمامةَ، وكسرتُ صَليبَ الصَّلَبُوت، وقلتُ في البُنُوَّة مقالَ نُسْطورس، ووجَّهْتُ إلى الصَّخْرة وَجْهي، وصدَدْتُ عن الشَّرق المُنير حيثُ كان المَظْهَر الكريم، وإلَّا بَرِئْتُ من النورانيين والشعشعانيين، ودِنْتُ غيرَ دِينِ النَّصارىٰ، وأنكرتُ أنَّ السَّيدَ اليَسُوع أحيا المَوْتَى وأبرأَ الأَكْمَهَ والأبرَصَ، وقلتُ بأنَّه مَرْبوب، وأنَّه ما رُؤِيَ وهو مَصْلوب، وأنكرتُ أن القُرْبانَ المقدَّس على المَذْبَح ما صار لَحْمَ المَسيح ودَمَه حقيقة، وخرجتُ

فى النصرانية عن لاحِبِ الطريقة ، وإلّا قلتُ بدِينِ التَّوْحيـد ، وتعبدْتُ غيرَ الأرباب ، وقَصَـدْتُ بالمظانيات غيرَ طَرِيقِ الإخلاص، وقلتُ : إنَّ المَعَـاد غيرُ رُوحانىٍّ، وإن بَنِى المعمودية لا تَسِيح فى فَسِيح السماء ، وأثبتُّ وُجودَ الحُورِ العِينِ فى المَعَاد، وأن فى الدار الآخرة التَّلَذُّذاتِ الجُسْمانيـة ، وخرجتُ خروجَ الشَّعرة من العَجِين من دِينِ النَّصْرانية ، وأكونُ من دِينِى مَحْرُوما ، وقلتُ إن جرجس لم يُقْتَـل مظـلوما .

وأما اليعاقبة، فقال: إنه يُبْدَلُ قوله : آتحادَ اللّاهُوتِ بالنَّاسُوت بقَوْلِه : مُمَاسَّة اللّاهُوت للنَّاسُوت . ويُبْطَلُ قولُه : ووافَقْتُ البرْذَعانىَّ بأنطاكية، وجحدت مذهب المَلْكَانيَّة ويبـدَّلُ بقوله : وكَذَّبْتُ يعقوبَ البرذَعانىَّ ، وقلتُ : إنه غير نصرانى ، وجحدت اليعقوبيـة ، وقلت إن الحق مع المَلْكانيـة . ويبطل قوله : وخرجت عن طاعة البَابِ، ويُبدَل بقوله : وقاتلتُ بيَدى عمدشيون، وخرّبْتُ كنيسةَ قُمَامة وكنتُ أوّل مفتون .

وإن كان من النساطرة أبدل القَوْلين وأبقَى ما سواهمـا ، وقال عوض مماسة اللّاهُوت للنّاسُوت : إشراق اللّاهُوت على النَّاسُوت، ويُزَاد بعد ما يُحْذَف : وقلتُ بالبراءة من نُسْطورس وماتَضَمَّنه الإنجيلُ المقدَّس .

✦ ✦ ✦

وهذه نُسْخة يَمِين حُلِّفَ عليها مَلِكُ النُّوبَةِ للسـلطان الملك المَنْصور « قلاوون» عند آستقراره نائبًا عنه فى بلاد النُّوبَة، وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ، وحَقِّ الثَّالُوثِ المقدَّس ، والإنجيلِ الطّاهر، والسيدةِ الطّاهرة العَـذْراءِ أمّ النُّور ، والمَعْمودية ، والأَنْبياءِ ، والرُّسُـلِ، والحَوَارِيِّينَ، والقِدِّيسِينَ ،

والشهداءِ الأبرارِ، وإلّا أجحدُ المسيحَ كما جحده بودس، وأقولُ فيه مايقولُ اليهودُ، وأعتقدُ مايعتقدونه؛ وإلّا أكونُ بُودس الذى طَعَن المسيحَ بالحَرْبَة - إنّنى أخلصتُ نِيَّتى وطَوِيَّتى من وَقْتى هذا وساعَتى هذه للسُّلطان الملك فلان، وإنى أبذُل جُهْدى وطَاقَتى فى تحصيل مَرْضاته، وإنى مادُمْتُ نائبَه لا أقطعُ المقرَّرَ علىَّ فى كلّ سنة تَمْضى: وهو مايفضُلُ من مشاطرة البلاد علىٰ ما كان يتحصَّلُ لمن تقدَّمَ من ملوك النُّوبة، وأنْ يكونَ النّصفُ من المتَحَصِّلِ للسلطان مخلَّصًا من كلّ حقّ، والنّصفُ الآخَرُ مُرْصَدًا لعمارة البلاد وحِفْظها من عَدُوٍّ يَطْرُقها، وأن يكون علىَّ فى كلّ سنةٍ كذا وكذا. وإنّنى أقرِّر علىٰ كلّ نفرٍ من الرَّعِية الذين تحت يَدِى فى البلاد من العُقلاء البالغين دينارًا عَيْنًا. وإنّنى لا أترك شيئًا من السِّلاح ولا أُخْفِيه، ولا أمكّنُ أحدًا من إخفائه. ومتىٰ خرجتُ عن جميع ما قرّرْتُه أو عن شىْءٍ من هذا المذكور أعلاه كلِّه، كنتُ بَرِيئًا من الله تعالىٰ ومن المسيح ومن السَّيدةِ الطاهِرَة، وأخسَرُ دِينَ النَّصْرانية، وأُصلِّى إلىٰ غير الشَّرق، وأكسِر الصَّليبَ، وأعتقدُ مايعتقدُه اليَهودُ. وإنّنى مهما سمعتُ من الأخبار الضَّارّة والنافعة طالعتُ به السُّلطانَ فى وَقْتِه وساعَته، ولا أنفردُ بشَىْءٍ من الأشياء إذا لم يكن مصلحة. وإنّنى وَلِىٌّ مَن والَى السلطان وعَدُوٌّ من عاداه، والله علىٰ ما نقولُ وَكِيلٌ.

قلتُ: وسيأتى ذكر أيمان الفرنج على الهُدْنة عند ذكر ما أهمله فى "التعريف": من نُسَخ الأيمان فى آخر الباب، إن شاء الله تعالىٰ.

الملـة الثالثـة

(المَجُوسِيَّة : وهى المِلَّة التى كان عليها الفُرْس ومَن دَانَ بدينهم)

وهـم ثلاثُ فِـرَق :

الفرقة الأولى — الكُيُومَرْثِيَّة ـ نسبةٌ إلىٰ كُيُومَرْت ، ويقـال : جُيُومَرْت بالجيم بدل الكاف . وهو مَبْدأُ النَّسْلِ عندهم كآدَمَ عليه السلام عِنْد غيرهم ، وربمـا قِيل : إن كُيُومَرْت هو آدم عليه السلام . وهؤلاء أثبتوا إلهًـا قَدِيمًا وسَمَّوه يزدان ، ومعناه النُّور ، يعنُون به الله تعـالىٰ ، وإلهًـا مَخْلوقًا سمَّوْه أهرمن ، ومعناه الظُّلْمة ، يعنون به إبليس . ويزعمون أن سَبَبَ وُجُود أهرمن أنَّ يزدان فكَّر فى نَفْسـه أنه لو كان له مُنازِعٌ كيف يكون ، فحدثَ من هذه الفكرة الرَّدِية أهرمن ، مَطْبوعًا على الشَّرِّ والفِتْنة والفَساد والضَّرر والإضرار ، فخرج علىٰ يزدان وخالَف طبيعَتَه ، فجَرتْ بينهما مُحارَبَةٌ كان آخر الأمر فيها علىٰ أن آصطلحا أن يكون العَالَمُ السُّفْلِيُّ لأهرمن سبعةَ آلاف سنة ، ثم يخلّى العالَمَ ويُسَلِّمه ليزدان . ثم إنه أباد الذين كانوا فى الدُّنيا قبل الصُّلْح وأهلكهم ، وبدأ برجُلٍ يقـال له كُيُومَرْت ، وحَيَوانٍ يقال له الثَّوْر ، فكان من كُيُومَرْت البَشَر ومن الثَّور البَقَرُ وسائرُ الحيَوان .

وقاعدة مَذْهبهم تَعْظيمُ النور ، والتَّحرُّزُ من الظُّلمة ، ومن هنا آنجَرُّوا إلى النار فعبدوها : لمـا آشتملت عليـه من النور . ولمـا كان الثَّوْرُ هو أصْلَ الحَيَوان عندهم المُصادِف لوجود كُيُومرت ، عظَّموا البقر حتَّى تعَبَّدُوا بأبوالهـا .

الفِرْقةُ الثانية — الثَّنوِيَّة ـ وهم علىٰ رَأْيِ الكيُومَرْثِيَّة فى تفضيل النُّور والتحرز من الظُّلْمة ، إلا أنهم يقولون : إن الآثنين اللذين هما النور والظلمة قديمـان .

الفِرْقة الثالثة — الزَّرادشتية الدائنون بدِينِ المَجُوسيَّة – وهم أتباعُ زرادشْت الذى ظهر فى زَمَنِ كيستاسِف السَّابع من مُلُوك الكيانية، وهم الطَّبَقة الثانيةُ من ملوك الفُرْس، وآدَّعَى النبوّةَ وقال بوَحْدانيّـة الله تعالىٰ، وأنّه واحدٌ لا شريكَ له ولا ضِدَّ ولا نِدّ، وأنّه خالقُ النُّورِ والظُّلْمة ومُبْدِعُهما، وأنّ الخَيْر والشَّرّ والصَّلاح والفَسَادَ إنما حصل من آمتزاجهما، وأنّ اللهَ تعالىٰ هو الذى مزجهما لحكْمة [رآها] فى التركيب، وأنهما لو لم يمتزجا لما كان وُجودٌ للعـالَم ، وأنّه لا يزالُ الآمتزاجُ حتّى يغلبَ النُّورُ الظُّلْمَةَ ، ثم يخلُصُ الخَـيْرُ فى عالَمِه ويَنْحَطُّ الشَّر إلىٰ عالَمِه ، وحينئذٍ تكونُ القيامة . وقال باستقبال المشرق حيثُ مَطْلَعُ الأنوار ، والأمْرِ بالمعروف ، والنَّهيِ عن المُنْكَر ، وآجْتنابِ الخبائث . وأتى بكِتَابٍ قيل صَنَّفه ، وقيل أُنْزِل عليه . قال الشَّهْرَسْتانى : آسمه "زندوستا" . وقال المسعودىّ فى "التنبيه والإشراف" : وآسم هذا الكتاب "الإيستا" وإذا عُرِّب أثبتت فيه قافٌ فقيل : "الإيستاق" وعدد سُوَره إحدىٰ وعشرون سُورَة ، تقع كلُّ سورة فى مائتى وَرَقة ، وعددُ حروفه ستُّون حَرْفا، لكلِّ حَرْفٍ سُورةٌ مفردة ، فيها حروفٌ تتكرر وفيها حُروفٌ تَسْقُط . قال : وزرادشت هو الذى أحدث هذا الخطَّ والمجوسُ تسميه : دين تبره، أى كتاب الدين .

وذكر أنه كُتِبَ باللغة الفَارِسـيَّة الأولىٰ فى اثنَى عَشَر ألفَ جِلْدِ ثَوْرٍ بقُضْبان الذَّهب حَفْرًا ، وأن أحدًا اليومَ لا يعرِفُ مَعْنىٰ تلك اللغة، وإنمـا نقلَ لهم إلىٰ هذه الفارسية شَىْءٌ من السُّوَر فى أيديهم يقرءونها فى صَلَواتهم : فى بَعْضها الخَبَرُ عن مُبْتَدِ العالَمِ ومنتهاه ، وفى بعضها مَواعِظُ . قال : وعَمِل زرادشت لكتاب "الإيستا" شرحًا سمـاه "الزند" ومعناه عندهم : ترجمةُ كَلامِ الرَّب ، ثم عَمِل لكتاب "الزند" شرحا سماه : "بادزنده" وعملَتْ علماؤُهم لذلك الشَّرْح شَرْحا سموه : "يازده" .

ومن حيثُ آختلافُ الناس فى كتاب زرادشت المقدّم ذكره هذا : نُزِّل عليه أو صَنّفَه قال الفقهاءُ : إن للمَجُوس شُبهةَ كتاب : لأنه غيرُ مقطوعٍ بكَوْنه كتاباً مُنَزَّلاً .

وأتىٰ زرادشت كيستاسف المَلِك بمُعْجِزات .

منها ــ أنه أتى بدائِرةٍ صحيحةٍ بغير آلة ، وهو ممتنع عند أهل الهَندسةِ .

ومنها ــ أنه مَرَّ علىٰ أعمىٰ ، فأمرهم أن يأخذوا حَشِيشَةً سمَّاها ويَعْصِرُوها فى عَيْنَيه ، فأبصر . قال الشَّهْرَسْتانىُّ : وليس ذلك من المُعْجِزة فى شىء ، إذ يحتملُ أنه كان يعرف خاصَّةَ الحشيشة .

وهم يقولون : إن الله تعالىٰ خلق فى الأوّلِ خَلْقاً رُوحانياً ، فلما مضَتْ ثلاثة آلاف سَنَةٍ أنفذ الله تعالىٰ مشيئته فى صورة من نور متلالئٍ علىٰ [تركيب] صورة الإنسان ، وخلقَ الشَّمْسَ والقَمَر والكواكِبَ والأَرض (وبنُو آدمَ حينئذٍ غيرُ متحرِّكينَ) فى ثلاثة آلاف سَنَةٍ .

ثم المَجُوس يفضِّلُون الفُرْس على العَرَبِ وسائرِ الأُمَم ، ويفضِّلون مالهم : من مُدُن وأبْنِيةٍ علىٰ غيرها من الأبنية ، فيفضِّلُون إقليم بَابِلَ علىٰ غيره من الأقاليم ، ومَدِينَتَه علىٰ سائرِ المُدُنِ ، من حيثُ إنَّ أوشهنج أوّلَ طبقةِ الكِيانية من مُلُوك الفُرْسِ هو الذى بناها ؛ ويقولون : إنه أوّلُ من جَلَس على السَّرير ، ولَبِس التَّاجَ ، ورفع الأعمالَ ، ورتَّبَ الخراج ؛ وكان مُلْكُه بعد الطُّوفان بمائَتَى سَنَة ، وقيل : بل كان قبل الطوفان .

ويفضِّلُون الكِتابة الفَهْلوية وهى الفارسية الأُولىٰ علىٰ غيرها من الخُطُوط ، ويزعُمُون أن أوّلَ مَن وضعها طهمورث : وهو الذى مَلَك بعد أوشهنج المقدَّمِ ذكْرُه .

ويجحدون سياسة بني ساسان ، وهم الطبقة الثالثة[1] من ملوك الفرس منسوبون إلى ساسان . ويسخطون [على] الروم ، لغزوهم الفرس وتسلطهم عليهم ببلاد بابل . ويعبدون النار ، ويرون أن الأفلاك فاعلة بنفسها ، ويستبيحون فروج المحارم من البنات والأمهات ، ويرون جواز الجمع بين الأختين إلى غير ذلك من عقائدهم .

ويعظمون النيروز : وهو أول يوم من سنتهم وعيدهم الأكبر . وأول من رتبه جمشيد أخو طهمورث . ويعظمون أيضا المهرجان : وهو عيد مشهور من أعيادهم .

ويسخطون [على] بيوراسب : وهو رابع ملوكهم : وهو الضحاك يقال له بالفارسية : الدهاش ، ومعناه عشر آفات . وكان ظلوما غشوما ، سار فيهم بالجور والعسف ، وبسط يده بالقتل ، وسن العشور والمكوس واتخذ المغنين والملاهي ، وكان على كتفيه سلعتان مستورتان بثيابه يحركهما إذا شاء ، فكان يدعي أنهما حيتان ، تهويلا على ضعفاء العقول ، ويزعم أن ما يأخذه من الرعية يطعمه لهما ليكفهما عن الناس ، وأنهما لايشبعان إلا بأدمغة بني آدم ، فكان يقتل في كل يوم عددا كثيرا من الخلق بهذه الحجة . ويقال : إن إبراهيم الخليل عليه السلام كان في آخر أيامه .

وكان من شانه أنه لما كثر جوره وظلمه على الناس ، ظهر بأصبهان رجل اسمه كابي ، ويقال : كابيان من سفلة الناس ، قيل حداد ، كان الضحاك قد قتل له ابنين فاخذ كابي المذكور درفسا وهو الحربة وعلق بأعلاها قطعة نطع كان يتقي بها النار ،

(١) في "العبر" ج ٢ ص ١٦٩ أنها الرابعة .

ونادىٰ فى الناس بمحاربة الضَّحَّاك ، فأجابه خلقٌ كثيرٌ ، وآستفحل أمْرُه ، وقصدَ الضَّحَّاكَ بمن معه ، فهرب الضَّحاك منه ، فسأله الناسُ أن يَمْلِكَ عليهم ، فامتنع لكونه من غير بَيْت المُلْك ، وأشار بتولية إفريدون من عقب جمشيد المقدّم ذكره ، فَوَلَّوْه ، فتَبِع الضَّحاكَ فقبضَ عليه وقتَله ، وسار فيهم بسيرة العَدْل وردّ ما آغتصبه الضَّحَّاك إلىٰ أهْله ، فصار لكَابِى المذكور عندهم المقامُ الأعلىٰ ، وعظَّمُوا دِرَفْسَه الذى علق به تلك القِطْعَةَ من النِّطَع ، وكللوه بالجَواهِر ، ورصَّعُوه باليواقيت ، ولم يَزَلْ عند ملوكهم يَسْتفْتِحون به فى الحروب العظيمة حتَّى كان معهم أيام يَزْدَجِرْدَ آخرِ ملوكهم عند محاربة المسلمين لهم فى زَمَن عُثْمان ، فغلبهم المسلمون وآقتلعوه منهم .

وهم يعظمون افريدون مَلِكَهم المقدّمَ ذِكْرُه، لقيامه فى هَلاكِ الضَّحاك وقتْله . وفى أوّل مُلْك افريدون هذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام. ويقال : إنه ذو القَرْنَيْنِ المذكورُ فى القرءان الكريم .

وهم يعظمون أيضا من ملوكهم سَابُورَ الملقَّبَ بذى الأَكْتَاف، لأخْذه بثار العَجَم من العَرَب . وذلك أنه كان يَتْبَعُ العَرَبَ بالجزيرة الفُراتِيَّة وما جاورها، وسار فى طَلَبِهم حتَّى بلغ البَحْرَيْنِ ، لِيُهْلِكَهم قتْلًا ، لايقبلُ من أحَدٍ منهم فِدَاءً ، ثم أخَذَ فى خَلْع أكْتَافِهم، فلذلك سُمّى ذا الأكْتاف .

ويعظمون مانِى بن فاتن (١) : وهو رجلٌ ظهر فى زَمَنِ سَابُورَ بنِ أرْدَشِير بعد عِيسى عليه السلام، وآدَّعَى النبوّة وأحدث دِينًا بين المجوسية والنَّصْرانية . وكان يقول : بنبوَّةِ المسِيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوّة مُوسى عليه السلام ، وقال : إنَّ العالَمَ

(١) فى "الملل" ابن فاتك بالكاف .

مَصْنوعٌ من النّور والظُّلمة، وإنّهما لم يزالا قديمين حسّاسَيْن سَميعَيْن بَصيرين . وله أتباعٌ يعرفون بالمَانَوِيّة .

ويتبرءُون من مزدك : وهو رجلٌ مَشْهورٌ منسوب عنـدهم إلى الزَّنْدَقة أيضا ، ظهر فى زَمَن قُبَاذَ أحدِ مُلوكِ الفُرْس من الأكاسرة، وادّعى النبوّة ونَهىٰ عن المخالفة والمباغَضَة، وزعم أنّ ذلك إنما يحصلُ بسَبَب النساء والمال، فأمر بالاشتراك والمساواة فيهما، وتَبِعه قُبَاذُ علىٰ ذلك ، فتوصّلت سِفْلَةُ الرجال إلىٰ أشراف النِّساءِ ، وحصـل بذلك مَفْسَدَةٌ عظيمة . وكان يقولُ : إن النُّو ر عالمٌ حساسٌ ، والظلامَ جاهلٌ أعمى ، والنُّور يفعلُ بالقَصْد والاختيار ، والظُّلمة تفعلُ على الخَبْط والاتفاق ، وإنّ امتزاجَ النُّور والظُّلمة كان بالاتفاقِ والخَبْط دون القصْـد والاختيار ، وكذلك الخلاص . وله أتباع يقالُ لهم المزدكية ، ولم يزَلْ علىٰ ذلك حتّى قتلَه شِرْوانُ بنُ قُباذَ هو وأتباعه ، وقتل معهم المَانَوِيّةَ أتباعَ مَانِى المقـدّمِ ذكْرُه ، وعادت الفُرْس إلى المَجُوسيّة القديمة .

وقد رتّب فى "التعريف" للمَجُوس يَمِينًا علىٰ مقتضى ما عليه عَقِيدةُ المَجُوس أتْباع زرادشت المقدّمِ ذكْرُه، وهى :

إنَّنِى واللهِ الرَّبِّ العَظِيمِ ، القَديم ، النُّورِ ، الأوّلِ ، ربِّ الأرباب ، وإلهِ الآلِهَـة ، ماحِى آيةِ الظُّلَم ، والمُوجِدِ من العَـدَم ، مقدِّرِ الأفلاك ومُسَـيِّرِها ، ومُنوِّرِ الشُّهب ومُصَوِّرِها ، خالقِ الشّمسِ والقمرِ ، ومُنْبِت النجوم والشَّجَر ، والنّارِ والنُّور ، والظِّلِّ والحَرُورِ ، وحقِّ جيُومَرْت وما أَوْلَد من كرائم النَّسْل ، وزرادشت وما جاء به من القَوْل الفَصْل ، والزَّنْد وما تضمنه ، والخَطِّ المُسْتَدِيرِ وما بيّن . وإلّا أنكرتُ أنّ زرادشت لم يأْت بالدائرةِ الصحيحة بغيرآله ، وأن مملكة إفريدون كانت ضَـلالَه ، وأكونُ

قد شاركتُ بيوراسب فيما سفك طُعْمًا لحَيَّتَيْهِ، وقلتُ إن كابيان لم يُسلَّط عليه؛ وحرقتُ بيدى الدِّرَفْسَ، وأنكرتُ ما عليه من الوَضْع الذى أشرقت عليه أجْرام الكواكب، وتمازَجَتْ فيه القُوَى الأرْضية بالقُوَى السَّماوية، وكَذَّبتُ مَانِي وصدَّقتُ مزدك، واستبَحْتُ فُضُول الفُروج والأموال، وقلتُ بانكار الترتيب فى طَبَقات العَالَم، وأنه لا مَرْجِع فى الأبوّة إلّا إلى آدَم، وفضَّلْتُ العَرَبَ على العَجَمِ، وجعلتُ الفُرْس كسائر الأمم، ومسحْتُ بيَدى خطوطَ الفَهْلَوِيَّة، وجحدتُ السِّياسَة السَّاسَانِيَّة، وكنتُ مِمَّن غزا الفُرْسَ مع الرُّوم، وممن خَطَّأ سابُورَ فى خَلْع أكتاف العَرب، وجلبت البلاءَ إلى بابل، ودِنتُ بغير دِينِ الأوائل؛ وإلّا أطْفَأْتُ النار، وأنكرتُ فِعْلَ الفَلَك الدَّوّار، ومالأتُ فاعلَ الليلِ على فاعلِ النَّهار، وأبطلتُ حُكْمَ النَّيروز والمهرجان، وأَطْفأْتُ ليلةَ الصَّدَق مَصابيحَ النِّيران؛ وإلّا أكونُ ممَّن حرَّم فُروجَ الأمهات، وقال بأنّه لا يجوز الجمْع بين الأخَوات؛ وأكونُ ممّن أنكر صَواب فِعْل أردشير، وكنتُ لقَومى بِئْسَ المَوْلَى وبِئْسَ العَشِير.

المهيع الثالث

(فى الأيْمان التى يُحَلَّف بها الحُكَماء)

وهم المعبَّر عنهم بالفَلاسِفَة، جَمْع فَيْلَسُوف: ومعناه باليُونانيَّة مُحِبُّ الحِكْمَة. وأصْلُه فَيْلاسُوف، فَفَيْلا معناه مُحِبّ، وسُوف معناه الحِكْمَة، وهم أصحاب الحِكَم الغَرِيزِيّة والأحْكام السماوية، فمنهم مَن وقف عند هذا الحَدّ، ومنهم من عَرَف الله تعالى وعَبَده بأدَب النَّفْس.

قال الشَّهْرِسْتَانِيّ: وهم على ثلاثة أصناف:

الصِّنف الأوّل — البَراهِمَة، وهم لا يُقِرّون بالنُّبُوّات أصْلاً، ولا يقولون بها.

[الصِّنف الثانى — حكماء العرب][(١)] ، وهم شِرْذِمَةٌ قليلةٌ ، وأكثرحِكَمِهم فَلَتَاتُ الطَّبْع ، وخَطَرات الفِكْر، وهؤلاء رُبَّما قالوا بالنبوّات .

[الصِّنْفُ الثالث — حكماء الروم][(١)] ، وهم على ضربين :

الضـــرب الأوّل

(القُدَماء منهـــم الذين هم أَسَاطِين الحِكْمة)

وهم سَبْعة حكماء : ثاليس المَلَطِى ، وانكساغورس ، وانكسمانس ، وانباديقلس[(٢)] ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون . ومذاهبهم مختلفة ، وبعضهم عاصر بعض الأنبياء عليهم السلام ، وتلقَّف منه ، كانباديقلس : كان فى زمن دَاوُد عليه السلام ، ومَضَى اليه وتلقّ عنه ، وآختلف إلى لُقْمان وآقتبس منه الحِكْمة . وكذلك فيثاغورس : كان فى زمن سُلَيمان عليه السلام ، وأخذ الحِكْمةَ من مَعْدِنِ النبوّة .

الضـــرب الثانى

(المتأخرون منهم ، وهم أصحاب أرَسْطاطالِيس ، وهم ثلاث طوائف)

طائفةٌ منهـــم تُعرَف بالمشائين : وهم الذين كانوا يَمْشون فى رِكَابه يقرءون عليـــه الحِكْمة فى الطريق وهو راكب . وطائفةٌ تُعرف بالرُّواقيين : وهم الذين كان يجلس لتعليمهم بالرُّواق . والطائفة الثالثة فَلَاسِفَةُ الإسلام : وهم حكماء العَجَم . أما قبل الإسلام فإنه لم يُنْقَلْ عن العَجَم مقالة فى الفَلْسَفَة ، بل حِكَمُهم كلُّها كانت مُسْتفادة

---

(١) الزيادة عن الشهرستانى بالمعنى ليستقيم الكلام .

(٢) فى الملل والنحل : انبذقلس .

من النُّبوّات : إما من المِلّة القديمة ، وإما من غيرها من المِلَل . ومُعْتَقَدُهم أن الله تعالىٰ واجبُ الوجود لذاته ، وأنه ليس بجَوْهَرٍ ولا عَرَضٍ ، وأن ما سـواه صادرٌ عنـه على ترتيب ، وأنه تعالىٰ واحدٌ فَرْدٌ ، ليس له شريكٌ ولا نَظِـير ، باقٍ أبَدِىٌّ سَرْمَدِىٌّ ، وأنه الذى أوجد الأشياءَ وكَوَّنها ، ويُعَبِّرون عنه بعِلَّة العِلَل ، وأنه قادرٌ ، يفعلُ إن شاء ولا يفعـلُ إن لم يَشَأْ ، فاعل بالذات ليس له صِفَة زائدةٌ علىٰ ذاته ، مريدٌ ، له إرادةٌ وعنايةٌ لا تزيد علىٰ ذاته ، وأنه أوّلٌ لابِدَايَةَ له ، آخِرٌ لا نهايةَ له ، وأنه يستحيلُ أن يتغيّر ، منزّهٌ عن أن يكون حادثًا أو عَرَضًا للحوادث ، حىٌّ متّصفٌ بصفات البقاء السَّرْمديّة ، وأنه حكيمٌ بمعنى أنه جامع لكلّ كمالٍ وجلال ، وأنه خالقُ الأفلاكِ بقُدْرَته ، ومدبّرها بحكمته ، ويقولون : إن الأرضَ ثابتةٌ لا تتحرّكُ ، والماءُ مُحيطٌ بها من سائر جهاتها على ما اقتضته الحِكْمة الإلٰهيـة ، وكشفَ بعضَ أعلاها لسُكْنَى الخلق فيه ، فهى كبِطِّيخَةٍ مُلْقاةٍ فى بِرْكَةِ ماءٍ ، ويُحيطُ بالماء الهَواء ، ويحيطُ بالهَواء النّار ، ويحيطُ بالنار فَلَكُ القَمَرِ وهو الأوّل ، ويُحِيط بفلك القَمَر فلكُ عُطارِدَ وهو الثانى ، ويحيطُ بفَلَك عُطارِد فلكُ الزُّهَرةِ وهو الثالث ، ويحيطُ بفَلَك الزُّهَرة فلكُ الشَّمس وهو الرابع ، ويحيطُ بفَلَك الشَّمس فلكُ المِرِّيخ وهو الخامس ، ويحيطُ بفَلَك المِرِّيخ فلك المُشْتَرِى وهو السادس ، ويُحِيطُ بفلك المُشْـتَرِى فلكُ زُحَلَ وهو السابع ، ويحيطُ بفَلَك زُحَلَ فلكُ الكواكب وهو الثامن ، وهو الذى فيه الكواكب الثابتة بأسْرِها ، وهى ما عَدَا الكواكبَ السَّبعةَ التى فى الأفلاك السَّبْعة المقـدّم ذِكْرُها : من البروج الاثنى عشر ومَنَازِلِ القَمَر الثمـانية والعشرين وغيرها . ويُحيط بالكواكب الفَلَكُ الأطْلَسُ وهو الفلك التاسع ، والأفلاكُ التسعةُ دائرةٌ بما فيها من المَشْرِق إلى المَغْرِب ، بحيث تقطع فى اليوم والليلة دَوْرةً كامِلَةً ، والكواكب السبعة

التى فى الأفلاك السبعة الأوّلة ، وهى : زُحَل ، والمُشْتَرِى ، والمِرِّيخ ، والشَّمس ، والزُّهَرة ، وعُطَارِد ، والقَمر ؛ متحركةٌ بالسَّيْر إلىٰ جهاتٍ مخصوصة : الشَّمسُ والقَمَرُ يسيران بين المَشْرِق والمغرب وبقيَّةُ الكواكبِ يختلف سَيْرها ٱستقامةً ورُجوعًا ، والكواكب التى فى الفَلَكِ الثامن ثابتةٌ لا تتحرّك ، والله تعالىٰ هو الذى يُسَيِّر هذه الأفلاكَ والكواكِبَ ويُفِيضُ القُوَىٰ عليها .

ويقولون : إن الشمسَ إذا سَخَّنت الأرْضَ بواسطة الضَّوْء صعِدَ من الرَّطْب منها بُخارٌ ، ومن البَارِد اليَابِس دُخَانٌ . ثم بعضُه يخرج من مَسَامّ الأرض فيرتفع إلى الجَوّ ، وبعضُه يَحْتَبِس فى الأرض بوجود ما يمنعه من الخروج منها : من جبل ونحـوه .

فأما مايخرج من مَسَامّ الأرض ، فان كان من البُخار ، فما تصاعد منه فى الهواء يكون منه المَطَر والثَّلج والبَرَد وقَوْس قُزَح والهالةُ ؛ ثم ما ٱرتفع من الطبقة الحارّة من الهَوَاء إلى البـاردة تكاثف بالبَرْد وٱنعقد غَيْمًا ، وإن كان ضعيفا أثَّرت فيـه حرارةُ الشمس فاستحال هَوَاءً ، ومهما ٱنتهىٰ إلى الطَّبَقة الباردةِ تكاثفَ وعادَ وتقاطر وهو المطر . فإن أدركها بَرْدٌ شديدٌ قبل أن تجتمع ، جَمَدتْ ونزلتْ كالقُطْنِ المَنْدُوف وهو الثَّلج ، وإن لم تدركها بُرودةٌ حتى ٱجتمعتْ قَطَراتٌ من الجوانب أذهبتْ برودتَها ، ٱنعقدت بَرَدا ، وإذا صار الهواءُ رَطْبًا بالمَطَر مع أدنىٰ صَقَالة ، صار كالمرآة فيتولد من ضَـوْءِ الشمسِ الواقع فى قفاه قَوْسُ قُزَح ، فإن كان قبـل الزَّوال رُؤِىَ فى المَغْرب ، وإن كان بعد الزوال رُؤِىَ فى المَشْرق ، وإن كانت الشمسُ فى وَسَط السماءِ لم يُمْكِنْ أن يرىٰ إلا قَوْسا صـغيرًا إن ٱتّفق . وفى معنىٰ ذلك الهالةُ المحيطةُ بالقَمَر ، إلا أنّ الهالة إنمـا تحصل من مجرّد بُرودَة الهواءِ وإن لم يكن مَطَر .

وإن كان مايخرج من مسامّ الأرض دُخَاناً : فإن تصاعَدَ وآرتفع فى وَسَط البُخَار وضربه الرِّيحُ فى آرتفاعه، ثقُل وآنتكس فحرَّكه الهواءُ فحصل الرِّيح . وإن لم يَضْرِبْه الرِّيحُ، تصاعد إلىٰ عُنْصُرِ النار وآشتعلت النارُ فيه فصار منه نارٌ تشاهد ، وربما استطال بحسب طُولِ الدُّخَان فيسمّى كوكبا منقضًا . وإن كان الدُّخَانُ كثيفاً واشتعل بالنار ولكنه لم يستحِلْ على القُرْب ، بل بقى زمانا ، رُؤى كأنّه كوكبٌ ذو ذَنَب . وإن بَقِىَ شىءٌ من الدخان فى تضاعيف الغَيْم وبَرَد ، صار رِيحًا فى وَسَط الغَيْم فيتحرّكُ فيه بشدّة فيحصل منه صَوْت وهو الرَّعْد، فإن قَوِيَتْ حركتُه آشتعل من حرارة الحركة الهواءُ والدُّخَانُ فصار نارًا مُضيئةً وهو البَرْق . وإن كان المُشْتَعِلُ كثيفًا ثقيلًا مُحرِقًا ، آندفع بمصادفة الغيم إلىٰ جِهَةِ الأرض وهى الصاعقة : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

ويُقِرُّون أن الله تعالىٰ مُكَوِّنُ الأكوان، ومُنَمِّى المعادن والنَّبات والحَيَوان .

فأما المعادنُ — فهى التى تتكوّنُ فيها جواهِرُ الأرض : من الذَّهَب والفِضّة وغيرهما . وذلك أن البُخَارَ والدُّخَان فى الأرض فإنها [ان] تجتمعُ وتمتزجُ، فإن غلب الدخانُ كان الحاصلُ منه مثلَ النُّوشادِر والكِبْرِيت، وربَّما تغلَّبَ البخار فى بعْضه فيصير كالماء الصَّافى المنعقدِ المتحجِّرِ ، فيكون منه الياقُوتُ والبِلَّوْرُ ونحوه ممَّا لا يتطرَّقُ تحت المَطَارق . وإن آستحكم آمتزاج الدخان منه بالبُخَار وقلَّت الحرارةُ المحققة فى جواهرها ، آنعقد منه الذَّهب والفِضّة والنُّحاس والرَّصاص ونحوُها مما يتطرّق بالمِطْرَقة .

وأما النبات — فانهم يقولون : إن العَنَاصر قد يقعُ بها آمتزاجٌ وآختلاطٌ أتمُّ من آمتزاج البُخَار والدُّخَان المقدّم ذكره ، وأحسنُ وأقربُ إلى الآعتدال ، فيحصُل من ذلك النُّمُوّ الذى لايكون فى الجمادات .

وينشأ عن ذلك ثلاثةُ أمورٍ :

أحدها — التَّغْذِيَةُ بقوّة مُغَذِّيَة : وهى قوّةٌ مُحِيلَةٌ للغذاء تخلع عنها صُورتَها وتكسوها صورة المتغذّى، فتنتشر فى أجزائه وتلتصق به وتَسُدُّ مَسَدَّ ما تحلّل من أجزائه .

وثانيها — التَّنْمية بقوّة مُنَمِّيَة، بأن يزيد الجسم بالغِذَاءِ فى أقطارِه على التناسب اللائق بالنامى حتّى ينتهى إلى مُنْتَهى ذلك الشىء .

وثالثها — التَّوْليدُ بقوّة مولِّدَة : وهى التى تَفْصِل جِسْمًا من جِسْمٍ شَبِيهٍ به .

وأما الحيوان — فإنهم يقولون إن تكوُّنَه من مِزاجٍ أقربَ إلى الاعتدال وأحسنَ من الذى قبله، من حيثُ إن فيه قوّة النباتية وزيادةَ قوّتين، وهما المُدْرِكَة والمتحرِّكة، ومهما حصل من الإدراك انبعثت الشهوةُ والنُّزوعُ، وهو إما لطَلَب ما يحتاج إليه فى طَلَب المُلائم الذى به بقاءُ الشَّخْص : كالغذاءِ، أو بقاء النَّوْع : كالجماع، ويسمَّى قُوّةً شَهْوانية . وإما للهَرَب ودَفْع المُنافِى، وهى قوّة غَضَبِيَّةٌ، فإن ضَعُفَت القوّة الشَّهْوانية فهو الكراهة، وإن ضَعُفَتِ القوّة الغَضَبِيَّة فهو الخوف .

والقوّةُ المُدْرِكَةُ تنقسم إلى باطنة : كالخيالية والمُتَوَهِّمة والذّاكرة والمُفكِّرة، وإلى ظاهرة : كالسَّمْع والبَصَر والذَّوْق والشَّمّ واللَّمْس . فاللَّمْس قوّةٌ مُنْبَثّةٌ فى جميع البَشَرة، تُدْرِك الحرارةَ والبُرودةَ والرُّطوبةَ واليُبُوسةَ والصَّلابةَ واللِّينَ والخُشونةَ والمَلاسةَ والخِفَّةَ والثِّقَل . والشَّمُّ فى زائدتَىِ الدِّماغ الشبيهتين بحَلَمتَىِ الثَّدْى . والسَّمْع فى عَصَبة فى أقصى الصِّماخ . والذَّوْق فى عَصَبةٍ مَفْروشةٍ على ظاهر اللِّسان بواسطة الرُّطوبة العَذْبة التى لا طَعْم لها، المنبسطةِ على ظاهرِ اللِّسان . والإبصار يحصلُ عن انطباع مثل صُورَة المُدْرَك فى الرُّطوبة الجُلَيْدِيَّة التى تُشْبِه البَرَد والجَمَد فإنّها كالمِرآة، فاذا قابَلَها يكون انطبع فيها مثلُ صُورتِهِ فتحْصُلُ الرُّؤْيَة .

ويرَوْنَ أنَّ النفسَ محلّها العُلو . ويقولون : إن النفسَ فى أوّل الصبا تكونُ عالمةً بالمعقولات المجرَّدة والمَعانى الكُلّية بالقُوّة ، ثم تَصيرُ بعد ذلك عالمةً بالفعل .

ثم إن سَعِدَتْ بالاستعداد للقَبُول ، انقطعتْ حاجتُها عن النَّظر إلى البَدَن ومُقتضى الحَواسّ ، إلا أنَّ البَدَنَ لايزالُ يجاذبُها ويشْغَلها ويمنعُها من تمام الاتصال بالعُلْويّات ، فاذا انْحَطّ عنها شُغل البَدَنِ بالمَوْتِ ارتفع عنها الحِجابُ ، وزالَ المانِعُ ، ودام الاتصالُ ، وكَمُل حالُها بعد فِراقِ البَدَنِ ، والتذَّتْ به لَذَّةً لايُدرِكُ الوَصْفُ كُنْهَها . وإن كانت النفسُ محجوبةً عن هذه السعادة فقد شَقِيت .

وعندهم أنه إنَّما تُحجَبُ باتِّباع الشهوات ، وقَصْرِ الهمة على مُقتضى الطَّبْع ، وباقامته فى هذا العالَمِ الخَسِيسِ الفَانى ، فتَرْسَخُ فى نَفْسه تلك العادةُ ويتأكّد شَوْقُه إليها ، فتفُوتُ بالمَوْتِ آلةُ دَرْكِ ذلك الشَّوْق ويبقَى التشَوُّق وهو الألَمُ العظيمُ الذى لاحَدَّ له ، وذلك مانِعٌ من الوصال والاتصال . وهذه النفس ناقِصَةٌ بفَقْد العِلْم، ملطَّخَةٌ باتباع الشَّهوات، بخلاف النَّفْس السابقة .

ويقولون : إن الهَيُولَى قابِلَةٌ لتركيب الأجسام، ويُخالِفُون أهْلَ الطبيعة فى قولهم: بانكار المَعاد وفَنَاءِ الأرواح، فيذهبون إلى أنَّ الأرواحَ بَاقيةٌ وأن المَعادَ حَقٌّ .

ويرَوْنَ أن التَّحْسينَ والتقبيح راجعان إلى العَقْل دُون الشَّرْع ، كما هو مَذْهب المُعْتزلة وغيرهم .

ويقولون : إن الإله تعالى فاعل بالذاتِ ليس له صِفَةٌ زائدة على ذَاتِه ، عالِمٌ بذاته وبسائر أنواع الموجودات وأجْناسها، لا يَعْزُب عن علمه شيءٌ، وإنه يعلم الممكنات الحادثة .

ويقولون باثبات النبوّات لأن العالَم لا ينتظمُ إلا بقانونٍ متبوعٍ بين كافّةِ [الناس] يَحْكُمُون به بالعَدْل ، وإلّا تقاتلوا وهلَكَ العالَمُ ، إذ النبيُّ هو خليفةُ الله فى أرضه ، بواسطته تنتهى إلى الخَلْق الهِدَايَةُ إلىٰ مصالح الدُّنيا والآخِرَة ، من حيثُ إنه يتلقَّى عن المَلَك والمَلَكُ يتلقَّى عن الله تعالىٰ ، إلا أنهم يقولون : إن النبوّاتِ غيرُ متناهية وإنها مكتسبةٌ ينالُها العَبْد بالرياضات . وهاتان المقالتان من جملة ما كَفَرُوا به : تجويزُ النُّبوّة بعد النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الذى أخبر تعالىٰ أنه خاتَمُ النبيين ، وقولهم إنها تُنَال بالكَسْب .

وقد حكى الصَّلاحُ الصَّفَدىُّ فى "شَرْح لامية العجم" أن السلطانَ صَلاحَ الدِّين يُوسَف بن أيّوبَ إنما قتل عُمارَةَ اليَمَنِىَّ الشاعر، حين قام فيمن قام بإحياء الدولة الفاطمِيَّة بعد انقراضها، علىٰ ما تقدم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية، مُسْتَنِدًا فى ذلك إلىٰ بَيْتٍ نُسِب إليه من قصيدةٍ، وهو قوله :

وكانَ مَبْدأُ هذا الدِّينِ من رَجُلٍ * سَعَى فأصبح يُدْعَى سَيِّدَ الأُمَمِ

فجعل النبوّة مكتسبة (١) علىٰ أن الله تعالىٰ ليس بجِسْم ولا جُسْمانى، وأنه ليس فى جِهَةٍ ولا يدخل تحت الحَدِّ والمَاهِيَّة .

✧ ✧ ✧

وهذه نسخة يمين رتبها لهم فى "التعريف" وهى :

إننى واللهِ واللهِ واللهِ [العظيم] (٢) ، الذى لا إله إلا هو ، الواحدُ الأحَدُ ، الفَرْدُ الصَّمَد ، الأبدىُّ ، السَّرمدىُّ ، الأزَلِىُّ ، الذى لم يَزَلْ عِلَّةَ العِلَلِ ، ربُّ الأرباب ،

(١) بياض فى الأصل ، ولعله « وهم يجمعون علىٰ أن » الخ .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٦٢ .

ومُدَبِّرُ الكلّ [القدير] القـديم ، الأوّلُ بلا بداية ، والآخِرُ بلا نهاية ، المُنَزَّهُ عن أن يكونَ حادثا أو عَرَضًا للحوادث ، الحَيُّ الذى ٱتَّصف بصفات البقاء والسرمدية والكمال ، والمتردِّى برداء الكِبْرِياء والجَلَال ، مُدَبِّرُ الأفلاكِ ومُسَيِّرُ الشُّهُب ، مُفيضُ القُوَىٰ على الكواكب ، وباثُّ الأرواح فى الصُّـوَر ، مكوِّنُ الكائنـات ، ومُنَمِّى الحيوان والمَعْدِنِ والنبات . وإلّا فلا رَقِيَتْ رُوحى إلى مكانها ، ولا ٱتّصلتْ نَفْسِى بعالَمِهـا ، وبَقِيتُ فى ظُلَم الجَهالة وحُجُب الضَّلالة ، وفارَقَتْ نَفْسِى غيرَ مُرْتَسِـمَةٍ بالمعارف ولا مُكَمَّلَةٍ بالعِـلْم ، وبَقِيتُ فى عَوَزِ النَّقْص وتحت إمْرَةِ الغَيِّ ، وأخذتُ بِنَصيبٍ من الشِّرْك ، وأنكرتُ المَعَاد ، وقلتُ بفَنَاء الأرواح ، ورضيتُ فى هذا بمقالة أهـل الطبيعة ، ودُمْتُ فى قيد المركَّبات وشـواغل الحس ، ولم أُدْرِكِ الحقائقَ علىٰ ماهى عليه ؛ وإلا فقلتُ : إن الهَيُولَىٰ غيرُقابلةٍ لتركيب الأجسام ، وأنكرتُ المـادَّةَ والصُّورَة ، وخَرَقْتُ النوامِيسَ ، وقلتُ : إن التَّحْسِـينَ والتَّقْبيح إلىٰ غير العَقْل ، وخُلِّدتُ مع النفوس الشِّرِّيرة ، ولم أَجِد سبيلا إلى النَّجاة ، وقلتُ : إن الإلٰهَ ليس فاعلا بالذات ، ولا عالِمًـا بالكُلِّيات ، ودِنْتُ بأن النبوّاتِ مُتَناهيةٌ وأنها غير كَسْبِيَّة ، وحِدتُ عن طرائق الحكماء ، ونَقَضْتُ تَقْرِيرَ القدماء ، وخالفتُ الفلاسـفة ، ووافقتُ علىٰ إفساد الصُّوَر للعبث ، وحَيَّزْتُ الرَّبَّ فى جهـة ، وأثبتُّ أنه جِسْمٌ ، وجعلتُـه فيما يدخل تحت الحَدِّ والمـاهية [ورَضِيتُ بالتَّقْليد فى الألوهية] (١) .

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٣ .

المهيع الرابع

(فى بيان المحلوف عليه، وما يقع على العموم، وما يختصّ به كلّ واحد من أرباب الوظائف مما يناسبُ وظيفته)

اِعلَمْ أن المحلوفَ عليه فى الأَيمان المُلُوكيَّة تارةً يشترِكُ فيه جميعُ من يُحَلَّفُ من أهل الدولة، وتارةً يختلِفُ بٱختلاف ما يمتازُ به بعضُهم عن بعضٍ مما لا تقعُ الشَّرِكَة بينهم فيه.

فأما مايقع فيه الاشتراكُ، كطاعَةِ السلطان وما فى معناها: من إخلاص النيَّة وإصفاءِ الطَّويَّة، وما يجرى مجرىٰ ذلك، فذلك مما يشترِكُ فيه كلُّ حالِفٍ يحلفُ للسلطان على ٱختلاف عقائدهم: من مسلم: سُنِّىّ أو بِدْعِى، وكافرٍ: يهودىّ أو نَصْرانِى، أو غيرهما. فكلُّ أحدٍ يحلَّفُ بما تقتضيه عقيدتُه فى التعظيم، علىٰ ما تقدّم بيانُه فى أَيمان الطوائف كلِّها.

فاذا ٱنتهى إلى المحلوف عليه، قال: إنَّنى من وَقْتى هذا ومن ساعَتِى هذه وما مدّ الله فى عُمْرى قد أخلصتُ نِيَّتى ولا أزالُ مجتهدًا فى إخلاصِها، وأَصْفَيتُ طَوِيَّتى ولا أزالُ مجتهدًا فى إصْفائها، فى طاعةِ مولانا السلطان المالك المَلِك الفُلانِىِّ فلانِ الدنيا والدِّين فلان، ٱبن السلطان السَّعيدِ الشَّهيدِ المَلِك فلان الدُّنيا والدِّين فلانٍ خلد الله تعالىٰ مُلْكه، وفى خِدْمَتِه ومحبَّتِه ونُصْحِه، وأكونُ وَلِيًّا لمن وَالاه، عَدُوًّا لمن عاداه، سِلْمًا لمن سالمه، حَرْبًا لمن حارَبه من سائر الناس أجمعين، لا أُضْمِرُ له سُوءًا ولا مَكْرُوهًا ولا خَديعةً ولا خِيانَةً، فى نَفْسٍ ولا مَالٍ ولا مُلكٍ ولا سلطنةٍ ولا عَساكِرَ ولا جُنْدٍ ولا عُرْبانٍ ولا تُرْكُمانٍ ولا أكرادٍ ولا غيرِ ذلك، ولا أَسعىٰ فى تفريق كلمةِ أحدٍ منهم عن طاعته الشريفة. واننى والله العظيم أبذُل جُهْدِى

وطَاقَتِي فى طاعة مولانا السلطان المَلِك فلانِ الدُّنيا والدِّين المشار إليه، وإن كاتَبَنِي أحدٌ من سائر الناس أجمعين بما فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مُلْكِه لا أُوافِقُ علىٰ ذلك بقَوْلٍ ولا فِعْلٍ ولا عَمَلٍ ولا نِيَّةٍ، وإنْ قدرتُ علىٰ إمْساكِ الذى جاءَنِي بالكتاب أمسكْتُه وأحضرتُه لمولانا السلطان المَلِك فلانٍ المشار إليه أو لنائبه القَرِيبِ مِنِّى .

وأما ما يقعُ فيه الاختلاف فما يتبايَنُ الحالُ فيه باختصاص رَبِّ كلِّ وَظِيفةٍ بما لايشاركه فيه الآخر. وقد أشار فى "التَّعريف" إلىٰ نُبْـذةٍ من ذلك فقال : وقد يُزاد نُوَّابُ القِلاع ونُقَباؤُها والوُزَراءُ وأرباب التَّصَرُّف فى الأموال والدوادارية وكُتَّاب السِّرِّ زيادات، يعنى علىٰ ما تقدّم .

فأما نُوّابُ القِلاع ونُقَباؤُها فيزاد فى تَحْلِيفهم : وإنَّنِي أجمعُ رجالَ هذه القَلْعةِ علىٰ طاعة مولانا السلطانِ فلانٍ وخِدْمتِه فى حِفْظ هذه القلعة وحِمايَتِها وتَحْصِينِها، والذَّبِّ عنها، والجهادِ دُونَها، والمُدافَعَة عنها بكلِّ طريق . وإنَّني أحفظُ حَواصِلَها وذَخائرَها وسِلاحَ خاناتها على اختلاف ما فيها من الأقوات والأسلحة . وإنَّني لا أُخرِجُ شيئًا منها إلا فى أوقات الحاجة والضَّرورةِ الدَّاعيةِ المتَعَيِّنِ فيها تَفْرِيقُ الأقوات والسلاح، علىٰ قَدْر ما تدعو الحاجةُ إليه . وإنَّنِي أكونُ فى ذلك كواحدٍ من رجال هذه القَلْعة، وكلُّ واحدٍ ممن يَتْبَعنى كواحدٍ ممن يتبع أتباعَ رجالِ هذه القَلْعة، لا أتَخَصَّصُ ولا أُمَكِّنُ من التخصيص . وإنِّي واللهِ واللهِ واللهِ لا أفتحُ أبوابَ هذه القَلْعة إلا فى الأوقات الجارى بها عادةُ فَتْحِ أبواب الحُصُون، وأُغْلِقُها فى الوقت الجارى به العادةُ، ولا أفتَحُها إلا بشَمْسٍ، ولا أُغْلِقُها إلا بشَمْس . وإنَّنِي أُطالبُ الحُرَّاسَ والدراجة وأرباب النُّوَبِ فى هذه القلعة بما جَرَتْ به العوائدُ اللازمة لكلٍّ منهم مما فى ذلك جميعِه مصلحةُ مولانا السلطان فلان . وإنِّي لا أُسلِّمُ هذه القلعةَ إلا

لمولانا السلطان فلانٍ، أو بمَرْسُومه الشَّريف وأمارته الصحيحة وأوامره الصريحة .
وإنّني لا أستخدمُ فى هذه القَلْعة إلا مَن فيه نَفْعُها وأهْلِيَّةُ الخِدْمة، لا أعمل فى ذلك بغَرَض نَفْسِي ، [ولا أُرَخِّص فيه لمن يعمل بغَرَض نَفْسٍ له][1] ، وإنّنى أبذُلُ فى ذلك كلِّه الجهْدَ، وأشمّر فيه عن ساعِدِ الجِدِّ، قال : ويسمِّى القَلْعةَ التى هو فيها .

وأما الوزراء وأرباب التصَرُّف [فى الأموال] فمما يزاد فى تَحْليفهم : وإنّنى أحفظُ أموالَ مولانا السلطانِ فلانٍ ـ خلّد الله مُلْكه ـ من التَّبذير والضَّياع ، والخَوَنة وتفْريط أهْلِ العَجْزِ ، ولا أستخدِمُ فى ذلك ولا فى شَيْءٍ منه إلا أهْلَ الكِفاية والأمانَة ، ولا أُضَمِّنُ جهةً من الجهات الديوانية إلا من الأمناء الأتْقياءِ القادرين ، أو ممن زاد زيادةً ظاهِرةً وأقام عليه الضُّمَّانَ الثِّقاتِ، ولا أؤخِّر مطالبةَ أحَدٍ بما يتعينُ عليه بوَجْهٍ حقٍّ من حقوق الديوان المعمور والمُوجَبات السلطانية على آختلافها .
وإنى واللّهِ العظيمِ لا أُرَخِّص فى تَسْجيلٍ ولا قياس، ولا أسامحُ أحدًا بموجَبٍ يجبُ عليه ، ولا أَخْرُجُ عن كلِّ مَصْلَحةٍ تتعيَّن لمولانا السلطان فلانٍ ولدَوْلتِه ، ولا أُخْلِي كلَّ دِيوانٍ يرجع إلىَّ أمْرُه ، ويُعْدَقُ بى أمْرُ مُباشَرته من تَصَفُّح لأحواله، وآجتهادٍ فى تثمير أمواله، وكَفِّ أيدى الخَوَنة عنه، وغَلِّ أيديهم أن تصلَ إلىٰ شَيْءٍ منه ، ولا أدَعُ حاضِرًا ولا غائبًا من أمور هـذه المباشرة حتّى أجِدَّ فيـه، وأبذُلَ الجُهْدَ الكُلِّيَّ فى إجراء أُمُورِه على السَّداد وحُسن الاعتماد . وإنّنى لا أستَجِدُّ على المستقرّ إطلاقَه ما لم يُرْسَم لى به إلا ما كان فيـه مَصْلحة ظاهِرة لهذه الدَّولة القاهرة، ونَفْعٌ بَيِّنٌ لهذه الأيام الشريفة. وإنّنى واللهِ أؤدِّى الأمانة فى كلّ ماعُدِقَ بى ووُلِّيتُ : من القَبْض والصَّرْف ، والولايَةِ والعَزْلِ ، والتأخير والتقـديم ، والتقليل والتكثير، وفى كلِّ جَليلٍ وحَقيرٍ، وقَليلٍ وكثيرٍ .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٩ .

وأما الدَّوَادَارِيَّة وكُتَّابُ السِّرِّ فيزاد فيهما : وإنّنى مهما آطلعتُ عليه من مصالح مولانا السلطان فلانٍ ــ خلّد الله مُلكه ــ ونصائحِه، وأمرِ دانِى مُلكه ونازِحه، أوصّلُه إليه ، وأَعْرِضُه عليه ، ولا أُخفِيه شيئًا منه ولو كان علَىَّ، ولا أكتُمُه ولو خِفتُ وصول ضرره إلىَّ .

ويفرد الدَّوادَارُ : بأنّى لا أُؤدّى عن مولانا السلطان رسالةً فى إطْلاقِ مال، ولا آستِخدام مُسْتخْدَم، ولا إقْطاعِ إقْطاعٍ، ولا تَرْتِيب مُرَتَّب، ولا تجْديدِ مُسْتَجَدٍّ، ولا شادّ شاغِرٍ(١) ، ولا فَصْلِ مُنازَعَةٍ، ولا كتابةِ تَوْقيع ولا مَرْسوم ، ولا كِتَاب صغيرا كان أو كبيرًا إلّا بعد عَرْضه علىٰ مولانا السلطان فلانٍ ومُشاوَرتِه، ومعاودةِ أمْرِه الشريف ومُرَاجعتِه .

ويفرد كاتب السر : بأنّه مَهْما تأخرتْ قِراءتُه من الكتب الواردةِ علىٰ مولانا السلطانِ فلانٍ من البعيد والقريب، يعاوِدُه فيه فى وَقْتٍ آخَر، فإن لم يُعاوده فيه بمجْموع لفظه، لطوله الطُّولَ المُمِلَّ، عاوده فيه بمعناه فى المُلَخَّصات ، وأنه لا يُجاوِبُه بشَىْءٍ لم يَنُصَّ المرسومُ الشريفُ فيه بنَصٍّ خاصٍّ ، وما لم تَجْرِ العادةُ بالنص فيه لا يُجاوب فيه إلا بأكمل ما يَرَى أن فيه مَصْلحةَ مولانا السلطان فلانٍ ومَصْلحة دَوْلته بأسَدِّ جَوَابٍ يَقْدِر عليه ، ويَصِلُ آجتهادُه إليه . وأنه مهما أمْكنه المراجعةُ فيه لمولانا السلطان فلانٍ راجَعَه فيه وعمِل بنص ما يرسم له به فيه . هذا ما آنتهى إليه كلامه .

قال فى "التثقيف" : ويزادُ النُّوّاب مثل قَوْله : ولا أسْعىٰ فى تَفْرِيق كلمةِ أحَدٍ منهم عن طاعته الشريفة ، وعلىَّ أن أبْذُلَ جُهْدى وطاقتِى فى ذلك كلِّه وفى حِفْظِ المملكة التى آستنابنى فيها، وصِيانَتِها وحِمايتِها، وما بها من القِلاع والثُّغُور والسواحل. ثم يأتى بعده : وإن كاتبنى أحدٌ الخ .

(١) فى "التعريف" ص ١٥٠ «ولا سداد ثاغر» .

قلتُ : والمراد أنه يُؤتىٰ باليمين العامة التى يحلف عليها كلُّ أحدٍ، ثم يزاد لكلِّ واحدٍ من أرباب الوظائف ما يُناسبه مما تقدّم ، ثم يؤتىٰ علىٰ بقيّة اليمين من عند قوله : وإنّني أفِي لمولانا السلطانِ بهذه اليمينِ ، إلىٰ آخرها أو ما فى معنىٰ ذلك من أيْمان أهل البِدَع وأصحاب المِلَل علىٰ ما تقدّم ذكره .

ثم قال فى "التثقيف" : وقد تتجدّد وقائعُ وأمورٌ تحتاج إلى التّحْليف، بسببها تتغيّر صِيغَةُ المحلوف عليه بالنسبة إلىٰ ما رُسِم به فيها . ثم أشار إلىٰ أنه لم يَرَ مدّةَ مُباشرته بديوان الإنشاء أحدًا ممن ذكره فى "التعريف" : من أرباب الوظائف حُلِّفَ ، وإنما ذكرها لاحتمال أن تدعُوَ الحاجةُ إليها فى وقْت من الأوقات ، أو أنها كانت مستعملة فى المتقدّم، فيكون فى تركها إهمالٌ لبعض المصطلح .

قلت : وقد أهملا فى "التعريف" و "التثقيف" : ذِكْرَ يمينين مما رتبه الكُتّابُ وحلّفوا به فى الزمن المتقدّم مما لا غنًى بالكاتب عنه .

الأولىٰ — اليمينُ على الهُدْنة التى تنعقد بين مَلِكَين أو نائبهما ، أو مَلِكٍ ونائب مَلِك آخر، علىٰ ما سيأتى ذكره فى المقالة التاسعة، إن شاء الله تعالىٰ .

وتقع اليمين فيها علىٰ ما فيه تأكيدُ عَقْد الهُدْنة والتزامُ شروطها والبقاءُ عليها وعدمُ الخروج عنها أو عن شيءٍ من ملتزماتها، وغيرُ ذلك مما يدخل به التّطرقُ إلى النَّقْض والتّوصُّلُ إلى الفَسْخ .

⁂

وهذه نسخةُ يمينٍ حُلِّف عليها السلطانُ المَلِكُ المنصورُ «قلاوون» على الهُدْنة الواقعة بينه وبين الحُكّام بمملكة عَكّا وصَيْدَا وعَثْليث وبلادها، من الفرنج الاستبارية ،

فى شهر ربيع الأوّل سنة آثنتين وثمانين وستمائة، فى مباشرة القاضى فتح الدّين بن عبد الظاهر كتابةَ السّر، علىٰ ما أورده آبن مُكَرَّم فى تذكرته، وهى :

أقولُ وأنا فلانٌ : واللهِ واللهِ واللهِ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ، واللهِ العظيم، الطّالبِ، الغالبِ، الضّارِّ، النافعِ، المُدْرِك، المُهْلِك؛ عالمِ ما بدا وما خفى، عالمِ السّر والعلانيةِ، الرّحمنِ الرحيم، وحقِّ القرآن ومن أنزله ومن أُنْزِلَ عليه، وهو محمدُ بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وما يقالُ فيه من سُورةٍ سُورةٍ، وآيةٍ آيةٍ، وحقِّ شَهْرِ رمضان، إنّنى أَفِى بحفْظ هـذه الهُدْنةِ المباركةِ التى آستقرّتْ بيْنى وبين مَمْلكة عَكّا والمقدّمين بهـا علىٰ عَكّا وعَثْليث وصَيْدا وبلادها، التى تَضَمّنتْها هذه الهُدْنة، التى مُدّتُها عَشْرُ سِنينَ كوامِل، وعَشرةُ أشْهرٍ، وعشرةُ أيام، وعَشْرُ ساعات، أوّلها يومُ الخميس خامسُ ربيع الأوّل سَنةَ آثنتين وثمـانين وستمائة للهجرة من أوّلها إلىٰ آخرها، وأحْفَظُها وألتزمُ بجميع شُروطِها المشروحة فيها، وأُجْرى الأمورَ علىٰ أحكامها إلى آنقضاء مُدّتِهـا ولا أتأوّلُ فيها ولا فى شَىْءٍ منها، ولا أسْتَفْتِى فيها طلَباً لنَقْضِها مادام الحاكِمُون بمدينة عَكّا وصَيْدا وعَثْليث ـ وهم كافِلُ المملكة بعكّا، ومقدَّمُ بَيْت الرُّوم، ومقدّمُ بيت الآستبار، ونائبُ مقدّمِ بَيْت الآسـتبار إلى الآن، ومن تولى بعدهم فى كَفالة مَمْلكةٍ، أو مقدّمِ بَيْتٍ بهـذه المملكة المذكورة ـ وافين باليمين التى يُحَلَّفُون عليها (فى وَلَدِى الملك الصالح، ولأولاده، على آستقرار هذه الهُدْنة المحرّرة الآن) عاملين بها وبشروطها المَشْروحةِ فيها إلى آنقضاءِ مُدّتها، مُلْتزمين أحكامَها، وإن نكثتُ فى هـذه اليمين فيلزمُنى الحجُّ إلىٰ بَيْت الله الحَرامِ بمكّةَ حافيًا حاسرًا ثلاثين حَجّةً، ويلزمُنى صَوْمُ الدّهر كلّه إلا الأيامَ المَنْهىَّ عنها .

ويذكر بقية اليمين إلىٰ آخرها، ثم يقول : واللهُ علىٰ ما نَقُولُ وَكِيل .

* * *

وهذه نسخةُ يمينٍ حُلِف عليها الفرنجُ المعاقدُون علىٰ هذه الهُدْنة أيضا، فى التاريخ المقدم ذكره علىٰ ما أورده آبنُ مكرَّم أيضا، وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ ، وحقِّ المَسيح وحقِّ المَسيح ، وحقِّ الصَّليب وحقِّ الصَّليب ، وحقِّ الأقانيم الثلاثةِ من جوْهرٍ واحدٍ المكنَّى بها عن الأبِ والأبْنِ ورُوح القُدُس إلٰه واحد، وحقِّ الصليب المكرَّم الحالّ فى النَّاسُوت، وحقِّ الإنجيلِ المطهَّر وما فيه، وحقِّ الأناجيل الأربعة التى نقلها مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنّا ، وحقِّ صَلَواتهم وتَقْديساتِهم ، وحقِّ التلامذة الأثْنَى عشر، والأثنين وسبعين، والثلثمائة وثمانيةَ عَشَر المجتمعين للبيعة، وحقِّ الصَّوْت الذى نزل من السماء علىٰ نَهْر الأُرْدُنّ فزجره ، وحقِّ اللهِ مُنْزِل الإنجيل علىٰ عيسى بن مَرْيَم رُوح الله وكلِمَتِه، وحقِّ السيدةِ مَارِيَةَ أمِّ النُّور (ومارية مَرْيم) ويُوحَنّا المعمودى ومرتمان ومرتمانى، وحقِّ الصَّوْم الكبير، وحقِّ دِينِى ومعبودى وما أعْتَقِدُه من النَّصْرانية ، وما تَلَقَّيْتُه عن الآباء والأقِسَّاءِ المعمودية - إنَّنى من وَقْتِى هذا وساعتى هذه، قد أخلصتُ نِيَّتى ، وأصْفيتُ طَوِيَّتى فى الوَفاء للسلطان المَلِك المنصور ولولده المَلِك الصالح ولأولادهما ، بجميع ماتَضَمَّنته هذه الهُدْنَة المباركةُ التى آنعقد الصُّلْحُ عليها، علىٰ مملكة عكّا وصَيْدا وعَثْليث وبلادها الداخلة فى هذه الهُدْنة، المسماةِ فيها، التى مدّتُها عشْرُ سنين كوامِل، وعشرةُ أشْهر، وعشرةُ أيّام، وعشْر ساعاتٍ، أولُها يومُ الخميس ثالثُ حَزِيرَان سنة ألْفٍ وخمسمائة وأربع وتسعين للإسْكَنْدر بن فيلبس اليونانى، وأعملُ بجميع شروطها شرْطًا شرْطًا، وألتزمُ الوَفاءَ بكلِّ فَصْلٍ فى هذه الهُدْنة المذكورة إلى آنقضاء مُدَّتها . وإنَّنى واللهِ واللهِ وحقِّ المَسيح ، وحقِّ الصَّليب ،

وحقّ دِينِى لا أتعرّضُ إلىٰ بلاد السُّلطان ووَلَدِه، ولا إلىٰ من حَوَتْه وتَحْوِيه من سائر الناس أجمعين، ولا إلىٰ من يتردّدُ منهم إلى البلاد الداخلة فى هذه الهُدْنَة بأذيَّة ولا ضَرَرٍ فى نَفْسٍ ولا فى مال . وإنّنى واللهِ وحَقِّ دِينِى ومَعْبودى أسْلُكُ فى المعاهدة والمُهادَنَةِ والمُصافاة والمصادَقَة وحِفْظِ الرَّعِيَّة الإسلامية، المتردِّدين فى البلاد السلطانية، والصادِرِينَ منها وإليها ـ طَرِيقَ المُعاهَدِين المُتصادِقِينَ الملتزِمين كَفَّ الأذِيَّة والعُدْوانِ عن النُّفوس والأموال، وألْزَمُ الوَفاءَ بجميع شروط هذه الهُدْنة إلى انقضائها، مادام المَلِكُ المنصورُ وافيًا باليمين التى حَلَفَ بها على الهُدْنة، ولا أنْقُضُ هذه اليمينَ ولا شيئًا منها، ولا أسْتَثْنِى فيها ولا فى شىء منها طلبًا لنَقْضِها، ومتىٰ خالفتُها ونَقَضتُها فأكونُ بَرِيئًا من دِينِى واعتقادِى ومَعْبودِى، وأكونُ مُخالِفًا للكَنِيسة، ويكونُ علىَّ الحجُّ إلى القُدْس الشريف ثلاثين حَجَّةً حافيًا حاسِرًا، ويكونُ علىَّ فَكُّ ألْفِ أسِيرٍ مُسْلِمٍ من أسْرِ الفرنج وإطْلاقُهم، وأكونُ بَرِيئًا من اللّاهُوت الحالِّ فى النّاسُوت، واليمين يمينى وأنا فلانٌ، والنيةُ فيها بأسْرِها نِيَّةُ الملك المنصور، ونيةُ وَلَدِه المَلِكِ الصالح، ونيةُ مُسْتَحلِفِى لهما بها على الإنجيل الكريم، لانِيَّةَ لى غيرُها، واللهُ والمَسِيحُ علىٰ ما نقول وَكِيل .

وكذٰلك كُتِبت اليمينان، من جهة السلطان الملك الظاهر بِيبَرْس، ويمين صاحب بَيْرُوت وحِصْنِ الأكراد والمَرْقَب من الفَرَنج الاستبارية فى شهر رمضانَ سنة خَمْسٍ وستين وستمائة .

قلتُ : ومقتضى ما ذكره ابن المُكَرَّم فى إيراد هذه الأيمان أن نُسْخَةَ اليمين تكون مُنْفصلةً عن نسخة الهُدْنة كما فى غيرها من الأيمان التى يُستحلَف عليها، إلا أنَّ مقتضىٰ كلامِ "موادّ البيان" : أن اليمين تكونُ متّصلةً بالهُدْنة . والذى يَتَّجِه أنه

إن تيسّر الحَلِفُ عقبَ الهُدْنة ـ لوُجُود المتحالفين ـ كُتِب فى نفس الهدنة مُتّصلا بها ، وإلّا أفرد كلّ واحدٍ من الجانبين بنُسْخةٍ يمين ، كما فى غيرها من الأيمان .
وربّما جُرّدت الهُدْنةُ عن الأيمان ، كما وقع فى الهُدْنة الجارية بين الظاهر بيبَرْس وبين دون حاكم الريدأرغون ، صاحب برْشلونه من بلاد الأنْدَلُس ، فى شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة علىٰ مُقتضى ما أورده آبن المُكَرَّم فى تذكرته .

وآعلم أنه قد يكتفىٰ باليمين عن الهُدْنة [باليمين] فى عَقْد الصُّلْح .

وقد ذكر القاضى تقيُّ الدِّينِ آبنُ ناظر الجَيْش فى "التثقيف" : أنه رتَّب يمينا حُلِّف عليها الفَرَنجُ بالأبواب السلطانية بالديار المصرية عند عَقْد الصُّلْح معهم ، فى سنة آثنتين وسبعين وسبعمائة ، فيها زياداتٌ علىٰ ما ذكره المَقَرُّ الشّهابىُّ بن فضلِ الله فى "التعريف" وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ العظيمِ ، إلهِ إبراهيمَ ، مالك الكُلّ ، خَالِقِ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ ، صانعِ كلّ شىءٍ ومُتقِنه ، الربِّ الذى لا يُعْبد سِواه ، وحقِّ المَسيح ، وحقِّ المَسيح ، وحقِّ المَسيح ، وأمّه السيدةِ مَرْيمَ ، وحقِّ الصليب ، وحَقِّ الصليب ، وحقِّ الصليب ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الأَبِ والآبْنِ ورُوحِ القُدُس إلهٍ واحدٍ من جَوْهرٍ واحدٍ ، وحقِّ اللّاهُوت المُكَرَّم ، الحالِّ فى النّاسوت المُعَظَّم ، وحقِّ الأناجيل الأربعة التى نقلها مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنّا ، وحقِّ اللّاهُوت والنّاسوت وصَليبِ الصَّلَبوت ، وحقِّ التلاميذ الآثْنَى عشَر ، والآثْنين وسبعينَ ، والثلثمائة وثمانيةَ عشَر المجتمعين علىٰ البِيْعَة ، وحقِّ الصَّوْتِ الذى نزل علىٰ نَهْر الأُرْدُنّ فزجره ، وحقِّ السيدة مارية أمّ النُّور ، وحقّ بِيْعةٍ وقديس وثالوث ، وما يقولُه فى صلاته كلُّ معمدانىٍّ ، وحقِّ ما أعتقدُه من دِينِ النصرانية ، والمِلّة المسيحية ـ إنّنى أفعلُ كذا وكذا ، ومتىٰ

خالفتُ هذه اليمينَ التى فى عُنُقى ، أو نقضتها أو نكثتها ، أو سَعَيْتُ فى إبطالها بوجْهٍ من الوُجُوه ، أو طَرِيقٍ من الطُّرُق ـ برِئْتُ من المعمودية ، وقلتُ : إن ماءَها نَجِسٌ ، وإن القَرَابينَ رِجْس ، وبرِئْتُ من مَرْيُحنَّا المعمدان ، والأناجيلِ الأربعة ، وقلتُ : إنَّ متَّىٰ كَذُوب ، وإن مَرْيَمَ المَجْدَلانية باطلةُ الدَّعوىٰ فى إخبارها عن السَّيدِ اليَسُوع المَسِيح ؛ وقلتُ فى السيدة مَرْيَمَ قولَ اليَهُود ، ودِنْتُ بدِينهم فى الجُحُود ، وبَرِئْتُ من التالوث ، وجحدتُ الأَبَ ، وكذبتُ الأَبْنَ ، وكفرتُ برُوحِ القُدُس ، وخلعتُ دِينَ النصرانيــة ، ولَزِمْتُ دِينَ الحَنِيفِيَّة ، ولطختُ الهَيْكَلَ بحَيْضــة يَهُودِيَّة ، ورفضتُ مَرْيَمَ ، وقلتُ : إنها قُرِنَتْ مع الأسخريوطى فى جَهَنَّم ، وأنكرتُ ٱتحادَ اللاهُوت والنَّاسُوت ، وكَذَّبتُ القُسوسَ ، وشاركتُ فى ذَبْحِ الشَّمامِس ، وهَــدَمتُ الدياراتِ والكَنائسَ ، وكنتُ ممن مالَ علىٰ قُسْــطَنْطِينَ بن هيلانى ، وتعمدتُ أمَّه بالعَظائم ، وخالفتُ المَجَامِعَ التى ٱجتمعتْ عليها الأسَاقِفُ برُومِيَــة والقُسْطَنْطِينيَّة ، وجحدتُ مَذْهَبَ المَلْكانيَّة ، وسَــفَّهتُ رأْىَ الرُّهْبان ، وأنكرتُ وقُوعَ الصَّلْبِ على السَّــيدِ اليَسُوع ، وكنتُ مع اليَهُود حينَ صلبوه ، وحِدتُ عن الحَوَارِيِّين ، وٱستَبَحْتُ دِماءَ الدَّيْرانِيِّــين ، وجَذَبْتُ رِدَاءَ الكِبْرِياء عن البطريك ، وخرجتُ عن طاعة البَــابِ ، وصُمْتُ يوم الفِصْحِ الأكبر ، وقعدتُ عن أهْلِ الشَّــعانين ، وأبيتُ عِيدَ الصليب والغِطاس ، ولم أحْفِلْ بعِيد السَّــيِّدة ، وأكلتُ لَحْمَ الجَمَــل ، ودِنْتُ بدِين اليَهُود ، وأبحتُ حُرْمةَ الطَّلاق ، وهدمْتُ بيَدِى كنيسة قُمَــامةَ ، وخُنْتُ المَسِيح فى وديعته ، وتزوَّجْتُ فى قَرَنٍ بامرأتين ، وقلتُ : إن المسيح كآدَمَ خلقه اللهُ من تُرَابٍ ، وكفرتُ بإحْياءِ العَيَازِرة ، ومجىء الفارِقْلِيط الآخر ، وبرِئْتُ من التلامذة الأثنى عَشَر ، وحرّم علىَّ الثلثمائة وثمــانية عشر ، وكسرتُ الصُّلْبانَ ، ودُسْتُ برِجْلى القُرْبان ، وبَصَقْتُ فى وجوه الرُّهْبان عند قولهم : كَيْرِ اليصُون ، وٱعتقــدْتُ أن نعسه كفر الجون (؟)

وأنَّ يوسفَ النجّار زَنَىٰ بأم اليَسُوع وعَهَر ، وعطَّلْتُ النَّاقوس ، وملْتُ إلىٰ ملَّة المَجُوس ، وكسرتُ صَليب الصَّلَبُوت ، وطبختُ به لَحْمَ الجَمَل ، وأكلْتُه فى أوّلِ يَوم من الصَّوْم الكَبِير ، تحتَ الهَيْكَلِ بحضْرَة الآباء ، وقُلتُ فى البنوَّة مقالَ نُسْطُورس ، ووَجَّهتُ إلى الصَّخْرة وَجْهِى ، وصدَّيتُ عن الشَّرْق المُنِير حيثُ كان المَظْهَر الكريم . وإلّا برِئْتُ من النُّورانيين والشَّعْشَعانيين ، وأنكرتُ أنَّ السَّيدَ اليَسُوعَ أحْيا المَوْتىٰ وأَبْرأ الأكْمَهَ والأبْرَصَ ، وقلتُ : إنَّه مَرْبُوب ، وإنه ما رُؤِىَ وهو مَصْلوب ، وأنكرتُ أن القُرْبانَ المقدَّسَ على المَذْبَح ماصار لَحْمَ المَسِيح ودَمَه حقيقه ، وخرجتُ فى النَّصرانية عن لاحِبِ الطريقه . وإلّا قلتُ بدِينِ التوحيد ، وتعبَّدْتُ غيرَ الأرْباب ، وقصدْتُ بالمظانيات غير طريق الإخلاص ، وقلتُ : إن المَعادَ غيرُ رُوحَانِىّ ، وإن بَنِى المعمودية لا تَسبِيح فى فَسِيح السماء ، وأثبتُّ وُجُودَ الحُورِ العِينِ فى المَعاد ، وأنَّ فى الدار الآخرة التلذذاتِ الجُسْمانية ، وخرجتُ خُروجَ الشَّعْرة من العَجِين من دِينِ النصرانية ، وأكونُ من دِينِى محروما ، وأقولُ : إن جرجيس لم يُقْتَلْ مَظْلوما ، وخرقتُ غفارة الرَّب ، وشاركتُ الشِّر[يرَ] فى سَلْبِ ثيابه ، وأحْدَثْتُ تحت صَليبه ، وتجمَّرْتُ بخَشَبَته ، وصَفَعْتُ الجاثَلِيق . وهذه اليَمينُ يَمينِى وأنا فلانٌ ، والنيّةُ [فيها] بأسْرِها نيةُ مولانا السلطان الملك الأشرف ، ناصِرِ الدُّنيا والدِّين «شعبان» ونيَّةُ مُسْتَحْلِفِىّ ، والإلٰهُ والمَسِيح علىٰ ما أقول وَكِيل .

قلتُ : خلَطَ فى هذه اليمين بعضَ يمينِ اليعاقبة الخارجة عن مُعْتَقد الفَرَنج الذين حَلَّفهم من مَذهب المَلْكانية ، يظهرُ ذلك من النَّظَر فيما تقدّم من مُعْتقدات النصرانية قبل ترتيب أيْمانهم . علىٰ أنه قد أتَىٰ فيها بأكْثَرِ مارتَّبه المَقَرُّ الشِّهابى بن فَضْلِ الله فى تحليفهم علىٰ صداقته ، وزاد مازاد من اليَمين المرتَّبة فى التَّحليف على الهُدْنة السابقة وغيرها .

اليمين الثانيــة — ممـا أهمله فى "التعريف" يمينُ أميرِ مكّة .

والقاعدة فيهـا أن يحلَف علىٰ طاعةِ السـلطان، والقيامِ فى خِدْمة أمير الرَّكْب، والوَصيَّةِ بالحُجَّاج، والاحتفاظ بهم .

وهذه نسخة يمين حُلِف بها الأمير نَجْمُ الدِّين أبو نُمَىٍّ أميرُ مكّة المشرَّفة، فى الدَّولة المنصورية قلاوون الصالحى، فى شعبان سنة إحدىٰ وثمـانين وستمـائة .

ونُسْختها علىٰ ما ذكره آبن المُكَرَّم فى تَذْكِرته بعد آستيفاء الأقسام :

إنّى أخلصتُ نِيَّتِى، وأصفيْتُ طَوِيَّتِى، وساوَيْتُ بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا السـلطانِ الملكِ المنصور، وولدِه السلطانِ المَلِك الصالح، وطاعةِ أولادهمـا وَارِثِى مُلْكِهما، لاأُضمِرُ لهم سُوءًا ولا غَدْرًا فى نفسٍ ولا مُلْكٍ ولا سَـلْطنة . وإنّى عدوٌّ لمن عاداهم، صديقٌ لمن صادقهم، حَرْبٌ لمن حاربهم، سِلْمٌ لمن سالمهم . وإنّى لا يُخْرِجُنِى عن طاعتهـما طاعةُ أحدٍ غيرِهمـا، ولا أتلَفَّتُ فى ذلك إلىٰ جهـةٍ غير جهتهما، ولا أفعـلُ أمرًا مخالفًا لمـا آستقرّ من هذا الأمر، ولا أُشْرِكُ فى تحكمهما علىّ ولا علىٰ مكّة وحَرَمِها ومَوْقِف جبلها زيدًا ولا عَمْـرًا . وإنّى ألتزم ما آشـترطته لمولانا السـلطان ولولده فى أمر الكُسْوة الشريفة المنصورية الواصلةِ من مصر المحروسة وتعليقِها على الكعْبة الشريفة فى كل مَوْسِم، وأن لا يعلوَها كُسْوة غيرها، وأن أقدّم عَلَمـه المنصور علىٰ كلِّ عَلَمٍ فى كلّ موْسِم، وأن لا يتقـدّمه عَلَمٌ غيره . وإنّى أُسَهِّلُ زيارةَ البيْت الحرامِ أيامَ مواسم الحجّ وغيرها للزّائرين والطّائفين والبادين والعاكفينَ، والآمِّينَ لحَرَمه والحـاجِّين والواقفين . وإنى أجتهد فى حِراستِهم من كلّ عادٍ بفعله وقوله، ومُتَخَطِّفٍ للنـاس من حَوله . وإنّى أُؤَمِّنهم فى سِربهم، وأُعْذِبُ لهم مَناهِلَ شُربهم؛ وإنّى واللهِ أستمرّ بتفرّد الخطبة والسّكّة بالآسم الشريف

المنصوري، وأفعلُ في الخدمة فِعْلَ المخلِصِ الوَلي. وإنّني واللهِ واللهِ أمتثلُ مراسيمه آمتثالَ النائبِ لمستنيب، وأكون لداعي أمْرِهِ أوّلَ سامع مُجِيب. وإنني ألتزم بشروط هذه اليمين من أولها إلىٰ آخرها لا أنقُضُها.

المهيــع الخامس

(في صُورة كتابة نُسخ الأيمان التي يحلف بها)

وقد جرت العادةُ أنه إذا آستقرَّ مَلِكٌ في المُلْك يُحَلَّفُ له جميعُ الأمراءِ والنوّابِ في المملكة، وإذا آستقر نائبٌ من النوّاب في نيابةٍ حُلِّفَ ذلك النائبُ عند آستقراره، وربّما آقتضت الحالُ التحليفَ في غير هذه الأوقات.

ثم الأَيْمان التي يُحَلَّف بها علىٰ ضربين :

الضــرب الأول

(الأَيْمانُ التي يحلَّفُ بها الأمراءُ بالديار المصرية)

وقد جرت العادةُ أن كُتَّاب دِيوانِ الإنشاء يجتمع من يجتمعُ منهم بالقلعة، ويتصدّىٰ كلُّ واحدٍ منهم لتَحْليف جماعةٍ من الأمراء والمماليك السلطانية وغيرهم، وينصَبُ المُصْحَفُ الشريفُ علىٰ كُرْسيٍّ أمامَ الحالفين، ويحلِّفُ كلُّ كاتبٍ من كُتَّاب الإنشاء من يُحَلِّفه تُجاهَ المصحفِ بألفاظ اليمين المتقدّمة الذِّكر على الوَجْه الذي يُرْسَم تحْليفُهم عليه، ويكتبُ كلُّ واحدٍ من أولئك الكُتَّاب أسماءَ الذين حلَّفهم في وَرَقةٍ ويُؤرِّخها ويحملها إلىٰ ديوان الإنشاء فتخلَّدُ فيه.

الضــرب الثانى

(الأَيْمــان التى يحلّف بها نوّابُ السلطنة والأمراءُ بالممالك الشامية وما آنضمّ إليها)

وقد جَرَتِ العادةُ أنه إذا أُرِيدَ تحليفُ نائبٍ من نوّاب الممالك الخارجةِ عن الحَضْرة بالدِّيار المصرية أو أميرٍ من أمرائها أن تكتبَ نسخةُ يمين من دِيوانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ، وتجهَّزَ إلى النائبِ أو الأميرِ الذى يُقْصدُ تَحْلِيفُه فيحْلِفُ علىٰ حكمها متلفظا بألفاظها جميعِها . قال فى "التثقيف" : وصِفَةُ مايكتب فى النُّسخة بعد البسملة من يمين الورق «أقول وأنا» ثم يخلى بياضا قليلا بقدر أصبعين لموضع كتابة الحالف آسمه ، ثم يكتبُ تحتَه من يمين الورق بهامش دَقِيقٍ جدّا «واللهِ واللهِ واللهِ» وتكمَّلُ تتمَّة النسخة علىٰ ما تقدّم ذكره . وتكون سُطورُها متلاصقةً سَطْرًا إلىٰ سَطْرٍ إلىٰ عند قوله «وهذه اليمين يمينى وأنا» فيخلّى بعد ذلك بياضًا قليلًا لموضع كتابة آسْمِ الحالف أيضا ؛ ثم يكْتُبُ من يمين الورق : « والنِّية فى هذه اليمين بأسرها » إلىٰ آخر النسخة .

قلت : وكذلك نُسخُ الأَيْمان التى تكتبُ ليحلَّفَ بها فى الهُدَنِ التى تُفْرد لأيمانُ فيها عن الهُدَن، يخلّى فيها بياضٌ لكتابة الآسم بعد قوله « أقول وأنا » و بعد قوله «وهذه اليمين يمينى وأنا» سواء فى ذلك اليمين التى يحلِّف بها السلطان أو الملك الذى تقع معه المهادنة : من ملوك الإسلام أو ملوك الكُفْر .

وقد جرتِ العادةُ أن يكون الوَرَق الذى تكتب فيه نُسَخ الأَيْمان التى يحلَّف بها النوّاب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحَضْرة فى قَطْع العادة . أما ما يحلَّفُ به على الهُدَن فلم أَقِفْ فيه علىٰ مقـدار قَطْعِ الوَرَق . والذى يظهر أن كلَّ يمينٍ تكون فى قَطْع الورق الذى يكاتَبُ بها ذلك الملِكُ الذى يُحلَّف .

المقالة التاسعة

فى عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وفيها خمسة[1] أبواب

الباب الأوّل

فى الأمانات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

فى عَقْد الأمان لأهل الكُفْر

قال فى "التعريف": وهو أقوىٰ أمور الصُّلح دلالةً على آشتداد السُّلْطان، إذ كان يُؤَمِّن الخائفَ أمْنًا لاعوضَ عنه فى عاجلٍ ولا آجل، وفيه طرفان:

الطرف الأوّل

(فى ذِكْر أصْله وشَرْطه وحُكْمه)

اِعلم أن الأَمَانَ هو الأمرُ الأوّلُ من الأمور الثلاثة التى يُرْفَعُ بها القتلُ عن الكُفّار. قال العلماء: وهو من مكايِدِ القتال ومَصالِحه وإن كان فيه تَرْكُ القتال: لأن الحاجةَ [داعِيَةٌ] إليه. والأصل فيه من الكِتاب قولُه تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾. ومن السُّنَّة قولُه صلى الله عليه وسلم: «المُؤْمِنُون تتكافأُ دِماؤُهُم، ويُجِيرُ عليهم أدْناهم، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِواهم».

(١) كذا وقع أيضا فى فهرست المؤلف ج ١ ص ٢٩ من هذا المطبوع ولكن سيذكر آخر المقالة بابا سادسا فى الفسوخ.

وقد ذكر الفقهاءُ له أركانا وشرائط وأحكاما .

فأما أركانُه، فثلاثة :

الأوّل — العاقد للأمان من المسلمين . وليُعْلَم أنَّ الأمانَ على ضربين : عامٌّ وخاصٌّ . فالعامُّ هو عَقْدُه للعَدد الذى لا يُحْصَر كأهْلِ ناحية؛ ولا يصِحُّ عَقْدُ الأمانِ فيه إلا من الإمامِ أو نائبِه كما فى الهُدْنة . والخاصُّ هو عَقْدُه للواحد أو العَدَدِ المحصور؛ ويصحُّ من كلِّ مُسلِمٍ مكلَّفٍ [وإن لم تكن] له أهليةُ القِتال، فيصح من العَبْد والمرأة والشَّيْخ الهَرِم والسَّفيهِ والمُفْلِس، بخلاف أمانِ الصَّبىِّ والمجنون .

الثانى — المعقود له، ويصح عَقْدُه للواحد والعَدَدِ من ذكور الكُفَّار وإناثهم . نَعَم فى تأْمينِ المرأة عن الاسترقاق خلاف .

الثالث — صِيغة العَقْد . وهى كلُّ لفظٍ يُفْهِم الأمانَ كِنايةً كان أو صريحًا ، وفى معنى ذلك الاشارةُ المُفْهِمة . ويعتبرُ فيه قَبُول الكافر، فلا بدّ منه حتى لوردَّ الأمانَ لم ينعقد، وفيما إذا سكت خلافٌ . نَعَم لو دخل للسِّفارة بين المسلمين والكُفَّار فى تبْليغ رسالة ونحوها، أو لسماع كلام الله تعالىٰ لم يُعتبر فيه عَقْد الأمان، بل يكون آمِنًا بمجرد ذلك ، أما لو دخل لقَصْد التجارة بغير أمانٍ فإنه لا يكون آمِنًا إلّا أن يقولَ الامامُ أو نائبُه : من دخل تاجرًا فهو آمِنٌ .

وأما شرطه، فان لا يكونَ على المسلمين ضَرَرٌ فى المسْتأْمِن : بأن يكون طَلِيعةً أو جاسُوسًا، فإنّه يقتل ولا يُبالَىٰ بأمانه، ويعتبرُ أن لا تَزِيدَ(١) مدّةُ الأمان

(١) عبارة "المنهاج" ويجب أن لا تزيد مدته على أربعة أشهر " وفى قول يجوز مالم تبلغ سنة " قال صاحب التحفة : فان بلغتها امتنع قطعا .

على سَنَةٍ بخلاف الهُدْنة، فقد تقدّم أنها تجوزُ عند ضَعْفِ المسلمين إلى عشرِ سنين .

وأما حكمه، فإذا عُقِد الأمانُ لزم المَشْروط، فلو قتله مسلمٌ وجبت الدِّيَةُ . ثم هو جائز من جهة الكُفَّار، فيجوز للكافر نَبْذُه متى شاء، ولَازمٌ من جهة المسلمين، فلا يجوز النَّبْذُ إلا أن يُتَوقَّع من المُسْتَأمِنِ الشَّرُّ، فإذا تُوُقِّع منه ذلك جاز نَبْذُ العَهْد اليه ويلحقُ بمأمنه، وبَقِيَّةُ فِقْهِ الفَصْل مستوفًى فى كُتُب الفِقْه .

الطرف الثانى

(فى صورة ما يكتب فيه)

والأصل ماروا ه ابن إسحق أنّ رِفاعَةَ بن زَيْدِ الخزاعىّ[1] قَدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هُدْنة الحُدَيْبِيَة، فأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم غُلاما، وأسلم وحَسُن إسلامُه، وكتب له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كِتَاباً إلى قومه فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«هذا كِتَابٌ من محمد رسولِ اللهِ لرِفاعَةَ بنِ زَيْدٍ : إنى بعثتُه إلى قَوْمه»
«عامّةً ومَنْ دَخَل فيهم يدْعُوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ؛ فمَنْ أقْبَلَ»
«منهم ففِي حِزْبِ اللهِ ورسولِه، ومن أدبر فلَهُ أمَانُ شَهْرين» .

فلما قدم رِفاعَةُ على قومه أجابوا وأسلموا .

---

(١) فى الأصل الجذامى والتصحيح من السيرة النبوية ص ٣٣ ج ٣ وقد ضبطها بالعبارة .

ثم للكُتّاب فيه مذهبان :

المذهب الأوّل — أن يُفتتح الأمانُ بلفظ : « هذا كتابُ أمانٍ » أو « هذا أمانٌ » وما أشبه ذلك ، كما آفتتح النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما كَتَب به لرفاعة بن زَيْد على ما تقــدّم .

وعلىٰ ذلك كتب عمرُو بن العَاص رضى الله عنــه الأمانَ الذى كتب به لأهــل مِصْرَ عند فَتْحِها ، ونَصُّه بعد البسملة :

"هذا ما أعطىٰ عمرُو بنُ العاص أهلَ مِصْر من الأمانِ علىٰ أنفُسِهم ومِلَّتِهم[1] وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرِّهم وبَحْرِهم ، لا يدخل عليهم شىءٌ من ذلك ولا يُنْتقص ، ولا تُساكِنُهم النُّوبةُ . وعلىٰ أهْـلِ مِصْر أن يُعْطُوا الجِزْيَةَ إذا آجتمعوا علىٰ هـذا الصُّلح ، وآنتهتْ زِيادةُ نَهرِهم — خمسين ألفَ ألفٍ . وعليه ممَّنْ جَنَىٰ نُصْرتُهم ، فإن أبىٰ أحدٌ منهم أن يُجيب رُفِع عنهم من الجزىٰ بقدر [هم وذِمَّتُنا ممَّن أبَىٰ بَرِيَّةٌ ، وإن نَقَصَ نَهْرُهم عن غايته إذا آنتهى رفع عنهم بقدر] [2] ذلك ؛ ومن دخل فى صُلْحهم : من الرُّوم والنُّوبَةِ فلَهُ مالَهُم وعليه ما عليهم ؛ ومن أبَى وآختار الذَّهابَ فهو آمِنٌ حتى يبلُغَ مَأْمَنَه أو يخرجَ من سُلْطاننا . وعليهم ما عليهــم أثلاثاً فى كلِّ ثُلُثِ جِبـايةُ ثُلُثِ ما عليهــم . علىٰ ما فى هذا الكتاب عَهْدُ الله [وذِمَّتُــه][2] وذِمَّةُ رسوله وذِمَّةُ الخليفــة أميرِ المؤمنين [وذِمَم المؤمنين][2] . وعلى النُّوبَةِ الذين آستجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رَأْساً ، وكذا وكذا فَرَساً ، علىٰ أن لا يُغْزَوْا ولا يُمْنعُوا من تجارةٍ صادرةٍ ولا وَارِدَةٍ .

شهد الزُّبير وعبدُ الله ومحمدٌ ابناه ، وكَتَبَ وِرْدَانُ وحَضَرَ" .

---

(١) فى العبر ص ١١٥ بقية الجزء الثانى «وذمهم» وفيه بعض التغيير من زيادة ونقص .

(٢) الزيادة من العبر ص ١١٥ بقية ج ٢ .

وعلى ذلك كتب الحافظُ لدين الله أحد خُلَفاء الفاطميِّين الأمانَ لبَهْرام الأرمَنيّ، حين صُرف من وزارته وهرب عنه إلى بلاد الأرمَن، وكَتَب إلى الحافظ يُظْهر الطاعةَ ويسأل تَسْيِيرَ أقاربه، فكتب له بالأمانِ له ولأقاربه .

فأما ما كُتِب له هو فنَصُّه بعد البسملة .

هـذا أمانٌ أمَر بكَتْبِه عبدُ الله ووَلِيُّه عبدُ المجيـد أبو الميْمونِ الحافظُ لدين الله أميرُ المؤمنين، للأمير المقدَّمِ، المُؤَيَّد، المنصورِ، عِزِّ الخلافةِ وشَمْسِها، وتاجِ المملكة ونِظامِها، فَخْرِ الأمراء، شَيْخِ الدولة وعِمادِها، ذِى المَجْدَيْن، مُصْطفَى أمير المؤمنين بَهْرامَ الحافظى : فإنك آمِنٌ بأمان الله تعالى، وأمانِ جَدِّنا محمدٍ رسولِه، وأبينـا أميرِ المؤمنين عَلِيِّ بن أبى طالب صلى الله عليهما، وأمانِ أمير المؤمنين، على نَفْسك ومَالك، وأهلِك وجميع حالك، لا ينالُك سُوءٌ، ولا يَصِلُ إليك مكْروه، ولا تُقْصَد باغتيال، ولا يُخْرَج بك عن عادةِ الإحسان والإنعام، والتَّمييزِ والإكرام، وحِراسـةِ النَّفْس، والصَّوْنِ للحريم والأهلِ، والرِّعاية فى القُرْب والبُعْد، مادُمْتَ متحيِّزًا إلى طاعة الدولة العَلَوِيَّة، ومُتَصَرِّفًا على أحكام مُشايَعَتِها، مُواليًا لمُواليها، ومُعادِيًا لمُعادِيها، ومُسْتَمِرًّا على مَرْضاة إخلاصك . فثِق بهـذا الأمانِ وآسْكُنْ إليـه، وآطْمَئِنَّ إلى مَضْمونه، والله بمـا أُودِعَه كَفِيلٌ وعليه شَهيد، وما تَوْفيقُ أميرِ المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكَّلُ وإليه يُنيب .

وأما الأمانُ الذى كُتِب لأقاربه فنَصُّه :

هذا أمانٌ تقدّم بكَتْبِه عبـدُ الله ووَلِيُّه، لبسيل وزرقا، وبهرامَ آبن أُخْتِهما، ومن يَنْتَمِى إليهم ويتعلَّقُ بهم، ويلتزمون أمْرَه من دُونَهم، ومن يَتَمَسَّكُ بسَبَبِهم .

مضمونه : إنكم مَعْشَرَ الجماعة بأسْرِكُم لما قصدتمُ الدَّوْلةَ ووفدْتم عليها، وتَفَيَّأْتُم ظِلَّها وهاجرتُم إليها، شَمِلَكم الصُّنْع الجميـل ، وغَمَرَكُم الإنعامُ السَّابغُ والإحسانُ الجَزِيل ، وكُنِفْتم بالرِّعاية التامَّة، والعنايةِ الخاصَّة لا العناية العامَّة، ووُفِّرَ حَظُّكم من الواجبات المقرَّرة لكم ، والإقْطاعاتِ الموسُومة بِكُم ؛ وكنتم مع ذلك تَذْكرون رَغْبَتَكم فى العَوْد إلىٰ دياركم، والرُّجُوعِ إلىٰ أوْطانِكم، والْتِفاتاً إلىٰ مَن تركتموه من ورائكم. وقد سِرْتُم من الباب علىٰ قَضِـيَّة المخافة، وقد أمَّنَكُم أميرُ المؤمنين ، فأنتم آمنون بأمانِ الله تعالىٰ وأمانِ جَدِّنا محمدٍ رسولِه وأبِينا أميرِ المؤمنين : علىٍّ بن أبى طالبٍ، صلى الله عليهما ، وأمانِ أمير المؤمنيـن ، علىٰ نُفُوسِـكم وأهْلِيكم وأموالِكم وما تَحْوِيه أيديكم ويحوزه مِلْكُكم، ويشتملُ عليه آحتياطكم ؛ لا ينـالُكم فى شَىْءٍ من ذلك مَكْروه، ولا سَبَب مَخُوف، ولا يَمَسُّكم سُوءٌ، ولا تَخْشَوْن من ضَيْم ، ولا تُقْصَدُون بأذِيَّة ، ولا يُغَيَّرُ لكم رَسْمٌ، ولا تُنقَصُ لكم عادة، وأنتم مُسْتَمِرُّون فى واجِباتِكم وإقْطاعاتِكم علىٰ ما عَهِدتموه، ولا تُنْقَصُون منها ، ولا تُبْخَسُون فيها . هـذا إذا رَغِبتم فى الإقامة فى ظِلَالِ الدَّولة، فإن آثَرْتُم ما كنتم تذكرونَ الرَّغبةَ فيه من العَوْدةِ إلىٰ دِيارِكم عند آنْفِتاح البَحْر ، فهذا الأمانُ لكم إلىٰ أن تتوجَّهُوا مَشْمُولين بالرعاية، مَلْحُوظِين بالعناية، ولكم الوَفاءُ بجميع ذلك، واللهُ لكم به وَكِيلٌ وكَفِيلٌ، وكَفَىٰ به شهيدا .

المذهب الثانى — أن يُفتتح الأمانُ المكْتَتَب لأهْـلِ الكُفْر بالتَّحْميد ، ثم يقـال : « ولما كان كذا وكذا آقتضَى حُسْـنُ الرَّأْى الشريف كذا وكذا » ثم يقال : « فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يكون كذا وكذا » علىٰ نحو ما يُكْتَب فى الولايات .

وعلىٰ ذلك كُتِبَ عن السلطان المَلِك الناصر « محمد بن قلاوون » أمانٌ لفرا كس صاحبِ السّرب، من مُلوك النصارىٰ بالشّمال وزَوْجَتِه ومن معهما من الأتباع، عند طَلَبِهم التّمكِينَ من زِيارة القُدْس الشريف، و إزالة الأعْراض عنهم، واَسْتِصْحاب العناية بهـم، إلىٰ حِينِ عَوْدِهم آمِنِينَ علىٰ أنفسهم وأموالهم، من إنشـاء الشريف شهَابِ الدِّين كاتبِ الإنشاء .

ونَصُّـــه بعد البسملة :

أمّا بعـدَ حَمْدِ اللهِ الذى أَمَّنَ بمهابتنا المَنَاهِجَ والمَسَالك، ومكّنَ لكلمتنا المُطاعَة فى الأقْطارِ والآفَاقِ والمَمَالك، وأعان علىٰ لِسانِنـا(١) بدَعْوةِ الحَقِّ التى تَنفِى كلَّ كَرْبِ حَالِكٍ وتَكْفِى كلَّ كَرْبِ حالك، والشَّهادةِ له بالوَحْدانية التى تَنفِى المُشابِهَ والمُشارِك، وتَفِى بالمِيعَادِ من الإصْعادِ على الأرَائِك؛ والصلاةِ والسـلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أنجده ببُعُوث الملإِ الأعلىٰ من المَلائِك، وأيّده بالصَّوْن المُلازِمِ والعَوْن المُتَـدارِك، ووَعَدَه أنْ سَيَبْلُغُ مُلْكُ أمّتِه ما بين المَشْرِق والمَغْرِب وأنْجَزَ له ذلك، وعلىٰ آلِه وصحبِه الذين زَحْزَحُوا عن المَهَالِك، ونَصَحُوا لله ورَسوله وأكْرِمْ بأولٰئك!!! ــ فإن كَرَمنا يَرْعى الوُفُود، وشِيَمنا تُدْعىٰ فتَجُود، وذِمَمنا بها حَفْظ الحقوقِ وحِفْظُ العُهود، فبِخدَمنا يَنْجَحُ كُلُّ مقصود، وبِنِعَمِنا تُمْنَحُ الأمانيُّ والمُنَى وهُـمـا أعظمُ نعمتـين فى الوجود؛ فليس آمِــلٌ عن أبواب سَمَـاحنا بمَرْدُود، ولا مُتَوسِّــلٌ إلينا بضراعة إلا ويرجع بالمَرَام ويَعُود .

ولمـا كانت حَضْرة المَلِك الجَلِيل، المُكَرَّم، المبَجَّل، العَزِيز، المُوَقَّر، "إستيفانوس فراكس" : كَبِير الطائفـة النَّصْرانية، جَمالِ الأمّة الصَّلِيبيّة، عِمادِ بَنِى المعمودية،

(١) لعله «وأعان لساننا على دعوة الخ» .

صديقِ المُلُوكِ والسلاطين، صاحبِ السَّرِب ـ أطال الله بقاءه ـ قد شمله إقبالُنا المَعْهود، ووَصَله إفضالُنا الذى يَحْجزُ عن ميامِنِه السُّوءَ ويُنجِز الوُعُود ـ آقتضىٰ حُسْنُ الرَّأْى الشريف أن نُيَسِّرَ سَبيلَه، ونُوَفِّرَ له من الإكرام جَسِيمَه كما وَفَّرنا لغيره من الملوك مَسُولَه؛ وأن يُمَكَّنَ من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلىٰ زِيارَةِ القُدْس الشريف، وإزالة الأعْراض عنهم، وإكرامهم ورعايتهم، وآستِصْحاب العناية بهم، إلىٰ أن يعودُوا إلىٰ بلادهم، آمِنِينَ علىٰ أنفسهم وأموالهم، ويُعاملُوا بالوَصيَّة التامَّة، ويُواصَلُوا بالكرامة والرعاية إلى أن يعُودوا فى كَنَفِ الأَمْنِ وحَرِيم السَّلامه؛ وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه أن يسمعَ كلامه، ويَتَّبعَ إبْرامَه، ولا يَمْنَعَ عنهم الخَيْر فى سَيْرٍ ولا إقامه، ويدفَعَ عنهم الأَذَىٰ حيثُ ورَدُوا أو صدَرُوا فلا يَحْذَرُوا إلْمَامَه؛ والله تعالىٰ يُوَفِّرُ لكلِّ مُسْتَعِينٍ من أبوابنا أقْساطَ الأَمْنِ وأقْسامَه، ويُظْفِرُ عَزْمَنا المحمدىَّ بالنَّصرِ السَّرمدىِّ حتّى يُطوِّق الطائعَ والعاصِىَ حُسامَه . والعلامةُ الشريفة أعلاه حُجَّةٌ فيه، والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ :

الفصل الثاني

من الباب الأوّل من المقالة التاسعة

(في كتابة الأمانات لأهل الإسلام وما يُكتب فيها، ومذاهِب الكُتّاب في ذلك في القديم والحديث، وأصلِه؛ وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(في أصْلِه)

اِعلم أنّ هذا النوعَ فَرعٌ أَلحَقه الكُتّاب بالنوع السابق، وإلا فالمُسْلم آمِنٌ بقَضيّة الشّرع بمجرّد إسلامه، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النّاسَ حتّى يقُولوا لا إلهَ إلا اللهُ فإذا قالُوها عَصَمُوا مِنّي دِماءَهم وأموالَهم إلا بحقّها». وإنما جَرَت عادةُ الملوكِ بكتابة الأمانِ لكلّ من خاف سَطْوتَهم، لا سيّما مَن خرج عن الطّاعة، وخِيفَ ٱستِشراءُ الفساد بٱستمرار خُرُوجه عن الطاعة خَوْفًا، حتّى صار ذلك هو أغلبَ ما يُكتَبُ من دواوين الإنشاء.

وقد ورد في السُّنّة ما يدلّ لذلك، وهو ما رواه أبو عُبَيد في "كتاب الأموال" عن أبي العلاءِ بن عبد الله بن الشِّخّير أنه قال: كنّا بالمِرْبَد ومعنا مُطَرِّف، إذ أتانا أعرابيٌّ ومعه قِطْعةُ أَدِيم، فقال: أفِيكُمْ مَن يقرأ؟ قُلنا: نعم، فأعطانا الأدِيمَ فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«من محمدٍ رسُولِ اللهِ لبَنِي زُهَيْر بن أُقَيْش من عُكْلٍ. إنّكم إن شَهِدْتُم»

«أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأقَمْتُم الصلاةَ، وآتَيْتم الزّكاةَ، وفارَقْتُم المشركينَ،»

«وأعطيتم من الغنائم الخُمُس، وسَهْمَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم والصَّفِيّ»؛ «أو قال: وصَفِيَّه، فأنتم آمِنُون بأمان اللهِ ورسُوله».

الطـــرف الثانى
(فيما يُكتب فى الأمانات)

وللكُتَّاب فى ذلك مذهبان:

المذهب الأوّل — أن يفتتح الأمانُ بلفظ: «هـذا كِتَابُ أمانٍ» أو «هذا أمانٌ» ونحو ذلك، علىٰ ما تقدّم فى الفصل السابق.

قال فى "موادّ البيان": والرسمُ فيه: «هذا كتاب أمانٍ، كتبه فلانُ بن فلانٍ الفلانىّ أميرُ المؤمنين أو وزيرُه، لفلان بن فلان الفلانىّ الذى كان من حاله كذا وكذا، فإنه قد أمّنه بأمَانِ الله تعالىٰ وأمانِ رسُولِه صلى الله عليه وسلم وأمَانِه». فإن كان عن الوزير قال: «وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانِه، علىٰ نَفْسه وماله، وشَعْرِه، وبَشَرِه، وأهْلِه، ووَلَدِه، وحُرَمِه، وأشياعِه، وأتْباعِه، وأصحابِه، وحَالِه، وذاتِ يَدِه، وأملاكِه، ورِباعِه، وضِياعِه، وجميع ما يخصُّه ويخصُّهم — أمانًا صحيحًا، نافذا واجِبًا لازِمًا، لا يُنْقضُ ولا يُفْسخُ ولا يُبَدَّلُ، ولا يُتعقَّب بمخاتلَة، ولا دِهَانٍ ولا مُوارَبة، ولا حِيلَةٍ ولا غِيلَةٍ. وأعطاه علىٰ ذلك عَهْدَ الله وميثَاقَه وصَفْقَةَ يَمِينه، بنِيّةٍ خالصةٍ له ولجميع من ذُكِر معه، وعَفَا له عن كلّ جَرِيرَةٍ متقدِّمة، وخَطِيئةٍ سالفة، إلىٰ يوم تاريخ هـذا الأمان، وأحلّه من ذلك كُلِّه، وآستقبله بسلامة النَّفس ونَقَاءِ السريرة، وأوجب له من الرِّعاية ما أوجبه لأمثاله،

ممن شمله ظلُّه، وكنفته رِعايتُه، حاضرًا وغائبًا، وملَّكه من آختياره قريبًا وبعيدًا، وأن لا يُكرِهه على ما لا يريده، ولا يُلزِمه بما لا يختاره».

قلتُ: هذا ما أصَّله صاحِبُ "مواد البيان" في كتابة الأمانات. ومقتضاه آفتتاحُ جميع الأمانات المكتتَبة عن الخليفة أو الوزير أو غيرهما بلفظ «هذا». وسيأتى أن الأماناتِ قد تُفتتح بغير هذا الآفتتاح: من الحمد وغيره، على ما سيأتى بيانُه، ولعل هذا كان مُصْطلَح زمانِه فوقف عنده.

وبالجملة فالأماناتُ المكتتبةُ لأهل الإسلام على نوعين:

النوع الأول

(ما يُكتب عن الخلفاء، وفيه مذهبان)

المذهب الأوّلُ — طريقة صاحب "مواد البيان" المتقدمةُ الذِّكر، وهى أن يُفتتَح الأمانُ بلفظ «هذا» وحينئذ فيقال: «هذا كتابُ أمانٍ كتبه عبد الله فلان أبو فلانٍ أميرُ المؤمنين الفلانىُّ، أعزَّ الله تعالى به الدِّينَ، وأدام له التَّمكين، لفلان الفلانىّ، فإنّه قد أمَّنه بأمانِ الله تعالى، وأمانِ رسولِه صلى الله عليه وسلم وأمانِه، على نفسِه، ومالِه، وشعرِه، وبَشَرِه، وأهلِه، وولَدِه، وحُرَمِه، وأشياعِه، وأتباعِه، وأصحابه، وحالِه، وذاتِ يَدِه، وأملاكِه، ورِباعِه، وضِياعِه، وجميع ما يُحُصُّه ويحُصُّهم — أمانًا صحيحًا، نافذا واجبًا لازمًا، لا يُنقَضُ ولا يُفسخُ، ولا يُبدَّلُ، ولا يُتعقَّبُ بمخاتَلة، ولا دِهانٍ ولا مُوارَبة، ولا حِيلةٍ ولا غِيلَة، وأعطاه على ذلك عَهْدَ اللهِ وميثاقَه وصَفْقَة يمينِه، بنيَّةٍ خالصةٍ له ولجميع من ذُكر معه، وعَفَا له عن كلّ جريرةٍ متقدِّمةٍ، وخَطيئةٍ سالفةٍ، إلى يوم تاريخ هذا الأمان،

وأحلّه من ذلك كلّه ، وآستقبله بسلامة النّفْس ونقَاء السريرة ، وأوجب له من الرِّعاية ما أوجبه لأمثاله : ممّن شمِلَه ظلُّه ، وكنَفَتْه رعايتُه ، حاضرا وغائبا ، وملّكه من آختياره قريبًا وبعيدًا ، وأن لا يُكْرِهَه على مالا يريدُه ، ولا يُلْزِمَه بما لايختاره» . وغير ذلك ممـا يقتضيه الحالُ ويدْعُو إليه المقام .

المذهب الثـانى — أن يفتتح الأمان بخُطْبة مفتتحة بالحَمْد . والرسم فيـه أن يُستفتَح الأمانُ بخُطْبةٍ يكَرَّرُ فيها الحمدُ مرتين أو ثلاثا فأكثر، بحسب مايقتضيه حالُ النِّعمة على من يصْدُر عنه الأمانُ فى الآسـتظهار على مَن يُؤَمّنه . يحمدُ اللهَ فى المَرَّة الأُولى على آلائه ، وفى الثانية على إعْزاز دينه ، وفى الثالثة على بِعْثة نبيِّه ، وفى الرابعة على إقامة ذلك الخليفة من بيْتِ النبوّة لإقامة الدِّين . ويأتى مع كلٍّ واحدة منهـا بمـا يناسب ذلك ، ثم يذكُرُ الأمانَ فى الأخِيرة .

وهذه نُسخةُ أمانٍ من هذا النَّمَط ، كُتِب به عن بعض متقدّمى خُلَفاء بنى العَبّاس ببَغْـداد ، أوردها أبو الحُسَينِ أحمدُ بن سَعِيد فى "كتاب البلاغة" الذى جمعه فى الترسُّـــل :

الحمدُ لله المَرْجُوّ فضْـلُه ، المَخُوف عَدْله ، بارئِ النَّسَم ، ووَلِيِّ الإحسانِ والنِّعَم ، السابقِ فى الأمُورِ عِلْمُه ، النافِذ فيها حُكْمُه ، بمـا أحاط به من مُلْك قُدْرته ، وأنفذ من عزائم مَشِيئته ، كلُّ ماسواهُ مدبَّرٌ مخلوق وهو أنشاه وآبتَداه ، وقدّر غايتَه ومُنتهاه .

والحمدُ لله المُعِزّ لدينـه ، الحافِظِ من حُرماتِه ماتربَّصَ المتربِّصُون(١) عن حياطتـه ، المُـذْكِى من نُورِه ما دأب الملحِدُون لإطْفـائِه حتّى أعلاه وأظهره كما وعَد فى مُنْزَل

(١) فى اللسان « رجل رُبْضة ومتربِّض عاجز» ولعل ماهنا منه وهى فى الأصل بالصاد المهملة .

فُرقانه بقوله جلَّ ثناؤه : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

والحمدُ لله الذى بعث محمدًا رحمةً للعالمين ، وحُجَّةً علىٰ الجاحدين ، فختم به النبيين والمرسلين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، وجعله الدَّاعىَ إلىٰ دينِ الحَقِّ ، والشَّهيدَ علىٰ جميع الخَلق ، فأدّىٰ إليهم ما آستُودِعَ من الأمانة ، وبلّغهم ما حُمِّلَ من الرّساله ، فلما أنقذَ اللهُ به من التَّوَرُّط فى الضَّلاله ، والتَّهوُّر فى العَمَىٰ والجَهَاله ، وأوضح به المَعَالِمَ والآثار ، ونَهَج به العَدْل والمَنَار ، آختار له ما لديه ، ونقله إلىٰ ما أَعدّ له فى دارِ الخُلُود : من النَّعيم الذى لا يَنْقطِعُ ولا يَبِيد . ثم جعله فى لُحْمَتِه وأهْله وراثة بما قلدهم من خلافته فى أُمّته ، وقدّم لهم شَواهِدَ ما آختصّهم به من الفضيله ، وزُلْفةِ الوَسيله ، فى كِتَابه النَّاطق ، علىٰ لسان نَبِيِّه الصادق ، صلى الله عليه وسلم — منها ما أخبر به من تَطْهيره إيَّاهُم : ليجعلهم لِمَا آختاره مَعْدِنًا ومَحَلًّا ، إذ يقول جَلَّ وعزّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . ومنها ما أمر الله به رسولَه صلى الله عليه وسلم من مَسْألته أمّته المَوَدّة ، فقد أوضح لذوى الألباب أنهم مَوْضِعُ خِيرته ، بتطهيره إياهم ، وأهْلُ صَفْوته ، بما آفترض من مودّتهم ، وولاةُ الأمرِ الذين قَرن طاعَتَهم بطاعَتِه .

ولم يزلِ اللهُ بعظيم مَنِّه وإنْعامه يُدْعِم أرْكانَ دِينه ، ويُشَيِّدُ أعلامَ هُداه ، باعزاز السلطان الذى هو ظِلُّه فى أرْضه ، وقِوامُ عَدْله وقِسْطه ، والحِجازُ الذَّائدُ لهم عن التَّظالُمِ والتَّغاشُم ، والحِصْن الحَرِيزُ عند مَخُوف البوائق ومُلِمِّ النَّوائِب ، فليس يَكِيدُ وُلاته المُسْتقِلِّين بحقِّ الله فيه كائد ، ولا يجحدُ ما يجبُ لهم من حقِّ الطاعة جاحد ، إلا من آنطوى علىٰ غِشِّ الأُمّه ، ومُحاوَلةِ التَّشْتيت للكلمه .

والحمدُ لله علىٰ ما تولّىٰ به أميرَ المؤمنين فى البَدْءِ والعاقبةِ : من الإدْلاءِ بالحُجّة ، والتأْييد بالغَلَبة ، عند نَشْوه من حيز وطأة الخفض (؟) ، متّبعا لكتاب الله حيث سلك به حُكْمُه ، مُقْتفيًا سُنّةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث آنسابتْ أمامَه ، باذلًا لله نَفْسه ، لا يصُدُّه وعيدُ مَنْ تكبّر وعتا ، ولا يُوحشه خِذْلانُ من أدْبر وتولّىٰ ، مُنتظرًا لمن نكثَ عَهْدَه وغدر ببَيْعته والتمس المَكْرَ به فى حقّه الآياتِ الموجبة فى قوله : ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ . ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ . مُكْتفيًا بالله ممّن خَذَله ، مُسْتعينًا به علىٰ من نصب ، لا يَسْتفزّه ما أجْلب به الشيطانُ من خَيْله ورَجْله ، وهو فى أنصاره المعتصمين ، لا تستهْويهم الشُّبَه فى بصائرهم ، ولا تَخُونُهم قواعِدُ عزائمهم فى ساعة العُسْرةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَتْ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنهُم ، فكَتّبهم أميرُ المؤمنين ، وأنهدهم لعَدُوّه ، ينتظرون إحْدَى الحُسْنَيَيْن : من الفَلْجِ المُبِين ، والفَوْزِ بالشّهادة والسعادة ، فليس يُلْفتُهم عن حقّهم ما يتَلقَّوْنَ به من الترغيب والترهيب ، ولا يزدادون علىٰ عَظِيم التّهاوِيل والأخطار إلا تَقَحُّمًا و إقداما ، مُتَمثّلين لِسيَرِ إخوانهم قبلهم فيما آقتص الله عليهم من شأنهم ، إذ يقول جلّ وعزّ : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

وكان بِدايةَ جُنْد أمير المؤمنين فى حَرْبهم التَّقدُّمُ بالإعْذارِ والإنْذار ، والتَّخْويف بالله جلّ وعزّ وأيّامه ، وماهُم مسئولونَ عنه فى مَقامه : من عُهودِه المؤكَّدةِ عليهم فى حَرَمه ، وبين رُكْنِ كَعْبته ومقام خَليلِه ، المعلَّقةِ فى بَيْته ، الشاهِدِ عليها وُفُودُه .

فكان أوّلَ ما بَصَّرهم اللهُ به حُجّتُه التى لا يقطعُها قاطِع ، ولا يدفعُها دافع ، ثم ما جعلهم الله عليه من التناصُر والتّوازُر الذى فتّ فى أعْضادِهِم ، ورماهم به من

التَّخاذُل والتَّواكُل ، فكُلَّما نَجَمتْ لهم قُرونٌ اجتثّها اللهُ بحدّ أوليائه ، وكلّما مَرَق منهم مَارِقٌ أسالَ اللهُ مُهْجَتَه ، وأورثهم أرْضَه ودِيارَه .

ومَخْلوعُهم المُبْتدِئُ بما عادتْ عليهم نِقْمتُه ونَكالُه قد أعْلَق بالرِّدّة ، وصَرَّحتْ شياطينُه بالغَدْرِ والنَّكْثِ ، يرى بذلك الذُّلَّ فى نَفْسه وحِزْبِه ، وتَنْتقصُ عليه الأرضُ من أطْرافِها وأقْطارِها ، ويُؤْتَى بُنْيانُه من قواعده ، ويَرُدُّ اللهُ جيوشَهم مَفْلولة ، وجُنودَهم مُخَلَّاة عن مراكِزِها ، مَقْموعًا باطِلُها . وليس مع ما ناله من سُخْط الله جلَّ وعزَّ نازعًا عن انْتِهاكِ مَحارِمه ومآثِمه ، ولا مُحْدِثًا عن جائحةٍ يحُلُّها به إحْجامًا عن التَّقحُّم فى ملاحمه الملبسة له فى عاجل مايُرْدِيه ويُوبِقُه ، وآجل مايرصُدُ اللهُ به المُعانِدينَ عن سبيله ، النَّاكبين عن سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأمير المؤمنين ــ إذْ جمعَ اللهُ له مُتبايِنَ الأُلْفه ، وضمَّ له مُنْتشِرَ الفُرْقه ، علىٰ مَعْرفته بحَرْبِه وحِزْبِه ، وعَدُوّه ووَلِيّه ، ومن سَعىٰ له أو عليه ، أو أطاع اللهَ أو عصاه فيه : من وَافٍ ببَيْعة ، أو خَاتِرٍ بإلٍّ وذِمّة [جَديرٌ] أن يعُمَّ بجميل نَظَره كافّةَ رعيّته ، ويتعطَّفَ عليهم بحُسْن عائدته ، ويشْملَهم بمَبْسُوط عَدْلِه وكريم عَفْوِه ، وتَقْديم أهل الأفكار المحموده ، فى المواطن المَشْهوده ، بما لم تَزَلْ أنفُسُهم تَشْرَئِبُّ إليه ، وأعْيُنُهم تَرْنُو نَحْوه ، لتُحْمدَ عنهم عاقِبةُ الطاعة ، ويُعَجِّلَ لهم الوَفاءُ بما وَعَدهم من الجزاء ، إلىٰ ماذخره لهم من حُسْنِ المَثُوبَة ومَزِيد الشُّكران . وأمر لفلان بكذا ، ولمن قِبَله من أهل الغَناء بكذا ، وأمَّن الأسْودَ والأحْمَرَ ، ماخلا المُلْحدَ ابن الربيع ، فإنَّه سعىٰ فى بلادِ الله وعبادِه سَعْيَ المفسدين ، والْتمس نَقْض وَثائِق الدِّين .

لجميعُ من حلَّ مدينةَ السلام آمِنونَ بأمان الله ، غير مُتْبَعِين بتِرَة ، ولا مَطْلوبين بإحْنَة ، فلا تَدْخُلَنَّ أحدًا وَحْشةٌ منهم لضَغِينَةٍ يظُنُّ بأمير المؤمنين الانْطواءَ عليها ، ولا

يحملنّه ماعفا له عنه من ذَنْبه علىٰ [خلاف] ما هو مستوجب من ثواب طاعته أو نكال مَعْصِيَتِه ، فإنّ الله جلّ وعزّ يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فاحمدُوا الله علىٰ ما ألهم خليفتَكم ، من إِنَابَةِ أهـلِ السوابق منكم بأَوْفَىٰ سَعْيهم ، والتطوُّل علىٰ عامَّة جُنْـده بمـا شَمِلهم برِفْقِه وحسنت عليهم عائدته ، وما تعطَّف به علىٰ أهل التفريط : من إقالةِ هَفَواتِهم وعثَراتِهم ، حتىٰ صِرتم بنعمةِ الله إخوانا مُتَرافِدين ، قد أذهب الله أضْغانَكم ونزع حَسائِكَ صُدُورِكم ، وردَّ أُلْفتكم إلىٰ أحْسَنِ مايكون ، وصِرْتم بين مُتَقدِّمٍ بغَنَاء ، ومُقْمَع بإحْسان . فحافِظُوا علىٰ ما يُرْتَبَطُ به رَاهِنُ النِّعمة ، ويُسْتَدْعَىٰ به حُسْنُ المَزِيد ، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الثـانى

(من الأمانات التى تُكتب لأهل الإسلام ، ما يُكْتب به عن الملوك ، وهو علىٰ ضربيـن)

الضـــرب الأوّل

(ما كان يُكْتب من هذا النَّمَط فى الزمن السابق ، مما كان يَصْدُر عن وزراء الخلفاء والملوك المتغلّبين على الأمر معهم ، ولهم فيه أسلوبان)

الأســـلوب الأوّل

(أن يُصَـدَّر بالتماس المُسْتأْمِن الأمان)

وهذه نُسخة أمَانٍ من هذا الأُسْلوب ، كتب بها أبو [إسحق بن] هلال الصابى ، عن صَمْصام الدَّوْلة ، بن عَضُـد الدَّوْلة ، بن رُكن الدَّوْلة ، بن بُوَيْهِ الدَّيْلَمِىّ لبَعْض من كان مُتَخَوِّفًا منه ، وهو :

هذا كتاب من صمصام الدولة وشمس الملة أبى كاليجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبى شجاع، بن ركن الدولة أبى على مولى أمير المؤمنين ـ لفلان بن فلان .

إنك ذكرت رغبتك فى الانحياز إلى جملتنا، والمصير إلى حضرتنا، والسكون إلى ظلنا، والسكنى فى كنفنا، والتمست التوثقة منا بما تطيب به نفسك، ويطمئن إليه قلبك؛ فتقبلنا ذلك منك، وأوجبنا به الحق والذمام لك، وأمناك بأمان الله جل ثناؤه، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم، [وأمان](١) أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وأماننا ـ على نفسك، وجوارحك، وشعرك، وبشرك، وأهلك، وولدك، ومالك، وذات يدك : أمانا صحيحا ماضيا نافذا، واجبا لازما؛ ولك علينا بالوفاء به إذا صرت إلينا عهد الله وميثاقه، من غير نقض له ولا فسخ لشىء منه، ولا تأول عليك فيه على [كل](١) وجه وسبب .

ثم إنا نتناولك إذا حضرت بالإحسان والإجمال، والاصطناع والإفضال، موفين بك على أملك، ومتجاوزين حد ظنك وتقديرك . فاسكن إلى ذلك وثق به، وتيقن أنك محمول عليه، ومفض إليه . ومن وقف على كتابنا هذا : من عمال الخراج والمعاون وسائر طبقات الأولياء والمتصرفين فى أعمالنا، فليعمل بما فيه، وليحذر من تجاوزه أو تعديه؛ إن شاء الله تعالى .

⁂

وعلى نحو من ذلك كتب أبو إسحق الصابى، عن صمصام الدولة المقدم ذكره، الأمان لجماعة من عرب المنتفق، بواسطة محمد بن المسيب، وهو :

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

هذا كتاب مَنْشُور من صَمْصام الدَّوْلة، وشَمْسِ المِلَّة، أبى كاليجار، بن عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلَّة أبى شجاع، بن رُكْن الدَّوْلة أبى عَلِىٍّ، مَوْلَىٰ أمير المؤمنين لجماعةِ من العَرَب من المنتفق، الرَّاغِبين فى الطاعة والداخلين فيها مع أولياء الدَّوْلة.

إن محمدَ بن المسَيَّب سألَ فى أَمْرِكم، وذكر رَغْبَتكم فى الخِدْمَه، والانحيازِ إلىٰ الجُمْله؛ والْتمسَ أمانكم علىٰ نُفُوسِكم وأموالكم، وأَهْلِكم وعَشِيرتِكم؛ علىٰ أن تَلْزَمُوا الاستقامه، وتَسْلُكوا سَبِيل السَّلامه؛ ولا تُخِيفُوا سبيلا، ولا تَسْعَوْا فى الأرض فَسادًا، ولا تُخالِفوا للسلطان ووُلَاةِ أعْمَالِه أمرا، ولا تُؤْوُا له عَدُوًّا، ولا تعادُوا له وَلِيًّا، ولا تُجِيرُوا أحدًا خرج عن طاعته، ولا تَذُمُّوا لأَحَدٍ طلبه، ولا تَخُونُوه فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ، ولا قَوْلٍ ولا عَمَلٍ. فرأينا قَبُولَ ذلك منكم، وإجابةَ محمدٍ إلىٰ مارَغِب فيه عنكم، وتَضَمَّنَتْه العُهْدَةُ فيما عُقِد من هذا الأمان لكم علىٰ شرائطه المأخوذة عليكم: فى الكَفِّ عن الرَّعِيَّة والسَّابِلة، وأَهْلِ السَّوادِ والحاضرة؛ وتَرْكِ التَّعرّض للمال والدَّم، أو الانتهاكِ لذِمَّةٍ أو مَحْرَم، أو الارتكابِ لمُنْكَرٍ أو مَأْثَم.

فكونوا علىٰ هذه الحُدُودِ قائمين، وللصِّحَّة والاستقامة مُعْتَقِدين، ولأحْداثِكم ضابِطِين، وعلىٰ أيدى سُفَهائكم آخِذين؛ وأنتم مع ذلك آمِنُون بأمانِ الله جلَّ جلالُه، وأمانِ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمانِ مولانا أمير المؤمنين، وأماننا: علىٰ نُفُوسِكم وأموالِكم وأحْوالِكم، وكلِّ داخِلٍ فى هذا الأمانِ وشرائطِه معكم: من أَهْلِكم وعَشِيرَتِكم وأتْباعِكم، ومَن ضَمَّتْه حَوْزَتُكم.

ومن قرأ هذا الكِتَاب من عُمَّال الخَراج والمَعاوِن، والمتصرِّفين فى الحِمَارة والسَّيارة وغيرهم من جميع الأسباب، فليَعمَلْ بمتضمَّنه، وليَحْمِلْ جماعةَ هؤلاء القَوْم علىٰ مُوجَبِه، إن شاء الله تعالىٰ.

الأسـلوب الثانى
(أن لا يتعرّض فى الأمان لالتماس المُستأمِنِ الأمانَ)

وهذه نُسْخةُ أمانٍ علىٰ هذا الأُسلوب، أورده أبو الحسين بن الصابى فى كتابه "غرر البلاغة" ونصه بعد البَسْملة :

هذا كتاب من فلان مَوْلَىٰ أمير المؤمنين لفلان .

إنا أمَّنَّاكَ علىٰ نَفْسِك ومالِك ووَلَدِك وحُرَمِك، وسائرِ ما تحْوِيه يَدُك، ويشتمل عليه مِلْكُك، بأمانِ الله جَلَّتْ أسماؤُه، وعَظُمتْ كِبْرياؤُه، وأمانِ محمدٍ رسولِه صلى الله عليه وسلم، وأمانِنا — أمانًا صحيحًا غير مَعْلُول، وسَلِيما غير مَدْخُول، وصادِقًا غير مَكْذُوب، وخالصًا غير مَشُوب، لا يتداخَلُه تأْوِيل، ولا يتعقَّبُه تبْدِيل، قد كَفَله القَلْبُ المحفوظ، وقام به العَهْدُ الملْحُوظ — علىٰ أن تَشْمَلَك الصِّيانةُ فلا يلحَقُك اعتراضُ مُعْتَرِض، وتَكْنُفَك الحِراسَةُ فلا يَطْرُقُك اغتِماضُ مُغْتَمِض، وتُعزَّك النُّصْرةُ فلا ينالُك كَفُّ مُتَخَطِّف، ولا تمتدُّ إليك يدُ متطَرِّف، بل تكونُ فى ظلِّ السلامة راتِعًا، وفى مُحاماة الأمانة وادِعًا، وبعَيْنِ المراعاة مَلْحوظا، ومن كلِّ تعقُّبٍ وتتبُّعٍ محفوظا، لك بذلك عَهْدُ الله الذى لا يُخْفَر، ومَواثيقُه التى لا تُنْكَث، وذِمامُه الذى لا يُرْفَض، وعَهْدُه الذى لا يُنْقَض :

المــذهب الثانى
(مما يُكْتَب به فى الأمانات لأهل الإسلام — أن يُفْتَتح الأمانُ بلفظ : «رُسِم» كما تُفْتَتَحُ صِغارُ التواقيع والمراسيم، وهى طريقة غريبة)

وهـذه نُسْخةُ أمانٍ علىٰ هـذا النَّمَط، أوردها محمدُ بن المكرَّم أحدُ كُتّاب ديوانِ الإنشاء فى الدَّوْلة المنصورية «قلاوون» فى تذكِرَتِه التى سماها : "تَذْكِرَةَ اللَّبيب"

كتب بها عن المنصور قلاوون المقدّم ذِكْره ، للتجّار الذين يصلون إلى مصر من الصِّين والهند والسِّند واليمن والعِراق وبلاد الرُّوم ، من إنشاء المولى فتح الدِّين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وهى :

رُسم ـ أعلى اللهُ الأمرَ العالِىَ ـ لا زال عَدْلُه يُحِلُّ الرعايا من الأمْنِ فى حِصْنٍ حَصِين ، ويَستخلِصُ الدعاءَ لدَوْلَتِه الزاهرةِ [من] أهْلِ المَشارق والمَغارب فلا أحَدٌ إلا وهو من المخلصين ، ويُهيِّئُ برحابها لِلْمُعْتَفِينَ جَنَّةَ عَدْنٍ من أىِّ أبوابها شاء الناسُ دُخولًا : من العِراق من العَجَم من الرُّوم من الحِجاز من الهِنْدِ من الصِّين ـ أنّه مَن أراد من الصُّدور الأجِلّاء الأكابرِ التُّجّارِ وأرباب التَّكَسُّب ، وأهل التَّسَبُّب ، من أهل هذه الأقاليم التى عُدِّدَتْ والتى لم تُعَدَّد ، ومن يُؤْثِر الوُرُودَ إلى ممالكنا إن أقام أو تَرَدَّد ـ النُّقلةَ إلى بلادنا الفَسيحةِ أرْجاؤُها ، الظَّليلةِ أفياؤُها وأفناؤُها ، فلْيَعْزِمْ عَزْمَ من قَدَّر اللهُ له فى ذلك الخَيْرَ والخِيَرَه ، ويَحضُرْ إلى بلادٍ لا يحتاج ساكِنُها إلى مِيرةٍ ولا إلى ذَخِيره : لأنها فى الدنيا جَنَّةُ عَدْنٍ لمن قَطَن ، ومَسْلاةٌ لمن تغرّب عن الوَطَن ، ونُزْهَةٌ لايَمَلُّها بَصَر ، ولا تُهْجَرُ للإفراط فى الخَصَر[1] ، والمُقيم بها فى ربيع دائم ، وخَيْرٍ مُلازِم ، ويَكْفِيها أن من بَعْض أوصافها أنّها شامةُ اللهِ فى أرْضِه ، وأن بَرَكَةَ اللهِ حاصلةٌ فى رَحْلِ من جعل الإحسانَ فيها من قِراضِه والحَسَنَةَ من قَرْضِه ؛ ومنها ما إذا أهْبِط إليها آملٌ كان له ما سَأل ، إذ أصبحتْ دارَ إسلامٍ بجُنودٍ تَسْبِقُ سُيوفُهم العَذَل ، وقد عَمَّر العَدْلُ أوطانَها ، وكَثَّر سُكّانَها ، واتّسعتْ أبْنِيَتُها إلى أن صارتْ ذاتَ المَدائِن ، وأيْسَر المُعْسِرُ فيها فلا يَخْشَى سَوْرةَ المُدايِن ، إذ المَطالِبُ بها

(١) الخصر بالتحريك البرد .

غير مُتعسِّره ، والنَّظرةُ فيها إلىٰ مَيْسره ، وسائرُ الناسِ وجميعُ التّجار ، لا يَخْشَوْن فيها من يَجُور فان العَدْل قد أجار .

فمن وقف علىٰ مَرْسومنا هذا من التّجار المقيمين باليَمَنِ والهِنْدِ ، والصِّين والسِّنْد ، وغيرهم ، فليأخُذ الأُهْبَـةَ فى الأرتحال إليها ، والقُدومِ عليها ؛ ليجد الفَعالَ من المَقالِ أكبر ، ويرىٰ إحساناً يقابَلُ فى الوفاء بهـذه العهود بالأكثر ، ويَحُلّ منهـا فى بَلْدةٍ طَيّبةٍ وربٍّ غَفُور ، وفى نعمةٍ جزاؤُها الشُّكر وهل يُجازَىٰ إلا الشَّكُور ، وفى سـلامةٍ فى النَّفس والمـال ، وسعادةٍ تُجلِّى الأحوالَ وتُموِّلُ الآمال ؛ ولهم منا كلُّ مايُؤْثِرونه : من مَعْدَلةٍ تُجيبُ دَاعِيها ، وتحمَدُ عِيشَـتُهم دَواعِيَها ، وتُبقِى أموالَهم علىٰ مُخَلَّفِيهم ، وتستخْلِصُهم لأن يكونوا متفَيِّئين فى ظلالها وتَصْطفيهم ؛ ومن أحضر معه بضائع من بَهـارٍ وأصنافٍ تُحضِرُها تُجّار الكارم فلا يُخاف عليه فى حَق ، ولا يُكلَّف أمْراً يَشُق ، فقد أبْقَىٰ لهم العَدْلُ ما شَاقَ ورفع عنهم ما شَقّ ؛ ومن أحضر معه منهم مماليكَ وجَوارِىَ فله فى قِيمتِهم مايَزِيدُ علىٰ ما يُرِيد ، والمُسامحةُ بمـا يتَعوَّضُه بثَمَنِهم على المعتاد فى أمرِ من يَجْلبهـم من البَلَد القريبِ فكيف من البَعِيـد : لأَن رَغْبتَنا مَصْروفةٌ إلىٰ تكثير الجنود ، ومَن جلب هٰؤلاء فقد أوجب حقًّا علىٰ الجود ؛ فلْيستَكْثِرْ من يَقْدِرُ علىٰ جَلْبهم ، ويَعلَمْ أن تكثير جُيُوش الإسلامِ هو الحاثُّ علىٰ طَلَبِهم : لأنَّ الإسلامَ بهم اليوم فى عِزٍّ لواؤُه المَنْشور ، وسُلْطانُه المَنْصور ، ومن أُحضِر منهم فقد أُخرِجَ من الظلمات إلىٰ النُّور ، وذَمَّ بالكُفْر أمْسَه وحَمِد بالإيمان يَوْمَه ، وقاتَلَ عن الإسلام عَشِيرتَه وقَوْمَه .

هـذا مَرْسومُنا إلىٰ كلِّ واقفٍ عليه من تُجّارٍ شأْنُهـم الضَّربُ فى الأرض : ﴿ يَبْتغُونَ من فَضْلِ الله وآخَرونَ يُقاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ ﴾ . ليقرأوا منـه ما تيَسَّر لهم

من حُكْمِه، ويهتدون بنجمه، ويَغتَدُون بعلمه، ويَمْتَطُون كاهلَ الأمَلِ الذى يَحْمِلُهم علىٰ الهِجْرة، ويَبْسُطون أيْديَهم بالدُّعاءِ لمن يَسْتَدْنِى إلىٰ بلاده الخلائقَ ليفوزُوا من إحسانه بكلِّ نَضارةٍ وبكلِّ نَظْرة، ويَغْتَنِمُون أوقات الرِّبْح فإنَّها قد أدْنَتْ قطافَها، وبعَثَتْ بهذه الوُعود الصادِقةِ اليهم تُحَقِّقُ لهم حُسْنَ التأميل، وتُثْبِتُ عندهم أن الخطَّ الشريفَ حاكِمٌ بأمر الله علىٰ ما قالته الأقلامُ ونِعْمَ الوَكيل .

قلتُ : هذا المكتوبُ وإن لم يكنْ صَريحَ أمَانٍ فإنه فى مَعْنى الأمان، كما أشار إليه آبن المُكَرَّم . وفيه غرابتان : إحداهما ـ الافتتاح «بِرُسِم» ، والثانية ـ الكتابةُ به إلىٰ الآفاق البعيدة والأقطار النائية، إشارةً إلىٰ آمتداد لسان قلم هذه المملكة إليهم .

الضــــرب الثانى

(من الأمانات التى تُكْتب لأهْلِ الإسلام ماعليه مصطلحُ زماننا، وهى صنفان)

الصــــنف الأوّل

(ما يُكْتب من الأبواب السـلطانية)

والنظر فيـه من جهة قَطْع الوَرَق، ومن جهة الطُّرّة، ومن جهة ما يُكْتب فى المَتْنِ .

فأما قَطْع الورق فقد قال فى "التثقيف" : إنّ الأمانَ لا يُكْتب إلا فى قَطْع العادة .

قلتُ : والذى يَتَّجِـهُ أن تكونَ كتابةُ أمانِ كلِّ أحدٍ فى نَظِير قَطْع وَرَق المكاتبة إليه . فإن كان ممن تُكْتَب المكاتبة إليه فى قَطْع العادة ، كُتِب له فى قَطْع العادة . وإن كان فى قَطْعٍ فَوْقَ ذلك، كتب فيه .

وأما الطُّرَّة فقد قال فى "التثقيف" : إنه يُكتب فى أعْلَى الدَّرْج فى الوَسَط الاسمُ الشَّرِيفُ ، كما فى المكاتبات وغيرهـا ، ثم يكتب من أول عَرْض الوَرَقِ إلىٰ آخره كما فى سائر الطُّرَرِ ما صُورتُه :

« أمانٌ شَرِيفٌ لفلان بن فلان الفُـلانى بأن يَحْضُر إلىٰ الأبواب الشريفـة ، أو إلىٰ بَلَدِه أو مكانه ، أو نحو ذلك آمِنًـا علىٰ نَفْسه وأَهْلِه ومَالِه ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه ضَيْمٌ ، ولا يَمَسُّه أذًى ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

قلتُ : والعلامةُ فى الأمان الاسم ؛ والبياضُ بعـد الطُّرَّة علىٰ ما فى المكاتبـات إما وَصْلانِ أو ثلاثةٌ ، بحسب ما تقتضيه رُتْبةُ صاحبِ الأمان ، وبحسب ما يقتضيه الحال : من مُداراة مَن يُكتب له الأمان : لخَوفِ اسْتِشْراءِ شَرِّه وما يُخالِفُ ذلك .

وأما مَتْن الأمانِ : فإنَّه تُكْتبُ البَسْملة فى أوّلِ الوَصْل الثالثِ أو الرابع ، بهامش من الجـانب الأيْمنِ كما فى المكاتبات ، ثم يُكْتب سَـطْرٌ من الأمان تحتَ البَسْملة علىٰ سَمْتِها ، ويخلَّى موضعُ العلامة بياضًا كما فى المكاتبات ، ثم يكتب السَّطْر الثانى وما يليه علىٰ نَسَق المكاتبات .

قال فى "التعريف" : ويجمعُ المقاصدَ فى ذلك أن يُكْتب بعد البَسْملة : «هذا أمانُ الله تعالىٰ وأمانُ نَبِيِّه محمدٍ [نبيِّ الرحمة](1) صلَّى الله عليـه وسلم وأمانُنا الشَّريفُ ، لفلانِ بن فلانٍ الفُلانىِّ [ويذكُرُ أشهرَ أسمائه وتعريفَه](1) ، علىٰ نَفْسِه وأَهْلِه ومَالِه ، وجميعِ أصحابِه وأتْبـاعِه وكلِّ ما يتعلق به : من قليلٍ وكثيرٍ ، وجَليلٍ وحَقيرٍ ــ أمانًا لا يُبْقِى معه خَوْفٌ ولا جَزَعٌ فى أول أمْرِه ولا آخره ، ولا عاجِلِه ولا آجِلِه ، يخصُّ ويعُمُّ ، وتُصانُ به النَّفْسُ والأهْـلُ والوَلَد والمَـالُ وكلُّ ذاتِ اليَـد . فليحْضُرْ هو

(1) من "التعريف" ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وبَنُوه، وأهْلُه وذَوُوه وأقْرَبُوه ، وغِلْمانُه وكلُّ حاشِيَتِه ، وجميعُ ما يَملِكُه من دَابّته وقاصيَتِه ؛ ولْيصلْ بهم إلينا ، ويَفِدْ على حَضْرتِنا فى ذِمام الله وكَلاءته وضَمانة هذا الأمانِ، له ذِمَّةُ اللهِ وذمةُ رسولِه صلى الله عليه وسلم أن لا ينالَه مكْرُوهٌ منّا، ولا من أحدٍ من قِبَلِنا، ولا يُتعرَّضَ إليه بسُوءٍ ولا أذًى، ولا يُرْنَق له مَوْرِدٌ بقَذًى؛ وله منّا الاحسانُ ، والصَّفاءُ بالقلْب واللّسان ؛ والرعايةُ التى تُؤَمِّن سِرْبه [وتُهَنِّئُ شِرْبَه][(1)] ويَطْمَئِنُّ [بها][(1)] خاطِرُه ، وتُرفرفُ عليه كالسَّحاب لا ينالُه إلا مَاطِرُه .

فلْيحضُرْ واثِقًا بالله تعالىٰ وبهذا الأمانِ الشريف، وقد تلَفَّظْنا له به ليَزْدادَ وُثُوقا، ولا يجِدَ بعده سُوءُ الظَّنِّ إلىٰ قلْبه طَرِيقا . وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه إكرامُه فى حال حُضُوره، وإجراؤُه علىٰ أحسنِ ما عُهِدَ من أُموره؛ ولْيكُنْ له ولكلّ من يَحضُرُ معه أوفرُ نَصيبٍ من الاكرام، وتَبْليغُ قُصارَى القصْدِ ونهايةِ المَرام؛ والاعتمادُ علىٰ الخطّ الشريف أعلاه » .

وذُكِر فى "التثقيف" : بِصيغَةٍ أخرىٰ أخْصَرَ من هذه، وهى :

«هذا أمانُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمانُ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمانُنا الشريفُ لفلانِ بن فلانٍ الفلانىِّ، بأن يحضُرَ إلى الأبواب الشريفةِ آمنًا علىٰ نَفْسه وأهْلِه ومَاله، لا يُصيبُه سُوءٌ، ولا ينالُه ضَيْمٌ، ولا يَمَسُّه أذًى . فلْيثِقْ بالله وبهذا الأمانِ الشريفِ ويحضُرْ إلى الأبواب الشريفة، آمِنًا مُطْمئِنًّا، لا يُصيبُه سُوءٌ، ولا ينالُه أذًى فى نَفْسٍ ولا مالٍ ولا أهْلٍ ولا وَلَدٍ . والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف أعلاه ، واللهُ الموفّق بمنه وكرمه» .

وزاد فقال : ثم التاريخُ والمستنَدُ والحَسْبلَةُ . ولا يُكْتب فيه : «إن شاء الله تعالىٰ» لأنها تقتضى الاستثناء فيما وقع من الأمانِ المذكور .

(1) من "التعريف" ص ١٦٥ .

ثم قال : هذا هو الأمرُ المستقرُّ من ابتداء الحال وإلى آخر وقتٍ ، لم يُكتَبْ خلافُ ذلك . غير أنَّ القاضى شهابَ الدين ذكر النُّسخةَ المذكورةَ بزياداتٍ حسَنةٍ لا بأْسَ بها ، لكنّنى لم أر أنه كُتِب بها فى وقتٍ من الأوقات . ثم قال : وهى فى غاية الحُسْنِ ، وكان الأولى أن لا يُكتَب إلّا هِى .

قلتُ : وقد رأيتُ عِدّةَ نُسَخِ أماناتٍ فيها زياداتٌ ونقصٌ عمّا ذكره فى "التعريف" و"التثقيف" . والتحقيق ما ذكره صاحب "موادّ البيان" : وهو أن مقاصدَ الأمان تختلفُ باختلاف الأحوال ، والذى يُضْبطُ إنّما هو صورةُ الأمانِ ، أما المقاصدُ فإن الكاتبَ يُدخِلُ فى كلّ أمانٍ ما يليق به ممّا يناسبُ الحال .

وهذه نُسخةُ أمانٍ ، كُتِب بها لأسَدِ الدين رُمَيثةَ أميرِ مكّة ، فى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى ، وهى :

هذا أمانُ الله سبحانه وتعالى ، وأمانُ رَسُولِه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وأمانُنا الشريفُ ، للمجلس العالى الأسَدِىّ رُمَيثةَ ابن الشريفِ نجمِ الدِّينِ محمد بن أبى نُمَىّ : بأن يحضُر إلى خِدْمة السَّنْجق الشريفِ المجهَّزِ صُحْبةَ الجناب السَّيْفىّ ايتمش الناصرىّ ، آمِنًا على نَفْسِه ومالِه وأهْلِه وولَدِه وما يتعلّقُ به ، لا يخشَى حُلُولَ سطْوةِ قاصِمَه ، ولا يخافُ مُؤاخذةً حاسِمَه ؛ ولا يتوقّعُ خديعةً ولا مكْرًا ، ولا يجدُ سوءًا ولا ضُرّا ؛ ولا يستشعِرُ مَهابةً ولا وجَلا ، ولا يرهَبُ بأسًا وكيف يرهَبُ من أحسن عملا ؟ ؛ بل يحضُر إلى خِدْمة السَّنجق آمِنًا على نفْسه ومالِه وآلِه ، مُطمئِنًّا واثِقًا بالله وبرسولِه وبهذا الأمانِ الشريفِ المؤكّد الأسباب ، المبيِّض للوجُوهِ الكريمة الأحساب ؛ وكلُّ مايخطُر بباله أنّا نؤاخِذُه به فهو مَغْفور ، ولله عاقبةُ الأمور ؛

وله منّا الإقبالُ والتأميرُ والتقديم ، وقد صفحنا الصّفحَ الجميلَ : ﴿ إنَّ ربَّكَ هُوَ الخلّاقُ العليمُ ﴾ .

فليثقْ بهذا الأمانِ الشريف ولا تذهبْ به الظنون ، ولا يصغَ إلى الذين لايعلمون ، ولا يستشرْ فى هذا الأمرِ غيرَ نفسه ، ولا يظنَّ إلّا خيرًا فيومُه عندنا ناسخٌ لأمسه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [فيما يرويه عن ربه] : « أنا عند ظنِّ عبدى بى فليظنَّ بى خيرًا » .

فتمسّكْ بعروةِ هذا الأمانِ فإنها وُثقى ، واعملْ عملَ من لايضلُّ ولا يشقى ؛ ونحنُ قد أمّنّاك فلا تخفْ ، ورعينا لك الطاعةَ والشرف ؛ عفا اللهُ عما سلف ؛ ومن أمّنّاه فقد فاز ، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا فأنتَ أميرُ الحجاز .

قلتُ : هذا الأمانُ إنشاء مبتكرٌ مطابِقٌ للواقع ، وهكذا يجبُ أن يكونَ كلُّ أمانٍ يُكتب .

⁂

وهذه نُسخةُ أمانٍ كُتِب بها عن السلطان الملك الظاهر « برقوق » عند مُحاصرته لدمشق بعد خروجه من الكرك بعد خلعه من السلطنة : أمّن فيها أهلَ دمشق خلا الشيخَ شهابَ الدين بن القُرشىّ وجردمر الطاربى ، كُتِبَ فى ليلةٍ يُسفِرُ صباحُها عن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذى الحجة الحرام ، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، وهى :

هذا أمانُ اللهِ سبحانه وتعالى ، وأمانُ نبيّه سيدنا محمد نبىِّ الرّحمه ، وشفيعِ الأمّه ، وكاشفِ الغُمّه ، صلى الله عليه وسلم ، وأمانُنا لكلِّ واقفٍ عليه من أهل مدينة دمشق المحروسة : من القُضاة ، والمفتِين ، والفُقهاء ، وطالبى العلمِ الشريف ، والفُقراء والمساكين ، والأُمراء ، والأجناد ، والتُّجار ، والمتسبّبين ، والشّيوخ ، والكهول

والشُّبَّان ، والكِبَار والصِّغار ، والذُّكور والإناث ، والخاصّ والعامّ من المسلمين و[أهلِ] الذمة ، إلا جردمر الطاربى ، وأحمد بن القُرَشِىّ – على أنفسهم ، وأموالهم ، وأوْلادهم ، وأهْلِهم ، وحُرَمِهم ، وأصحابهم ، وأتباعهم ، وغِلمانهم ، وقبائلهم ، وعشائرهم ، ودَوَابِّهم ، وما يملكونه من ناطقٍ وصَامِتٍ ، وكلِّ مايتعلق بهم : من كثيرٍ وقليلٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ . أمانٌ لايبقى معه خَوْفٌ ولا جَزَع ، فى أوَّلِ أمْرِه ولا فى آخره ، ولا فى عاجلِه ولا فى آجِله ، ولا ضُرٌّ ، ولا مَكْرٌ ، ولا غَدْرٌ ، ولا خَدِيعةٌ ، يَخُصُّ ويَعُم ، وتُصانُ به النفْسُ والمالُ ، والوَلَدُ والأهْلُ ، وكلُّ ذاتِ يدٍ .

فليحْضُروا ببَنِيهم ، وأهْلِهم وذويهم ، وأقربائِهم ، وغِلْمانِهم ، وحاشِيَتِهم ، وجميع ما يملكونه من ناطقٍ وصامتٍ ، ودانٍ وقاصٍ ؛ ولْيصِلُوا بهم إلينا ، ولْيفِدُوا بهم على حَضْرتِنا الشريفةِ فى ذمام الله تعالى وكَلَاءَتِه ، وضمانِ هذا الأمان . لهم ذِمَّةُ الله تعالى وذِمَّةُ رسولِه سيدِنا محمد نبىِّ الرَّحْمة ، صلَّى الله عليه وسلم – أنْ لا ينالَهم مكْروهٌ منّا ، ولا من أحدٍ من قِبَلِنا ، ولا يُتعرَّضَ إليهم بسُوءٍ ولا أذًى ، ولا يُرَنَّقَ لهم مَوْرِدٌ بقَذًى ؛ ولهم مِنّا الإحسان ، والصَّفاء بالقَلْب واللِّسان ، والرعايةُ التى نُؤَمِّنُ بها سِرْبَهم ، ونُهَنِّئُ بها شِرْبَهم ، ويَطْمَئِنُّ بها خاطِرُهم ، وتُرَفْرِفُ عليهم كالسَّحاب لا ينالُهم إلا ماطِرُهم .

فليحْضُروا واثقينَ بالله تعالى وبرسولِه صلى الله عليه وسلم ، وبهذا الأمان الشريف . وقد تلطَّفْنا بهم ليزدادُوا وُثُوقا ، ولا يَجِدَ سُوءُ الظَّنِّ بعد ذلك إلى قلوبهم طَرِيقا . وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه إكرامُهم فى حال حضورهم ، وإجراؤُهم على أكْمَلِ ما عَهِدُوه من أمورهم ؛ ولْيكُنْ لهم ولكلِّ من يحضُر معهم وما يُحْضَر أوْفَرُ نصيب من الإكرام ، والقَبُول والاحترام ، وتَبْليغُ قُصارَى القَصْد ونِهايةِ المَرَام ، والصَّفْح والرِّضا ، والعَفْو عما مَضى ؛ ولْيتمسَّكُوا بعُرْوة هذا الأمان المؤكِّدِ الأسباب ، الفاتح

إلى الخيرات كلَّ بَاب، وليثقوا بعُروته الوُثقى، فإنه من تمسَّك بها لا يَضلُّ ولا يَشقى، وليشرحُوا بالصَّفح عما مضى صَدرا، ولا يخشَوْا ضَيمًا ولا ضُرًّا، ولا يَعرِض كلٌّ منهم على نَفْسه شيئًا مما جَنَى واَقترف، فقد عفا اللهُ عما سلف.

ونحنُ نعرِّفُهم أن هذا أمانُنا بعد صَبْرِنا عليهم نَيِّفًا وأربعين يومًا مع قُدرتنا على دَوْس ديارهم وتخريبها، واستئصال شأفتهم، ولكنَّا منعنا من ذلك الكتابُ العزيزُ والسنةُ الشريفة، فإنَّا مستمسكون بهما، وخوفُنا من الله تعالى ومن نَبيِّه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واليومِ الآخر ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وهم يغالِطون أنفُسَهم ويظنون أن تأخيرنا عنهم عن عَجْزٍ منَّا.

فليَتلقَّوْا هذا الأمان الشريف بقَلْبِهم وقالَبِهم، وليرجعُوا إلى الله تعالى، وليصُونوا دِماءَهم وأموالَهم وأولادَهم، وحُرَمَهم ودِيارَهم، فقد رأَوْا ما حلَّ بهم من نَكثِهم وبَغيِهم. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وقال عزَّ من قائل: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ في معرِض المَدْح لمن وَفَى بعَهْده: وقال جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾. وقال تَبارَكَ وتَعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾. وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المَكْرُ والبَغْيُ والخَديعةُ». وقال عليه السَّلام: «المَرْءُ مَجزِيٌّ بعَمَلِه». وقال عليه السَّلام: «الجزاءُ من جنس العَمَلِ». وقال أهل التصوُّف: (الطَّرِيقُ تأخُذُ حقَّها). وقال أهلُ الحِكْمة: (الطَّبِيعَة كافِيَةٌ). وقال الشاعر:

قَضَى اللهُ أنَّ البَغيَ يَصْرَعُ أهْلَه * وأنَّ على البَاغِي تَدُورُ الدَّوائِرُ!

ثم إنهم يُعَلِّلُون آمالهم بعَسَى ولعَلّ، ويقولون: العَسْكَرُ المِصْرىُّ واصِلٌ إليهم نجْدَةً لهم، وهذا والله من أكبر حَسَراتنا أن تكون هذه الإشاعة صحيحة، وبهذا طمعت آمالُنا، وصَبَرنا هذه المدّةَ الطَّويلةَ، وتمنَّينا حُضُورَه ورَجَوْناه، فإنّه بأجْمعه مماليكُ أبوابنا الشريفة، وقد صارت الممالكُ الشريفةُ الإسلاميةُ المحروسةُ فى حَوْزَتنا الشريفة، ودخل أهْلُها تحتَ طاعتنا المفْتَرَضَة على كلِّ مُسْلِم يُؤْمن بالله تعالى وبنَبِيّه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخِر: من حاضِرٍ وبادٍ، وعُرْبانٍ وأكْراد وتُرْكانٍ، وقاصٍ ودانٍ؛ وهم يتحققون ذلك ويُكابِرُون فى المَحسوس ويتَعلَّلُون بعَسَى ولَعلَّ، ويقولون: ياليْتَ، فيقالُ لهم: هَيْهات.

فلْيَسْتَدْرِكُوا الفارِطَ قبل أن يَعَضُّوا أيديَهم نَدَما، وتجرِيَ أعينُهم بدَلَ الدُّموع دَما؛ وهذا منّا والله أمانٌ ونَصيحةٌ فى الدنيا والآخرة، والله تعالى رَبُّ النِّيَّات، وعالِمُ الخفيَّات، يعلمون ذلك ويَعْتَمِدُونه؛ والله تعالى يُوفِّقُهم فيما يُبْدِئُونه ويُعِيدونه؛ والخطُّ الشريفُ شرَّفه اللهُ تعالى وأعلاه، وصرَّفه فى الآفاق وأمْضاه ـ أعلاه، حجّةٌ فيه.

قلتُ: وهذا الأمانُ أوّله مُلَفَّقٌ من كلام "التعريف" وغيره، وآخِرُه كلامٌ سُوقِيٌّ مُبْتَذَلٌ نازِلٌ، ليس فيه شيءٌ من صِناعةِ الكلام.

(تنبيه) من غرائب الأمانات ماحكاه محمدُ بن المُكَرَّم فى كتابه: "تذكرة اللَّبيب" أن رُسُل صاحب اليَمَنِ وفَدتْ على الأبواب السلطانية، فى الدولة المنصورية «قلاوون» فى شهر رمضان، سنة ثمانين وستمائة، وسألُوا السلطان فى كَتْب أمان لصاحب اليَمَنِ، وأن يُكتب على صَدْره صورةُ أمانٍ له ولأولاده، فكتب له ذلك وشَمِلَتْه علامةُ السلطان، وعلامة ولَدِه وَلِيِّ عَهْده «الملك الصالح على» وأعلمهم

أنَّ هذا ممَّا لم تَجْرِ به عادةٌ ، وإنَّما أجابهم إلى ذلك إكراماً لمخدومهم ، ومُوافقةً لغَرضه وٱقتراحه .

الصــــنف الثانى

(من الأَماناتِ الجارى عليها مُصْطلح كُتَّاب الزَّمان ، ما يُكْتب عن نوّاب الممالك الشامية)

وهو على نَحْوِ ما تقدّم ذكْرُه مما يُكْتب عن الأَبواب السلطانية ، إلا أنه يُزاد فيه : « وأمانُ مَوْلانا السُّلطان » وتُذْكر ألقابُه المعروفة ، ثم يُؤْتَىٰ على بقيَّة الأَمان ، على الطريقة المتقدّمة ، ويقالُ فى طُرَّته : «أمان كريم» . ويقال فى آخره : «والعلامة الكريمة» كما تقدّم فى التواقيع .

وهذه نُسخةُ أمانٍ كُتِب به عن نائب السَّلطنة بحَلَب فى نيابة الأَمير قشتمر المنصوري ، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» لبعْض من أراد تأْمينَه ، وهى :

هذا أمانُ الله سبحانه وتعالىٰ ، وأمانُ نَبِيِّه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمانُ مولانا السلطانِ الأعظمِ ، العالمِ ، العادلِ ، المُجاهِدِ ، المُرابطِ ، المُثاغِرِ ، المؤيَّد ، المَالِك ، المَلِك الأشرف ، ناصرِ الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، مُحْيي العَدْل فى العالمين ، مُنْصِفِ المظلومين من الظالمين ، قامعِ الكَفَرةِ والمُشْركين ، قاهرِ الطُّغاةِ والمُعْتَدين ، مُؤَمِّنِ قلوبِ الخائفين والتائبين ، مَلِكِ البَحْرَيْنِ ، صاحبِ القِبْلَتَين خادمِ الحَرَمين الشريفين ، وارِثِ المُلْك ، سُلطانِ العَرَبِ والعَجَمِ والتُّرك ، مَلِكِ الأَرض ، الحاكم فى طُولها والعَرْض ، سيِّدِ المُلوك والسلاطين ، قَسيمِ أميرِ المؤمنين «شعبان» ٱبن المَلِك الأمجد جمال الدُّنيا والدِّين «حسين» ٱبن مولانا السلطان الشَّهيد

الملكِ الناصر ، ناصرِ الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإسلامِ والمسلمين «محمد» ابن مولانا السلطانِ الشهيدِ الملكِ المنصورِ «قلاوون» ـ خلَّد الله مُلْكه ، وجعلَ الأَرضَ بأسْرِها مِلْكَه ـ إلى فلانٍ بالحضور إلى الطاعة الشريفة : طَيِّبَ القَلْب ، مُنْبسِطَ الأمَل ؛ آمِنًا على نَفْسه ومالِه وأوْلادِه ، وجماعتِه وأصحابِه ودَوابِّه ؛ لا يخافُ ضَرَرًا ولا مكْرًا ، ولا خَدِيعةً ولا غَدْرًا ؛ وله مَزِيدُ الإكرام والاحترام ، والرعايةِ الوافرةِ الأَقْسام ، والعفوُ والرِّضا ، والصفح عمَّا مَضَىٰ .

فليتَمَسَّكْ بعُرْوةِ هذا الأمانِ المؤكَّد الأسباب ، الفاتح إلى الخيرات كلَّ باب ، ولْيَثِقْ بعُرْوته الوُثْقىٰ ، فإنَّه من تمسَّكَ بها لا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ؛ ولْيشْرَحْ بالصَّفح عما مضىٰ صَدْرا ، ولا يخشَ ضَيْما ولا ضُرًّا ؛ ولا يَعْرِضْ على نَفْسه شيئًا مما جَنَىٰ واقترف ، فقد عفا اللهُ عمَّا سَلَف ؛ والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه حجَّةٌ فيه .

قلتُ : ومما ينبغي التنبيهُ عليه فى الأمانات ، أنه إن احتاج الأمرُ فى الأمان إلى الأيْمانِ ، أتى بها بحسب ما يقتضيه حالُ الحالِفِ والمحلوفِ له ، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه فى المقالة الثامنة .

الباب الثانى

من المقالة التاسعة

(فى الدَّفن)

والمراد به دَفْن ذُنُوب من يُكْتَب له حتّىٰ لم تُربعدُ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

فى أصله وكَوْنه مأخوذًا عن العَرَب

والأصْلُ فيه ماذكره فى "التعريف" أن العَرَب إذا جَنَىٰ أحدٌ منهم جِنايةً، وأراد المَجْنِىُّ عليه العَفْوَ عما وقع، فالتَّعويلُ فى الصَّفْح فيها على الدَّفْن. قال فى "التعريف" : وطريقتُهم فيه أن تجتمعَ أكابرُ قَبِيلةِ الذى يَدْفِن بحضور رجالٍ يثِقُ بهم المدفونُ له، ويقومُ منهم رجلٌ، فيقول للمَجْنِىِّ عليه : نُريدُ منك الدَّفْنَ لفلانٍ، وهو مُقِرٌّ بما أهاجَك عليه، ويُعدِّدُ ذنوبَه التى أُخِذَ بها ولا يُبقِى منها بَقِيَّة، ويُقِرُّ الذى يَدْفِنُ ذلك القائلَ علىٰ أن هذا جُمْلةُ ما نَقِمه على المدفون له، ثم يَحفِرُ بيده حَفيرةً فى الأرض، ويقولُ : قد أَلْقيْتُ فى هذه الحَفيرةِ ذُنوبَ فلانٍ التى نَقِمْتُها عليه، ودفنْتُها له دَفْنى لهذه الحَفيرة، ثم يردُّ ترابَ الحفيرة إليها حتّىٰ يَدْفِنَها بيده . قال : وهو كثيرٌ متَداوَلٌ بين العَرَب، ولا يَطْمَئِنُّ خاطِرُ المُذْنِبِ منهم إلا به، إلا أنه لم تَجْرِ للعرَبِ فيه عادةٌ بكِتابة، بل يُكْتَفَىٰ بذلك الفِعْل بمَحْضَرِ كِبَار الفريقين، ثم لو كانت دِماءٌ أو قتلىٰ عُفِيَتْ وعَفَتْ بها آثارُ الطلائب .

الفصـــــل الثانى

من البـاب الثـانى من المقـالة التاســعة

(فيما يكتب فى الدَّفْن عن الملوك)

قال فى "التعريف" : وصورته أن يكتب بعد البسملة : «هذا دَفْنٌ لذنوب فلان، من الآنَ لا تُذْكر ولا يطالب بها، ولا يُؤاخَذُ بسببها، اقتضَتْه المَراحِمُ الشَّريفةُ السُّلطانية المَلَكيَّة الفلانية، ضاعف الله تعالىٰ حَسَناتها وإحسانَها : وهى ما بدَا من الذنوب لفلان من الجرائم التى ارْتكبها، والعظائم التى احْتَقبها، وحصل العَفْوُ الشَّريفُ عن زَلَلِها، وقابل الإحسانُ العَمِيمُ بالتغمُّد سُوءَ عَمَلِها؛ وهى : كذا وكذا (وتذكر) : دَفْنًا لم تَبْقَ معه مُؤاخَذةٌ بسببٍ من الأسباب، ومات به الحِقْدُ وهِيلَ عليه التُّراب، ولم يَبْقَ معه لمُطالِبٍ بشْئ منه مَطْمَع، ولا فى إحْيائه رَجاءٌ وفى غَيْرِ ماوَارَت الأرْضُ فاطْمَعْ، تَصدَّقَ بها سيِّدُنا ومولانا السلطانُ الأعظم (ويذكُرُ ألقابَه واسْمَه) ـ تقبَّلَ الله صدقَتَه ـ وعفا عنها، وقطع الرَّجاءَ باليَأْس منها، وأبطَلَ منها كُلَّ حَقٍّ يُطْلَب، وصفح منها عن كل ذَنْبٍ كان [به](1) يُستذْنَب، ودفَنها تحْت قدَمِه، ونَسِيَها فى عِلْمِ كَرَمِه، وخَلَّاها نَسْـيًا مَنْسِيًا لا تُذْكَرُ فى خِفَارَةِ ذِمَمِه؛ وجعله بهـا مُقِيمًا فى أمْنِ الله تعـالىٰ إلىٰ أن يبعثَ اللهُ تعالىٰ خَلْقَـه، ويتقاضَىٰ كما يشاءُ حَقَّه؛ لا يتعقَّبُ فى هذا الأمانِ مُتَعَقِّب، ولا ينتهى إلىٰ أمَدٍ له نَظَرُ مترقِّب؛ لا يُنْبَشُ هذا الدَّفين، ولا يُوقَف له علىٰ أثَرٍ فى اليوم ولا بعدَ حِين؛ ولا يُخْشَى فيه صَبْرُ مُصابِر، ولا يُقالُ فيـه :

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٦٦ .

إلّا وَهَبًا كشَىْءٍ لم يكنْ أو كَنَازِحٍ به الدّارُ أو مَن غَيَّبَتْه المَقابِرُ . ورُسِم بالأمر الشريف العالى، المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه اللهُ تعالىٰ وشرَّفه، وغفر به لكلِّ مُذْنِبٍ ما أسلفه ـ أن يُكتبَ له هذا الكِتَابُ بما عُفِىَ له عنه وحُفِر له ودُفِن، وأصبح بعَمَلِه غيرَ مُرْتَهِن؛ ودُفِن له فيه دَفْنَ العَرَب، وقُطِع فى التَّذَكُّر له أَرَبُ كلِّ [ذى] أَرَب؛ ودُرِس فى القُبور الدَّوارس، وغُيِّبَ مكانه فيما طُمِر فى اللَّيالى الدَّوامِس .

وسبيلُ كلِّ واقفٍ علىٰ هذا الكتاب ـ وهو الحجّةُ علىٰ من وَقَفَ عليه، أو بلَغه خَبَرُه، أو سمعه أو وَضَحَ له أثَرُه ـ أن يَتناسَىٰ هذه الوقائع، ويَتَّخِذَها فيما تَضَمَّنته الأرْضُ من الودائع، ولا يذكر منها إلا ما اقتضاه حِلْمُنا الذى يُؤْمَنُ معه التَّلَف، وعَفْوُنا الذى شَمِل وعفَا اللهُ عمّا سَلَف .

قال فى "التثقيف": ولم أكُنْ رأيتُ شيئًا من هذا ولا وجَدْتُه مسطورًا إلا فى كتابة "التعريف" . قال : والذى أعتقِدُه أنه لم يُكْتَبْ به قَطُّ، وإنما الرجلُ بسَعَة فَضْلِه وفَضيلَتِه، أراد أن يرتِّبَ هذه النُّسخة لاحتمالِ أن يُؤْمر بكتابة شَىْءٍ من هذا المعنى، فلا يَهْتدِى الكاتبُ إلىٰ ما يَكْتُبه . ثم قال : على أنه كرَّر فيها ذِكْرَ السلطان مرّتين، والثالثة قال : رُسِم بالأمر الشريف، فهى علىٰ غيرِ نَحْوٍ من النِّظام المعهود والمصطلح المعروف، بحُكْم أن فيها أيضا توسُّعًا كثيرًا فى العبارة والألفاظ التى تُؤدِّى كلُّها معنًى واحدا . قال : وكان الأولىٰ بنا اختصارَ ذلك وعَدَمَ كتابته، لكنّنا أردنا التنبيهَ علىٰ ما أشار إليه، ليكون هذا الكِتَابُ مُستوعبًا لجميع ما ذُكِر، ممّا يُستعمل وممّا لا يُستعمَل .

قلتُ : ما قاله فى "التثقيف" كلامٌ ساقِطٌ صادِرٌ عن غير تحقيق ، فإنّه لا يلزمُ من عَدَم اطّلاعه على شيءٍ كُتِب فى هذا المعنىٰ ولا سُطِّر فيـه أن لا يكون مسطوراً لأحدٍ فى الجُمْلة . وماذا عسىٰ يبلغُ اطّلاعُ المطَّلِع فضْـلا عن غيره ؟ وإن كان صاحبُ "التعريف" هو الذى ابتكر ذلك ، كما أشار إليه فى "التثقيف" فنِعْمَت السَّجِيَّة الآتية بمثْلِ ذلك ممـا لم يُسْبق إليه . وأما إنكارُه تكْرِيرَ ذِكْر السلطان فيها ، فلا وجْهَ له بعدَ انتظـام الكلام وحُسْن ما أتىٰ به فى "التعريف" سواءٌ كان فيه مُبْتكِرًا أو مُتَّبِعًا أو مُنترِعًا له من الأصل السابق .

وأحسن ما يكتب فى ذلك فى تأْمينِ العُرْبان : لأنه إنمـا أُخِذَ عنهم ، فإذا صدَر إليهـم شىءٌ يعرفونه ويجْرِى على قواعِدِهم التى يأْلَفُونها ، تلَقَّوْه بالقَبُول ، واطْمأَنَّتْ إليه قُلُوبهم ، ووقع منهم أَجَلَّ مَوْقِع ، وباللهِ المُسْتعان .

الباب الثالث

من المقالة التاسعة

(فيما يُكتب فى عَقْد الذِّمَّة، وما يتفرّع علىٰ ذلك؛ وفيه فصلان)

الفصل الأول

فى الأُصول التى يَرْجع إليها هذا العَقْد، وفيه طرفان

الطرف الأوّل

(فى بيان رُتْبة هذا العَقْد، ومعناه، وأصلِه من الكِتاب والسُّنَّة، وما يَنْخرِطُ فى سِلْك ذلك)

أما رُتْبته، فإنه دُون الأمانِ بالنِّسْبة إلى الإمام. وذلك أنه إنما يُقرِّره بعوضٍ يأخذُه منهم، بخلاف الأمانِ.

وأما معناه، فقد قال الغَزَالىّ فى "الوَسِيط": إنه عبارةٌ عن التزام تقريرهم فى ديارنا، وحِمايتِهم، والذّبّ عنهم ببَذْل الجِزْيَةِ أو الإسلام من جِهتِهم.

وأما الأصْلُ فيه: فمن الكِتاب قولُه تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. فجعلَ الجِزْية غايةَ ما يُطلَبُ منهم، وهو دَلِيلُ تقرِيرهم بها.

ومن السُّنَّة ما ورد «أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم حين وَجَّه مُعاذَ بنَ جَبَلٍ إلى اليَمَنِ. قال: إنّك سَتَرِدُ علىٰ قَوْمٍ مُعظمُهم أهْلُ كِتَابٍ فاعْرِضْ عليهم الإسلامَ،

فإن آمتنعوا فآعْرِضْ عليهم الجِزْيَةَ وخُذْ من كلِّ حالِمٍ دِينارًا ، فإن آمتنعوا فاقتُلْهم» فجَعْلُ القتلِ بعد الآمتناع عن أداء الجِزْية يدلُّ على تقريرهم بها أيضا .

وقد قرّر أمير المؤمنين عُمَرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه نَصارَى الشّامِ بإيالتهم على شروطٍ آشترطوها فى كِتَابٍ كتبُوا به إليه، مع زيادةٍ زادها .

قال الإمامُ الحافظ جمالُ الدِّينِ أبو صادق محمد، آبن الحافظ رَشِيدِ الدِّين أبى الحسين يحيى، بن على، بن عبد الله القُرَشىِّ فى كِتَابِه الموسوم " بالزُّبَدِ المجموعه، فى الحكايات والأشعار والأخبار المَسْمُوعه": أخبرنا الشيخُ الفَقِيهُ أبو محمدٍ عبدُ العزيز آبنُ عبد الوَهَّاب بن إسماعيلَ الزُّهْرِىّ المالِكىّ وغيرُ واحدٍ من شُيوخنا إجازةً ، قالوا : أنبأنا أبو الطّاهِرِ إسماعيلُ بن مَكِّىّ بن إسماعيلَ الزُّهرىّ ، قال : أخبرنا أبو بَكْرٍ محمدُ بن الوليد الفِهْرىّ الطُّرْطُوشِىّ قِراءةً عليه ، قال : أخبرنا قاضِى القُضاةِ الدامَغَانىُّ، أخبرنا محمدٌ، أخبرنا أبو محمدٍ عبدُ الرَّحمٰن بن عمر بن محمد التُّجِيبىّ فيما قرأتُ عليه، أخبرنا أبو سعيدٍ أحمدُ بنُ عمرَ بن زياد الأعرابىّ بمكّةَ سنة أربعين وثلثمائة، أخبرنا محمدُ بن إسحٰق أبو العبّاس الصَّفّار، أخبرنا الرَّبيعُ بن تَغلِب أبو الفَضْل، أخبرنا يحيى بن عُقْبة بن أبى العَيْزار عن سُفْيان الثَّوْرِىّ، والوليدِ بن رَوْح، والسَّرِىّ بن مصرِّف ، يذكُرون عن طَلْحَة بن مصرف، عن مَسْرُوق ، عن عبد الرَّحمٰن بن غُنْمٍ، قال : كتبْتُ لعمر بن الخطّاب حين صالح نصارَى الشّامِ .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«هذا كِتَابٌ لعبد الله عُمَرَ أميرِ المؤمنين، من نَصارَى مدينة كذا وكذا»

«إنكم لما قَدِمْتم علينا سألنا كم الأمانَ لأنْفُسِنا وذَرارِيِّنَا وأمْوالِنا»

«وأهْلِ مِلَّتِنا ، وشَرطْنا لكم على أنْفُسِنا أن لا نُحْدِثَ فى مَدِينَتِنا»

«ولا فيما حَوْلَها قَلِيَّةً[١] ولا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ، ولا نُجَدِّدَ ما خَرِبَ منها : دَيْرًا»
«ولا كنيسةً، ولا نُخْفِيَ ما كان منها فى خِطَطِ المسلمين، ولا نَمْنَعَ كنائسنا»
«أن يَنزِلَها أحدٌ من المسلمين ثلاثَ ليالٍ نُطْعِمُهم، ولا نُؤْوِيَ فى منازلنا»
«ولا كنائسنا جاسُوسًا، ولا نكتُمَ غِشًّا للسلمين، ولا نُعَلِّمَ أولادنا القُرآنَ»
«ولا نُظْهِرَ شِرْكًا، ولا نَدْعُوَ إليه أحدًا، ولا نمنع من ذَوِى قرابتنا»
«الدُّخولَ فى الإسلام إن أرادُوه، وأن نُوَقِّرَ المسلمين ونقومَ لهم فى مجالسنا»
«إذا أرادوا الجُلوسَ، ولا نَتَشَبَّهَ بهم فى شَىْءٍ من لِباسِهِمْ : فى قَلَنْسُوَةٍ»
«ولا عِمامَةٍ ولا نَعْلَيْنِ ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا نتكلَّمَ بكلامهم، ولا نَتَكَنَّى»
«بكُناهُم، ولا نَرْكَبَ السُّروجَ، ولا نتقلَّدَ السُّيوفَ، ولا نَتَّخِذَ شيئًا من»
«السِّلاحِ، ولا نَحْمِلَه معنا، ولا نَنْقُشَ على خواتيمنا بالعَرَبِيَّةِ، ولا نَبِيعَ الخُمُورَ»
«وأن نَجُزَّ مَقادِمَ رُءُوسِنا، وأن نَلْزَمَ دِينَنا حيثُ ما كُنَّا، وأن نَشُدَّ زَنانِيرَنا»
«على أوْساطِنا، وأن لا نُظْهِرَ الصَّلِيبَ على كنائسنا، ولا كُتُبَنا فى شَىْءٍ»
«من طُرُقِ المسلمين ولا أسْواقِهم، ولا نَضْرِبَ بنواقيسنا فى كنائسنا»
«إلَّا ضَرْبًا خَفِيفا، ولا نَرْفَعَ أصواتَنا بالقِراءَةِ فى كَنائِسِنا ولا فى شَىْءٍ»
«من حَضْرةِ المسلمين، ولا نَخْرُجَ سَعانِينَ ولا باعُوثا، ولا نرفعَ»
«أصْواتَنا مع مَوْتانا، ولا نُظْهِرَ النِّيرانَ معهم فى شَىْءٍ من طُرُقِ المسلمين»

---

(١) القلية هى التى يقال لها القلاية . وهى من بيوت عباداتهم . والسعانين عيد لهم قبل عيدهم الكبير بأسبوع . والباعوث عندهم كالاستسقاء عندنا . انظر لسان العرب .

«ولا أَسْواقِهِم، ولا نُجاوِرَهم بمَوْتانا، ولا نَتَّخِذَ من الرَّقِيقِ ما يَجْرِى عليه»
«سِهامُ المسلمين، ولا نَطَّلِعَ عليهم فى مَنازِلِهم» .

قال عبد الرحمن : فلما أتيتُ عُمَرَ بالكتاب زاد فيه :

«ولا نَضْرِبَ أحدًا من المسلمين . شَرَطْنا ذٰلك على أنفُسِنا وأهْلِ»
«مِلَّتِنا، وقَبِلْنا عليه الأمانَ . فإن نحنُ خالَفْنا عنْ شَىْءٍ مما شَرَطْناه»
«لكم وضَمِنّاه على أنفُسِنا فلا ذِمَّةَ لنا، وقد حَلَّ لكم مِنّا ما يَحِلُّ لأهْلِ»
«المُعانَدَةِ والشِّقاقِ» .

وفى رواية له من طريقٍ أخرىٰ «أن لا نُحْدِثَ فى مدينَتِنا ولا فيما حَوْلها»
«دَيْرًا ولا كَنِيسَةً ولا قَلّايَةً ولا صَوْمَعَةَ راهِبٍ» .

وفيها : — «وأن لا نَمنَعَ كنائِسَنا أن ينزِلَها أحدٌ فى لَيْلٍ ولا نَهار، وأن»
«نُوَسِّع أبوابَها للمارَّةِ وابنِ السَّبِيل» .

وفيها : — «وأن نُنْزِلَ مَن مَرَّ بنا من المسلمين ثلاثةَ أيامٍ نُطْعِمُه» .

وفيها : — «وأن لا نُظْهِرَ صَلِيبًا أو نَجَسًا فى شىءٍ من طُرُقِ المسلمين»
«وأسْواقِهم» .

وفيها : — «وأن نُرْشِدَ المسلمين ولا نَطَّلِعَ عليهم فى منازِلهم» .

قال أبو صادق المقدّم ذِكْرُه : ومما ذكره أهل التاريخ أن الحاكِمَ الفاطمىَّ أمر اليهودَ والنَّصارىٰ إلا الجبابرة بلُبْس العمائم السُّودِ، وأن يحمِلَ النَّصارىٰ فى أعناقهم

من الصُّلْبان ما يكونُ طولُه ذراعًا ووَزْنُه خمسةَ أرْطالٍ، وأن تحملَ اليهودُ فى أعناقهم قَرَامى الخَشَب على وَزْن صُلْبان النَّصارىٰ، وأن لا يركَبُوا شيئًا من المراكب المُحَلّاة، وأن تكون رُكُبهم من الخَشَب، وأن لا يَستَخْدِموا أحدًا من المسلمين، ولا يركَبوا حمارًا لمُكارٍ مُسْلم، ولا سَفِينةً نُوتِيُّها مسلم؛ وأن يكونَ فى أعْناق النصارىٰ - إذا دخلُوا الحمّام - الصُّلْبانُ، وفى أعناق اليهود الجَلاجِلُ : ليتميزُوا بها من المسلمين، وأفردَ حمامات اليهود والنصارىٰ عن حمامات المسلمين ونُهُوا عن الاْجتماع مع المسلمين فى الحَمَّاماتِ، وخُطَّ على حمامات النَّصارىٰ صُوَرُ الصُّلْبان، وعلىٰ حمَّاماتِ اليَهُود صُوَرُ القَرَامِى .

قال : وذلك بعد الأربعمائة . ثم قال : ولقد أحسن فيما فعَل بهم، عفا الله عنَّا وعنه، ورزقنا من ينْظُر فى أمورنا وأمورهم بالمَصْلَحةِ .

الطـــرف الثانى

(فى ذِكْر ما يحتاج الكاتِبُ إلىٰ معرفته فى عَقْدِ الذِّمّة)

واْعلم أنَّ ما يحتاج الكاتِبُ إليه من ذلك يرجعُ إلىٰ ثمانية أمور :

الأمر الأوّلُ — فيمن يجوزُ أن يتولَّىٰ عَقْدَ الذِّمة من المسلمين . ويختَصُّ ذلك بالإمام أو نائِبه فى عَقْدِها، وفى آحاد الناس خِلافٌ، والأرْجحُ أنه لا يصحُّ منه لأنَّه من الأُمور الكُلِّيّة، فيحتاج إلىٰ نَظَرٍ واجْتهادٍ .

الأمر الثانى — معرفةُ من تُعقَدُ له الذِّمة . ويشترَطُ فى المعقود له : التَّكْليفُ والذُّكورةُ والحُرِّيّةُ . فلا تُعقَدُ لصَبِيٍّ ولا مجنونٍ ولا اْمرأةٍ ولا عَبْدٍ، بل يكونون تَبَعًا، حتَّىٰ لا تجب علىٰ أحدٍ منهم الجِزْيةُ؛ وفيمن ليس أهْلًا للقتال : كالشَّيخ الكبير

والزمن خلافٌ، والأصح صحة عقدها له . ويعتبر فى المعقود له أيضا أن يكون زاعمَ التمسك بكتاب: كاليهوديّ يزعم تمسكه بالتوراة، والنصرانىّ يزعم تمسكه بالتوراة والإنجيل جميعًا، وفى المتمسك بغير التوراة والإنجيل : كصُحُف إبراهيم وزبور داود خلافٌ والأصح جوازُ عقدها له . وكذلك المجوسُ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « سُنّوا بهم سُنّةَ أهلِ الكتاب » . والسامرةُ إن وافقت أصولهم أصولَ اليهود، عُقِد لهم وإلا فلا . وكذلك الصابئةُ إن وافقت أصولهم أصولَ النصارى، ولا يُعقَدُ لزنديقٍ، ولا عابدِ وثنٍ، ولا من يعبدُ الملائكةَ والكواكبَ . ثم إذا كملت فيه شروطُ العقد فلا بُدَّ من قبوله العقدَ . ولو قال : قرّرنى بكذا فقال : قرّرتك صحّ . ولو طلبها طالبٌ من الإمام وجبت إجابتُه .

الأمر الثالث — معرفةُ صيغةِ العقد : وهى ما يدل على معنى التقرير من الإمام أو نائبه، بأن يقول : أقررتكم أو أذنتُ لكم فى الإقامة فى دارنا على أن تبذُلوا كذا وكذا وتنقادُوا لحكم الإسلام .

الأمر الرابع — المدّةُ التى يُعقَد عليها . ويعتبر فيها أن تكون مطلقةً بأن لا يقيّدها بانتهاء، أو بما شاء المعقودُ له من المدّة . ولا تجوز إضافةُ ذلك إلى مشيئة الإمام، لأن المقصودَ من عقدها الدوامُ . وقولُه صلّى الله عليه وسلم « أُقِرُّكم ما أقرَّكم اللهُ » إنما وَرَد فى المهادنة لا فى عقد الذمّة .

الأمر الخامس — معرفةُ المكان الذى يُقَرّون فيه . وهو ماعدا الحجاز، فلا يُقَرّون فى شىءٍ من بلاد الحجاز : وهى مكّة، والمدينةُ، واليمامةُ، ومخاليفُها يعنى قُراها : كالطائف بالنسبة إلى مكّة، وخيبرَ بالنسبة إلى المدينة، ونحو ذلك . وسواءٌ فى ذلك القُرى والطُّرُق المتخلّلةُ بينها . ويُمنعون من الإقامة فى بحر الحجاز، بخلاف رُكوبه للسفر . وليس لهم دُخولُ حَرَمِ مكّة لإقامة ولا غيرها، إذ يقولُ تعالى : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذا﴾ . فلو تعدَّى أحدٌ منهم بالدخول ومات ودُفن في الحَرَم ، نُبِشَ وأُخرِج منه مالم يتقطَّع ، فان تقطَّع تُرِك . وقيل : تُجمَع عظامُه وتُخرج . وعليه يدلُّ نصُّ الشافعيّ رضى الله عنه فى الأمّ .

الأمر السادس — معرفة مايلزم الإمامَ لهم بعد عَقْد الذِّمَّة . إذا عَقَد لهم الإمامُ الذِّمَّة فينبغى أن يَكْتُبَ أسماءَهم ودِينَهم وحِلاهُم ، وينْصِبَ علىٰ كلِّ جَمْع عَرِيفًا : لمَعْرفة من أسْلَمَ منهم ، ومن مات ومن بلغ من صِبْيانهم ، ومن قَدِمَ عليهم أو سافر منهم ؛ وإحْضارِهم لأداءِ الجِزْيَة ، أو شَكْوىٰ مَن تعدَّى الذِّمِّىُّ عليه من المسلمين ونحو ذلك ؛ وهذا العَرِيف هو المعبَّر عنه فى زماننا بالديار المصرية بالحاشر . ثم يَجِبُ الكَفُّ عنهم بأن لا يَتَعَرَّض مُتعرِّضٌ لأنفُسِهم ولا أموالِهم ، ويضْمَنُ ما أتْلَف منها ، ولا تُراقُ خُمورُهم إلا أن يُظْهِرُوها ، ولا تُتْلَفُ خنازِيرُهم إذا أخْفَوْها ، ولا يُمنَعون التَّرَدُّدَ إلىٰ كَنائِسِهم . ولا ضَمانَ علىٰ من دخل دارَ أحدٍ منهم فأراق خَمْرَه وإن كان مُتعدِّيا بالدُّخول ، وأوجب أبو حَنِيفَةَ عليه الضَّمانَ . ويجب ذَبُّ الكُفَّار عنهم ما داموا فى دارنا ، بخلاف ما إذا دخلُوا دارَ الحَرْب .

الأمر السابع — معرفةُ مايُطْلَب منهم إذا عقد لهم الذِّمَّة . ثم المطلوب منهم ستَّةُ أشـياءَ :

منهـا ـ الجِزْيَةُ : وهى المـالُ الذى يَبْذُلُونه فى مُقابلة تَقْرِيرهم بدار الإسـلام . قال المـاوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" : وهى مأخوذة من الجزاء : إمَّا بمعنى أنها جَزاءٌ لتقريرهم فى بلادنا ، وإمَّا بمعنى المقابَلة لهم علىٰ كُفْرِهم .

وقد آختلف الأئمة فى مِقْدارها : فذهب الشافعيّ رضى الله عنه إلىٰ أنها مقدرةُ الأقلّ ، وأقلُّها دينارٌ أو آثنا عشر درهما نُقْرةً فى كلِّ سـنة علىٰ كلِّ حالِم ، ولا يجوز

الاقتصار على أقلّ من الدينار، وغيرُ مقدَّرة الأكثر، فتجوزُ الزيادة على الأقلّ برضا المعقود له . ويستحبُّ للإمام المُماكَسَةُ : بأن يزيدَ عليهم بحسَبِ ما يراه . ونقل ابنُ الرِّفعةِ عن بعض أصحاب الشافعيِّ أنه إذا قُدِّر على العَقد غاية لم يجز أن يُنقَص عنها . ويستحبُّ أن يُفاوِتَ فيها : فيأخذَ من الفقير دينارًا، ومن المتوسِّط دينارين، ومن الغنيِّ أربعةَ دنانير .

وذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثة أصناف : أغنياءَ، يُؤخذُ منهم ثمانيةٌ وأربعون درهمًا . وأوساطٍ ، يؤخذُ منهم أربعةٌ وعشرون درهما . وفقراءَ، يؤخذُ منهم اثنا عشر درهما . فجعلها مقدَّرةَ الأقل والأكثر، ومَنَع من اجتهاد الإمام ورأيه فيها .

وذهب مالكٌ إلى أنه لا يتقدَّرُ أقلُّها ولا أكثرُها، بل هى مَوكولةٌ إلى الاجتهاد فى الطَّرفَيْن .

ومنها ـ الضِّيافةُ : فيجوزُ للإمام بل يستحبُّ أن يشترط على غير الفقير منهم ضِيافةَ من يمرُّ بهم من المسلمين زيادةً على الجزية ، ويعتبرُ ذكرُ مُدّةِ الإقامة ، وأن لا تزيدَ على ثلاثة أيام ، وكذلك يعتبرُ ذكرُ عَدد الضِّيفَانِ من فُرسانٍ ورَجَّالةٍ ، وقَدرِ طعام كلِّ واحدٍ وأُدمِه ، وقَدرِ العليقِ وجِنسِ كلٍّ منهما، وجِنْس المَنْزِل .

ومنها ـ الانقيادُ لأحكامنا، فلو ترافعوا إلينا أمضينا الحُكْمَ بينهم برضَا خَصمٍ واحد منهم، ونحكُمُ بينهم بأحكام الإسلام .

ومنها ـ أن لا يركَبُوا الخَيْلَ . ولهم أن يركبوا الحَمِيرَ بالأُكُف عَرْضًا : بأن يجعل الرَّاكبُ رِجْليه من جانبٍ واحدٍ . وفى البِغَالِ النفيسة خلافٌ : ذهب الغزاليُّ وغيره إلى المَنْع منها والراجح الجوازُ، إلا أنهم لا يتخذون اللُّجُمَ المحلاّة بالذَّهَبِ والفِضّة .

ومنها — أن يُنزِلُوا المسلمين صَدْرَ المجالِس وصَدْرَ الطريق . وإن حصل فى الطَّريق ضِيقٌ [أُلجِئُوا] إلى أضيَقِه . ويُمْنعون من حَمْلِ السِّلاح .

ومنها — التميز عن المسلمين فى اللِّباس : بأن يَخيطُوا فى ثيابِهم الظاهرة مايخالفُ لَوْنَها، سواءٌ فى ذلك الرجالُ والنِّساءُ . والأَوْلىٰ باليهود الأَصْفَر، وبالنَّصارىٰ الأزرقُ والأَكْهَبُ (وهو المعبَّرعنه بالرَّمادِىّ) وبالمَجُوسِىّ الأَسْودُ والأَحْمرُ . ويَشُدُّ الرجالُ منهم الزُّنَّارَ من غير الحَرير فى وَسَطِه، وتَشُدّه المرأة تحتَ إزارِها ، وقيل فَوْقَه . ويميِّزونَ ملابِسَهم عن ملابس المسلمين، وتُغايِرُ المرأةُ لون خُفَّيْها : بأن يكون أحَدُهما أبيضَ والآخَرُ أَسْوَدَ، ونحو ذلك . ويجعل فى عُنُقه فى الحَمَّام جُلْجُلًا أو خاتَمًا من حَديد . وإن كان على رَأْس أحدهم شَعْرٌ أُمِر بجَزّ ناصيتِه . ويُمنعون من إرْسال الضَّفائر كما تفعلُ الأشرافُ . ولهم لُبْسُ الحرير والعِمامَة والطَّيْلسان . والذى عليه عُرْف زماننا فى التَّمييز أنّ اليهودَ مطلقا تَلْبَسُ العمائمَ الصُّفْر، والنَّصارىٰ العَمائم الزُّرْق، ويركبون الحميرَ على البراذِع، ويَثْنِى أحدُهم رِجلَه قُدّامَه، وتختصّ السّامرةُ بالشّام بلُبْس العمامة الحمْراء، ولا مُميِّزَ يعتادونه الآن سوىٰ ماقدّمْناه .

ومنها — أنهم لا يرفعون ما يَبْنُونه علىٰ [بنيان] جيرانهم من المسلمين، ولا يُساوونَه به ولو كان فى غاية الانخفاض، ويُمْنع من ذلك وإن رَضِىَ الجارُ المسْلم، لأن الحقَّ للدين دون الجارِ، وله أن يرفع مابناه بمَحَلَّةٍ منْفَصلة عن أبنية المسلمين . ولو اشْترى بِناءً عاليًا بَقِىَ علىٰ حاله ، فلو انهدم فأعاده لم يكن له الرَّفْع على المسلم ولا المُساوَاة .

ومنها — أنهم لا يُحدِثُون كنيسةً ولا بِيعَة فيما أحْدَثه المسلمون من البلاد : كالبَصْرة، والكُوفَة، وبَغْدادَ، والقاهِرَة، ولا فى بلدٍ أسلم أهلُها عليها : كالمدينة واليَمَن . فإن أحدثوا فيها شيئا من ذلك نُقِض، نَعم يُتْرَك ماوُجد منها ولم يُعلَمْ حالُه :

لاحتمال اتصال العمارات به . وكذلك لا يجوز إحداثُ الكنائس والبيَع فيما فُتح عَنْوة، ولا إبقاءُ القَديم منها لحصول الملك بالاستيلاء . أمَّا ما فُتح صُلْحًا بخراج على أن تكونَ الرَّقبةُ لهم، فيجوز فيها إحداثُ الكنائس و إبقاءُ القديمة منها، فإن الارض لهم . و إن فُتحتْ صُلْحًا على أن تكون لنا : فإن شُرط إبقاءُ القديمة بَقِيتْ وكأنَّهم استثنَوْها . ويجوزُ لهم إعادةُ المتهدِّمةِ منها ، وتَطْيينُ خارجِها دون توْسيعها .

الأمر الثامن — معرفةُ ما يَنْتقضُ به عَهْدُهم .

ويَنْتقِضُ بأمورٍ :

منها — قِتَالُ المسلمين بلا شُبْهة ، ومَنْعُ الجزية ، ومَنع إجراءِ حُكْمنا عليهم ، وكذا الزِّنا بمُسْلِمة أو إصابتُها باسم نِكَاح، والاطلاعُ على عَوْرات المسلمين و إنهاؤُها لأهْلِ الحَرْب، و إيواءُ جاسوسٍ لهم، وقَطْعُ الطَّريق، والقَتْلُ الموجِبُ للقصَاص، وقَذْفُ مُسلِم ، وسَبُّ نَبِيٍّ جَهْرا، وطَعْنٌ فى الإسلام أو القرءان إن شُرِطَ عليهم الانتقاضُ وإلا فلا. أما لو أظهر ببلَدِ الإسلام الخَمْرَ أو الخنْزيرَ أو النَّاقوسَ أو مُعْتقَده فى عُزَيْرٍ والمَسيح عليهما السلام أو جنازَةً لهم أو سَقَى مسلمًا خمرًا فإنه يُعزَّر .

الفصـــــل الثانى

من البـاب الثـالث من المقالة التاسعة

(مايُكْتب فى مُتعلّقات أهْلِ الذّمة [عند خرُوجِهم] عن لوازم عَقْد الذِّمّة)

وٱعلم أنه ربّما خرج أهْلُ الذّمّة عن لوازم عَقْدِ الذّمة ، وأظهروا التميزَ والتّكبّرَ وعُلُوّ البِناءِ، إلى غير ذلك ممّا فيه مخالفةُ الشروط ، فيأخذُ أهْلُ العَدْلِ : من الخُلَفاء والملوكِ فى قَمْعهم والغَضّ منهم وحَطّ مقاديرهم ، ويكتبون بذلك كُتباً ويبعثُونَ بها إلى الآفاق ليُعْمَل بمقتضاها ، غَضّاً منهـم وحَطّاً لقَدْرِهم ، ورِفْعةً لدين الإسـلام وتَشْرِيفاً لقَدْره ، إذ يقولُ تعـالىٰ : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

وهـذه نُسْخةُ كتَابٍ كُتِب به عن المتوكِّلِ على الله حين حَجّ ، سَمِع رجلاً يدعُو عليه ، فهَمّ بقَتْلِه ، فقال : واللهِ ياأمير المؤمنين ماقُلتُ ماقلتُ إلّا وقد أيقنتُ بالقَتْل ، فاسْمعْ مَقَالى ثم مُرْ بقتْلِي ، فقال : قُلْ ! ـ فشَكا إليه ٱستِطالةَ كُتّاب أهْلِ الذّمّة على المسـلمين فى كلام طويل ، فخرج أمْرُه بأن تَلْبَس النّصارىٰ واليهودُ ثيابَ العَسَلِيّ ، وأن لا يُمكَّنوا من لُبْس البيَاضِ كَىْ لا يتشبّهوا بالمسلمين ، وأن تكونَ رُكُبهم خشَباً ، وأن تُهـدَمَ بِيَعُهم المستجدّة ، وأن تُطْلَقَ عليهم الجزْيةُ ، ولا يُفسحَ لهم فى دخول حَمّاماتٍ خَدَمُها من أهْلِ الإسلام ، ولا يَسْتخدِمُوا مسلماً فى حوائجهم لنفوسهم ، وأفْرَدَهم بمن يحتسب عليهم . وقد ذكر أبو هِلالٍ العَسْكَرِىُّ فى كتابه "الأوائل" : أن المتوكّلَ أوّلُ من ألزمهم ذلك ، وهى :

أما بعـدُ، فإنَّ اللهَ اصطفى الإسلامَ دِينًا فشرَّفه وكرَّمه، وأناره ونضَّره وأظهره، وفضَّله وأكمله، فهو الدِّين الذى لا يَقْبلُ غيرَه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. بعث به صَـفِيَّه وخِيرَته من خَلْقه: محمدًا صلى الله عليه وسلم، فجعله خاتَمَ النَّبِيِّين، وإمامَ المُتَّقين، وسيِّدَ المرسلين: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وأنزل كِتَابًا: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. أسعد به أُمَّته، وجعلهم خَيْرَ أمَّةٍ أُخرجت للناس يأْمُرون بالمَعْروف ويَنْهَوْن عن المُنْكر ويؤمنون بالله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُـمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وأهان الشِّركَ وأهْلَه، ووَضَعهم وصغَّرهم وقَمَعهم وخذَلهم وتبرّأ منهم، وضَرَب عليهم الذِّلَّة والمَسْكنة، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. واطَّلع على قلوبهم، وخُبْث سَرائرِهم وضمائرهم، فنهى عن ائتمانهم، والثِّقة بهم: لعَداوتهم للمسلمين، وغِشِّهم وبَغْضائهم، فقال تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُـدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقال تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وقال تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد آنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أنّ أُناسًا لا رأى لهم ولا رويّة يستعينون بأهل الذّمة فى أفعالهم، ويتّخذونهم بطانةً من دون المسلمين، ويُسلّطونهم على الرّعيّة، فيَعْسِفُونهم ويَبْسُطون أيديَهم إلىٰ ظُلْمِهم وغِشّهم والعُدْوانِ عليهم . فأَعْظم أميرُ المؤمنين ذلك، وأنكره وأكْبره، وتبرّأ منه، وأحبّ التقرُّبَ إلى الله بحَسْمه والنّهيِ عنه؛ ورأىٰ أن يكتُبَ إلىٰ عُمّاله على الكُوَرِ والأمصارِ، ووُلاةِ الثّغور والأجْناد، فى ترْكِ آستعمالهم لأهلِ الذّمّة فى شيءٍ من أعمالهم وأُمورهم، والإشراكِ لهم فى أماناتهم، وما قلّدهم أميرُ المؤمنين وآستحفظهم إيّاه، إذ جعل فى المسلمين الثّقةَ فى الدّين، والأمانةَ علىٰ إخوانهم المؤمنين، وحُسْنَ الرِّعايةِ لما آسترعاهم، والكِفايةِ لما آستُكْفُوا، والقِيامِ بما حُمّلوا بما أغنىٰ عن الآستعانة [بأحد] من المشركين بالله، المكذِّبينَ برُسُله، الجاحدين لآياته، الجاعلين معه إلهًا آخر، ولا إله إلا هو وحْده لاشريكَ له، ورجا أميرُ المؤمنين ـ بما ألْهمَهُ اللهُ من ذلك، وقذفَ فى قلبه ـ جزيلَ الثّوابِ، وكريمَ المآب؛ واللهُ يُعينُ أميرَ المؤمنين علىٰ نيّتِه علىٰ تعزيزِ الإسلام وأهلِه، وإذلالِ الشِّرْك وحِزْبه .

فلتَعلَم هـذا من رأْيِ أمير المؤمنين، ولا تَسْتعِنْ بأحَدٍ من المشركين؛ وأنزل أهْلَ الذّمةِ منازلَهم التى أنزلهم اللهُ بها . فاقرأْ كتابَ أمير المؤمنين علىٰ أهْلِ أعمالِك وأشِعْهُ فيهم، ولا يعلَمْ أميرُ المؤمنين أنّك آستعَنْتَ ولا أحدٌ من عُمّالك وأعْوانِك بأحد من أهْلِ الذّمّة فى عَمَلِ الإسلام .

⁂

وفى أيام المُقْتدر بالله، فى سنة خَمْسٍ وتسعين ومائتين، عَزَلَ كُتّابَ النّصارَى وعُمّالَهم، وأمَر أن لايُستعانَ بأحَدٍ من أهْلِ الذّمة حتّى أمَر بقَتْلِ آبن ياسِر النّصرانىّ عامل يُونُس الحاجب، وكتَب إلىٰ عُمّاله بما نُسْختُه :

عوائدُ الله عنــد أمير المؤمنــين تُوفِى على غاية رِضاهُ ونِهايَةِ أمانيــه، وليس أحَدٌ يُظْهِرعِصْيانَه إلا جعله اللهُ عِظَةً للأنام، وبادَره بعاجِل الأصطلام : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ ﴾ . فمن نَكَثَ وطَغَىٰ وبَغَىٰ، وخالَفَ أميرَالمؤمنين، وخالَفَ محمدًا صلى الله عليه وسلم، وسَعىٰ فى إفسادِ دَوْلةِ أمير المؤمنين، عاجَلَه أميرُ المؤمنين بسَطْوَتِه وطَهَّر من رِجْسِه دَوْلَتَه ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقد أمَرَ أميرُالمؤمنين بتَرْكِ الأستعانة بأحَدٍ من أهلِ الذِّمة، فلْيَحْذَرِ العمالُ تجاوُزَ أوَامِرِ أمير المؤمنين ونَواهِيه .

وفى أيام الآمرِ بأحكام الله الفاطمىّ بالديار المصرية، آمتدّتْ أيْدِى النَّصارىٰ، وبَسطُوا أيْدِيَهم بالخِيانة، وتَفَنَّنوا فى أذَى المسلمين وإيصال المَضَرة إليهم . وآسْتُعْمِل منهم كاتبٌ يعرَف بالرّاهب، ولُقِّب بالأبِ القِدِّيس، الرُّوحانىّ النَّفيس، أبى الآباء، وسَيِّدِ الرُّؤساء، مقدَّمِ دِين النَّصْرانية، وسَيِّدِ البَتْرَكيَّة، صَفِىِّ الرَّبِّ ومُخْتارِه، وثالث عشر الحَوارِيِّينَ . فصادر اللَّعينُ عامَّةَ مَن بالديار المصرية : من كاتِبٍ وحاكِمٍ وجُنْدِىٍّ وعامِلٍ وتاجِرٍ، وآمتدّت يَدُه إلى النَّاس على آختلاف طبقاتهم . نخوّفه بعضُ مَشايخ الكُتَّاب من خَالِقِه وباعِثِه ومُحاسِبِه، وحَذَّره من سُوءِ عواقِبِ أفعاله، وأشار عليه بتَرْك مايكونُ سَبَبا لهلاكه . وكان جماعةٌ من كُتَّاب مِصْروقِبْطِها فى مَجْلِسه، فقال مُخاطِبًا له ومُسْمِعًا للجماعة : نحنُ مُلّاكُ هـذه الدِّيار حَرْثا وخَراجًا، مَلَكَها المسلمونَ منّا، وتغلَّبُوا عليها وغَصَبُوها، وآستملكوها من أيدينا، فنَحْنُ مَهْما فعلنا بالمسلمين فهو قُبالَةَ ما فَعَلُوا بنا، ولا يكونُ له نِسْبةٌ إلى من قُتِل من رُؤَسائنا ومُلُوكنا فى أيام الفُتُوح، فجميعُ ما نأخُذُه من أموالِ المسلمين وأموال

مُلُوكِهم وخُلَفائِهم حِلٌّ لنا ، وهو بَعْضُ ما نَسْتحِقُّه عليهم ؛ فإذا حَمَلنا لهم مالًا كانت المِنَّةُ لنا عليهم ، وأنشد :

بِنْتُ كَرْمٍ يَتَّمُوها أُمَّها * وأهانُوها فَدِيسَتْ بالقَدَم
ثُمّ عادُوا حَكَّمُوها بَيْنَهُمْ * وَيْلَهُمْ من فِعْلِ مظْلومٍ حَكَمْ

فاستحسن الحاضرون من النَّصارىٰ والمُنافِقين ماسَمِعُوه منه ، وٱستعادُوه ، وعَضُّوا عليه بالنَّواجِذ ، حتّى قيل : إنَّ الذى ٱحتاط عليه قَلَمُ اللَّعينِ من أملاك المسلمين مائتا ألفٍ وٱثنان وسبعون ألفًا ، ومائتا دَارٍ وحَانُوتٍ وأَرْضٍ بأعمال الدَّوْلة ، إلى أن أعادها إلى أصحابها أبُو علىٍّ بن الأفضل ؛ ومن الأموال ما لا يُحْصيه إلا الله تعالىٰ .

ثم ٱنْتَبه من رَقْدَته ، وأفاقَ من سَكْرته ، وأدركَتْه الحَمِيَّةُ الإسلاميه ، والغَيرةُ المحمَّديَّه ؛ فغَضِب لله غَضْبَة ناصرٍ للدِّين ، وثَائِرٍ للمسلمين ؛ فألبس أهلَ الذِّمَّة الغِيار ، وأنزلهم بالمَنْزِلة التى أمر الله أن يُنْزَلوا بها من الذُّل والصَّغار ، وأمر أن لا يُوَلَّوْا شيئًا من أعمال الإسلام ، وأن يُنْشَأَ فى ذلك كتابٌ يَقِفُ عليه الخاصُّ والعامّ .

وهذه نُسْخَتُه :

الحمدُ لله المعبودِ فى أرْضِه وسمائِه ، والمُجِيبِ دعاءَ من يَدْعُو بأسمائه ؛ المُنْفرِدِ بالقُدْرة الباهره ، المتوحِّد بالقُوَّة الظاهره ، وهو اللهُ الذى لا إله إلا هو له الحمدُ فى الأُولىٰ والآخره ؛ هَدَىٰ العِبادَ بالإيمان إلى سَبِيل الرَّشاد ، ووفَّقهم فى الطاعات لما هو أنفعُ زادٍ فى المَعَاد ؛ وتفرَّد بعِلْمِ الغُيُوب فعَلِمَ من كلِّ عبْدٍ إضْمارَه كما عَلِمَ تَصْرِيحَه ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَه ﴾ . الذى شرَّف دِينَ الإسلام وعَظَّمه ، وقَضَىٰ بالسعادة الأبديَّة لمن ٱنتحاه ويَمَّمه ، وفَضَّله على كلِّ شَرْعٍ سَبَقه وعلى كلِّ دينٍ تقدَّمه ؛ فنصره وخذَلها ، وأشادَه

وأخملها، ورفعه ووضعها، وأطّده وضعضعها، وأبى أن يقبل دينًا سواه من الأوّلين والآخرين، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وشهد به بنفسه، وأشهد به ملائكته وأولى العلم الذين هم خلاصة الأنام، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ولمّا ارتضاه لعباده وأتمّ به نعمته، أكمله لهم وأظهره على الدّين كلّه وأوضحه إيضاحًا مبينا، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وفرّق به بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الهدى والضّلال، وأهل البغى والرّشاد، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وأمر تعالى بالثّبات عليه إلى الممات فقال وبقوله يهتدى المهتدون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. وهى وصيّة إمام الحنفاء لبنيه وإسرائيل: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وشهد على الحواريّين عبدالله ورسوله وكلمته عيسى بن مريم وهو الشّاهد الأمين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وأمر تعالىٰ رسولَه أن يدعُوَ أهلَ الكتاب إليه، ويُشْهِدَ من تولَّى منهم بأنَّه عليه؛ فقال تعالىٰ وقولُه الحقُّ المُبين : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْـلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَـةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وصلَّى اللهُ على الذى رفَعه باصْطفائِه إلىٰ محلِّه المُنيف ، وبعثه للناس كافَّةً بالدِّينِ القيِّم الحنيف .

أما بعـدُ ، فإن الله سبحانه ببالغ حِكْمته ، وتتابُع نِعْمته ، شرَّف دينَ الإسلامِ وطَهَّره من الأدْناس، وجعلَ أهْلَه خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَتْ للناس؛ فالإسلامُ الدِّينُ القويمُ الذى اصطفاه اللهُ من الأديان لنَفْسِه، وجعلَه دينَ أنبيائه ورُسُلِه وملائكةِ قُدْسِه؛ فارْتضاه واخْتاره، وجعلَ خيرَ عبادِه وخاصَّتَهم هم أولياءَه وأنْصارَه؛ يحافِظُون علىٰ حُدُوده ويُثابِرُون، ويَدْعُون إليـه ويذكِّرون، ويَخافُونَ ربَّهمْ مِن فَوْقِهِمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، فهم بآيات ربِّهـم يُؤْمِنون، وإلىٰ مَرْضاته يُسارِعون؛ ولمن خرَج عن دينِـه مُجاهِدُون، ولعباده بجُهْدِهم ينْصَحون، وعلىٰ طاعَتِه مثابِرُون، وعلىٰ صَلَوَاتِهِم يُحافظُون، وعلىٰ ربِّهم يتوكَّلون، وبالآخرة هم يُوقِنُون : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هـذا وإن أمَّةً لله هداها إلىٰ دينِه القَويم ، وجعلها ـ دُون الأُمَم الجاحدة ـ علىٰ صِراطٍ مُسْتقيم، تُوفِى من الأُمَم سبعين، هم خيرُها وأكرمُها علىٰ ربِّ العالمين ـ حَقِيقةٌ بأن لا توالِىَ من الأمم سواها، ولا تَستعينَ بمَن حادَّ اللهَ خالقَه ورازِقَه وعبدَ من دُونه إلهـا، وكذَّب رُسُلَه ، وعصىٰ أمْرَه واتَّبع غيرَ سَبِيلِه ، واتَّخذَ الشَّيْطانَ وَلِيًّا من دُونِ اللهِ؛ ومعلومٌ أن اليهودَ والنَّصارىٰ موْسومُون بغَضَبِ الله ولَعْنَتِه ، والشِّرْكِ به والجَحْد

لوحدانيته ، وقد فرض الله علىٰ عباده فى جميع صلواتهم أن يسألوا هداية سبيل الذين أنعم الله عليهم : من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، ويجنبهم سبيل الذين أبعدهم من رحمته ، وطردهم عن جنته ، فباءوا بغضبه ولعنته : من المغضوب عليهم والضالين .

فالأمة الغضبية هم اليهودُ بنص القرآن ، وأمة الضلال هم النصارىٰ المثلثة عُبّادُ الصلبان ، وقد أخبر تعالىٰ عن اليهود بأنهم بالذلة والمسكنة والغضب موسومون ، فقال تعالىٰ : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ .

وأخبر بأنهم باءوا بغضب علىٰ غضب وذلك جزاء المفترين ، فقال : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .

وأخبر سبحانه أنه لعنهم ولا أصدق من الله قيلاً ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ .

وحكم سبحانه بينهم وبين المسلمين حكماً ترتضيه العقول ، ويتلقاه كلُّ منصف بالإذعان والقبول ، فقال : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ .

وأخبر عمّا أحلّ بهم من العُقُوبة التى صاروا بها مثلًا فى العالَمين، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

ثم حكَم عليهم حُكْمًا مُسْتمرًّا عليهم فى الذّرارىّ والأعْقاب، على ممرّ السنين والأحْقاب، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾. فكان هذا العذابُ فى الدُّنيا بعضَ الاستحقاق: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾. وأنهم أنجسُ الأمَم قلوبًا وأخبثُهم طَوِيّةً، وأرداهم سَجِيّةً، وأولاهم بالعذاب الأليم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وأنهم أُمّةُ الخيانة لله ورسوله ودينه وكتابه وعباده المؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأخبر عن سُوءِ مايَسْمعون ويَقْبلون، وخُبْث ما يأكلون ويحكمون، فقال تعالىٰ: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

وأخبر تعالىٰ أنه لَعَنهم على ألسنة أنبيائه ورُسُله بما كانوا يكسبون، فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

وقطعَ المُوالاةَ بين اليهودِ والنَّصارىٰ وبين المُؤْمنين، وأخبر أنَّ من تولَّاهم فإنه منهم فى حُكْمه المبين، فقال تعالىٰ وهو أصْدَق القائلين: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وأخبر عن حالِ مُتَوَلِّيهم بما فى قَلْبِه من المَرَض المؤدِّى إلىٰ فساد العَقْلِ والدِّين، فقال: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ .

ثم أخْبَرَ عن حُبُوط أعْمالِ مُتَوَلِّيهم ليكون المؤمنُ لذلك من الحَذِرين، فقال: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

ونهىٰ المُؤْمنين عن اتِّخاذ أعدائه أوْلياءَ، وقد كفروا بالحقِّ الذى جاءهم من ربِّهم، وإنهم لايمتنعون من سُوءٍ ينالُونَهم به بأيديهم وألسنتهم إذا قَدَرُوا عليه فقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

وجعل سبحانه لعباده المسلمين أُسوةً حَسَنَةً فى إمام الحُنَفاءِ ومَن معه من المؤمنين، إذْ تبرأ ممَّن ليس علىٰ دينهم امتثالا لأمر الله، وإيثاراً لمَرْضاته وما عنده،

فقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ . وتبرأ سبحانه ممن اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

فمن ضُروب الطاعات إهانتُهم فى الدُّنيا قبل الآخرة التى هم إليها صائرون ، ومن حُقُوق الله الواجبة أخْذُ جِزْيَةِ رُءُوسِهم التى يُعْطُونها عن يَدٍ وهُمْ صاغِرُون ؛ ومن الأحكام الدِّينية أن يُعَمَّ جميعُ الأمَّةِ إلا مَن لا تجبُ عليه باستخراجها ، وأنْ يُعتَمَدَ فى ذلك سلوكُ سَبِيلِ السُّنَّة المحمَّديةِ ومِنْهاجِها ، وأن لا يُسامَحَ بها أحدٌ منهم ولو كان فى قَوْمِه عظيما ، وأن لا يُقْبَلَ إرسالُه بها ولو كان فيهم زَعِيما ؛ وأن لا يُحِيلَ بها علىٰ أحدٍ من المسلمين ، ولا يُوَكِّلَ فى إخراجها عنه أحدًا من الموحِّدين ؛ بلْ تُؤْخَذُ منه علىٰ وَجْهِ الذِّلَّة والصَّغار ، إعْزازًا للإسلام وأهْلِه وإذلالًا لطائفة الكُفَّار ؛ وأن تُسْتَوْفَىٰ من جميعهم حقَّ الاسْتِيفاء ، وأهْلُ خَيْبَرَ وغيرُهم فى ذلك على السَّواء .

وأمَّا ما ادَّعاه الجَبابِرةُ من وَضْعِ الجِزْيةِ عنهم بعَهْدٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّ ذلك زُورٌ وبُهْتان ، وكَذِبٌ ظاهِرٌ يعرِفُه أهلُ العِلْمِ والإيمان ؛ لَفَقَه القَوْمُ البُهْتُ وزَوَّرُوه ، ووضَعُوه من تِلْقاءِ أنفسهم ونَمَّقُوه ؛ وظَنُّوا أن ذلك يخفَىٰ على الناقدين ؛ أو يَرُوجُ علىٰ علماء المسلمين ؛ ويأبَى اللهُ إلَّا أن يكشفَ مُحالَ المُبطلين ، وإفْكَ المُفْتَرِين ؛ وقد تظاهرت السُّنَنُ وصحَّ الخبرُ بأن خَيْبَرَ فتحتْ عَنْوَةً ، وأوْجَف عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على إجلائهم عنها كما أجْلَى إخوانَهم من أهْلِ الكِتَاب ، فلمَّا ذَكَرُوا أنهم أعْرَفُ بسَقْيِ نَخْلِها ومَصالحِ أرضِها ، أقرَّهم فيها

كالأُجَراءِ وجعل لهم نِصْفَ الآرْتِفاع، وكان ذلك شَرْطًا مُبِينا، وقال: «نُقِرُّكُم فِيهَا مَاشِئْنَا»، فأقرّ بذلك الجبابِرَةُ صاغرين، وأقاموا علىٰ هذا الشَّرط فى الأرض عَامِلِين؛ ولم يكنْ للقوْم من الذّمام والحُرْمَه، ما يُوجِبُ إسقاطَ الجِزْية عنهم دُون مَن عداهم من أهْلِ الذِّمَّه، وكيف؟ وفى الكِتَاب المَشْحون بالكَذِب والمَيْن، شهادةُ سَعْدِ آبن مُعَاذٍ وكان قد تُوُفِّىَ قبلَ ذلك بأكثر من سَنَتَيْن، وشهادةُ مُعاويةَ بنِ أبِى سُفْيان، وإنّما أسلَم عام الفَتْح بعد خَيْبَر سنةَ ثمَان؛ وفى الكِتَاب المَكْذُوب أنه أسقطَ عنهم الكُلَف والسُّخَر، ولم تكنْ علىٰ زمانِ خُلَفائِه الذين سارُوا فى الناس أحْسَنَ السِّيَر.

ولما آتَّسعتْ رُقْعةُ الإسلام، ودخل فيه الخاصُّ والعام، وكان فى المسلمين مَن يقوم بعَمَلِ الأرض وسَقْىِ النَّخْل، أجلَىٰ عمرُ بنُ الخطَّابِ اليهودَ من خَيْبَرَ بَلْ من جَزِيرة العَرَب حتَّى [قال]: لا أدَعُ فيها إلا مُسْلِماً.

⁂

وفى شهر رجب سنة سبعمائة وصل إلىٰ القاهرةِ المحروسةِ وَزِيرُ صاحبِ المَغْرِب حَاجًّا، فآجتمع بالمَلِك النَّاصِر «محمد بن قلاوون» ونائبُه يومئذ الأميرُ سلار، فتحدّث الوزيرُ معــه ومع الأمير بِيبَرْس الجاشَنْكِير فى أمر اليَهُود والنَّصارَى، وأنهم عندهم فى غاية الذِّلَّة والهَوَان، وأنهم لا يُمكّن أحدٌ منهم من رُكُوب الخَيْلِ ولا الآستِخْدام فى الجِهَاتِ الدِّيوانية، وأنكر حالَ نَصارَى الدِّيار المِصْرية ويَهُودها بسبب لُبْسهم أفْخَر الملابِس، ورُكُوبِهم الخَيْــلَ والبِغالَ، وآستخدامهم فى أجلّ المناصب، وتَحْكيمهم فى رِقابِ المســلمين؛ وذكر أن عَهْــد ذِمَّتِهم آنقضَىٰ من سنة ستمــائة من الهِجْرة النَّبوِيَّة، فأثَّر كلامُه عند أهْلِ الدَّولة، لاسيَّمــا الأميرُ بِيبَرْس الجَاشَنْكِير؛ فأمَر بجمع النصارىٰ واليهود، ورَسَم أن لا يُسْتخدَم أحدٌ منهم فى الجهات السلطانية، ولا عند

الأَمَراء ، وأن تُغيِّر عمائمُهم : فيلبس النَّصارَى العمائمَ الزُّرق ، وتُشَدُّ فى أوساطهم الزنانيرُ، ويَلْبَس اليهودُ العمائمَ الصُّفْرَ ويدقوا (١) فى البيع فى إبْطال ذلك فلم يُقْبَلْ منهم ، وغُلِّقت الكنائسُ بمصر والقاهرة ، وسُمِّرتْ أبوابُها ، ففُعل بهم ذلك ، وأُلْزِمُوا بأن لا يركَبُوا إلا الحَمير ، وأن يَلُفَّ أحدُهم إحدَىٰ رِجْلَيْه إذا رَكب ، وأن يقَصِّر بنيانُهم المجاورُ للمسلمين عن بناء المُسْلم . وكُتِب بذلك إلىٰ جميع الأعمال ليُعْمَلَ بمقتضاه ، وأسلَمَ بسَبَبِ ذلك كثيرٌ منهم ؛ وأُلْبِسَ أهلُ الذِّمة بالشام : النَّصارَى الأزرق ، واليهودُ الأصْفر، والسامِرَةُ الأحمر .

ثم عادُوا إلى المباشرات بعد ذلك ، فانتدبَ السلطانُ المَلِكُ «الصالحُ صالح» ابن الملك الناصر فى سنة خمسٍ وخمسين وسبعمائة لمَنْعِهم من ذلك ، وألزمَهم بالشروط العُمَرِيَّة ، وكتب بذلك مَرْسومًا شريفًا وبعث بنُسْختِه إلى الأعمال فقُرِئَتْ علىٰ مَنابِر الجوامع .

وهذه نُسختُه ــ صورةُ مافى الطُّرَّة :

«مَرْسومٌ شريفٌ بأن يَعْتَمِدَ جميعُ طوائف اليَهُود والنَّصارَىٰ والسَّامِرَة : بالديار المصرية ، والبلاد الإسلامية المحروسة وأعمالها ، حُكْمَ عَهْد أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه ، لمن مضىٰ من أهْلِ مِلَّتِهم : وهو أن لا يُحدِثُوا فى البلاد الإسلامية دَيْرا ولا كنيسةً ولا صَوْمَعَةَ راهبٍ، ولا يُجدِّدُوا ما خَرِبَ منها، ولا يُؤْوُا جاسُوسًا ولا مَن فيه ريبةٌ لأهْلِ الإسلام ، ولا يكْتُموا غِشًّا للمسلمين، ولا يعلِّموا أولادَهم القرآنَ، ولا يُظهِرُوا شِرْكًا، ولا يَمْنَعُوا ذَوِى قَرابةٍ من الإسلام إن أرادُوه ، ولا يتشبَّهوا بالمسلمين فى لِباسهم ؛ ويلبَسُون الغيارَ الأزْرق والأصْفَر، وتُمنع نِساؤُهم

(١) بياض فى الأصل فى غير نسخة والكلام غير ملتئم ولعل الأصل « العمائم الصفر فبالغوا فى السعى فى إبطال ذلك» الخ .

من التَّشبُّه بنساء المسلمين ، ولا يركبوا سَرْجًا ، ولا يتقلَّدوا سيفًا ، ولا يركبوا الخيلَ ولا البِغال ، ويركبون الحَميرَ بالأُكُف عَرْضًا ، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يلزموا زِيَّهم حيثُ كانوا ، ويشُدُّوا زَنانيرهم غيرَ الحريرِ علىٰ أوساطهم ؛ والمرأةُ البارزةُ من النصارىٰ تلبَسُ الإزارَ الكَتَّانَ المصبوغَ أزرق ، واليَهوديةُ الإزارَ الأصفر ؛ ولا يدخُلُ أحدٌ منهم الحَمَّامَ إلا بعلامةٍ تُميِّزه عن المسلمين فى عُنُقه : من خاتمِ حديدٍ أو رَصاصٍ أو غير ذلك ؛ ولا يَعلوا على المسلمين فى البِناءِ ولا يُساوُوهم ، بل يكونون أدْوَنَ منهم ؛ ولا يضربُوا بالناقوس إلا ضَرْبًا خفيفًا ، ولا يرفعُوا أصواتَهم فى كنائسِهم ، ولا يَخْدُمُوا فى دولتنا الشريفة ـ ثَبَّتَ الله قواعدها ـ ولا عنـد أحَدٍ من أمرائها ـ أعزَّهم الله تعالىٰ ـ ولا يَلُوا وَظيفةً يَعلُو أمرُهم فيها علىٰ أحدٍ من المسلمين ؛ وأن يُحمَلَ الأمرُ فى مواريث مَوْتاهم علىٰ حُكْم الشريعةِ الشريفةِ المحمَّديَّة ، وتوقع عليهم الحَوْطَةُ الدِّيوانيةُ أُسْوة مَوْتَى المسلمين ؛ وأن لا يدخلَ نِسْوةُ أهلِ الذِّمة الحَمَّاماتِ مع المسلمات ، ويُجْعلُ لهنّ حَمّاماتٌ تخصُّهنّ يَدْخُلْنَها ، عملًا فى ذلك بما رَجَّحَه علماءُ الشَّرعِ الشريف ، علىٰ ما شُرح فيه » .

ونصُّه بعد البَسْملة الشريفة .

الحمـدُ لله الذى بصَّر سلطانَنا الصَّالحَ ، باعتماد مَصالحِ الدِّين والدُّنيا ، ويَسَّر لرأْيِنا الراجحِ ، تَوفيرَ التَّوفيق إثباتًا ونفيًا ، وتحريرَ التَّحقيق أمْرًا ونَهْيا ؛ وقَهر بأحكامِ الإسلامِ ، من رام نَكْثَ العَهْد ونَقْض الذِّمام ، بتَعدِّى الحُدودِ عُدْوانًا وبَغْيا ، وجَسَر علىٰ اقتحام ذُنوبٍ عِظَامٍ ، تُحِلُّ به فى الدَّارين عذابًا وخِزْيا ، وتكَفَّل للأمّة المحمَّدية فى الأولىٰ والأُخرىٰ بالسعادة السَّرْمديَّة التى لا تتناهىٰ ولا تتغيا ، وجعـلَ كلمةَ الذين كفروا السُّفلىٰ وكلمةَ الله هى العُلْيا .

نحمده أن أصحب فكرنا رشدًا وأذهب بأمرنا غيًا ، ونشكره على أن جبر بأحكام العدل للإيمان وهنًا وآثر لذوى البهتان بالانتقام وهيا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحدٌ أحد، فردٌ صمد، خلق ورزق وأنشأ وأفنى وأمات وأحيا، وتقدّس وتمجّد عن الصّاحبة والولد، وأوجد عيسى بن مريم كما أوجد آدم ولم يكن شيئا وجعله عبدًا صالحًا نبيًّا زكيًّا، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى أنزل عليه مع الرّوح الأمين قرآنًا ووحيًا ، واستأصل به شأفة الكفّار وأزل بهم من الأخطار الداهية الدّهيا، واتّبع ملّة أبيه إبراهيم الذى أرى الصّدق وصدق الرّؤيا، وجمع الله به الشّتات فهدى قلوبًا غلفًا وأسماعًا صمًّا وأبصارًا عميا، وبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمّة فبشرى لمن وفّق من أمّته فرزق لحكمته وعيا، ورفع الضلالة، وردّ الضالّة، وأجمل للعهد حفظًا وللذّمام رعيا ، ونسخت شريعته الشرائع ، وسدّت الذّرائع ، وشمخت على النّجوم الطوالع ، فهى أسمى منها رفعة وأنمى عددا وأسنى هديا ، صلّى الله عليه وعلى آله فروع الزّهراء الذين عنوا بقوله تعالى : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنّه حميد مجيد ﴾ أمرع سقيا ، خصوصًا صدّيقه ورفيقه فى الممات وفى المحيا ، ومن استخلفه فى الصّلاة عنه إشارةً إلى أنه أحقّ لرتبة الخلافة بالرّقيا، ومن فرق منه الشّيطان ووافق الفرقان له رأيا ، ويسّر الله تعالى فى أيّامه المباركة من الفتوحات ما لا اتّفق لغيره ولا تهيّا ، وذا النّورين الذى قطع الليل تسبيحًا وقرآنًا وأحيا، واستحيت منه ملائكة السماء لمّا من الله استحيا ، وعلى الصّهر وابن العمّ المجاهد الزّاهد الذى طلّق ثلاثًا الدّار الفانية التى ليس لها بقيا، وسرّه لمّا قضى على الرّضا نحبه ، فوجد الأحبّة : محمدًا وحزبه ، وحمد اللّحاق واللّقيا ، وعلى تتمّة بقيّة العشرة الأبرار ، وبقيّة المهاجرين

والأنصار، رحمةً تُديم لمضاجعهم صَوْبها الدّارَ السُّقْيا، صلاةً وافرةَ الأقسامِ سافرةَ القَسِماتِ باهِرةَ المُحَيّا، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ، فأحكامُ الشّرعِ الشريفِ أَوْلى بوجوب الاتّباع، وذِمامُ الدّينِ الحَنيف يُبِيرُ من عَصَى ويُجيرُ من أطاع، وحُرماتُ المِلّةِ المحمّديّةِ أحقّ بأن تحفَظَ فلا تُضاع؛ ومن المهمّاتِ التي تُصْرَف إليها الهِمَّه، ويُرْهَف لها حَدُّ العَزْمه، وتُقامُ على متعدّى حُدُودِها بالانتقام الجزيه؛ اعتبارُ أحْوالِ المِلّتينِ من أهْلِ الذِّمّة الذين حَقَن منهم الدِّماءَ حُكْمُ الإسلام، وسكّن عنهم الدَّهْماءَ ما التزموه من الأحكام، مع القيام بالجِزْية في كلّ عام، وسلّموا لأوامرِ الشّريعةِ المطَهَّرةِ التي لولا الانقيادُ إليها والاستسلام، لأُغْمِدَ في نُحُورِهم حَدُّ الحُسَام. فهم تحتَ قَهْرِ سلطانِ الإيمانِ سائِرُون، ولأمرِ دينِ الحقِّ الذي نَسَخ اللهُ تعالى به الأَدْيانَ صائِرُون، وهم المَعْنِيُّون بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

ولمّا فتح اللهُ تعالى ببركة سيّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ما فُتِح من البلاد، واسترجَع بأيدي المهاجرين والأنصارِ من أيْدي الكُفّار العَادِيَةِ كثيراً من الأمصار والبلاد؛ وأكثرُ ذلك في خلافةِ أمير المؤمنين «عُمَرَ بنِ الخطّاب» رضي الله عنه، فإنها كانت للفتحِ مَواسِم، وبالمَنْحِ بَواسِم؛ وتظافَرتْ فيها للمسلمين غَرائزُ العزائم، التي أعادَتْ هَزَاهِزُها الكُفّارَ يجرّون ذُيولَ الهزائم ـ عقَدَ أمراؤه الفاتحونَ لها بأمْرِه ـ رضي الله عنه وعنهم ـ لأهْلِ الكِتَاب عَهْداً، وحدُّوا لهم من الآداب حَدّاً لا يجوزُ أن يتَعدّى؛ ولم تزل الخلفاءُ بعد ذلك والملوكُ في جميع بلادِ الإسلام يُجدّدُونها، وبالمحافظة والملاحظة يتعَهّدونها؛ وآخِرُ من ألزمهم أحكامَها العادلَه،

وعَصَمَهم بذِمَّتِها التى هى لهم ما آستقاموا بالسَّلامة كافله ؛ والدُنا السلطانُ الشَّهيد «الملك الناصر» ناصرُ الدُّنيا والدِّين، سَقَى اللهُ تعالىٰ عَهْدَه عِهادَ الرَّحْمه، ولَقَّىٰ نفسَه الخيرَ لنُصْحِه الأمَّه؛ فإنه ـ قدّس اللهُ رُوحَه ـ جدّد لهم فى سنة سبعمائة لِباسَ الغِيار، وشدّد عليهم بَأْسَ النَّكالِ والإنكار، وعقد لهم ذِمَّة بها الأعْتِبار، وسَطَّر فى الصحائف منهـا شُروطًا لهم بالتزامها إقْرار، وبأحكامها أمكنهم فى دار الإسـلام الأستقرار ؛ وخذل الفِئتَين المُفْترِيَتَيْن عملًا بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

ولمّـا طال عليهـم الأمَدُ تمـادَوْا علىٰ الأغْترار ، وتَعَـادَوْا إلىٰ الضرِّ والإضرار ؛ وتدرّجوا بالتكبر والأسـتكبار ، إلىٰ أن أظهروا التزيُّن أعْظمَ إظهار ، وخرجوا عن المَعهُود فى تَحْسـينِ الزُّنَّار والشِّعار ، وعَتَوْا فى البـلاد والأمصار ، وأتَوْا من الفَسادِ بأمورٍ لا تُطاقُ كِبار .

ولمـا وَضَح عنـدنا منهم الأستمرارُ علىٰ ذلك والإصْرار، أنكرنا عليهم أشَدَّ إنْكار، ورأينا أن نَتَّبع فيهم ما أمر اللهُ تعالىٰ به فى الكِتَاب والسُّنَّه ، وأبيْنا [إلا معاملتهم] بأحكام المِلَّة المحمَّديَّة التى كم لها علىٰ المِلَّتين العِيسَوِيَّة والمُوسَوِيَّة من مِنَّه ، وادَّخر الله تعالىٰ لنا هذه الحَسَنةَ التى هى من جملة الفتوحات التى يفتحُ الله تعالىٰ بها لنا فى الدُّنيا أبْوابَ السَّعادةِ وفى الآخرةِ أبوابَ الجنَّه ؛ فاسْتفْتَينا فى أمرهم المجالسَ العاليةَ حُكَّامَ الشَّريعـة المطَهَّره ، وآقتدَينا بأقوالِ مذاهبهـم المحرَّره ، التى لنـا بهَدْيِها إلىٰ إصابة الصَّواب تَبْصِره؛ وعَقَدْنا لهم مجلِسًا بدار عَدْلنـا الشريف ، وألزمناهم أحْكامَ أهْـل الذِّمَّة التى بالتزام أوائِلهم لهـا جَرَىٰ عليهم حُكْمُ هـذا التَّكْليف ؛ وأخذناهم بالعَهْد الذى نَسُوه ، وألبسناهم ثَوْبَ الهَوانِ الذى لَبِسُوا [و] لمـا طال عليهم الزمانُ نزعوه ولم يَلْبَسُوه؛ وأجْرينا عليهم الآنَ شروطَه المَضْبُوطَه ، وقوانِينَه التى هى من التبْديل

والتَّغْيير مَحُوطَه ؛ فمن جاوزها ، فقد شاقَّ الشَّريعةَ الشريفةَ وبارَزَها ؛ ومن خالفها ، فقد عاند المِلَّة الإسلاميَّةَ وواقَفَها ؛ ومن صَدَف عن سُبُلها وتَنكَّبها ، فقد آقترف الجائر وآرْتَكبها ؛ وحظرنا عليهم أن يجعل أحَدٌ منهم له بالمسلمين شَبَها ، وصيَّرنا عليهم الذِّلَّة التى ضربها اللهُ تعالىٰ عليهم وأوْجَبها .

فلذلك رسم بالأمرِ الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ ، الصَّالحىّ ، الصَّلاحىّ ـ لا زال أمرُه الممتثَل المُطاع ، وزجْرُه به عن المآثم آمتناعٌ وآرْتِداع ، ورأيُه الصالحُ يريدُ الإصلاح ما آستطاع ـ أن يَعْتمِدَ جميعُ طوائفِ النَّصارىٰ واليَهُودِ والسَّامِرَةِ بالديار المصرية وجميع بلاد الإسلامِ المحروسةِ وأعمالها : من سائرِ الأقطار والآفاقِ ، ما أُخِذ علىٰ سالفيهم فى عَهْدِ أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه من أكيد العهْد ووَثِيق المِيثاقِ :

وهو أن لا يُحْدِثوا فى البلاد الإسلامية وأعمالها دَيْرًا ولا كنيسةً ولا قَلَّايَةً ولا صَوْمَعَةَ راهبٍ ، ولا يُجَدِّدوا فيها ما خَرِب منها ، ولا يمنعوا كَنائِسَهم التى عُوهِدُوا عليها ، وثَبتَ عَهْدُهم لديها ، أن ينزلها أحَدٌ من المسلمين ثلاثَ ليالٍ يُطعِمُونهم ، ولا يُؤوا جاسُوسًا ولا مَنْ فيه رِيبَةٌ لأهل الإسلام ، ولا يكْتُمُوا غشًّا للمسلمين ، ولا يُعلِّموا أولادهم القُرآنَ ، ولا يُظْهِروا شِرْكًا ، ولا يمنعُوا ذَوِى قرابة من الإسلام إن أرادُوه ، وإن أسلم أحدٌ منهم لا يُؤْذُوه ولا يُساكِنُوه ، وأن يُوقِّروا المسلمين ، وأن يقومُوا من مجالِسِهم إن أرادُوا الجلوسَ ، وأن لا يتَشبَّهوا بشَىءٍ من المسلمين فى لِباسهم قَلَنْسُوَةً ولا عِمامةً ولا نَعْلينِ ولا فَرْقَ شَعْر ، بل يلبَسُ النَّصرانىُّ منهم العِمامةَ الزَّرقاء عَشَرة أذْرُعٍ غير الشعرى (؟) فما دونها ، واليهودىُّ العمامةَ الصَّفراءَ كذلك ، وتُمنع نِساؤُهم من التَّشبُّه بنساء المسلمين ولُبْس العمائم ، ولا يَتَسَمَّوْا بأسماء

المسلمين، ولا يتكنّوا بكُناهم ، ولا يتلقّبوا بألقابهم، ولا يركبوا سرجًا، ولا يتقلّدوا سيفًا ، ولا يركبُوا الخيـل ولا البغال، ويركبون الحمير بالأُكُف عَرْضًا من غير تزيّن ولا قيمة عظيمة لها، ولا يتخذوا شيئًا من السلاح، ولا يَنْقُشوا خواتيمهم بالعربية، ولا يبيعوا الخمور ، وأن يجُزّوا مقادم رُءوسهم ، وأن يلزموا زيّهـم حيثُ ما كانوا ، ويشـدّوا زنانيرهم غير الحرير على أوساطهـم ؛ والمرأةُ البـارزة من النصارى تلبَسُ الإزار الكتّان المَصْبوغ أزرق ، واليهودية الإزار المصبوغ أصـفر؛ ولا يدخلَ أحدٌ منهم الحمّام إلا بعلامة تميّزه عن المسـلمين فى عُنُقه : من خاتم نُحاس أو رَصاص أو جَرَس أو غير ذلك، ولا يستخدمُوا مسلمـًا فى أعمالهم؛ وتلبَس المرأة البارزةُ منهم خُفّين : أحدُهما أسودُ، والآخرُ أبيض، ولا يجاوِرُوا المسلمين بموتاهُم، ولا يرفعوا بناءَ قُبورهم ، ولا يعلُوا على المسلمين فى البناء ، ولا يُساوُوهم ، ولا يتحيّلُوا على ذلك بحيـلة ، بل يكونون أدونَ من ذلك ، ولا يضربُوا بالناقوس إلا ضربا خفيفـا، ولا يرفعُوا أصواتَهـم فى كنائسهم ، ولا يُخرجُوا شعانين ، ولا يرفعوا أصواتهـم على موتاهُم، ولا يُظهروا النيران، ولا يشتروُا مُسلمًا من الرّقيق ولا مُسلمةً، ولا من جرتْ عليه سِهامُ المسلمين، ولا من منشؤه مُسلم؛ ولا يُهوّدوا ولا يُنصّروا رقيقًا، ويجتنبون أوساطَ الطريق توسعةً للسلمين، ولا يَفتِنوا مسلمًا عن دينه، ولا يدُلّوا على عورات المسلمين . ومن زنى بمُسلمة قُتِـل، ولا يضعُوا أيديهـم على أراض مَوات للسلمين ولا غير موات ولا مُزدرع، ولا ينسُبوه لصَوْمَعة ولا كَنيسة ولا دَيْر ولا غير ذلك، ولا يشتروا شيئًا من الجَلَب الرقيق ولا يوكّلوا فيـه ، ولا يتحيّلُوا عليه بحيلة . ومتى خالفوا ذلك فقد حلّ منهم ما يحلّ من أهل النِّفاق والمُعانَدة .

وكذلك رسمنا أنّ كلّ مَن مات من اليهود والنّصارى والسّامرة: الذكور والإناث منهم يحتاط عليهـم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية وأعمـالهـا وسائر

البلاد الإسلاميَّة المحروسة ، إلىٰ أن تَثْبت وَرَثتُه ما يستحِقُّونه من ميراثه بمقتضى الشَّرْع الشريف ، وإذا أثبتوا ما يَستحِقُّونه يُعطونه بمُقْتضاه ، ويُحمَلُ ما فَضَل بعد ذلك لبَيْتِ المـال المعمور ، ومن مات منهم ولا وارِثَ له يَسْتوعِبُ ، حُمِلَ مَوْجوده لبَيْتِ المـال المعمور ، ويُجْرَوْنَ فى الحَوْطةِ علىٰ مَوْتاهُم من دَواوين المَوارِيث ووُكَلاءِ بَيْتِ المـال المعمور مُجْرىٰ من يموتُ من المسلمين : ليَتبيَّن أمرُ مواريثِهم ، ويُحمل الأمرُ فيها علىٰ حُكْم الشَّرع الشريف ، عمـلًا بالفتاوى الشَّرعيـة المتضمِّنة إجراءَ مواريثِ مَوْتاهُم علىٰ حُكْم الفَرائض الشَّرعية بحُكْم المِلَّة الاسلاميـَّة المحمَّديَّة : من إعطـاء كلِّ ذى فَرْضٍ وعَصَـبَةٍ ما يستحِقُّه شَرْعًا ، من غير مُخالَفـةٍ ولا آمتناع ، ولا مُوافَقَةٍ ولا دِفَاع ، فإنَّ ذلك مما يتعيَّنُ أن يكونَ له إلىٰ بَيْتِ المـال المعمور فيه إرجاع ؛ ولتعلُّقِ حقوق المؤمنين بذلك ، ولأنه بعيـد حيث تفيا إلىٰ المسلمين ما يَسْتحِقُّه بيتُ المـال من مال كلِّ هَالك ، ولأنَّا المطالِبُون بمـا يَئُولُ إلىٰ ميراثِ المسـلمين من تُراثِ أولَئـك ، لتكونَ هذه الحَسَنةُ فى صحائفنا مُسَطَّره ، وإن كانتِ الأيَّامُ قد تمـادتْ عليها ومَعْرِفَتُها نَكِرَه ، وتَعادتْ اليها أيْديهم العَادِيَةُ فآختَلَسَتْ من الذَّهبِ والفِضَّةِ القَناطِيرَ المقَنْطَره .

ورَسَمْنا أن لا يخدمَ نَصْرانِىٌّ ولا سَامِرِىٌّ ولا يَهودِىٌّ فى دَوْلتنا الشريفة ثَبَّتَ اللهُ قواعِدَها ، ولا فى دواوين الممالك المحروسة والأعمال ، ولا عِنـد أحدٍ من أُمرائنا أعزَّهم الله تعـالىٰ ، ولا يُبـاشِرُ أحدٌ منهـم وَكَالةً ولا أمَانَةً ، ولا ما فيه تَأَمُّرٌ علىٰ المسـلمين ، بحيثُ لا يكونُ لهم كلمةٌ يستَعْلُون بها علىٰ أحَدٍ من المسلمين فى أمْرٍ من الأمور ، فقـد حَرَّم اللهُ ذلك نَصًّا وتأويلا ، وضمَّنَ حُكْمَه فى الحال والآستقبال قُرآنًا وتَنْزِيلا ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وأوضحَ فى آجتنابهم للمتَّقين علم اليَقين ، فقال تعالىٰ : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا الَّذِينَ

آتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقد نهى اللهُ عن مُوالاتهم وأضاف بسُخْطه كلَّ خِزْيٍ إليهم ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقد أذلَّهم الله جلَّ وعزَّ لافترائهم واجترائهم من كتابه العزيز فى مواضع عِدّه ، فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ . فوجب أن لا يكونوا على الأعمال أَمَنَه ، ولا للأَمْوال خَزَنَه : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليهُودُ والنصارَىٰ خَوَنَه » . وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : « لا تَسْتَعْمِلُوا اليهودَ والنَّصارَىٰ فإنَّهم أهْلُ رُشًا فى دِينِهم ولا تَحِلُّ الرُّشا » فباعتزالهم واختزالهم يُؤْمَن من مَكْرِهم وخِيانَتِهم ما يُخْتَشَى .

ولما قدم عليه أبو مُوسى الأشْعرىّ من البَصْرة وكان عاملَه بها ، دخل عليه المَسْجِدَ ، واستأذن لكاتبه وكان نَصْرانيًا ، فقال له أميرُ المؤمنين عمرُ : ـ ولَّيْتَ ذِمّيًّا على المسلمين ، أما سمعتَ قولَ الله تعالىٰ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ هلَّا اتَّخذتَ حَنِيفيًّا ؟ ـ فقال يا أمير المؤمنين : لى كِتَابَتُه وله دِينُه ، فأنكر أميرُ المؤمنين عليه ذلك ، وقال : لا أُكْرِمُهم إذ أهانَهم الله ، ولا أُعِزُّهم إذْ أذلَّهم الله ، ولا أُدْنيهم إذ أقصاهُم الله ـ . فاتَّبعنا فى صَرْفِهم الكِتَابَ والسُّنَّة والأثَر ، ومنعنا عن المسلمين ـ بِغَلِّ أيديهم عن المباشرة ـ الأذَى والضَّرر ، ودفعْنا عن أمير المؤمنين من سُوءِ مُعاشَرتِهم ما أَلِمُوا له من الاذَىٰ مع شَرِّ مَعْشَر .

فليعتمدْ حُكْمُ هـذا المرسوم ، الذى هو بالعَدْل والإحسان مَوْسُوم ، ولْيُخَلَّدْ فى صحائف المَثُوبات لِيَسْتَقِرَّ ويَسْتمِرَّ ويَدُوم ، ولْيُشَعْ ذِكْرُه فى الممالك ، ولْيُذَعْ أمْرُه فى المسالك ، وعلىٰ حُكَّام المسلمين ـ أيدهم الله تعالىٰ ـ وقُضَاتِهم ، ومُتَصَرِّفيهم

ووُلاتِهِم ؛ أن يُوقِعُوا بمن تعدَّىٰ هـذه الحدود ، من النصارى واليهود، ويردَعُوا بسَيْف الشَّرع كلَّ جَهُولٍ من أهلِ الجُحُود، ويُحِلُّوا العذابَ بمن حمَله العُقُوقُ علىٰ حَلِّ العُقُود ، ويُذِلُّوا رِقابَ الكافرين بالإذعانِ لاَستخراج الحُقُوق وإخراج الأضغان والحُقُود .

وقد رسَمْنا بأن يُحمَلَ الأمرُ فى هذا المرْسُومِ الشريف علىٰ حُكْم ما ٱلتزم فى المرْسُومِ الشريفِ الشَّهيدىِّ الناصرىِّ المتقدّم، المكْتَتَبِ فى رَجَب سنة سبعمائة ، المتضَمِّنِ للشهادة علىٰ بَطْرَكَى النصارى اليَعاقبة ، والمَلَكِيَّة ، ورَئِيسِ اليَهُود بالتَّحريم وإيقاع الكَلِمة علىٰ من خالفَ هـذا الشَّرطَ المشروطَ والحَدَّ المَحْدود ، وأن لا يَحُلُّوا ما ٱنبرمَ من مُحْكَم العقود، فيَحِلَّ عليهم عَذابٌ غيرُ مَرْدود، واللهُ تعالىٰ يُعِينُ سلطانَ الحقِّ علىٰ ما يَرْجِعُ بنَفْع الخلْقِ ويَعُود، ويَزِينُ بصالح المؤمنين مُلْكَ الإسلام ومَمالكَ الوجود، ويُبِينُ بِبَأْسِه أعداءَ الدِّين، الذين لهم عن السبيل المُبِينِ، صُدُوفٌ وصُدُود، ويَسْلُكُ به شِرْعةَ الشَّرع الشريف ومِنْهاجَه : من إماتة البِدَع وإحياء السُّنَن وإدامة الصَّوْن وإقامة الحُدُود، ويُهْلِكُ بسَطْوته الكافرين كما هَلَك بدَعْوةِ صالحٍ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ثَمُود . والعلامةُ الشريفة أعلاه حُجَّةٌ فيه .

تم الجزء الثالث عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الرابع عشر

وأوّله الباب الرابع من المقالة التاسعة

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل